آرثر ادوارد جولدشميت (الابن)

الحزب الوطنى المصرى

(مصطفى كامل - محمد فريد)

ترجمة . فؤاد دواره

تقديم وتعليق : فتحى رضوان



الحزب الوطني المصري

مصطفى كامل - محمد فريد

تأليف

آرثر ادوارد جولد شميت (الابن)

ترجمة: فؤاد دواره

تقديم وتعليق: فتحي رضوان



١٩٨٣

تقديم الكتاب

بقلم : فتحي رضوان

الكتاب الذى أقدمه لقراء العربيـــة والمعنون « الحزب الوطنى المصرى » هو كتاب « فريد » . ووصفه بالفريد ليس من قبيل الثناء عليه ، أو الاشادة به ، بل من باب تقرير الحقيقة ، لأنه لا يوجد فى المكتبة التاريخية الحديثة ، ولا فى المكتبة الامريكية المعاصرة كتاب يشبهه . فهو كتاب علمى ، قائم على جمع الحقائق من مصادرها ومراجعها مع ذكر هذه المصادر والمراجع ، أولا بأول ، فى الموضع المناسب ، وهو فى الوقت نفسه كتاب سياسى ، لا يروى الوقائع رواية المؤرخ العالم ، حسبه أن يذكرها ، أو حسبه أن يذكرها مصحوبة بالتعليق الذى يزيد دلالتها ــ من وجهة نظر المؤلف ــ وضوحا ، بل ان المنهج الذى يتبعه فى جمع هذه الحقائق ، ثم فى تبويبها ، وتصنيفها ، ثم الاسلوب الذى يلتزمه فى التعليق والشرح ، كلاهما يخدمان أغراض المؤلف وغاياته ، التى لا تقتصر على أهداف العالم المؤرخ ، بل تتجاوزها الى تحقيق معتقداته . ووجه تفرد هذا الكتاب بين أمثاله وأشباهه ، أن مؤلفه الأستاذ آرثر جولد شميت (الابن) هو من أبناء الولايات المتحدة وهو قد تخرج من جامعة « هارفارد » التى تعتبر بحق معملا لتفريخ أساتذة السياسة النظرية ، وكبار رجال السياسة العملية .

وحصل المؤلف بهذا الكتاب، فى ابريل ١٩٦٨ ، على درجة الدكتوراه فى الفلسفة فى تاريخ ودراسات الشرق الأوسط من تلك الجامعة .

وكون المؤلف أمريكيا من أبناء الولايات المتحدة ، وكون الكتاب عن « الحزب الوطنى المصرى » مظهرين أو عنصرين من عناصر ما أصفه

« بالتفرد » ، فأهل الولايات المتحدة كانوا قليلي الاهتمام بما يجرى فى منطقتنا التى كانت تسمى البلاد العربية حينا ، والشرق العربى حينا ثانيا ، والشرق الأوسط آنا ، والشرق الأدنى تارة أخرى • فقد كان موقع الولايات المتحدة البعيد عن أوروبا وما يجرى فيها من جهة ، وكان غناها الفاحش ، ومواردها غير المتناهية ، وبروزها كقوة اقتصادية وسياسية فى النصف الغربى من الكرة الارضية ، جعل هذا النصف الشـــاسع ، مترامي الآفاق ، المليء بالخيرات والثروات •• عالما موقوفا على الولايات المتحدة تلعب فيه دور الأستاذ الرائد ، والسيد نافذ الكلمة ، والثرى السخى الذى اتقن فن خلق المال ، والاستكثار منه ، وتوزيعه بعد أن دانت له ســـبل الابتكار الآلى ، التى بلغت مرتبة السحر •

ان « مبدأ مونرو » ، الذى أعلن ، فى بداية القرن التاسع عشر ، أن أمريكا للأمريكيين تصوير حقيقى وشامل لســـياسة الولايات المتحدة فى كل جانب • فقد أصبحت تلك الولايات دنيا قائمة بذاتها ، تصـل منتجاتها الصناعية ، وحاصلاتها الزراعية ، الى أهل أوروبا ، والقارات الأخرى وكأنها آتية من كوكب آخر •

الا أن هذه العزلة لم يكن ممكنا أن تبقى ، فالقارة الأم ، قارة أوروبا ، تضخمت مشكلاتها بعد العصر الاول من عصور الاستعمار الذهبية ، الذى كان فيه الرجل الأبيض سيد القارات ، وأمير المحيطات يغزوها ويخضعها لنفوذه وســـلطانه ، وينهب مواردها ، ويتحكم فى تجارتها ، ويمنحها ما يشاء من فتات موائده الثقافة الفكرية والصناعية والزراعية • ولكن بانقضاء هذا العصر ، وتحرك الانســـان الاسمر والاسود والاصفر ، وتنافس الدول الاستعمارية بعضها مع بعض ، وتعرض مذهب الرأسمال الحر ، لأزمات تفاقمت حتى أصبحت حروبا دولية متصلة ، وانتهت بالصراع الدولى الأممى الأول سنة ١٩١٤ حتى سنة ١٩١٨ • عندما وصلت هذه الازمات الى الولايات المتحدة ، وبدت المسألة الفاصلة بين الغرب القديم والحديث أصغر من أن ترد عن أمريكا الخطر الذى وقعت فى براثنه أوروبا • وتوالت نذر هذا الخطر ، فحدث تطور فى التفكير السياسى بالولايات المتحدة عبر عنه رئيس الولايات المتحدة ودرو ولسون ابان الحرب العالمية الاولى عمليا ، بارساله فيالق من الجيش الامريكى عبرت المحيط ، ونزلت الى أوروبا لتنقذ بريطانيا وفرنســـا وحليفاتهما من أن يفتك بهما العمـــلاق الألمانى ، الذى بدأ وكأنه لن يقهر •

وزاد تورط الولايات المتحدة فى شئون العالم القديم ، لما خيل لودرو ولسون أنه قادر على أن يمنع تجدد هذه المجزرة البشرية التى عصفت بالعالم ، وكانت أول حرب عالمية . فأعلن مبادئه الاربعة عشر ، التى مثلت للعالم المثخن بالجراح ، المثقل برزايا الحرب وويلاتها ، المتطلع الى عالم جديد تسوده المحبة ، انجيلا جديدا جاء به هذه المرة مسيح من العالم الجديد . وألقت ألمانيا سلاحها فى انتظار سلم ، لا غالب فيه ولا مغلوب ، ولا انتقام يشوبه ، ولا ثأر يعكره . وصدقت الأمم المغلوبة على أمرها ، والمستعمرات التى كانت تئن تحت وطأة استعمار الغرب ، وعسفه ، وسوء حكمه ، ما أعلنه نبى السلام الامريكى من أنه سيكون من حق جميع الشعوب تقرير مصيرها .

وكانت مصر آنذاك قد فاض بها الكيل من فرط ما عانت خلال الحرب العالمية الأولى وقبلها ، فثارت ثورتها العظمى سنة ١٩١٩ بعد أربع سنوات من الأحكام العرفية البريطانية ، أرسل أثناءها زعماء الحزب الوطنى الذى أسسه مصطفى كامل سنة ١٩٠٧ الى المنافى فى الخارج والسجون والمعتقلات فى الداخل ، بعد أن أغلقت الصحف ، ومنعت الاجتماعات العامة .

وكانت بذور هذه الثورة قد ألقاها محمد فريد زعيم الحزب الوطنى المنفى فى أوربا ، وتلاميذه وأعوانه الذين تخفوا فى مصر ، والذين عانوا الأمرين فى مدن أوروبا المختلفة ، فعرفوا الجوع فى جو قارس البرودة ، كما قاسوا الوحشة والمرض .

وعلق بعض الثوار المصريين حسنى الظن أملهم على « ودرو ولسون » الذى كان بدوره أستاذا حسن الظن بالناس ، قليل التجربه السياسية ، فلما وصل الى أوروبا ، واستقبل استقبال الفاتحين ، وفرشت الارض أمامه بالورود ، وسمى « المسيح الجديد » ، ضحك عليه دهاقين السياسة الاستعمارية : لويد جورج ، وجورج كليمنصو فاقر الحماية البريطانية على مصر ، وهى النظام الذى ثار المصريون لاسقاطه ، فكانت صدمة للمصريين أفقدتهم الأمل فى أمريكا . وقد اعترف أرثر جولد شميت — مؤلف هذا الكتاب — بحدوث هذه الصدمة .

وتواصى المتحاربون بانشاء عصبة أمم وفض المشكلات بالتصالح والتفاوض . ولكن برلمان الولايات المتحدة المسمى « بالكونجرس » رفض ابرام معاهدة هذه العصبة ، وسقط ولسن ، وثقلت عليه خيبة الأمل

ولجأ الى عزله ، ثم مات كسير القلب ، حزينا ، مغلوبا على أمره . غير أنه قبل أن يسقط عن الحكم ، صدمت الولايات المتحدة الشعب العربى صدمة أخرى ، فقد اقترح « ودرو ولسون » على حليفتيه بريطانيا وفرنسا أن يرسلوا لجنة مشتركة لتحقيق موضوع انشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين طبقا لوعد بلفور ، وهو الوعد الذى أثار غضب عرب فلسطين ، والعرب بعامة وقتذاك . ولكن ما لبثت بريطانيا وفرنسا أن عدلتا عن رأيهما ، وخذلتا « ولسون » كالعادة ، فاضطر أن يبعث لجنة أمريكية لتقوم بالمهمة التى كان مفروضا أن تقوم بها اللجنة الثلاثية . وتكونت اللجنة الامريكية برياسة اثنين من كبار ساسة أمريكا الدكتور « كنج » والمستر « كرمين » ، وسافرت اللجنة الامريكية واستفتت الشعب العربى والطائفة اليهودية فى فلسطين ، وكانت طائفة ضئيلة لا تمثل أكثر من ١٠/ من سكان فلسطين . ووضعت اللجنة تقريرا رفضت فيه جميع مطالب الصهيونيين وقالت عن الصهيونية انها مذهب شاذ ، وأوصت بوقف هجرة اليهود الى فلسطين . ولكن هذا التقرير لم يلبث أن ضاع ولم يلتفت اليه أحد فى أمريكا ، بعد أن بعث آمالا كبارا فى نفوس العرب ، لكنها سرعان ما انطفأت ولم تخلف وراءها الا الحسرة والحزن .

وبهذا انتهت الصفحة الاولى من كتاب العلاقات الامريكية العربية. ومضت السنوات والولايات المتحدة مصممة على عزلتها ، حتى أعاد التاريخ نفسه ، وبرز من صفوف الشعب الالمانى « غليوم » آخر ، يحكم ألمانيا ، ولكن بضراوة أكثر ، وبتنظيم أعمق ، وبكفاءة عسكريه وسياسية أشمل .. ذلك هو الأمباشى « أدولف هتلر » ..

وأحس « روزفلت » ، رئيس الولايات المتحدة أن انجلترا وفرنسا وأوربا كلها هى خط الدفاع الأول عن بلاده ، فأخذ يعالج الكونجرس والرأى العام الامريكى ، ويحتال عليه ، ليتقبل الدخول الى الحرب الاوروبية ، حتى نجح أخيرا ، وبعد لأى ، فى أن ترسل الولايات المتحدة جيوشها للمرة الثانية الى أوروبا .. وهزمت ألمانيا وقائدها « هتلر » بعد أن دانت له أكثر أوربا .

ولكن الولايات المتحدة لم تستطع هذه المرة أن تعود الى العزلة ، أولا لأنها تبينت أن النظام الاوروبى الاستعمارى ، الذى كان لسنوات عديدة قويا ومزدهرا ، قد أصبح خاويا ، وأن الفراغ الذى سينجم عن سقوطه لا بد أن يملأ ، والا انتقلت العدوى الى الولايات المتحدة من أوربا .

ثانيا : لانه في الوقت نفسه ، خرج من أنقاض أوروبا عملاق جديد هو اتحاد الدول الاشتراكية ، الذى عرف بعد ذلك باسم الاتحاد السوفييتى ، الذى يضم دولا وولايات فى أقصى الشرق من أوروبا ، والذى يتسع لروسيا الضخمة بأراضيها الشاسعة فى كل أوروبا وآسيا • ولم يكن خروج هذا العملاق مقصورا على بروزه كقوة سياسية واقتصادية وعسكرية ضخمة وجديدة وطموحة ، بل ان الامر تجاوز هذا الحد الى كون هذه القوة الجديدة نذيرا بتحدى نظام الاقتصاد الحر ، الذى بنت على أساسه الولايات المتحدة قوتها وثروتها وازدهارها ، وهو تحد مزدوج ، اذ أن القوة السلافية الجديدة تحدت فى الوقت نفسه نظام الولايات المتحدة السياسى ، وهو نظام «الليبرالية» القائم على حرية قيام الاضراب ، وحرية الرأى المتمثلة فى انتخابات حرة وصحافة حرة •

منذ ذلك التاريخ ، والولايات المتحدة مشغولة البال بما يجرى فى أوروبا ، شرقها وغربها ، وبما يجرى فى افريقيا وآسيا ، الى جانب ما يجرى فى محيط الولايات المتحدة التقليدى ، ونعنى به نصف الكرة الغربى ، أى الامريكتين الشمالية والجنوبية ، بما حولهما من جزر صغيرة وكبيرة ، قريبة وبعيدة فى المحيطين الهادى والهندى •

ولما كانت منطقتنا التى كان يجب أن تسمى « الشرق العربى » ، هى ملتقى القارات الثلاثة : أوروبا وافريقيا وآسيا ، وكانت فى الوقت نفسه ، مجرى قناة السويس التى تصل أوروبا بآسيا ، وكانت موطن المقدسات للمسلمين والمسيحيين واليهود •• حيث تقع فيها البلاد الحجازية بمكة والمدينة ، والأرض التى بعث فيها موسى ، والتى جرى على أرضها عيسى طفلا ونبيا ، والتى بنى فيها هيكل سليمان ، وصخرة المعراج ، والمسجد الأقصى ، فقد استحقت هذه البقعة من الأرض أن تستأثر من اهتمام وانشغال بال السياسة الامريكية ، ما يساوى اهتمامها وانشغال بالها بمواقع الارض الاخرى • اذ ما من مشكلة فى العالم من أقصى الشرق الى أقصى الغرب ، ومن أقصى الشمال الى الجنوب الا لها اتصال حى عليها وانعكاس مباشر من منطقة الشرق العربى التى تحدد فيها النصر ، وتحددت الهزيمة فى الحرب العالمية الثانية عند موقع ضئيل على شاطىء مصر يسمى « العلمين » •

الا أن هذه المنطقة استأثرت بمشكلة أخرى ، شديدة الالتهاب ، ثم أزمنت ، وهى المشكلة التى سميت بمشكلة « الشرق الأوسط » ،

والتى كان يجب أن تسمى منذ البداية « مشكلة فلسطين » ، أو على الأقل يجب أن يسميها العرب كذلك ، ولا يسمونها بغير هذا الاسم ·

ولكن هذه المشكلة عرفت عند الغرب بمشكلة « الشرق الاوسط » وذلك لارتباط دول الغرب بمشكلة اليهود التى أطلق عليها اسم « اللاسامية » أى عداوة الساميين · فقد دأب الغرب على مطاردة اليهود ، والاعتداء على أفرادهم بالأذى المادى والأدبى ، واساءة الظن بهم كشعب · وقد ساعد على نمو هذه الحركة وتفاقمها ما يؤمن به المسيحيون من أن اليهود صلبوا السيد المسيح ، بعد أن ذهبوا فى تعذيبه الى أقصى درجات الوحشية · وقد أسفر هذا كله عن اعتزال يهود أوروبا مجتمعات المسيحيين ، والاحتماء بأحياء لهم سميت «بالجيتو» واصطناع لغة لهم هى لغة « اليديش » ، وهى لغة ألمانية عامية ·

ولم تخفف هذه العزلة من آلام اليهود الأوربيين ، بل زادت من توجس مسيحيى الغرب منهم والمبالغة فى كراهيتهم ، حتى أصبح من المألوف أن تقوم حملات دورية فى أكبر عواصم أوروبا تقتحم على اليهود دورهم ، وتفتك بالعشرات منهم ، وقد أطلق على هذه الحملات اسم خاص بها هو (البوجروم) ·

وقد انتهت هذه الروح المعادية لليهود ، المصحوبة باحتقارهم ، وسوء الظن فى طبيعتهم التى خلقوا بها ، أو فطروا عليها الى قيام الحزب النازى فى ألمانيا ، الذى جعل من عداوته للسامية جزءا من مذهبه ، كأن هذه العداوة انجيل نزل من السماء ·

ولكن فى نفس الوقت الذى كانت تقع فيه هذه الاضطهادات على يد مسيحيى أوربا حدث أمران غريبان غاية الغرابة ، الأول نفوذ اليهود المالى والسياسى فى كل دول الغرب ، حتى آلت اليهم مصائر السياسة والحرب فى كثير من دول أوروبا ، والأمر الثانى هو أن اليهود فى الدول العربية عاشوا فى أمن ودعة ، لم تمس لهم شعرة ، ولم تسفك من دمائهم قطرة ، ولم يجرح لهم شعور ·

ولما كانت دول الغرب فى حاجة الى مال يهود الغرب ، واستمالة سياسييهم ، وكبار رجال الاقتصاد فيهم ، فقد منحت بريطانيا ــ فى شخص وزير خارجيتها « بلفور » ــ التصريح المشهور باسم هذا الوزير فى ٢ من نوفمبر سنة ١٩١٧ الذى قالت فيه بريطانيا انها تنظر الى نشوء وطن قومى لليهود فى فلسطين نظرة عطف · فلما أسفرت الحرب العالمية عن فوز بريطانيا وحلفائها ، فقد استحث يهود بريطانيا وفرنسا

حكومات هاتين الدولتين ، لتحول وعد بلفور الى واقع ، واستجابت الحكومتان ، وانتهى الامر الى قيام دولة اسرائيل فى ١٥ من مايو سنة ١٩٤٨ بتصريح من الجمعية العامة للامم المتحدة ، ثم قامت الحروب بين العرب واسرائيل ، ودارت بينهما أربع جولات من الحروب ، الاولى فى سنة ١٩٤٨ ، والثانية فى سنة ١٩٥٦ ، والثالثة فى سنة ١٩٦٧ ، والأخيرة سنة ١٩٧٣ ·

ولما كانت بريطانيا هى زعيمة الغرب ، فقد بذلت أقصى ماتستطيع لتحمى اسرائيل ،ولتضمن لها البقاء ، فلما زالت زعامتها على الغرب ، وحلت الولايات المتحدة محلهـــا فى مقعد الزعامة واصلت ما بدأته بريطانيا · وقد زاد من هذا العطف أن كثيرا من ساسة أوروبا وأمريكا تأثروا فى قراراتهم السياسية فى هذه المرحلة بثلاثة اعتبارات :

الاول أنها طليعة الحضـــارة الغربية فى هـــذه المنطقة الحيوية عسكريا واقتصاديا ، فالقائمون على أمرها ، هم من أهل أوروبا عاشوا فيها ، وتثقفوا بثقافتها ، وآمنوا بمذاهبها ومبادئها ، ولا سيما الايمان بالاقتصاد القائم على الملكية الخاصة ، وبالسياسة القائمة على حرية الفرد ·

والاعتبار الثانى أن هذه المنطقة زادت أهميتها بعد أن ثبت أن احتياطى البترول فيها يفوق هذا الاحتياطى فى أية منطقة أخرى فى العالم ، على الأقل عند التهاب مشكلة فلسطين ، ومن الخير للغرب أن توجد دولة ، تدين بالولاء له ، وتتمتع بالانتماء اليه ·

والاعتبار الثالث أن ازدياد نفوذ الاتحاد السوفييتى الذى ورث بعض سياسة روسيا القيصرية بشأن هذه المنطقة الثمينة الغالية جعل وجود الغرب فيها أمر حياة أو موت ·

وقد أدى هذا كله الى أن وصل اهتمام الولايات المتحدة الامريكية بمنطقة الشرق العربى الى أقصى الغاية ، وأصبح من الطبيعى أن يكتب رجال السياسة والاقتصاد والاجتماع عن جوانب هذه المنطقة الكتب والبحوث والدراسات · وقد كثر فعلا هذا الانتاج الفكرى الامريكى فى شئون الساعة ، ولكن لم يقع نظرنا على كتب أو دراســـات تتناول المقدمات التاريخية التى أدت الى واقع المنطقة بعد الحرب العـــالمية الثانية · ونستطيع أن نقول ان الكتاب الذى نقدمه للقارىء لعربى ، عن الحزب الوطنى المصرى هو واحد من أوائل ذلك الطراز من الكتب · ولقد كان اختيار المؤلف تاريخ الحزب الوطنى المصرى موضوعا لكتابه

مثارا لدهشتى ، ذلك أن اتصال هذا الحزب بأحداث أيامنا قد لا يبدو واضحا ، ولكن الفاحص المتأمل يستطيع أن يكتشف بيسر كيف أن الأحداث الجارية الآن ترد الى الأحداث التى عاشها وخاض معامعها مصطفى كامل الزعيم المصرى الشاب الذى أسس الحزب الوطنى المصرى فى ٢٢ من ديسمبر سنة ١٩٠٧ ، وأن تلك الأحـــــداث هى المقدمات المباشرة للوقائع والمشكلات والأزمات الضخمة التى تهز منطقتنا هزا والتى تهز مع منطقتنا العالم كله ، حتى توشك أن تؤدى الى حرب عالمية ثالثة ما لم يتدارك ساسة العرب ، والشرق والغرب ، الامور ، وما لم يلهمهم الله الحكمة ، فلا يستسلموا لاهداف اللحظة ، حتى ينجو العالم من حرب مدمرة لن تبقى هذه المرة ـ حقا وصدقا ـ على شىء .

الحق أن المؤلف ـ آرثر جولد شميت (الابن) جدير بأن يهنأ على صراحته ، فقد نص فى السطور الاولى عن بواعثه لتأليف هذا الكتاب فقـــال :

« فى الخامس من يونية ١٩٦٧ شنت اسرئيل حربا وقائية على جيرانها العرب ، ردا على اغلاق المصريين خليج العقبة فى وجه الملاحة الاسرائيلية ، وعلى حملة الدعاية العدائية المتصاعدة فى العـالم العربى كله بقيادة القاهرة . »

ثم قال :

« .. اذا كان باستطاعة التاريخ أن يضىء الحاضر عن طريق اعادة بناء الماضى ، فان المؤرخ يستطيع أن يساعد الأجنبى على فهم الثلاثين مليون مصرى المعاصرين حين يوضح له كيف ولماذا سيطرت على عقولهم قومية معادية للغرب الى هذا الحد . »

وهذه السطور ، ليست الا نموذجا لأسلوب المؤلف ومنهجه فى الحكم على الوقائع المتصلة بالسياسة ، فهو لا يستطيع أن يتغلب على النزعة السائدة فى الغرب فيما يتعلق بشئون الشرق بعامة ، والشرق العربى بخاصة ، فهو يستعمل مثلا اصطلاح حرب « اسرائيل الوقائية » و « حملة الدعاية العدائية المتصاعدة فى العالم العربى » ، ثم هو يصف القومية المصرية بأنها « قومية معادية للغرب » وليســـت مجرد قومية ، ترد بشكل طبيعى على ما تلقاه من مواقف معادية أو ودية . ولكننا نعرف منه أن الذى قاده الى تأليف هذا الكتاب الجيد هو انشغاله باله باسرائيل ومستقبلها ، وبمشكلة ذات قيمة خاصة عنده وعند زملائه فى

الفترة التى وضع فيها كتابه . تلك هى مشكلة رفض العرب التفاوض مع اسرائيل ، وهى السياسة التى استمرت فى العالم العربى حتى سنة ١٩٧٨ .

وعلى الرغم من أن المؤلف يتورط فى أحكام خاطئة ، كلما استدعى الامر اصدار حكم سياسى على المصريين أو العرب أو الشرقيين ، وهى أخطاء فاحشة تنضح بسوء نية غير قليل ، ولكنه حينما يتناول الوقائع ويحللها ، نظفر منه بعمل جيد ، يستأهل أن يقرأه المؤرخون ، وطلبه التاريخ ، ورجال السياسة . فقد امتاز هذا العمل بأن الدراسة التى سبقته كانت جادة وطويلة وشاملة ، فالمراجع والمصادر التى أوردها المؤلف فى هوامش الكتاب كانت من الكثرة والتنوع بحيث تكاد تكون ميزة خاصة لم تتوافر لأى كتاب آخر بالعربية أو بلغة أجنبية عن نفس الموضوع أو ذات الحقبة ، فقد قرأ جميع الذى كتب عن الموضوع والعهد، باللغة العربية حتى ما قبل اصدار كتابه بقليل ، ثم رجع الى المراجع الأجنبية من كتب ومن وثائق الحكومة البريطانية ، ومراسلات وزارة الخارجية الالمانية التى وضعت الحكومة الامريكية يدها عليها عندما وصلت جيوشها الى الأراضى الالمانية سنة ١٩٤٥ ، ولهذه الوثائق أهمية خاصة فى موضوع هذا الكتاب لأن محمد فريد وعبد العزيز جاويش وتلاميذهما ، عاشوا فترة الحرب العالمية الأولى فى ألمانيا ، وكانت لهم اتصالات عديدة وطويلة بوزراء خارجيتها ووكيل هذه الوزارة والسفراء الألمان فى تركيا وسويسرا وغيرهما ، ثم جاء مؤلف الكتاب الى مصر ، وقابل عددا كبيرا من زعماء الحزب الوطنى الذين وجدهم على قيد الحياة أو أولادهم وأحفادهم ، أو اطلع على مذكراتهم . وزار مصر أكثر من مرة ، وتنفس جوها ، وعرف خصائص أهلها ، وأسلوب حياتها . وكان من حسن المصادفات أن حضر فى دار الأوبرا الاحتفال الذى أقامه الحزب الوطنى بمناسبة مضى خمسين عاما على وفاة محمد فريد وسمعنى وسمع فكرى أباظة نخطب فى هذه الذكرى ، كما سمع الشاعرين المرحومين محمود حسن اسماعيل وصالح جودت ينشدان الشعر فى هذه الذكرى وصاحبها ، وفى الختام سمع نشيد « بلادى بلادى » تؤديه فرقة الموسيقى العربية ، فكان شديد الانفعال بما رأى وسمع ، لأنه عاش سنوات يقرأ عن اجتماعات الحزب الوطنى والخطب التى تلقى فيها ، والقصائد التى تنشد على الجموع التى تؤمها ، ولكنه لم يشهد شيئا منها ، فلما حضر هذا الاجتماع خيل اليه أن الماضى بعث وأن اجتماع تلك الليلة هو اجتماع من اجتماعات الليالى الخوالى .

ومما يذكر للمؤلف أنه لم ينصب نفسه محاميا للاستعمار البريطانى شأن أكثر كتاب الولايات المتحدة الذين يتحمسون لذكر أفضال الاحتلال الانجليزى لبلادنا ويتهمون المصريين بنكران الجميل والجحود ، واعترف بالعمل العظيم الذى قام به مصطفى كامل والحزب الوطنى ، وبالأخطاء التى تورط فيها الحكم البريطانى وما قام به الاستعمار بعامة من سلب الأمم التى منيت به . وان كان ، فى الجملة، مؤمنا بنظرية الغرب القائمة على الاتهام الصريح أو الضمنى لأهل الشرق عامة بالخمول والكسل ، وضعف الاستعداد للترقى والتقدم ، وحسن التنظيم والمثابرة ، وكأنهم خلقوا هكذا ، وكأن الاستعمار الذى فرض عليهم سلطانه ، ونهب أرزاقهم ، ولم يحسن انفاق موارد بلادهم على التعليم واستنباط أسباب الثروة ، ومكافحة الأمراض والأوبئة وشق الطرق ، واقامة المدن ، وبث الثقافة والفنون ، لا يد له ، ولا ذنب فيما وصلت اليه الشعوب الشرقية من تدهور اجتماعى ، وتحلل خلقى ، وقد عبر عن هذا الرأى رئيس الولايات المتحدة تيودور روزفلت حينما زار مصر سنة ١٩١٢ ، فأقامت تصريحاته الدنيا وأقعدتها ، ونظم فى الرد عليه أمير الشعراء أحمد شوقى قصيدته البارعة التى كان مطلعها :

« أيها المنتحى بأسوان دارا ... »

وقد اجترأ المؤلف على رمى المصريين بصراحة جافية خالية من كل ذوق ، ومجافية للروح العلمى والحقائق الموضوعية حينما قال أن المصريين خاملون وسلبيون ، وقد عقبت على هذا الحكم الظالم الفاسد فى هامش الصفحة التى ورد فيها هذا القول (*) ، وهو لا يستحق أن نقف أمامه أكثر مما وقفنا . وصدوره بهذه الصراحة ينفعنا لنقف على رأى الغرب فينا ، لا لنثور ونحتد ، ولا لنرد عليهم بالسباب واللعنات بل لنقدر هذه الأحكام ، ونتصرف على ضوئها ، فيما نضع من خطط .

وأحسب أن الأوربيين والامريكيين لا يجرءون الآن على اصدار مثل هذا الحكم وأبناؤنا يعيشون بين ظهرانيهم أساتذة جامعات ، وخبراء علوم ، ومستشارى صناعة واقتصاد ، ينافسون أبناءهم ويسبقونهم ، على الرغم من أنهم طارئون على المجتمع الغربى ، وحديثو

(*) يجد القارىء تعليقات الأستاذ فتحى رضوان على متن الكتاب بعد هوامش المؤلف وبحروف أكبر مسبوقة بهذه العلامة (*)

عهد بأسـاليبة ومناهجة . والحق ان الانسـان ليعجب من أن يرمى كاتب غربى ، شعب مصر ، بالخمول والسلبية ، وقد قام شعب مصر فى خلال خمسين سنـة أو يزيد قليلا ، بـأربع أو خمس ثورات ، غيرت تاريخ العالم فى المنطقة العربية أو منطقة شرق البحر الابيض المتوسط فثورة عرابى سنة ١٨٨١ تلتهـا حركة مصطفى كامل ضد الاحتلال البريطانى ، وهى ثورة بكل معنى هذا اللفظ ، ثم ثورة سنة ١٩١٩ ، التى أذهلت الغرب ، وكان يحسب أن انتصاره على ألمانيا وحلفائها فى حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ سيخيف شعب الفلاحين الفقراء الذين يقيمون فى وادى النيل ، أعلاه بمصر ، وأدناه بالسودان . فاذا بهؤلاء الفلاحين الحفاة يخرجون عليهم بفؤوسهم ، يتحدون بنادق الأقوياء ومدافعهم . ثم كانت ثورة ١٩٣٥ ، وتوجت كل هذه الثورات بثورة سنة ١٩٥٢ التى كنست ما بقى من نفوذ الاستعمار الغربى فى ميادين العسكرية والسياسة والاقتصاد والثقافة ، وطردت فلول هذا النظام الظالم ، المعتدى ، الذى فرغ من معناه ، ان كان له معنى غير السـلب والنهب والقرصنة .

وترى المؤلف حائرا بين نظريتين ، فهو يأخذ على الحزب الوطنى حزب مصطفى كامل ، تارة أنه ليس ثوريا بالقدر الكافى الذى يمكن الحزب من قيادة الشعب الى مواجهة صريحة مع جيش الاحتلال ، ثم يعود فيأخذ على الحزب أنه يلجأ الى أساليب ثورية لتحطيم الأنظمة الدستورية التى يطمع فيها ، ويدعو اليها .

والحق أن الحزب الوطنى كان يلجأ الى الأسلوب أو الخطة التى تقتضيها الظروف ، فهو يدعو بأسلوب الاصلاح والدعوة ، حتى تكتمل أسباب الثورة ، ويتوافر جوها ، ويتهيأ الشعب ليخوض معاركها ، وعندها يلجأ الى أسلوب الثورة كما حدث فى ٣ مارس و ٣١ ابريل سنة ١٩٠٩ بمناسـبة قانون المطبوعات الذى مس حرية الصحافة وانتقصها ، كما حدث تهيؤ ثورى فى حادثة طابة حتى خيل للسلطات البريطانية أنهم على أبواب ثورة ، ولما اشتد تضييق السلطات العسكرية خلال الحرب العالمية الأولى ، فاغلقت صحف الحزب الوطنى ، ومنعت الاحتماعات العامة ، ونفى زعماء الحزب الى مالطة وغيرها ، واعتقل شباب الحزب فى الداخل ، ولم يعد يسمع الا صوت الحكومة ودعايتها وصحفها ، لم يكن ثمة مفر من اللجوء الى الأساليب الثورية ، فتوالت حوادث الاعتـداء على الوزراء المصريين الدائرين فى فلك الاسـتعمار البريطانى ، بل وعلى السلطان نفسه ، رأس هذا النظام .

وقد تورط المؤلف فى نسبة وقوع الفتنة الطائفية سنة ١٩١٠ الى الحزب الوطنى ، وحمل عبد العزيز جاويش وزر تلك الفتنة ، وقد علقنا على هذا الاتهام الكاذب فى موضعه ، وحسبى هنا أن أقول ان مصطفى كامل لم يكف قط عن الدعوة الى وحدة الأمة ، والى التصريح بأعلى الصوت ، وملء الفم ، بأن الاسلام ينفر من التعصب ، ويدعو الى وحدة الأديان السماوية ، وبذل الحب والاخاء لاتباع أهل الكتاب وان عبد العزيز نفسه ابان هذه الفتن التى انطفأت نارها سريعا ، حذر من الانسياق لمكائد الاحتلال الذى لم يكن يسره شىء مثل انقسام المصريين الى طوائف متناحرة ، وأنه لا يليق بالمصريين ، أن يمكنوا الدون جورست المندوب البريطانى مما عجز عن تحقيقه سلفه اللورد كرومر ، وقول كهذا لا يصدر عن متعصب ، وانما يصدر عن مسلم صحيح الاسلام ، ومصرى محب لبلده ووطنه بكل طوائفه وعناصره .

وقد فات المؤلف أن فضل مشاركة الأقباط فى الحياة العامة فى مصر يرجع الى الحزب الوطنى ، وأتباعه لا يزالون يعتبرون من مفاخرهم الايمان بوحدة البلاد والدعوة اليها .

وبعد ، فان المصرى ليشعر بالرضا والارتياح حينما يقرأ هذا الكتاب فتكتمل أمامه صورة كفاح وطنى ، متصل الحلقات ، مترامى الآفاق ، كان ينحت الصخر ، ليشق طريقه فى وجه قوى طاغية ، متألبة عليه ، كارهة له ، منها الأجنبى الغربى ، ومنها الأجنبى الشرقى ، ومنها دواع للتخلف موروثة ، ومنها أسباب للتأخر طارئة ، ولكنه استمسك وثابر وصبر ، حتى حرر أرضه من الغاصب الأجنبى ومن الملكية التى تحللت واستحالت فسادا صارخا ، ومن الاستعمار الغربى الثقافى الذى أقام المعاهد ليثبت فى نفوس بنين وبنات مصر ، الكره لثقافتهم ، والاحتقار للغتهم ، والبعد عن دينهم ، والتهافت على ثقافة الدخيل الغاصب والاعجاب بها والاعلاء من شأنها ، ومن الاستعمار الاقتصادى الذى استأثر بموارد بلادنا ، وحرم علينا أن نجدد ونبنى فى مجالات الصناعة والزراعة ، مستشرفا مستقبلا أعظم ، متطلعا الى النهوض برسالة الشرق العربى ، يستأنف بها دوره القديم ، ومكانته السامية ، وسعيه الرائد .

فتحى رضوان

الفصل الأول
بذور القومية المصرية

- مدخل
- الخلفية الجغرافية والتاريخية
- قيام الحركة الوطنية الأولى وفشلها
- ملاحظات عامة

مدخل

فى الخامس من يونيو ١٩٦٧ شنت اسرائيل حربا وقائية (*) على جيرانها العــرب ، ردا على اغــلاق المصريين لخليج العقبة فى وجه الملاحة الاسرائيلية ، وعلى حملة الدعاية العدائية المتصاعدة فى العالم العربى كله بقيادة القاهرة • وبينما أعلنت القوى الغربية تأييدها لحق اسرائيل فى استخدام خليج العقبة ، حاولت منع الصــــدام عن طريق الدبلوماسية الهادئة ، ثم امتنعت عن دعم كلا الجانبين عسكريا ، وخلال ساعات كانت الطائرات الاسرائيلية المقاتلة والقاذفة قد دمرت تقريبا سلاح الطيران المصرى القوى ، فى حين كانت القوات البرية تغزو ســيناء • ولم ترد الجمهورية العربية المتحدة (المصرية) أن تعلن هزيمتها أمام الاسرائيليين ، فأدعت أن طائرات أمريكية وبريطانية قد اشتركت فى الهجوم ، وقطعت علاقاتها الدبلوماسية بالولايات المتحدة • وهاجمت الجموع الغاضبة القنصليات والمكتبــات الأمريكية والبريطانية فى مدن عربية ، وأجبر جميــع رعايا الدولتين على الرحيل السريع •

ومنذ نهاية حرب الأيام الستة لم يكد يخف احساس العرب بالمرارة تجاه الغرب ، ومازال مستقبل النفوذ الغربى فى الشرق الأوسط يحيط به الغموض الشديد ، فان العرب حين تذكروا معاونة انجلترا أو فرنسا فى حملة اسرائيل سنة ١٩٥٦ لم يتراجعوا عن اتهامهــــم لانجلترا وأمريكا بالتدخل فى الحملة المماثلة سنة ١٩٦٧ ، وتعتقد الحكومات العربية أن التسوية السلمية للصراع مع اسرائيــل فكرة غربيـــة تخدم المصــــالح

(*) هكذا زعمت اسرائيل والواقع ان حروب اسرائيل جميعا كانت حروبا عدوانية هجومية •

الاستعمارية ، ومن ثم فهى تبدو الآن أبعد مما كانت فى أى وقت سابق والاعانات المالية السخية التى تقدمها الدول العربية المصدرة للبترول لمصر هى وحدها التى يمكن أن تنقذها من الانهيار الاقتصادى بعد أن حرمت من كل مصادرها للعملة الصعبة • وقد أصبح من الواضح أن القومية المعادية للغرب تمثل اليوم أهم محرك للسياسة المصرية (*) •

واذا كان باستطاعة التاريخ أن يضىء الحاضر عن طريق اعادة بناء الماضى ، فانه المؤرخ يستطيع أن يساعد الأجنبى على التوصل لفهم الثلاثين مليون مصرى المعاصرين حين يوضح له كيف ولماذا سيطرت على عقولهم قومية معادية للغرب الى هذا الحد •

لقد ظل الأجانب يحكمون مصر آلاف السنين ، فما الذى جعل قرنا من السيطرة الأوربية يحدث هذا التأكيد الشامل للذات القومية (**) ؟ ما القومية المصرية ؟ كيف نشأت (***) ؟ وما الوسائل التى أدت الى انتشارها بهذه الصورة الهائلة ؟

ان الاجابة على هذه الأسئلة لاترتبط بمصر وحدها ، ولكنها تشمل كذلك القوميات التى تشكل الآن المواقف والتصرفات السياسية للشعوب التى كانت مستعمرة فى كل أرجاء المعمورة • وان كان من الحق أن الكفاح المصرى من أجل الكرامة والاستقلال كان نموذجا لكثير من الحركات القومية الأخرى فى افريقيا والشرق الأوسط •

ان القومية قد تكون ايجابية ، تؤكد « بناء الأمة » ، أو خلق نظام

(★) ان هذا الكلام مقلوب تماما ، فالقومية اتجاه أصيل لا يقوم أساسا على معاداة الغرب ، انما يقوم أصلا على تحقيق الوحدة وهو اتجاه ايجابى من جهة ، ودائم من جهة اخرى ، فلما قاوم الغرب تحقيق الوحدة طرأت معاداة الغرب • ومع ذلك فان قيادات عدد من الدول العربية كانت موالية تماما للغرب •

(★★) المؤلف بهذا التساؤل يكشف جهله بتاريخ مصر القديم فان اقدم القوميات فى العالم هى القومية المصرية ، فقد نشأت حتى قبل توحيد القطرين البحرى والقبلى فى عهد مينا • والنقوش الموجودة على المعابد والهياكل وداخل القبور ، واوراق البردى تثبت كلها ان المصريين كانوا يحسون بوحدتهم بالوطن المصرى وعاداته وتقاليده واديانه قبل ان تولد قوميات اخرى فى الشرق والغرب بآلاف السنين •

(★★) ان غرور بعض المفكرين الغربيين يحملهم على تصور ان نفوذهم فى منطقة الشرق العربى ، هو الذى اوجد او خلق شعور العرب بالذات وهم لا يدرون ان هذه المنطقة لفظت على مر الحقب الأجانب الغزاة ، ولعل أكبر مثل يعرفه اهل الغرب هو الحروب الصليبية التى استمرت قرنين ، ثم انحسرت موجتها بفشل كامل •

من القيم يحل محل الولاء القديم للقرية ، أو الاقليم ، أو العقيدة أو القبيلة ، وهو ما يحدث الآن فى كل أرجاء آسيا وافريقيا ، مثلما حدث من قبل فى أوربا فيما بين عامى ١٧٨٩ و ١٩١٤ • على أن الجانب السلبى للقومية كثيرا ما يكون آكثر وضوحا ، وهو المتمثل فى زيادة مواقف المعارضة للسيطرة الأجنبية ، فقد نشأت القومية بشكل عام كرد فعل مضاد للتهديد الخارجي • ونشيد المارسيلييز المثير ألف فى الوقت الذى كانت فيه الجيوش الأجنبية تغزو فرنسا للقضاء على الجمهورية • واستمدت القومية الايطالية وقودها من نيران الكفاح ضد الحكمين الفرنسى والنمساوى•وكذلك القومية المصرية ، عبرت عن نفسها ، أول ما عبرت(*). سنة ١٨٧٩ ، فى شكل معارضة للرقابة المالية الأوربية وسيطرة الأتراك والجراكسة على المناصب المدنية والعسكرية فى مصر • وبعثت من جديد فى تسعينيات القرن الماضى كرد فعل مضاد للحماية الانجليزية « المقنعة »، ثم ازدهرت فى أوائل القرن العشرين فى حركة شملت الأمة كلها لطرد جيش الاحتلال البريطانى • غير أن رد الفعل لم يكن موجها ضد الحكم الأجنبى وحده ــ فالمصريون لم يعرفوا الاستقلال خلال ألفى وخمسمائة سنة (**) ــ بل كان موجها فى الوقت نفسه ضد الاضطراب الاجتماعى الناجم عن فرض أفكار ونظم أوربية ، وبخاصة تلك المستمدة من الثورة الصناعية وديمقراطية القرن التاسع عشر ، على مجتمع اسلامى زراعى محافظ •

وستصف هذه الدراسة بايجاز ، فى فصلها التمهيدى ، الحركة الوطنية المصرية الأولى ، وتحلل أسبابها ونتائجها ، وجوانب قوتها وضعفها ، وان كانت بؤرة اهتمامها ستتركز حول الحركة الثانية الممثلة

(*) العجيب ان يقول مؤرخ هذا الكلام ، فمصر عبرت عن قوميتها حينما قاومت الغزو الفرنسى فى طول مصر وعرضها حتى اقصى الصعيد ، كما عبرت عن هذه الروح فى سنة ١٨٠٣ حينما قضت فى رشيد (٣١ مارس من تلك السنة) على غزوة بريطانية بقيادة الجنرال استيوارت ومعاونة الجنرال ويكوب •

(**) هذا خطأ صريح ، فمصر كانت مستقلة تماما لفترات طويلة جدا خلال هذه الحقبة التى يقول المؤلف انها استمرت ١٥٠٠ سنة • فقد نشأت فى مصر خلال تلك الفترات دول مصرية مستقلة عن القوى الكبيرة التى كانت موجودة آنذاك ولا ينكر احد ان آخر دولة مصرية مستقلة من هذا الطراز هى دولة محمد على التى قامت على جيوش واساطيل كان قوامها جنودا مصريين وبحريين مصريين ، وصنعت اسلحتها وسفنها وذخيرتها فى مصر •

فى الحزب الوطنى (١) ، حزب مصطفى كامل (٢) ومحمد فريد . فهذه

(١) تسمية « الحزب الوطنى » باللغة العربية يمكن ترجمتها الى الانجليزية حرفيا « Patorio ic Part » ، (فكلمه وطن فى اللغة العربية الحديثة أصبحت تدل على نفس معنى الكلمة الفرنسية Patrie) او National Party (تستخدم العربية الحديثة كلمة وطنى بمعنى قومى أو أهلى فيقال : الدفاع القومى (national defense) او «البنك الأهلى national bank » والكلمة الصحيحة التى تقابل فى العربية كلمة « nationalist » هى قومى ، ولكن يبدو أن كلمة وطنى استخدمت بنفس المعنى فى نهاية القرن التاسع عشر وظل هذا المعنى شائعا حتى عهد قريب . وقد اخترت أن أسمى كلا من « الحزب الوطنى الأول » (حزب عرابى) وسميه التالى « the National Party » ، لأن هذا الاسم أقرب لوصف طبيعتيهما ومطالبهما . غير أن أيا من الحزبين لم يكن « قوميا National » بمعنى اشتماله على كافة طبقات الأمة المصرية (★) وان حاول كل منهما جذب المصريين الى العمل السياسى دفاعا عن استقلال بلادهم او لتحقيقه ، وهو من حيث التعريف نشاط قومى . وفى بعض المواضـــع حيث يخشى من اللبس سأسمى الحزب الأول « الحركة العرابية » . وهناك خلاف آخر حول مدى صحة اعتبـــار كلا الحركتين « حزبا » وهنا نشير الى مقال هام عن كلمة حزب كتبه د.ب. ماكدونالد فى « دائرة المعارف الاسلامية » (ط ١ . ليدن بريل ١٩٢٧ 322 f.

(D.B. Mac Donald, The Encyclopedia of Islam (1st ed., Leiden Brill, 1927) 322f.

وقد أغرانى صديقى وزميلى فى دراسة القومية المصرية لويس كانتورى Louis Cantori أســـتاذ مســـاعد العلوم السياسية بجامعة UCLS بكاليفورنيا ، باستخدام مصطلح « Watanist » لوصف كل من الحزب وأتباعه ، طالما كان مصطلح Nationalist كثيرا ما يستخدم للدلالة على كل المصريين المعارضين للحكم الأجنبى ، سواء أكانوا من مؤيدى الحزب الوطنى أم من غيرهم ، ورأيه مقنع ، وبخاصة بالنسبة للفترة التى تلت سنة ١٩١٩ حينما تولى الوفد قيادة كفاح مصر من أجل الاستقلال ، ولكنى نفرت مع ذلك من نحت كلمة انجليزية مبهمة المعنى بالنسبة لمن لايعرف العربية . وعلى هذا فكلما ظهرت كلمتا nationalist و nationalism فى هذه الدراســـة بحروف صغيرة يكون المقصود بها المعنى العام لا الاصطلاحى .

(٢) مصطفى كامل (١٨٧٤ ــ ١٩٠٨) : الزعيم الوطنى المصرى ، ويجب الا نخلط بينه وبين مصطفى كمال أتاتورك . وأسماء الشخصيات والأماكن العربية ، والمصطلحات الفنية ، نقلت كلها تقريبا فى هذه الدراسة بصورة حرفية وفق منهج «دائرة المعارف الاسلامية » مع تعديلات طفيفة .

(★) من الأخطاء الشائعة فى كتب الغربيين أن الحزب الوطنى الذى أسسه مصطفى كامل لم يكن يضم جميع طبقات الأمة المصرية مع أن أعضاء اللجنة الادارية الأولى للحزب الوطنى المنتخبة فى ديسمبر سنة ١٩٠٧ قد ضمت عددا من كبار الشخصيات كعمر سلطان باشا ومحمد فريد بك وبعض كبار الموظفين والأعيان كأحمد نافع باشا ، وعددا من المثقفين من أصحاب المهن الحرة كريصا واصف ، كما ضمت عددا من الموظفين السابقين من فقراء المصريين كشقيق مصطفى كامل : على فهمى كامل . وقد أثبت عدد من كبار كتاب الغرب =

الحركة هى التى نشرت فكرة القومية وغيرها من الأفكار الليبرالية بين الطبقة المتوسطة الصاعدة فى مصر • وسنوجه اهتماما خاصا لدور الحزب الوطنى فى تطور أيديولوجية الحركات السياسية الشعبية فى مصر الحديثة ، وتنظيمها ، واستراتيجيتها ، وتكتيكاتها •

= ان جريدة « اللواء » كانت صحيفة جميع المصريين ، وأنها كانت تقرأ في القرى ولتجوع • ولما حدثت فاجعة دنشواى التى ذهب ضحيتها عدد من الفلاحين الشرفاء ، استطاع الحزب الوطنى ان يكتل الشعور الشعبى تأييدا لهم وعطفا عليهم • ولما توفى مصطفى كامل فى فبراير سنة ١٩٠٨ كانت جنازته مظاهرة اشتركت فيها جميع طبقات مصر •

الخلفية الجغرافية والتاريخية

حقيقتان جغرافيتـان كان لهما أعمق الأثر فى تطور مصر • الأولى موقعها بين البحرين الأبيض والأحمر ، فى منتصف الطريق الرئيسى بين أوربا والشرق الأقصى ، وقد ظلت الاسكندرية والقاهرة والسويس زمنا طويلا مستودعات تجارية رئيسية ، ومراكز ثروة العـالم الاسلامى فى العصور الوسطى • واذا كانت تلك المدن قد تدهورت بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وازدهاره ، فانهـا مالبثت أن استعادت أهميتها بعد افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ • وأصبحت كل دولة تهتم بالسيطرة على هذا الطريق التجارى الحيوى تحرص على أن تحكم مصر ، أو على الأقل تمنع غيرها من حكمها •

والحقيقة الجوهرية الأخرى تتمثل فى أن مصر جزء من الحزام غير المطير الممتد عبر شمال افريقيا ، ولولا نهر النيل لما اسـتطاعت أن تطعم هذا الحشد الكبير من أهلها • والفيضان السنوى للنيـل ، الذى ينظمه الانسان فى قنوات ، يقدم المياه والطمى المخصب اللازمين لزراعة طعـام يكفى المزيد من السكان • وابتكار الانسان لنظام رى الحياض هو الذى جعل الزراعة ممكنة فى وادى النيل ، وقد تطلب هذا النظام ادارة مركزية قوية تشرف على توزيع المياه والأراضى وانتظام الرى • وهكذا توحدت مصر سياسيا منذ الألف الرابعة قبل الميلاد ، وضرب المثل بسهولة حكمها، وحتى عهد قريب كان باستطاعتها انتاج فائض من المحصـول الزراعى يكفى للانفاق على حضارة مادية متقدمة • ومن السـهل كذلك أن يقتحم الغزاة مصر من الخارج ، ومن ثم أمكن أن يسـتغلها الحكام المحليون والأجانب على السواء ، كما حدث بالفعل فى معظم تاريخها •

واذا كانت الحركة القومية ، فى جانب منها ، استجابة لمجموعة من القوى غير المتوازنة أثرت فى المجتمع المصرى ، فمن المناسب أن نتتبع تاريخ مصر عائدين الى عصر ساد فيه توازن اجتماعى نسبى ، قبل غزو نابليون سنة ١٧٩٨ ، فى نهاية القرن الثامن عشر كان تعداد مصر يتراوح بين مليونين وثلاثة ملايين نسمة ، أى أقل بكثير من تعدادها فى العصور الاسلامية السابقة ، وكان معظم الشعب من المسلمين السنيين ، فى حين لايزيد عدد الأقباط المسيحيين عن الخمس ، وكانت لغتهم الرئيسية هى العربية ، ومعظمهم ينحدر من المصريين القدماء ، مع مزيج عربى يرجع الى الفتح الاسلامى والهجرات البدوية التالية له · وبالاضافة الى ذلك كان هناك عنصر عربى « خالص » من البدو الرحل أو المقيمين · على أن الطبقة الحاكمة لم تكن مصرية ولا عربية (*) ، بل كانت أقلية تنحدر أساسا من سلالات تركية وجركسية ·

ومن الناحية النظرية كان يحكم مصر وال محلى يعينه الحاكم العثمانى ويسأل أمامه ، تعاونه طبقة بيروقراطية صغيرة من الأتراك · أما في الواقع ، فان ذلك الوالى كان يفتقر حتى الى مجرد حامية صغيرة ، وكان أقرب لسجين فى القاهرة ، فى حين كانت القوة الحقيقية فى أيدى طوائف بكوات المماليك المحاربين ، وهم سلالة المماليك الذين حكموا مصر قبل الغزو العثمانى سنة ١٥١٧ · ولا يستطيع الوالى ممارسة نفوذه الا عن طريق اذكاء الخلافات بين المماليك والفوز بتأييد الزعماء المحليين الأقوياء ، وقام العلماء ، أو مشايخ الاسلام ، بدور هام فى الوساطة بين الحكام والمحكومين بالاضافة الى دورهم فى الوعظ ، والتدريس ، والقضاء ، والتشريع وادارة الأوقاف (١) ، ووظائف الحكومة · وكانوا يتمتعون بمكانة ممتازة لدى الرعية أو طبقات المحكومين ، التى انبثق منها بعض العلماء لا كلهم · وكانت طبقة المحكومين تتكون من التجار والحرفيين فى

(*) ليس فى هذا شيء غريب ، فان العائلات المالكة فى اوربا الحديثة تنتسب الى اصول عرقية غير اصول الشعب الذى تحكمه ، فالعائلة المالكة الانجليزية هى فى الواقع المانية والعائلة المالكة السويدية تنحدر من القائد الفرنسى برنادوت ، والأمراء واصحاب الاقطاعيات فى كل اوروبا كان اكثرهم من غزاة جاءوا من خارج البلاد · ومع ذلك فان الحكام الذين ينتسبون الى اصول اجنبية هضمتهم مصر ، فتكلموا لغتها ، وتطبعوا بطبعها ، واستعانوا فى الحكم بأفراد من صميم اهلها كانوا هم أصحاب الحل والعقد ، وان بدا ان الحكم كله لأجانب ·

(١) الأوقاف ، جمع وقف ، وهو مؤسسة اسلامية ينفق عليها من ريع عقار مورث فى وصية لا تجيز التصرف فيه ·

المدن ، والفلاحين فى القرى ، والبدو فى الصحراء ، أو على الأقل من يمكن حملهم على دفع الضرائب منهم • وكانت مهمة تلك الطبقة هى انتاج الفائض الاقتصادى اللازم لمعاونة الامبراطورية العثمانية ، وكانت مصر وقتذاك تسهم فى ثروتها بقدر أخذ يتناقص شيئا فشيئا (١) •

وكان ينظم استغلال الطبقة الحاكمة للرعيـة قانون الالتزام ، أو ضريبة الزراعة ، وهو نظام كان الحكام يجمعون بواسطته أكبر قدر من الضرائب يستطيعون اغتصابه من الشعب ، ليدفعوا قدرا ثابتا للخزينة العثمانيـة ، ويضعوا الفرق فى جيـوبهم • وكثيرا ما كان الملتزم ، أو مؤجر الضريبة ، يصبح — من خلال تراكم الضرائب المتأخرة — مالك الأرض الفعلى ، ولكن دون رغبة أو قدرة على استغلال العقار •

كانت واجبات الحكومة المحلية مقصورة على امداد الخزانة العثمانية بالجزية ، ومواصلة الأشغال العامة ، وصـد غارات البدو • أما معظم الواجبات العامة الأخرى ، كادارة التعليم ، والرعاية الاجتماعية ، والقضاء ، فكانت تتولاها المجالس الملية ، أو الجمعيات الطائفية ، فلكل من المسلمين والمسيحيين الأرثوذكس واليهود مجلسهم الملى ، يرأسها على التوالى : شيخ الاسلام ، والبطريرك ، والحاخام ، وكل منهم مسئول بدوره أمام السلطان • ومع أن مجتمع الأقباط فى مصر كان يخضع نظـريا لبطريرك اليونان الأرثوذكس فى القسطنطينية ، فقد كان لهم فى الواقع بطريركهم الخاص بهم المقيم فى القاهرة ، ثم فى الاسكندرية فيما بعد •

---

(١) أفضل المصادر عن مصر فى القرن الثامن عشر هى :

— هـ•أ•ر• جب و هارولد باون : المجتمع الاسلامى والغرب جـ ١
H.A.R. GIBB and HAROLD BOWEN, Islamic Society and the West, I London : Oxford University Press, 1950 — 1957);

— والكتب التالية التى الفها أو أشرف على نشرها ستانفورد جـ • شو وهى :

— « مصر العثمانية فى عصر الثورة الفرنسية »
— Ottoman Egypt in the Eighteenth Century. (Cambridge : Harvard University Press, 1961).

— « مصر العثمانية فى عصر الثورة الفرنسية »
Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution. (Cambridge, Harvard University Press, 1964).

— « التنظيم المالى والادارى والتطور فى مصر العثمانية ١٥١٧ — ١٧٩٨ »
The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt 1517-1798 (Princeton, Princeton University Press, 1962).

وكان للاوربيين فى الامبراطورية العثمـــانية ـ بما فيها مصر ـ اعفاءات ومزايا قضائية خاصـــة بموجب اتفاقيـات عرفت بالامتيازات الأجنبية ، كانت تخول لقنصليات بلادهم تطبيق القوانين عليهم ٠

وكانت المدن الكبرى ـ كالقاهرة ـ مقسمة على أساس طائفى عادة الى أحياء سكنية ، يرأس كل منها شيخ ، عمله بوليسى بالدرجة الأولى ٠

وكانت الحياة المدنية والاجتماعية ـ كالحياة الاقتصادية ـ تتركز حول النقابات أو الاتحادات المهنية والدينية ، وكثيرا ما ترتبط بالطرق الصوفية ، أو أخوة مذاهب أهل الباطن ٠

أما سكان الريف فكانوا مكدســـين فى القرى تحيط بهم حقولهم المزروعة ٠ وكان محصول الزراعة فى الأغلب الأعم بقدر متطلبات القوت مع فائض هزيل يغتصبه المماليك ورجال الدين ، مســـتخدمين نفوذهم باعتبارهم ملتزمين ٠ لقد حول نظام الالتزام الفلاح الى حالة قريبة من العبودية ، ولكنه لم يجعل للملتزم أو الزارع أى مصلحة فى المحافظة على الأرض أو تحسينها ، ومن ثم لا يكاد يبقى مجال للدهشة لهجر كثير من الفلاحين مزارعهم الى القاهرة ، أو ارتدادهم للبداوة ، أو تناقص تعـداد السكان ٠

وعند نهاية القرن الثامن عشر وصل المحصول الزراعى ، وهو قوت مصر الرئيسى ، الى أدنى مستوى بلغه على مر عصور التاريخ ، نتيجة عدة عوامل متداخلة ، من نظـام الالتزام ، ومعـــارك المماليك ، وعجز الولاة العثمانيين ٠ واتخذ سخط الشعب شكل انتفاضات متتالية يقودها أعيان الأقاليم أو نقابات المدن ، فينجح بعضها ، ويفشل البعض الآخر ٠

ورغم أن تحول التجارة الأوربية الى رأس الرجاء الصالح قد أثر فى حرمان مصر من رخائها السابق ، فمن الصعب تصور حكومة أسوأ من تلك التى ابتلى بها المصريون فى نهاية القرن الثامن عشر ٠

على أن سوء الحكم الذى عانت منه مصر لم يـكن يتعارض بعنف مع نظرة سواد الشعب لمجريات الأمور ٠ فالضرورات الاقتصادية جعلت أهل وادى النيل يفضلون حكومة سيئة على لا حكومة على الاطلاق ٠ وفضلا عن ذلك فالديانة السائدة وهى الاسلام السنى (*) ، الذى بدأ بالتسليم

(*) الاسلام لا يدعو فى اى مذهب من مذاهبه ، سنية او شيعية ، الى الاذعان للحاكم الظالم ، او قبول الفساد ، او السكوت عليه ٠ انما وصل الشعب المصرى فى عهد المماليك ، الى تطورات كثيرة متوالية ، وعجز قادته ، وانعدام الزاد الثقافى الذى كان يدعم حركة المقاومة للحكام الطغاة واتباعهم الفاسدين ، وهو امر يحدث فى مرحلة ما من مراحل حياة الامم ٠

بشرعية حكم بنى أمية رغم معارضة أهل التقى ، قد شجع على الرضا التقليدى بالنظم السياسية القائمة ، مهما كانت فاسدة ، وتفضيلها على الثورات وما يترتب عليها من اضطرابات اجتماعية . كان المجتمع المصرى راكدا ، ولكنه مستقر يسيطر الاسلام عليه . ولأن المصريين كانوا فى عزلة عن أوربا ، فلم يتأثروا بالتغيرات السياسية والاقتصادية التى تمت هناك فى أواخر القرن الثامن عشر . كان أول حدث عنيف الأثر فى تاريخ مصر الحديث هو غزو نابليون سنة ١٧٩٨ ، ولم تبق القوات الفرنسية بمصر الا ثلاث سنوات ، وهى فترة غير كافية لاحداث تغييرات دائمة أو ثورية ، غير أن هذا الاحتلال كان أول تجربة لمصر مع الحكم الأوربى منذ ما قبل الفتح العربى ، قضت على الاعتقاد الشائع بتفوق المسلمين على الغرب المسيحى ، وأوضحت للقوى الأوربية أهمية مصر الاستراتيجية ، وكانت أهم آثارها الداخلية انقلابا سياسيا واجتماعيا ، أضعف المماليك وزاد من قوة العلماء (رجال الدين) .

وبفضل هذا الانقلاب أصبح الحدث الهام الثانى ممكنا ، وهو ظهور محمد على ، فى البداية أرسلته الحكومة العثمانية على رأس كتيبة ألبانية لاقرار النظام فى مصر ، فاستولى على الحكم عن طريق استخدام كل من القوى الداخلية المتنافسة واحدة أثر الأخرى ، ثم القضاء عليها بعد ذلك . فاعترف به السلطان العثمانى واليا على مصر سنة ١٨٠٥ ، وفى سنة ١٨١١ كان قد قضى على المماليك وعلى كل معارضة من جانب العلماء (١) .

وقد حظى محمد على بشهرة مبالغ فيها بعض الشىء باعتباره مؤسس مصر الحديثة وباعث القومية المصرية ، ولم يكن ذلك بسبب أهدافه وانجازاته الهائلة فحسب . بل لأن سلالته ظلت تحكم مصر حتى سنة ١٩٥٢ . وقد حاولت بعض الدراسات الحديثة توضيح أن باعثه الرئيسى كان المجد الشخصى وأن إصلاحاته الاقتصادية والعسكرية

---

(١) الروايات الانجليزية المعتمدة لوصول محمد على الى الحكم هى : هنرى دودويل :
« مؤسس مصر الحديثة ــ دراسة عن محمد على »
Henry Dodwell, «The Founder of Modern Egypt, a Study of Muhammad Ali », Cambridge, Cambridge University Press, 1931.

شفيق غربال « بدايات المسألة المصرية وظهور محمد على »
Shafik Ghorbal, "The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mehemet Ali», London Routledge, 1928.

كان هدفها تقوية نفوذه والقضاء على مراكز القوى المنافسة (١) .

وأيا كان الأمر فالذى لا شك فيه أن الاجراءات التى اتخذها قد أحدثت ثورة فى حياة مصر الاقتصادية والاجتماعية ، وقوت بعض الطبقات الموجودة وقضت على بعضها الآخر . وصاحبت مستحدثات التكنولوجيا الى مصر أفكار سياسية واجتماعية هدمت أسس النظام القديم ، كما أن مغامرات محمد على العسكرية فى الأقطار المجاورة، التى بلغت قمتها في حربه لسادته العثمانيين من أجل سوريا ، جعلت مصر مصدر ازعاج لسياسة توازن القوى الأوربية .

بدأ محمدعلى اصلاحاته بالقضاء على نظام الالتزام وفرض ملكية الدولة المباشرة لكل الأراضى غير الموقوفة ، وقيد فى الوقت نفسه استخدام الاوقاف ومنع سوء استغلالها . وبدأ يعمل فى تطوير منشآت جديدة للرى ، أهمها القناطر الخيرية وشبكة من الترع ، تسمح بالانتقال الجزئى من رى الحياض الى الرى الدائم ، ومن ثم الحصول على ثلاثة محصولات بدلا من واحد ، كما أدخل محصولات صيفية جديدة كالقطن ، والنيلة ، والدخان ، فجعل المزارع أكثر استجابة لمتطلبات السوق ، وحسن وسائل المواصلات النهرية والبرية ليزيد من حيوية الاقتصاد الجديد المندفع .

كان محمد على أول حاكم غير أوربى يفطن الى أهمية الثورة الصناعية. فحاول انشاء مصانع انتاجية تديرها الدولة ، بالاستعانة بالخبرات والمعدات والمشرفين الأوربيين ، ولاعداد القوى البشرية التى تسير نظامه الجديد أنشأ المدارس ، وبخاصة فى التخصصات الحربية والبحرية ، والطب ، والهندسة ، والترجمة . واستقدم الخبراء والمدرسين الأوربيين ، وأرسل المصريين الى أوربا ، والى فرنسا على وجه الخصوص ، ليدرسوا المواد الحربية والصناعية . وأنشئت فى عهده أول مطبعة عربية فى مصر . وتلاها نشر ترجمات عربية وتركية للمؤلفات التقنية ، وكذلك أول جريدة عربية ، وهى « الوقائع المصرية » الجريدة الرسمية للحكومة (٢) .

---

(١) راجع بصفة خاصة : هيلين آن ب. ريفلين : « سياسة محمد على الزراعية فى مصر . »

Helen B. Rivlin : « The Agricultural Policy of Muhammad Ali in Egypt », Cambridge University Press, 1961.

(٢) عن التعليم المصرى فى القرن التاسع عشر والموضوعات المشابهة ، انظر : ج . هيوارث دن : مقدمة لتاريخ التعليم فى مصر لحديثة » .

J. Hevworth-Dunne, « An Introduction to the History of Education in Modern Egypt», London, Luzac, 1938.

هذه الاصلاحات لم تكن موجهة لرفع مستوى معيشة المواطن المصرى العادى بقدر ما كانت موجهة لدعم القوة العسكرية للدوله ٠ لقد كون محمد على جيشا قويا لا يعتمد على السيطرة العثمانية ، ولا على طوائف المماليك ، بل لم يعتمد حتى على كتيبته الالبانية ٠ فقد جند الفلاحين المصريين رغم مقاومتهم ، وكون منهم قوة مقاتلة مشرفة ، فوضع بذلك ـ دون قصد منه ـ أساس مشاركة أبنائهم فى الحركه الوطنية ٠ وأصبح جيشه المنظم والمزود بالعتاد وفقا للأسس الاوربية ، أداة قوية للفتح والتمدين ٠ ولقد بلغت قوة هذا الجيش درجة استطاع معها أن يسيطر على كل ممتلكات السلطان فى آسيا ، ويهدد استقرار الامبراطورية العثمانية وميزان القوى الأوربى ٠

واختارت القوى الأوربية ـ باستثناء فرنسا ـ الحفاظ على الامبراطورية العثمانية وتوازن القوى بين دول أوربا ، فأجبرت « محمد على » على تقيء مكاسبه السورية ، ثم أصدر السلطان فرمانا منح بموجبه حكم مصر والسودان لمحمد على وورثته من بعده ، مقدما بذلك اعترافا شرعيا باستقلال مصر الذاتى القائم فعلا ٠

ورغم أن انتصارات مصر العسكرية فى عهد محمد على قد أصبحت فيما بعد مصدر فخار للوطنيين (وسندا لمطالبتهم بالسودان) فلم يكن هو نفسه يتصرف كوطنى مصرى ، فالواقع انه لم يكن يتكلم العربيه الا بصعوبة شديدة وكان هدفه الأساسى هو زيادة قوته الشخصيه ٠ وليس هناك ما يصور صدق هذه الحقيقة أكثر من مصير اصلاحاته بعد صدور الفرمان السلطانى الذى فرض تخفيض حجم جيشه الى ٣٨٫٠٠٠ مقاتل ، فسرعان ما فقد اهتمامه بالمدارس والمصانع ، فاختفى معظمها بعد وقت قصير ٠ وبتطبيق الاتفاقية الانجليزية ـ التركيه الخاصة بالتعريفة الجمركية على مصر ، انتهى احتكاره للتجارة ، وأصبح من المستحيل حماية الصناعات المصرية ـ القاصرة نسبيا ـ ضد منافساتها الأوربية ، كما لم تعد الأراضى الزراعية حكرا للدولة ، بل تحول جانب كبير منها الى مساحات من الأملاك الحرة ، وفى حالات كثيرة الى ضيعات شاسعة أهديت الى أقارب محمد على والمقربين منه ، أو لكبار الموظفين الاداريين والعسكريين ، مكونة بذلك من جديد طبقه أرستقراطية قوية من ملاك الاراضى ٠

وقام عباس الاول (١٨٤٩ ـ ١٨٥٤) أكبر أحفاد محمد على ، باتمام عمل سلفه تقريبا فى تقويض اصلاحاته السابقة ٠ غير أن

« عباس » لم يكن رجعيا خالصا ، اذ فى عهده حصلت شركة انجليزية على موافقته على انشاء أول خط حديدى فى مصر بين القاهرة والاسكندرية وقد شهد النصف الاول من القرن التاسع عشر نموا سريعا فى حجم حركة التجارة والمسافرين بين دول أوربا الصناعية وأسواقها فى آسيا ورغم أن طريق رأس الرجاء الصالح ظل ثلاثة قرون الطريق الرئيسى للتجارة فقد تجدد التفكير فى طريق أسرع وأقل تكلفة عبر البحرين الأبيض والأحمر • وفى منتصف القرن كانت الشهور الأربعة التى يستغرقها هذا الطريق قد انخفضت الى أربعين يوما باستخدام السفن النهرية وعربات المسافرين بين الاسكندرية والسويس (١) • وتنافس الخصمان الرئيسيان على النفوذ فى مصر ، وهما بريطانيا وفرنسا ، على تقديم مشروعات تحقق مزيدا من خفض وقت النقل وتكلفته • وجاء رد عباس ، مخالفا تحيز سلفه لفرنسا ، بالموافقة على خطة بريطانيا بانشاء خط سكة حديد برى ، فى حين أيد خلفه سعيد (١٨٥٤ ـ ١٨٦٣) المشروع الفرنسى ، ومنح الدبلوماسى الفرنسى فردينـــاند دى ليسبس امتياز شق قناة بحرية تصل البحر الابيض بالبحر الاحمر فأنشئت قناة السويس بتكاليف باهظة من أموال الحكومة وأرواح العمال ، لتسهم بدور ضئيل فى تنشيط الاقتصاد المصرى • فرسوم العبور فى القناة حتى حينما آلت الى مصر ، لم تكد تعوض خسارة الدخل الذى كانت تحصـــل عليه من قبل على التجـــارة البـــرية (٢) • وأهم من ذلك فقد حولت القناة مصر الى منطقة استراتيجية لا يمكن أن تسمح أى دولة قوية بوقوعها فى يد أى عدو محتمل •

وباستثناء محمد على نفســه ، لم يؤثر أى عضـــو من أسرته فى مصر بأعمق مما أثر حفيده اسماعيل الذى خلف سعيدا سنة ١٨٦٣ • فبالاضافة الى متابعته مشروع قناة السويس حتى اتمامه ، آخذ اسماعيل على عاتقه تشييد العديد من المنشئات العامـــة (٣) ، وأضـــفى الطابع

(١) أ٠ا٠ كروتشلى « التطور الاقتصادى فى مصر الحديثة »
A E. Crouchley : « The Economic Development of Modern Egypt », London, Longmans Green, 1928, p. 83.

هـ٠ل٠ هوسكنس : « الطرق البريطانية الى الهند »
H. L. Hoskins : «British Routs to India». London Longmans, 1928, p. 236 f.

(٢) ثيردور روذشتين : « خراب مصر » •
Theodore Rothstien : « Egypt's Ruin », London, Field, 1910, p. 43.

(٣) تشمل ٤٣٠ جسرا (كوبرى) ، ٩١٠ أميال من خطوط السكة الحديد ، ٨٤٠٠ ميلا من الترع والقنوات ، ٦٤ مصنعا للسكر • (Ibid, p. 116 f.)

الاوربى على أقسام كبيرة من القاهرة والاسكندرية بتكاليف باهظة ٠ واستطاع فى البداية تمويل خططه المسرفة عن طريق رفع ضريبة الدخل بصورة مفاجئة ٠ وكان ذلك ممكنا نتيجة زيادة الحاصلات الزراعيه ، وحجم الصادرات ، وسعر القطن طويل التيلة ٠ وخلال الحرب الأهلية الامريكية حرمت مصانع النسيج فى أوربا من مددها المعتاد من القطن فدفع منتجو النسيج أسعارا مرتفعة لكل القطن الذى استطاعت مصر انتاجه (١) ٠

ولكى يحصل اسماعيل على موارد اضافية واصل الاجراء الذى بدأه سعيد باستدانة الاموال من المصارف الاوربية ٠ وطوال فترة رواج القطن ظلت ديون الحكومة المصرية فى حدود معقولة ، فلما انتهت الحرب وعادت واردات قطن الجنوب الامريكى الى عهدها السابق كان لا بد أن ينخفض طلب أوربا للقطن المصرى ، ومن ثم هبطت ضريبـــة الدخل فى مصر ، ووجد اسماعيل نفسه مضطرا الى البحث عن قروض أكبر بشروط أسوأ ، لكى يستطيع مواصلة خططه فى التوسع الاقتصادى ودفع أقساط ديونه السابقة ٠ وخلال فترة حكمه التى امتدت ست عشرة سنة ارتفعت ديون الحكومة المصرية من ثلاثة ملايين جنيه الى ثلاثة وتسعين مليونا ٠ (٢)

وسخا اسماعيل بقدر اضافى من ايراد الدولة على شبكة المدارس المصرية المتزايدة من ابتدائية وثانوية ، وقد أنشـــئت وفقـا للنموذج الفرنسى فى التنظيم والمناهج ٠ وفى عهده بدأت مطبعة الجريدة اليوميه وهى منشأة شبه تعليمية ، فى القيام بدورها ، فانتظمت الجريدة الرسمية « الوقائع المصرية » فى الصـــدور ٠ وأعان اســماعيل أول جريدة أهلية ، وهى « وادى النيل » التى بدأ صدورها سنة ١٨٦٦ ٠ وتلتها صحف أخرى أهلية على صلة بالحكومة ٠٠ وفى البداية كانت الصحف المستقلة اما بعيدة عن السياسة أو مؤيدة لاسماعيل ، ولكن

---

(١) ذكر كروتشلى .Crouchley, p. 63 ان انتاج سنة ١٨٦٠ كان حوالى ٥٠٠,٠٠٠ قنطار بسعر ١٢ ريالا للقنطار فزاد سنة ١٨٦٥ الى مليونى قنطار بسعر ٤٥ ريالا للقنطار (القنطار يزن مائة رطل تقريبا ، والريال يساوى دولارا)

(٢) روى دافيد س٠ لاندز قصة ورطة اسماعيل المالية فى كتابه « بنوك وباشوات » David S. Landes : « Bankers and Pashes », Cambridge, Harvard University Press, 1958.

والكتاب ترجمه الى العربية د٠ عبد العظيم انيس ونشرته دار المعارف سنة ١٩٦٦

قرب نهاية حكمه ظهرت عدة صحف ، وسمح لها بالاستمرار ، رغم أنها دابت على نقد نظام حكمه والدعوة الى آراء وطنية (١) .

ومن الممكن رواية قصة مشابهة عن انجـــاز آخر من انجازات اسماعيل ، وهو أول مجلس نيابى فى مصر . فقد دعاه الى الانعقاد سنة ١٨٦٦ ليحصل منه على تأييد محلى على ضرائب جديدة فرضها تدهور دخل الحكومة نتيجة لانهيار رواج القطن . وكان مقصودا به أن يكون مجلسا استشاريا لا تشريعيا ، غير أن أعضاءه ، ومعظمهم من أبناء الارستقراطية الريفية ، بدأوا يستشعرون مع الوقت أهميتهم وقدرتهم على المنـــاوأة فما جاءت ســنة ١٨٧٧ و ١٨٧٨ ، حتى كانوا هم الآخرون . كالصحافة ينقدون بحرية سياسات اسماعيل (٢) .

وكذلك أثرت قوة الاقتباس عن أوربا فى جهاز العدالة فى مصر . فبسبب ازدياد عــدد الأجانب المقيمين فى مصر ، وعدم كفاءة محــاكم القنصليات أنشئت المحاكم المختلطة سنة ١٨٧٥ . وترتب على ذلك مباشرة عدم الاهتمام باصلاح نظام القضاء المصرى ، وكان لا يزال أقرب للطائفية منه للعلمانية . وعلى المدى البعيد كانت المحاكم المختلطة هى النموذج الذى احتذى فى تطوير القضاء المصرى ، فكان المحامون هم الذين سيطروا على الجيل الثانى من الوطنيين المصريين . واشتركت المدارس الحكومية مع الصحافة ومجلس الشورى والمحاكم المختلطة فى وضع الأسس التى ساعدت على ازدياد الاهتمام الشعبى بالسياسة ، ومن ثم قيام الحركة الوطنية المصرية .

لقد أصبحت مصر دولة قبل أن تصـــبح أمة (*) . فقد تابع

---

(١) عن التطور المبكر للصحافة المصرية : انظر : كمال الدين جلال : نشأة الصحافة اليومية وتطورها فى مصر

Kamal Eldin Galal : " Entstehung und Entwicklung der Tagespresse in Agypten », Frankfurt, Main, Verlag Moritz Diesterweg, 1939.

(٢) عن بدايات المؤسسات النيابية فى مصر انظر جيكوب م. لاندو :

« البرلمانات والأحزاب فى مصر »

Jacob M. Landau : «Parliaments and Parties in Egypt», Tel Aviv, Israel Oriental Society, 1953, pp. 7-22.

ومن أجل وجهة نظر مصرية انظر : أحمد عبد الرحيم مصطفى :

« ثورتنا الديمقراطية » ، الهلال ، المجلد ٧٣ ، العدد ٦ ، يوليو ١٩٦٥

(*) المؤلف حريص على أن يكرر هذا الهراء الذى يتحدى كل الحقائق العلمية الثابتة فى كتب اســـاتذة الأوربيين والأمريكيين الذين يقرون أن مصر هى أقــدم الأمم وأقدم القوميات بالمعايير الحديثة للكلمة .

اسماعيل سياسة جده فى التوسع الاقليمى ، وأرسل بعثات عسكريه الى أعالى النيل وعلى امتداد ساحل البحر الأحمر • فتطلب ذلك بالضرورة زيادة فى حجم الجيش ، ترتب عليها قيام طبقة قوية من الضباط ذات مصالح أخذت فى التزايد •

ونتيجة لحرص اسماعيل على مكانته الدولية ، فقد زاد من استقلاله عن استانبول بشراء لقب « الخديو » (١) سنة ١٨٦٦ ، وحق تغيير نظام تولى العرش بحيث يرثه أكبر الأبناء (*) ، ثم حصل على الموافقة العثمانية على التحرر من القيود الموضوعة على زيادة حجم جيشه ، وحقه فى عقد القروض الاجنبية وابرام الاتفاقيات التجارية فى مقابل زيادة الجزية السنوية •

ولقد احتاجت جهود اسماعيل للارتفاع بمكانته ومكانة بلاده الى ايرادات حكومية تفوق بكثير ما يستطيع اقتصاد مصر الزراعى أن يقدمه • ورغم أن ايرادات الدولة تضاعفت خمس مرات فيما بين ١٨٦١ و ١٨٧٥ ، فقد ظل دين مصر العام للدائنين الأجانب فى زيادة مستمرة ، وأصبحت فوائد الدين تمثل عبئا متزايدا • وبذلت الجهود لابعاد الذئب عن الدار بالالحاح فى الحصول على قروض ممتازة من ملاك الأراضى مقابل الضرائب التى ستستحق عليهم مستقبلا ، وتلا ذلك بيع أسهم مصر فى شركة قناة السويس لبريطانيا نظير أربعة ملايين جنيه •

غير أن ذلك كله لم يكن سوى مسكنات (٢) • وفى النهاية عجز اسماعيل عن دفع فوائد دائنيه الأجانب ، واضطر الى الموافقة سنة ١٨٧٦ على تعيين لجنة ثنائية أنجلو ـ فرنسية للرقابة المالية للاشراف على جمع ايرادت الدولة وانفاقها • وفى سنة ١٨٧٨ دعمت الرقابة الثنائية بتعيين « وزارة أوربية » رئيسها من أصل أجنبى ، وهو نوبار باشا الأرمينى ، وبين أعضائها انجليزى تولى وزارة المالية ، وفرنسى

---

(١) الخديو : كلمة فارسية معناها « السيد » •

(٢) اللورد كرومر : « مصر الحديثة »

Earl of Cromer : « Modern Egypt », London Macmillan, 1908, pp. 61-63,

(*) كان نظام العرش قبل ذلك يقضى بأن يرث الحاكم القائم على رأس الدولة ، عند وفاته أو عزله ، أكبر أفراد اسرة محمد على الذكور ، وهو نفس النظام السارى فى تركيا •

بوزارة الاشغال العمومية • وقد وافق اسماعيل على تكوين هذه الوزارة الأوربية بسبب سوء الأحوال المالية فى مصر ، ولكنه لم يستطع قبول اعتداءهم على سلطاته كخديو ، فبدأ يحرص سرا على قيام معارضة محلية لنوبار والوزراء الأوربيين ، مثيرا نمو الوطنية المصرية ومستغلا لها •

وقيام الحركة الوطنية المصرية يفهم بأكبر قدر من الوضوح من خـلال التغيرات التى طرأت على البنـــاء الطبقى فى مصر خلال القرن التاسع عشر • ومن المؤكد أن طبقات مصر الاجتماعية والاقتصادية لم تكن قط أقساما مغلقة تمنع أى تسلل • فكثير من الافراد والعائلات يمكن تصنيفها فى عدة مجموعات مختلفة فى وقت واحد • فقد تميز البناء الطبقى دائما بقدر غير قليل من المرونة • ورغم ذلك فينبغى أن يكون واضحا أن التغيرات السياسية والاقتصادية خلال القرن التاسع عشر قد أسفرت عن اختفاء بعض الطبقات أو تدهورها وصعود بعضها الآخر ، فساعدت الحاجة الى قيام توازن جديد على النمو المتزايد دائما للمشاركة العامة فى العمل السياسى •

فخلال الاحتلال الفرنسى ضعف العنصران الأســاسيان اللذان تتكون منهما الطبقة الحاكمة ، وهما الموظفون العثمــانيون وبكوات المماليك ، ثم قضى عليهما محمد على بالفعل ، واستوعب البقية الباقية منهما فى جهازه البيروقراطى ، أى الطبقة الحاكمة الجديدة ، وكانت تشمل بعض المصريين الأصلاء ، وكثيرا من المســلمين الأجانب : أتراك وألبانيين وسوريين وعرب ومغاربة •

كان المدنيون فى عهد محمد على يديرون الأراضى الزراعية والانتاج الصناعى والتجارة التى احتكرتها الدولة ، وازداد نفوذ العسكريين ومكانتهم الرفيعة ، وكانت الغالبية العظمى من الضــباط من الألبان والأتراك والجراكسة ، ولم يسمح بدخول المصريين فى هيئة الضباط الا فى عهد سعيد ، ثم ما لبثوا أن أبعدوا حين عاد اسماعيل الى تفضيل العناصر الأجنبية • وأصبحت الطبقة الحاكمة الجديدة ، وضباط الجيش بخاصة ، قوة تمدين هامة عن طريق احتكاكهم الوثيق بالتقنية والأفكار الأوربية •

أما طبقة رجال الدين الاسلامى ، أو العلماء ، فقد ظلت أقدارهم فى ازدياد طالما أمكن استخدامهم كقوة مقابلة للمماليك ، ولكن نفوذهم تدهور حين بدأوا يقاومون الاتجاه الى ادخال الأساليب الأوربية فى

التعليم والادارة · أما من استطاع منهم التأقلم بالتغييرات الجارية ، كالشيخ رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٣) ، فقد قاموا بدور بارز فى الكيان السياسى الجديد ، فى حين انسحبت الغالبية الى نوع من المقاومة الخفية والسلبية السياسية ·

وظل نظام النقابات التجارية والحرفية يسـيطر على الحياة الاقتصادية فى مدن مصر ، موفرا للتجـار والحرفيين الحمـاية الاقتصادية والرابطة الاجتماعية ، ولكنه مال الى معارضة التجديدات التقنية · وكان نظام محمد على القائم على احتكـار الدولة للتجـارة والمصانع قد أضعف من نفوذ النقابات وأهمية أعضائها ، كما ساعد على تخريبها بنفس القدر تدفق المنتجات الأوربية الرخيصة بعد سنة ١٨٤١ ومنافسة التجار السوريين ، والأرمن ، واليونانيين ، واليهود الذين يستخدمون أساليب أحدث وأكفأ ، بالاضـافة الى تغير أشـكال الاستهلاك ، وبخاصة بين أثرياء المصريين والمتعلمين منهم · ولم تستطع نقابات الحرفيين التطور لمواجهة هذه التغيرات ، بل اكتفت بتوجيه اللوم من أجلها لمنافسيهم من الأوربيين والشرقيين · ولا بد أن تدهور النقابات والجمعيات المستقلة ، كالطرق الصوفية ، قد أدى الى ظهـور قدر مخفف من الاضطراب فى مجتمع المدينة شـبيه بذلك الذى أثر على البروليتاريا فى أوربا ، ومن المحتمل أن هذا الاضطراب قد أسـفر عن تكوين بعض الحركات السياسية الشعبية (١) ·

أما فى الريف فقد ظهرت طبقة ريفية ممتازة من رؤساء القرى أو العمد كنتيجة مباشرة لالغاء محمد على لنظام الالتزام · وقامت تلك الطبقة بدور الوسيط بين البيروقراطية والفلاحين ، وكان نفوذها يزداد كلما احتاجت الحكومة الى معاونة محلية فى الاشراف على استغلال الأراضى ، أو جمع الضرائب ، أو حفظ الأمن ، أو تجنيد الفلاحين فى الأشغال العامة أو الخدمة العسكرية · وفى صعيد مصر كان العمد مسئولين أيضا عن اعادة توزيع الأراضى بعد انحسار فيضان النيل ·

وظل العمد أقوياء طوال حكم محمد على ، وحاول سعيد السيطرة عليهم بتعيين أبنائهم ضباطا فى الجيش ، فمهد بذلك - دون أن يدرى -

---

(١) كتب جابرييل باير تاريخا للنقابات فى القرن التاسع عشر فى كتابه « النقابات المصرية فى العصر الحديث »

Gabriel Baer : « The Egyptian Guilds in Modern Times », Jerusalem, Israel Oriental Society, 1964,

للحركة الوطنية الأولى . وبلغ نفوذ العمد قمته فى عهد اسماعيل . ومما هو جدير بالملاحظة أن عدد أعيان القرى أو الاقاليم فى المجلس التشريعى كان يتراوح بين ٥٨ و ٦٤ عضـــوا من بين ٧٥ هم كل أعضائه (١) .

والواقع أن الفلاحين هم غالبية أهل مصر . وقد ازداد عددهم من مليونين سنه ١٧٩٨ الى ستة ملايين سنة ١٨٧٦ . ويرجع جانب كبير من هذه الزيادة الى الحاجة المتزايدة الى عمل الفلاح فى زراعة القطن وغيره من المحاصيل الجديدة . ومن الصعب القول بأن مستوى معيشتهم قد تحسن خلال تلك الفترة ، ولكن الذى لا شـــك فيه أنهم أفادوا من تحسن النقل والمواصلات ومشروعات الرى الجـــديدة ، وأمنوا على أنفسهم أكثر من غارات البدو . ومن ناحية أخرى فان زيادة التخصص فى المحاصيل المبيعة نقدا جعل الفلاحين يعتمدون على أسعار السلعة المتقلبة فى الســـوق العالمية ، وارتبط الطلب المتغير بالعـــرض الثابت .

وكان الفلاحون يجندون بأعـــداد متزايدة ولفترات أطـــول فى الخدمة العسكرية والأشغال العامة (والخاصة أحيانا) ، وأصبحوا ضحايا عصابة كبيرة من مفتشى الحكومة ، والعمد ، والتجار ، ومقرضى الأموال . وعانوا بالقدر نفسه من طيشهم الاقتصادى ، المتمثل فى الاسراف فى الأعياد الدينية وطقوس الحج ، والمبالغة فى تقدير قيمه الارض باعتبارها مظهرا للثراء ، والميل الى اقتراض مبالغ أكبر من قدرتهم على السداد . وتدخلت عوامل أخرى لتعوق نمو طبقة الملاك الفلاحين ، منها تفتيت حيـــازات الأرض نتيجة لتطبيق قانون الوراثة الاسلامى (٢) . وبيع الأرض أو رهنها لســـداد الديون ، وميل الحكام ــ واسماعيل بصفة خاصة ــ الى مصادرة الأراضى التى تعجبهم .

وفى أواخر ستينيات القرن الماضى وسبعينياته أدى هبوط أسعار القطن واقترانه بازدياد أساليب النهب فى جمع الضرائب الى مزيد من

---

(١) كتب جابرييل باير أيضا دراسة قصيرة أن طبقة العمد عنوانها « شيخ القرية فى مصر الحديثة » ضمنها كتابه « دراسات فى التاريخ والحضارة الاسلامية »

Gabriel Boer : « The Village Sheikh in Modern Egypt », in « Studies in Islamic History and Civilization» (Uriel Heyd, ed. Jerusalem. Hebrew University, 1961) pp. 121-153.

(٢) يحدد القرآن الكريم أنصبة متساوية من التركة للأبناء الذكور ، ونصفها للاناث

بؤس الفلاح وسخطه ، فصبه ـ بشكل غير علنى فى الأغلب ـ على اسماعيل وملاك الأراضى ومحصلى الضرائب ومقرضى الاموال ٠

ويبقى الاوربيون الذين توارث المسلمون النظر اليهم بعدوان وشك ٠ فى نهاية القرن الثامن عشر كان عددهم بضع مئات قليلة ، غالبيتهم من تجار المدن ، واقامتهم محصورة فى أحياء بعينها ، ويخضعون لقيود مهينة ٠ ومع بداية القرن التاسع عشر تزايد عددهم ونفوذهم وتحسنت مكانتهم ٠ فقد أثبت الاحتلال الفرنسى واصلاحات محمد على تفوق الغرب فى النواحى العسكرية والتقنية ٠ وأصبح حكام مصر راغبين فى السخاء على الأجانب ليتعلموا أسرار نجاحهم ٠واستمر عدد الأوربيين فى التزايد من ـ ٣٠٠٠ سنة ١٨٣٦ الى ٦٨ر٦٥٣ سنة ١٨٧٨(١) ـ نتيجـــة لتوافر الفرص الاقتصـــادية أمام الأجانب فى مصر خلال حكم سـعيد واسماعيل ، ولحماية الامتيازات الأجنبية التى استثنت معظم الأوربيين من الخضـوع للقانون المصرى ، بل من دفع الضرائب أيضا ٠ فسيطر الأجانب على الشئون المالية الكبيرة (والصغيرة أيضا) وعلى تجارة الجملة الضخمة ، والحرف الدقيقة ، والمهن ٠وتركز غالبيه الأجانب فى الأحياء الجديدة بالقاهرة والاســكندرية ، أو فى المدينتين الجديدتين اللتين أوجدتهما قناة السويس، وهما بورسعيد والاسماعيلية ولكن حتى ســكان القرى الصـغيرة فى الدلتا أصـبح لديهم بقالون ومرابون من اليونان ٠

فى الماضى كان الأوربى معزولا مقهورا ، فأصبح الآن قويا يتمتع بمكانة خاصة وينتشر فى كل مكان ٠ يقوم منزله فى أكبر الشوارع ، ويحاول شباب مصر وأثرياؤها أن يجاروا أســاليبه فى الاســتهلاك ، وكثيرا ما تتصــدر كنيسته الميدان الرئيسى فى المدينة ٠ كان التغير أوضح من ألا يلفت الأنظار ٠

---

(١) ـ Heyworth-Dunne, p. 343.

قيام الحركة الوطنية الأولى وفشلها

ينبغى أن ننظر الى القومية المصرية فى القرن التاسع عشر ، كغيرها من القوميات الحديثة السابقة لها واللاحقة عليها ، باعتبارها ثمرة الادراك الواعى ل « نحن » المصريين فى مقابل « هم » الأجانب ، الذين يمثلون قوة خارجية أو جماعة أو قوى تمارس أو تهدد بفرض سيطرة سياسية ، أو اقتصادية ، أو ثقافية ، فتعبر القومية عن نفسها بتنمية روح المعارضة المؤدية الى تنظيم المقاومة للقوة الخارجية دفاعا عن المجتمع المحلى ومصالحه وقيمه ، وقد نمت هذه الروح المعارضة فى مصر فى سبعينيات القرن الماضى نتيجة للتغييرات التى سبق تلخيصها ، وكان نموها بين جماعات معينة ضد ثلاثة أعداء مختلفين :

١ ـ الأوربيون ، وكانوا من قبل موضع ازدراء فأصبحوا الآن مصدر خوف باعتبارهم حماية دول قوية طامعة ، ويتمتعون بمزايا اقتصادية ومكانة اجتماعية مرموقة ٠

٢ ـ النخبة القديمة من الأتراك والجراكسة الذين ميزهم اسماعيل على أهل مصر الأصليين ، وبصفة خاصة فى الجيش ٠

٣ ـ الخديو اسماعيل نفسه ، وكان تركيا أكثر منه مصريا ، وقد أثار السخط بسبب تصرفاته الاستبدادية ، وسوء ادارته لمالية الدولة وغير ذلك من الأمور ٠ والواقع أن متاعبه المالية هى التى فتحت الباب للتدخل الأجنبى ٠

وكان لظهور الوطنية المصرية لأول مرة فى سبعينيات القرن الماضى أسباب عديدة ، أوضحها ازدياد تدخل الأوربيين فى شئون مصر

الاقتصادية والسياسية ، وتمثل عامل آخر فى نمو طبقة ممتازة من المصريين الأصلاء (والمتمصرين فى حالات كثيرة) تتكون من ملاك الأراضى ، وموظفى الحكومة ، والمهنيين ، ممن تعلموا فى أوربا أو فى مدارس مصرية على النسق الغربى (١) . وبالاضافة الى ذلك فان جمال الدين الافغانى (١٨٣٨ ــ ١٨٩٧) ، ذلك المصلح الجرىء المتجول ، عاش فى القاهرة فيما بين عامى ١٨٧١ و ١٨٧٩ ، وعلم فيها بجوار مسجد الأزهر وجامعته ، والتف حوله عدد كبير من التلاميذ ، مالبثوا أن شاركوا فى الحركة الوطنية الأولى ، من بينهم شيوخ كمحمد عبده (١٨٤٩ــ١٩٠٥) وعبد الكريم سلمان (١٨٤٩ ــ ١٩١٨) ، وصحفيين كعبد الله النديم (١٨٤٥ ــ ١٨٩٦) وأديب اسحاق (١٨٥٦ ــ ١٨٨٥) ويعقوب صنوع (١٨٣٩ ــ ١٩١٢) ، وزعيم من أبرز أعضاء المجلس النيابى وهو عبد السلام المويلحى وعلى الرغم من أن الأفغانى لم يكن من دعاة الوطنية فقد أثار فى مصر استجابة وطنية بدعوته للاصلاح الداخلى وقيام المسلمين جميعا بالكفاح المسلح ضد خطر الاستعمار الأوربى (٢) .

وتمثل محرك آخر للوطنية فى السخط الذى أثارته الأزمة الاقتصادية وكان ذلك السخط محصلة مركبة لسوء المحاصيل (انخفض

---

(١) لابراهيم أبو لغد تحليل يثير التأمل عن مقدمات الحركة الوطنية المصرية الأولى، نشره فى مجلة « الشرق الأوسط » ، المجلد ٢١ ، العدد ٣ (صيف ١٩٦٧)

Ibrahim Abu Lughd : « The Transformation of the Fgyptian Elite », Prelude to the Urabi Revolt» Middle East Journal, XXI 3 (Summer 1967). pp. 325-344.

ويذهب فيه الى أنه فى سبعينيات القرن الماضى كانت قد ظهرت بالفعل قلة ممتازة من العرب بدأت تحل محل الطبقة الحاكمة القديمة التى كانت مكونة من الأتراك والجراكسة .

(٢) عن حياة جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ ــ ١٨٩٧) وتعاليمه أنظر : ادوارد ج . براون : « الثورة الفارسية ١٩٠٥ ــ ١٩٠٩ »

Edward G. Prown : « The Persian Revolution of 1905 1909 », Cambridge, Cambridge University Press, 1910.

، نيكى كيدى : « الدين الثورة فى ايران : احتجاج الطباق ١٨٩١ ــ ١٨٩٢ »

Nikki Keddie : « Religion and Rebellion in Iran : The Tobacco Protest of 1891-92 », London, Cass, 1966.

، ايلى قدروى « الأفغانى وعبده : مقال فى الشك الدينى والنشاط السياسى فى الاسلام الحديث »

Elie Kedourie : «Afgani and Abduh : an Essay on Religious Unbelief and Political Activism in Modern Islam», London, Cass, 1966.

فيضان النيل سنة ١٨٧٧ بشكل غير عادى) وتزايد عبء الضريبة الثقيلة، التى تحمل نصيبا منها بلا مبرر أفقر المصريين وأكثرهم بؤسا ، وكذلك استمرار تدهور موقف المصريين فى التجارة والانتاج الصناعى بالقياس الى منافسة الشرقيين والأوربيين ٠

وأخيرا ، وجد سخط عسكرى متزايد ، وبخاصة سنة ١٨٧٨ ، بعد انتهاء حملة اسماعيل الفاشلة فى الحبشة والحرب الروسية التركية ٠ فعانت الروح المعنوية من تلك البطالة المفاجئة التى قضت على كل فرصة للترقية ونيل الاوسمة ٠ وتركزت فرق الجيش بالقاهرة ، وزاد من السخط تخفيض الرواتب ، والتأخر فى صرفها بسبب الأزمة المالية التى عانتها الحكومة ، ومحاباة اسماعيل الصارخة للضباط الأتراك والجراكسة ٠

وكانت قيادة العناصر الساخطة تنتمى لنفس طبقات المجتمع المصرى التى أفادت أكثر من غيرها من التغييرات التى حدثت فى أوائل القرن التاسع عشر ومنتصفه ، وهم ضباط الجيش المصريون ورؤساء القرى (العمد) وطبقة ملاك الأراضى الجدد ٠ وكونت الجماعات المحرومة ، كتجار المدن وحرفييها ، طلائع الحركة الوطنية لا قياداتها ، اذ ظهر القادة المدنيون بفضل نشاطهم داخل المؤسسات التى كانت تتطلب استجابة حاذقة للتغير السياسى ٠

من هذه المؤسسات مجلس شورى القوانين الذى أنشأه اسماعيل ، فقد خرج زعماء سياسيين من أمثال : عبد السلام المويلحى وحسن موسى العقاد ومحمد سلطان ٠ فى البداية كانت تلك المجموعة من أعيان الأقاليم تخضع لمصالح صانعها ، ثم ما لبثت ، مع تدهور أحوال البلاد الاقتصادية وزيادة نفوذ الرقابة المالية الأجنبية ، أن وضح ميلها للنقد ، ثم أخذت تطالب ، لا الخديو ولا لجنة الرقابة المالية الثنائية التى تمثل المصالح المالية الأوربية ، بل نفسها بسلطات تنفيذية ، وأكثر من ذلك رفضت فى مارس سنة ١٨٧٩ قرارات اسماعيل بحلها ، وأصرت على حقها فى مراجعة سياسة الحكومة المالية (١) ٠

وكانت الصحافة الدورية من بين المؤسسات التى رعت نمو الحركة الوطنية المصرية ٠ ففى أواخر سبعينيات القرن الماضى تزايد عدد الصحف

---

(١) Landau : p. 24f Rothstein : pp. 81-85.

اليومية الأهلية التى كانت تصــدر فى مصر بصــورة ملحوظة (١) ٠
وقدم تلاميذ جمال الدين الأفغانى ، كالنــديم واســحاق ويعقوب صنوع
(أبو نضارة) ، فى الصحافة المصرية نماذج من الهجو السياسى والتشهير
الوطنى الموجه ضد الخديو ووزرائه والأوربيين الذين تضخم نفوذهم (٢)٠

وكان بين الوطنيين كذلك عدد من المعلمين والمثقفين ، كمحمد عبده
وحسين المرصفى (المتوفى سنة ١٨٨٩) ممن ارتبطوا بالمدارس الحديثة
او بالعناصر الاصلاحية فى اطار المدارس التقليدية (٣) ٠ وكان بينهم عديد
من الأطباء (٤) ، ولكن لم يكن بينهم محامون ، لأن الاشتغال بالمحاماة
فى مصر لم يكن قد تجاوز بداية تطوره بعد ٠

واتخذت التنظيمات الســياسية الأولى للمصريين شــكل جمعيات
سرية كثيرا ما كانت تحتمى بمجمعات ماسونية ٠ من هذه الجمعيات التى
كونها مدنيون « مصر الفتاة » التى عاشت فترة قصــيرة سنة ١٨٧٩ ٠
وأهم منها جمعية سياسية سرية أعضاؤها من ضباط الجيش ، كونها على

---

(١) وفقا لمراجعــاتى لتــاريخ كمال الدين جــلال للصحافة المصرية ، « وفهرس الدوريات العربية التى تقتنيها الدار (دار الكتب المصرية) « لمحمود اسماعيل عبد الله ، ج٢ (القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٦٣) لم تصدر حتى سنة ١٨٧٦ سوى جريدة مصرية جديدة واحدة ، وخلال سنة ١٨٧٦ ظهرت جريدتان ، أما فى سنة ١٨٧٧ فقد ظهرت ست جرائد ٠

(٢) فى الفصل الثانى هامش ص ٧٥ تجد قائمة مراجع مختصرة عن عبد الله النديم الذى كثيرا ما يطلق عليه لقب « خطيب الثورة » ، وهو يمثل احدى الحلقات القليــلة التى ربطت بين حركة عرابى الوطنية وحركة مصطفى كامل الذى يشبهه كثيرا ، وعن يعقوب صنوع أو أبو نضارة انظر : ايرين ل٠ جند زير : « آراء يعقوب صنوع العملية »
Irene L. Gendzier : "The Practical Visions of Ya'qub Sanu", Cambridge Harvard University Press, 1966.
وكان النديم مسلما واسحق سوريا مسيحيا ، وصنوع يهوديا ٠

(٣) على كل حــال فان كثيرا من أكبر مثقفى مصر المســتنيرين ، كعلى مبــارك (١٨٢٤ – ١٨٩٣) والشــيخ محمد العبــاسى (١٨٢٨ – ١٨٩٧) ســيعارضون حركة الضــباط الوطنية ، وحتى محمــد عبده كانت له عليها بعض التحفظات ٠ انظر :
« محمد عبده » لعثمان أمين ٠
Osman Amin : «Muhammad 'Abduh», Charles Wendell, tr. Washington, American Council of Learned Societies 1953, pp. 41-46.

(٤) Landau : pp. 76f. 101-103. ، وقد وسع هذا الكاتب دراسته فى مقال
« مقدمات لدراسة الجمعيات السرية فى مصر الحديثة » ٠
«Prolegomena to a study of Secret Societies in Modern Egypt», Middle Eastern Studies, 1,2, (January 1965), pp. 135-186.

الروبى ، وانضم اليها بعد ذلك أحمد عرابى الذى سيتولى بالفعل قيادة الحركة الوطنية الأولى • وبقيام هذه الجمعية سنة ١٨٧٦ ما لبثت أن أصبحت هى نواة الحزب الوطنى سنة ١٨٧٩ •

ففى فبراير من تلك السنة حدث تمرد عسكرى ، لعل جمعية الضباط السرية لم تشترك فيه بشكل مباشر (١) ، ولكنه كان بمثابة الشرارة التى مهدت لظهور الحزب الوطنى الأول • ولنتذكر أن الضرورات المالية اضطرت اسماعيل الى تشكيل وزارة أوربية ، كانت لها سيطرة كاملة على مالية مصر • ومع ميوله الاستبدادية فمن الصعب أن نتوقع أن يطول احتماله لأى نفوذ آخر فى حكومته وطنيا كان أم أوربيا ، ومن ثم فقد بدأ يعالج بمهارة ازدياد الشعور الوطنى المعادى للأجانب ، ويتصرف عن طريق معاونة شاهين باشا ، ويحرض بعض الضباط الساخطين ضد وزراء نوبار الأوربيين •

واتخذت الوزارة قرارا فرضته الضرورات المالية ولكنه كان غير موفق من الناحية السياسية ، باحالة عدد كبير من الضباط الى التقاعد بنصف رواتبهم • وعلى أثر هذا القرار نظم لطيف سليم الحجازى مدير الكلية العسكرية ، وهو فى الوقت نفسه صهر شاهين باشا ، مظاهرة من طلبة الكلية ، انضم اليها الضباط القدامى ، واقتحموا وزارة المالية ، وهاجموا نوبار ، مطالبين بعزل وزارته • فأرسل اسماعيل حرسه لتهدئة الشغب ، ولكنه مالبث أن عزل الوزارة •

وترتب على تمرد فبراير ١٨٧٩ زيادة ثقة الضباط المصريين بأنفسهم نتيجة للتشجيع الذى وجدوه من الخديو اسماعيل الذى أسعده أن ينحرف بسهام عداوة ناقدية لتتوجه الى صدور الأجانب • وفى ابريل من العام نفسه أعلنت الجمعية السرية للضباط أنها أصبحت الحزب الوطنى ، وسمح للمدنيين بالانضمام لعضويته ، ونشرت برنامجا يؤكد أهمية الاصلاحات المالية والدستورية ، وقعه ممثلون لمختلف الطبقات ، بما فيها موظفو الحكومة وأعضاء مجلس الشورى ، وكبار رجال الدين ، والأعيان

---

(١) قرر عرابى وهو يروى الأحداث التى أدت الى ثورة ١٨٨٢/٨١ لويلفريد بلنت الشاعر الانجليزى المتحمس والمدافع عن قضايا المسلمين ، أنه لم يشترك فى تمرد فبراير ١٨٧٩ • (بلنت : « التاريخ السرى للاحتلال الانجليزى لمصر »
Blunt : « Secret History of the English Occupation of Egypt », New York, Alfred A. Knopf, 1922, p. 368f.).

(والكتاب مترجم الى اللغة العربية)

والتجار (١) • وقدموا برنامجهم الى اسماعيل الذى عبر عن تأييده له ، وعقب عليه بتعيين شريف باشا ، وهو واحد من زعمائهم المعتدلين ، رئيسا لوزارته الجديدة • ووافق على أن تكون الوزارة الجديدة مسئولة أمام مجلس تشريعى ينتخبه الشعب •

ومن النتائج الأخرى الهامة التى ترتبت على تمرد الضباط تزايد قلق الحكومات الاوربية وحملة الأسهم والأجانب المقيمين فى مصر خشية أن يخدعهم اسماعيل فيزيد من سخط الوطنيين عليهم ليتجنب الضائقة المالية ، ومن ثم يضيع نفوذه تمهيدا للتخلص من دين البلاد • وبناء على مبادرة من ألمانيا احتجت الدول الكبرى على عزل اسماعيل لوزرائه الأوربيين ، ونصحه ممثلا بريطانيا وفرنسا بالتنحى عن العرش • وحاول الخديو التملص منهما بطلب استشارة السلطان عبد الحميد ، ولكن السفراء الأوربيين فى استانبول كانوا قد أشاروا على السلطان سلفا بتنحيته وتولية ابنه توفيق (٢) •

ولاشك أن تولى توفيق العرش قد شجع الوطنيين فى البداية ، لانه كان متأثرا بالأفغانى ، وكان عضوا بالمحفل الماسونى بالاسكندرية • ولكن « توفيق » كان حريصا على ألا يعيد الأخطاء التى أدت لعزل أبيه ، فسرعان ما أدار ظهره للوطنيين ونفى الأفغانى ، وعطل المجلس التشريعى وصادر الصحف الوطنية ، وأنقص حجم الجيش (٣) ، ورفض مشروع الدستور الذى اقترحه شريف ، ثم مالبث أن أقال وزارته ، وعين وزارة أميل للمحافظة برئاسة رياض باشا ، فكان لهذه التغييرات وقع الكوارث على الوطنيين • وخرج كثير من المدنيين من الحزب الذى ارتد كما كان جمعية سرية للضباط • وأكثر من ذلك فقد حاولت الحكومة قمع الروح الوطنية فى الجيش •

---

(١) لتحليل احصائى لاعدادهم التقريبية انظر
Landau : «Parliaments and Parties», p. 89.

(٢) لمناقشة دوافع القوى الأوربية انظر : وليم ل• لانجر : « التحالفات والتكتلات الأوربية » •
William L. Langer : « European Alliances and Allignmets », 2nd ed., New York, Alfred A. Knopf, 1956, pp. 260-262.

(٣) كان على توفيق أن يقلل حجم جيشه العامل من ٤٥٫٠٠٠ الى ١٨٫٠٠٠ جندى تنفيذ لفرمان توليته العرش ، وهو اجراء ، من المحتمل أن السفراء الأوربيين قد اقترحوه على السلطان • والواقع ان « توفيق » خفض حجم الجيش الى أقل من هذا العدد ، لأسباب مالية •

وجاءت سنة ١٨٨٠ والوطنيون فى حالة شديدة الضعف والتفكك • وصدر قانون جديد لتصفية الديون واصـلاح الضرائب كان له أثره فى تحسن الحالة الاقتصادية واعادة الثقة للأجانب من الدائنين والمستثمرين المنتظرين • ورغم ذلك فقد واصلت أفكار التحرر والاصلاح انتشارها فى مصر • وكان الشيخ محمد عبده قد حددت اقامتــه فى قريتــه بعد نفى الأفغانى ، فأطلق سراحه وعين رئيسا لتحرير « الوقائع المصرية » الجريدة الرسمية للحكومة ، فسرعان ما حولهــا الى لسان حال طلاب الاصلاح ، وضم الى هيئة تحريرها كتـــابا وطنيين ممتازين ، كابراهيـم الهلباوى (١٨٥٨ ــ ١٩٤٠) وسعد زغلول (١٨٥٧ ــ ١٩٢٧) • وكان البارون دى رينج قنصل فرنسا العام فى القاهرة يشجع سرا العناصر الساخطة ، ومن المحتمل أن شريف باشا وملاك الأراضى ذوى الميول الدستورية من أعضاء المجلس المعطل كانوا يقومون بنفس الدور بهدف اسقاط وزارة رياض •

وظل ضــباط الجيش المصرى غير راضـــين ، وهم يمثلون أخطــر الطاقات الكامنة • فقد أحيل كثيرون منهم الى الاستيداع بنصف مرتباتهم فى حين شملت بقيتهم بالبطالة التى فرضت عليهم • واتخذ السخط شكل معارضة لعثمان رفقى وزير الحربيــة فى وزارة رياض ، وكان جركسيا يميل الى محــاباة بنى جنســه ويفضلهم على المصريين ، وشجع الضباط الأميرالاى على فهمى قائد حرس القصر الخـــديو ، وكان هو الذى حرض عرابى ، وقد أصبح زعيم الضــباط الوطنيين ، على أن يكتب عريضــــة يقدمها لرياض فى فبراير ١٨٨١ ، يطالب فيها بعزل رفقى • واذا بمجلس الوزراء يقرر تقديم الأميرالايات الموقعين على العريضة للمحاكمة العسكرية، وأصــــدر أمره اليهم بالمثول أمام وزير الحربيــة تمهيدا لحبســـــهم • واستشعر الضباط الوطنيون المكيدة ، فأطاعوا الأمر بعــد أن اتفقوا مع كتائبهم على أن تخف لانقاذهم فى حــالة القبض عليهــم ، وهو ما نفذته بالفعـــــل •

وبتخلى الحرس عن الخديو توفيق ، أصبح بلا قوة عسكرية يواجه بها الضباط المتمردين ، فاضطر الى اجبــار رياض على أن ينحى رفقى ، ويضع مكانه العضــو الوحيـــد فى وزارته المتعاطف مع الوطنيين ، وهو محمود سامى البارودى (١٨٣٩ ــ ١٩٠٤) • وعلى الفور أقسم الضباط على الولاء لتوفيق وعادوا الى ثكناتهم ، وان ظل كل من الفريقين يتوجس من الآخر ولا يثق به • وبدأت الصحف الوطنية تعود للظهور لتحل محل تلك التى أغلقت سنة ١٨٧٩ •

وهكذا هدأت الأزمة مؤقتا ، وغادر البارون دى رينج مصر ، وأعلن الخديو ثقته بحكومة رياض ، ولكن السخط مالبث أن تزايد حينما أعاد توفيق الى الخدمة العسكرية عددا من الضباط ، كان قد فصلهم لتوجيههم تهما مختلفة للضباط الوطنيين • ولكى يمنع الخديو قيام أى مظاهرة معادية ، حاول تشتيت الوطنيين ، فنقل آلاى المشاة الثالث المتمرد من القاهرة الى الاسكندرية • ورد عرابى على ذلك بخروجه فى ٩ سبتمبر على رأس مظاهرة عسكرية تضم ٢٥٠٠ جندى ، توجهت الى قصر عابدين المقر الرسمى للخديو فى القاهرة ، وواجه توفيق المتظاهرين وطالبهم بتفسير لتصرفهم ، فرد عليه عرابى بتقديم ثلاثة مطالب قال ان الجيش سيفرضها « باسم الشعب المصرى » ، وهى : عزل وزارة رياض ، ودعوة مجلس نيابى ينتخبه الشعب وتخول له سلطات تشريعية كاملة ، وزيادة حجم الجيش • فلما وافق توفيق على هذه المطالب ، وعين شريفا مكان رياض ، انسحب الضباط •

وخلال الاثنى عشر شهرا التالية أصبحت السلطة فى أيدى تحالف مرهق بين الضباط الوطنيين بزعامة عرابى ، والمدنيين الدستوريين بقيادة شريف فى البداية ، ولم يقبل شريف رئاسة الوزارة الا بعد أن حصل على تأكيدات من المجلس النيابى القديم والقوى الأوربية بأنه لن يكون قناعا لديكتاتورية عسكرية (١) • ووافق الضباط على تأييد شريف ، بشرط أن يزيد حجم الجيش ويستعيد البارودى وزارة الحربية فى وزارته •

وفى أواخر خريف ذلك العام أجريت انتخابات المجلس التشريعى الجديد • وكان معظم النواب الذين انتخبوا من أعيان الريف (٢) كسابقيهم ، ولكن الأعضاء المعينين الذين اختارهم الخديو كانوا من الوطنيين المدنيين ، من أمثال محمد سلطان ، وعبد الله فكرى ، وأديب اسحاق (٣) •

فى تلك الأثناء كان الاضطرام الوطنى ينتشر ويزداد ضراما • فاذا كان الحزب الوطنى قد نشر برنامجا جديدا موجها للأوربيين تعهد فيه

---

(١) Cromer, I, p. 187. وقد سارع عرابى باستدعاء المجلس الذى لم يكن قد اجتمع منذ سنة ١٨٧٩ ، لضمن قبول شريف للوزارة •

(٢) Landau, p. 30.

(٣) Ibid, p. 31f.

باحترام الالتزامات المالية ، والقانون والنظام ، وحقوق الأقليات والجاليات الأجنبيـة (١) ، فان الصحف الوطنيـة كانت فى نفس الوقت تزيد من حدة معاداتها للأوربيين (٢) ، وكان عرابى لا يكف عن الخطابة الحماسية فى تجمعات الجنود فى القاهرة والزقازيق . ورغم التأييـد الذى ناله شريف من قناصل أوربا ، فقد كان عاجزا عن منع انتشار الدعايات التى تحث على كراهية الأجانب . ومع تزايد قوة الوطنيين فقد كانوا يعيشون فى فزع مستمر خوفا من انهيار نظامهـم بمؤامرة من السراى ، أو من الضباط الأتراك والجراكسة المعزولين . وكان هذا الفزع - أكثر من أى خطة عمل واضحة المعالم - هو الباعث لتطرفهم المتزايد .

ومع ذلك فالواقع أن أحدا ممن يملك الارادة أو الوسـائل الكفيلة بالاطاحة بالوطنيين لم يتخذ موقفا حاسما أيضا . ففى أكتوبر سنة ١٨٨١ أرسل السلطان عبد الحميد بعثة الى مصر ، ولكن الواضح أن مبعوثيه لم يستطيعوا أن يقرروا أيهما يمثـل تهديدا أكبر للمصـالح العثمانيـة : الوطنية المصرية أم التدخل الأوربى ، فاكتفوا بتشجيع كلا الفريقين ووعد كل منهما بأن يتوقع تأييد السلطان . ورفضت كل من بريطانيا وفرنسا السماح لنظام وطنى متطرف قد يهدد بالامتناع عن سداد دين الحكومة أو تهديد حياة أعضاء الجاليات الأوربية وممتلكاتهم ، ولكن أيا منهما لم تكن راغبة فى التدخل العسكرى ، وبريطانيا بصفة أخص . فحكومة جلادستون لم تصل الى الحكم سنة ١٨٨٠ الا بعد حملة انتخابية معادية للاستعمار ، وبدلا من التنافس مع دول القارة سعت الى التعاون معها ، ومن ثم حاولت التقليل من التزاماتها عبر البحار وتجنب كل التزام جديد . وأرادت بصفة خاصة استعادة صداقتها بفرنسا ولكن دون أن تدع مصر تقع تحت سيطرتها . كانت بريطانيا ترجو ألا تنفرد فرنسـا بالتدخل ، بل تعتمد على الضغط السياسى المشترك ، وفى حالة الضرورة القصوى على تدخل عسـكرى عثمـانى (٣) . أما فرنسـا فكانت حذرة من حركات المقاومة الاسلامية التى يظاهرها العثمـانيون ، خشية أن تمتد الى تونس التى دخلت تحت حمـايتها حديثا ، ومن ثم عارضـت التدخل

---

(١) Blunt : «Secret History..» Appendix II pp. 383-385.

(٢) Ibid, p. 125.

(٣) رونالد روبنسن وجون جالفر ، « أفريقيا والفيكتوريون »
Ronald Robinson and John Gallgher: «Africa and Victorians», New York, St Martin's Press, 1961, p. 92f.

التركى فى مصر · وفى نهاية سنة ١٨٨١ تولى الحكم ليون جامبتا (*) ، وهو مدافع غيور عن المصالح الفرنسية فى مصر ، فاتخذت فرنسا موقف المعارضة الايجـــابية تجـــاه الوطنيين · وعلى أمل ارهاب عرابى أقنع جامبتا لورد جرانفيل وزير الخارجية البريطانية باصدار مذكرة مشتركة تعبر عن القلق بشأن الحالة السياسية فى مصر وتهدد بالقيام بعمل عسكرى لتأييد الخديو ·

وكان الأثر المباشر لتلك المـــذكرة هو وقوع خلاف بين شريف يؤيده مندوبا الدين الأوربيين ، والمجلس النيابى يؤيده الوطنيون حول حق اقرار ميزانية الحكومة · وفشـــلت المذكرة فى تحقيق هدفها لأن الحكومة البريطانية أعلنت أنها لن تتدخل فى مصر · وكان قنصـــلا بريطانيا وفرنسا قد فضلا حلا وسطا لمشكلة الميزانية ، ولكن بعد نشر المذكرة المشتركة أصر المجلس النيابى على حقه فى التصـــويت على الميزانية · ووافق الخديو توفيق المجرد من كل قوة على مقاومة هذا المطلب · وكان هذا معناه استقالة شريف · فعين «توفيق» محمود سامى البارودى رئيسا للوزارة الجديدة ، وأصبح عرابى وزيرا للحربية ·

وبذلك ملك العسكريون الوطنيون زمام السلطة ، وتغلبوا على الدســــتوريين المعتدلين · فها هو ذا شريف خارج الحكم ، لا يثق بالضباط المصريين ويدعو الى تعيين مندوب عثمانى تتبعه حملة عسكريه تكبح جماح الوطنيين (١) · وكان التدخل العثمانى مازال الحل المفضل فى نظر بريطانيا ، فى حين فترت حماسة فرنسا للتدخل فى مصر بعد سقوط حكومة جامبتا · أما الحكومة العثمانية فكان موقفها غامضا وكذلك موقف الخديو توفيق الذى كان عاجزا عن معارضة الوطنيين ومن ثم بدا كمن يحرص على تهدئتهم · فبعد قبوله استقالة شريف بقليل صدق توفيق على الدستور الجديد ، وكان قد تقدم بمشروعه الى المجلس النيابى الذى يســـيطر عليه الوطنيون · ووجد مندوبا الدين الأوربى والممثلون الدبلوماســـيون أنفسـهم عاجزين عن التأثير فى الحكومة ·

---

(١) Cromer, I, p. 244.

(*) هو سياسى يهودى ، ومن ثم فقد استطاع أن ينسق جهوده مع سياسى يهودى آخر تولى رياسة الوزارة البريطانية ، أثناء مقدمات احتلال مصر ، وهو المستر دزرائيلى الذى اعتنق المسيحية ، وكان صاحب الدور الأكبر فى شراء أسهم مصر فى قناة السويس من الخديو اسماعيل سنة ١٨٧٥ ·

واستولى الضباط المصريون ، بتشــــجيع المؤيدين من الأتراك والبريطانيين ، على قدر أكبر من السلطة ، وأساءوا فى بعض الأحيان استغلال نفوذهم بترقية بعض المصريين دون اختبار • ورغم ذلك فقد ظلوا يخشون دائما قيام ثورة مضادة • وفى ابريل ١٨٨٢ « اكتشفوا » مؤامرة بين الضباط لقتل عرابى ، فقبض على أربعين ضابطا ، معظمهم من الأتراك والجراكسة ، وقدموا الى محكمة عسكرية ، قررت نفيهم الى السودان ، غير أن الخديو خفف الحكم بتأييد من القوى الأوربيه • وفوجىء مجلس الوزراء بتصرف توفيق ، فدعا المجلس النيابى الى اجتماع غير عادى ، ربما للنظر فى تنحية توفيق (١) • غير أن الخديو أقنع محمد سلطان رئيس المجلس بمعارضة وزارة البارودى • ويبدو أن « سلطان » ، وهو مالك أرض حديث الثراء ، قد أشفق من زيادة تطرف الوطنيين ، ولكن بقية النواب ، وهم من ملاك الأراضى أيضا واصلوا تأييدهم للوطنيين ، وسحب البارودى استقالته التى كان قد تقدم بها ، لانه ليس من المصريين من يســـتطيع تولى منصب رئيس الوزارة فى مواجهة معارضة الوطنيين •

وخشيت كل الحكومات الاوربية من تهديد الوطنيين لمصالحها ، ولكن أيا منها لم ترد التصرف بمفردها لايقافهم عند حدهم • ان مصر من الناحية القانونية ولاية عثمانية ، ومن ثم فالسلطان هو صاحب الحق فى التدخل • وقبلت بريطانيا وفرنســـا هذا المبدأ ، ولكنهما أرسلتا أيضا قوة بحرية مشتركة الى الاسكندرية ، وانذارا الى القاهرة بطلب استقالة البارودى واحالة زعماء الضباط الوطنيين الى الاستيداع، فاستقالت الوزارة مرة أخرى ، ولكنها أعيدت بعد أن رفض شريف باشا تشكيل الوزارة •

وبلغ التوتر المتصاعد قمته بانفجار فتنة طائفية فى الاســـكندرية فى ١١ يونيـــو راح ضحيتها خمسون (*) من الاوربيين ومئـــات من المصريين • وأثارت فتن الاسكندرية فزعا متزايدا بين غير المسلمين وضح فى هجرة ١٤٫٠٠٠ من مصر خلال ستة أيام ، وفى نداءات تطالب بالتدخل الخارجى للســيطرة على الأمن ، وتعددت الاضـــطرابات فى

---

(١) Blunt, p. 204 f., Cromer, I, p. 265.

(*) مر المؤلف على هذه الفتنة دون ان يشـــير الى مدبرها والواقع انها من تدبير قنصل بريطانيا متآمرا أو متحالفا مع بعض القنصليات الأجنبية الأخرى وزعماء الجاليات الأجنبية •

الريف حيث انتشرت شـــــائعة مؤداها أن انتصار الوطنيين سيترتب عليه الغاء كل الديون ·

وسط هذا الجو المتوتر اجتمع سفراء الدول الأوربية لدى الباب العالى فى ٢٣ يونيو للبحث عن صيغة للتدخل العثمانى فى مصر · ورفضت الحكومة العثمانية ارسال مندوب الى مصر ، وحينما وافقت بعد ذلك كان الوقت قد أصبح متأخرا جدا ·

وخوفا من أى تدخل أوربى بدأ الجيش المصرى يحصن الاسكندريه لمواجهة الأسطول الانجليزى ــ الفرنسى ، وأنذرته بريطانيا وتركيا بضرورة وقف التحصينات (*) ، فتظـاهر بالانصـــياع ، ثم لم يأبه بانذارهما · فهدد الأدميرال البريطانى بضرب التحصـــينات اذا استمر العمل فيها · وحينما قوبل هذا التهديد بالتجاهل أمر سفنه باطلاق مدافعها · ولم يشترك الاسطول الفرنسى ، اذ رأى وزير الخارجية الفرنسية أن اطلاق النار عمل حربى ضد مصر يتطلب موافقة مسبقة من الجمعية الوطنية ·

واشتعلت النار فى الاسكندرية ، فتجددت الفتن والاضطرابات وانتهى الامر بانسحاب الجيش المصرى الى كفر الدوار بالدلتا · ونزلت قوة بريطانية صغيرة الى المدينة لاعادة النظام ، فأعلن عرابى الحرب على بريطانيا ، ووضع توفيق مصيره بين يدى البريطانيين ، وأصـــدر أمرا بفصل عرابى · واعلان خيانته ، ولكن الوطنيين ظلوا مسيطرين على مصر كلها باستثناء الاسكندرية ·

وأرسلت بريطانيا حملة عسكرية أكبر احتلت قناة السويس واستولت على الاسماعيلية · واتخذ جيش عرابى خط دفاعه الآخير عند قرية التل الكبير فى ١٣ ســـــبتمبر ، ولكن الحملة البريطانية هزمته ، وتابعت مسيرتها لاحتلال القاهرة دون أى مقاومة أخرى ·

وهكذا ما ان تدخلت قوة عسكرية خارجية أكبر للقضـــاء على الحركة الوطنية حتى بدا أنها خبت تماما · وأعيدت للخديو سلطاته، ولكنهــــا حيلة لم تخدع أحدا ، فالواقع أن هذا التدخل جعله قناعا للبريطانيين بدلا من الضباط الوطنيين ·

(*) لم يكن انذار بريطانيا وفرنسا لمصر بالتوقف عن ترميم حصون وطوابى الا الذريعة التى استقر عزم الدولتين على التوسل بها لاعلان الحرب على مصر ، فان تلك الحصون كانت قديمة ومتداعية ، وكان تسليحها ضعيفا الى ابعد حد ، ومن ثم فلم يكن هناك اى خطر على الأسطولين من هذه الترميمات ·

وقبض على الزعماء الوطنيين وحوكموا ، وأدينوا بتهمة التمرد ، وحكم على عرابى بالاعدام ، ثم خففت العقوبة بالنفى الى سيلان ومصادرة أملاكه (١) ، ونفى معظم الباقون أو سجنوا • وحل الحزب الوطنى ، وأغلقت الصحف التى كانت تؤيده ، وسرح الجيش المصرى مؤقتا (*) وفصل من لم يقبض عليه من الضباط العرابيين • وأوقف دستور شريف لسنة ١٨٨١ ، وحل المجلس النيابى ، وكانت اجتماعاته مؤجلة منذ مايو ١٨٨٢ • وعاد الفلاحون وأبناء المدن لسلبيتهم السياسية السابقة • وبدأت بالاحتلال البريطانى مرحلة جديدة فى تاريخ مصر الحديث •

ما الأسباب التى دعت بريطانيا للتدخل العسكرى فى الأزمة المصرية رغم ما عرف عن رئيس وزرائها جلادستون من معاداة للاستعمار ؟

لا شك أن اتمام قناة السويس التى سرعان ما أصبحت طريق بريطانيا الرئيسى لامبراطوريتها الهندية قد زاد من أهمية مصر فى نظرها ، وقد تجسدت هذه الاهمية فى شراء دزرائيلى لأسهم مصر فى قناة السويس • أضف الى ذلك أن قيام الحركة الوطنية وقد هدد مصالح دائنى مصر ، ومعظمهم من الفرنسيين ، جعل بريطانيا لا تحتمل تصور احتلال فرنسا لمصر كلها عسكريا ، أو لقناة السويس وحدها • واذا كان لا بد من تدخل أجنبى فيجب أن يكون من جانب تركيا وحدها ولكن السلطان قصر فى اتخاذ أى اجراء ايجابى ، ومن ثم أصبح على بريطانيا أن تشترك مع فرنسا فى قمع الوطنيين ، فلما آثرت فرنسا فى اللحظة الحاسمة الانسحاب من المظاهرة العسكرية المشتركة عند الاسكندرية ، كانت بريطانيا قد تورطت بعمق لم تستطع معه أن تحذو حذو شريكتها •

لماذا اذن انتقلت بريطانيا من انزال قوة صغيرة لاعادة الامن الى الاسكندرية الى دفع قوة أكبر للقضاء على عرابى ؟

---

(١) سمح لعرابى بالعودة الى مصر سنة ١٩٠١ ، ولكنه لم يقم باى دور فى الحزب الوطنى التالى • وكذلك صدر العفو عن غالبية العرابيين الآخرين ، ولم يعدم سوى سليمان سامى الذى اعتقد أنه المسئول عن اشعال حريق الاسكندرية •

(★) لفظ « مؤقتا » غير صحيح ، فان بريطانيا لم تسمح بقيام جيش مصرى حقيقى حتى معاهدة سنة ١٩٣٦ •

لقد ثبت أن العامل الحاسم فى هذا القرار كان الضعف الداخلى لحكومة جلادستون فى وجه المعارضة المتزايدة من كل جانب بشـــأن المسـألة الايرلندية . فللمحـــــافظة على اجماع الآراء داخل مجلس الوزراء بشأن أيرلندا أيد غالبية الوزراء التدخل فى مصر لاعادة سلطات الخديو اليه والقضاء على عرابى وحماية قناة السويس (١) . ولو لم تكن ثمة مظلمة وطنية أخرى ضد بريطانيا لكان من المحتمل ألا يتأجج حقد المصريين حين يعلمون أن مصير بلادهم لأكثر من نصف قرن قد تقرر لاعتبارات لا صلة لها بالأوضاع فى مصر .

---

(١) Rolinson and Gallagher : p. 123, وعن الآراء المعاصرة حول اهمية قناة السويس لبريطانيا انظر : د. ما كينزى والاس : « مصر والمسألة المصرية »

D. Mackenzie Wallace : «Egypt and the Egyptian Question», London, Macmillan 1882, p. 509-521.

جريفين و. فاريس : « مصر : سياسيا وماليا واستراتيجيا »

Griffin W. Vyse : « Egypt : Political, Financial and Strategical», London, W.H. Allen and Co., 1882, pp. 3-12.

ملاحظات عامة

كانت الحركة الوطنية المصرية الاولى التى بلغت ذروتها فى ثورة عرابى سنة ١٨٨٢/٨١ تضـــم فى الواقع ثلاثة عنـــاصر ، لكل منها شخصيته وأهدافه ٠٠

أهمها العنصر العسكرى ، المكون من ضباط الجيش المصريين مع قليل من المؤيدين المدنيين ، أبرزهم البارودى (١) ، أما غالبيتهم فمن أبناء عمد القرى أو فلاحين متوســـطى الثراء ، ممن كان العمل فى الجيش يمثل أفضل فرص الترقى أمامهم ٠ وكالغالبية العظمى من الثوار كانوا ينتمون الى الصفوة الصاعدة التى يضطهدها النظام القائم ٠

ورغم أن العرابيين كانوا يمثلون فى الأغلب أقلية بين هيئـة الضباط فقد دانت لهم السيطرة بسبب وحدتهم ، ومناصبهم الرئيسية وتأييد وحداتهم وكثير من المدنيين لهم ، ولأن معارضـــيهم لم يكونـوا يعرفون ماذا يريدون بالضـــبط ٠ كان المحرك الأول للعرابيين هو سخطهم على المزايا الهائلة التى يتمتع بها الضباط الاتراك والجراكسة ٠ وقد آيدوا الدستوريين ضد توفيق لأسباب سياسية (٢) ٠

(١) الأصح أن البارودى ، وهو فى الواقع من سلالة مماليك جراكسة ، كان ضابطا عسكريا شغل منصبا وزاريا ٠ وكذلك كان شاعرا عربيا ممتازا ٠ عن حياته انظر : خير الدين الزركلى : « الأعلام » ، مطبعة كوستاتسوماس ، ١٩٥٩/٥٤ ، جـ ٨ ، ص٤٧

(٢) من الطريف أن نقارن بين التفسيرين المختلفين للثورة العرابية اللذين قدمهما كل من دانكوارت روستور وجورج كيرك فى اسهاميهما فى كتاب « العسكرية فى الشرق الأوسط » لناشره سيدنى نتلتون فيتشر ٠

Dankwart Rustor and George Kirk in Sudney Nettelton Fisher (ed.) . «The Military in the Middle East», Calumbus, Ohio State University Press, 1963.

فروستوريكتب فى شىء من السذاجة : « من بين الصفوة الممتازة الصاعدة المتأثرة بالغرب =

أما العنصر العسكرى فقد أصابته هزيمة عرابى بالخزى ، فكاد يختفى من السياسة المصرية ، بل من الحركة الوطنية حتى ثورة ١٩٥٢ ٠

والعنصر الوطنى الثانى هو الدستوريون ، وهم مجموعة صغيرة من المدنيين المتعلمين تمركزوا فى المجالس النيابية المنتخبة وقلة من مكاتب الصحف ٠ كان بعضهم ، كشريف باشا ، أرستقراطيين من أصل تركى ، فى حين كان آخرون ، كمحمد سلطان من أبناء الفلاحين محدثى الثراء ٠ وكانت الرابطة المشتركة بينهم هى تحررهم ، وتعلقهم بالحياة النيابية ، ومعارضتهم لاستبداد الخديو ٠ وقد ناصروا « عرابى » باعتباره مصلحا متحررا ، ثم انقلب بعضهم عليه خوفا من أن يتحول الى ديكتاتور عسكرى أو يهدد وضعهم الاقتصادى الممتاز ٠ ولذلك فقد كان ما أصاب الدستوريين نتيجة هزيمة عرابى أقل قسوة مما أصاب غيرهم ٠ فقد تولى شريف باشا رئاسة الوزراء فى أوائل الاحتلال البريطانى ٠ وبعثت بعض أفكارهم عن طريق الحزب الوطنى المدنى ، حزب مصطفى كامل ومحمد فريد ، ووضعت موضع الاختبار فترة قصيرة عقب اعلان دستور سنة ١٩٢٣ ٠

وكان العنصر الثالث فى الثورة العرابية هو حركة الاصلاح الاسلامى التى أسسها جمال الدين الافغانى خلال اقامته الطويلة فى مصر ٠ وبعد نفيه سنة ١٨٧٩ أصبح تلميذه المشهور محمد عبده المتحدث الرئيسى باسم هؤلاء المصلحين ٠ ورغم أن اهتماماتهم كانت أوسع بكثير من مقاومة الحكم الأجنبى ، أو اقامة حكومة برلمانية ، فقد وحدوا أهدافهم مع العرابيين ٠ وكان عددهم قليلا كمجموعة ، ولا يتمتعون بتأييد الجيش ولا الخديو ولا السلطان ولا القوى الاجنبية ٠ وكلما كان العالم منهم أشد محافظة حظى بتأييد شعبى أكبر ٠ وكانوا

= كان طلبة المدرسة الحربية والضباط من أوائل من اهتدوا الى الأفكار الأوربية المتحررة عن الدستور والقومية ٠ وفى سنة ١٨٨١ قام الضباط المصريون بقيادة الأميرالاى عرابى بمحاولة القيام بأول انقلاب عسكرى حديث فى الشرق الأوسط ، وكان هدفه الأول اخضاع الخديو المبذر للرقابة المالية التى يتولاها مجلس منتخب ٠٠ » ويقدم كيرك هذا التصحيح : « منذ سنة ١٨٨٠ أحس عدد قليل من الأميرالايات والصاغات مصريى الأصل ان فرص الترقى أمامهم يغلقها الاتراك والجراكسة الذين كانوا يحتكرون وزارة الحربية والرتب الرفيعة فى الجيش ، فكان الموح الشخصى المحبط لا يقل أهمية عن مثل الاصلاح فى توجيه أولئك الضباط المصريين للقيام بدور سياسى رئيسى فى تلك الحركة المفككة التى اسىء توجيهها سنة ١٨٨١ والتى أطلق عليها اسم الأميرالاى أحمد عرابى ٠ »

منقسمين فى تأييدهم للوطنيين ، متحدين فى معاداتهم للمصلحين الدستوريين • وبالرغم من نواحى الضعف تلك ، وربما بسببها ، كانت معاناة المصلحين الاسلاميين من هزيمة عرابى أقل • فقد هادن محمد عبده البريطانيين ، ورأى أتباعه ، على عكس الوطنيين ، أن من الممكن تمدين المجتمع المصرى بالتعاون مع قوة خارجية خيرة ، دون التضحية بمبادىء الاسلام الأساسية • وكان تأثيرهم فى تطور مصر الفكرى أكبر بكثير من تأثير الفريقين الآخرين •

ويمكن ارجاع نجاح الحركة الوطنية الاولى فى بداياتها الى الى الانقسام فى صفوف القوى المعادية لها ، والى أن هذه القوى لم تكن واثقة من أهدافها مثل ثقة الوطنيين • وفى بعض الأحيان كانت تبدو وكأنها تشجع الوطنيين على طلب المزيد ، وكانت تصريحاتهم المهدئة تنم عن ضعف وتهديداتهم تشى بالخداع • وكان الوطنيون ، بالاضافة الى ذلك ، يسيطرون على بعض المناصب الحساسة ، كقيادة حرس قصر عابدين ، وكان باستطاعتهم — على الأقل فى مرحلة نجاحهم — أن يحظوا بتأييد الجماهير المثقلة بالديون • وكانت هزيمتهم الأخيرة سببها سوء تقديرهم لمدى استعداد بريطانيا للتدخل لمناصرة الخديو ولمصلحة الجاليات والدائنين الأجانب ، ولاستهانتهم بقوة بريطانيا • وبالاضافة الى ذلك فقد أغضبوا العديد من مؤيديهم المدنيين باتخاذهم بعض المواقف المتطرفة أثناء توليهم السلطة • وأخيرا ، فقد كانت أهدافهم من الكثرة والتنافر بحيث يستحيل تحقيقها بالوسائل المتاحة لهم •

ولقد تعرضت الحركة الوطنية الاولى للنقد القاسى من جانب الجيل التالى من الكتاب المصريين ، لميولها الثورية ، ولسوء تقديرها لقوتها ، ولتنافر أهدافها ، وبشكل أساسى لانها فشلت فى تحقيق استقلال مصر ، فى حين أبدى عدد قليل من الكتاب الأوربيين ، كويلفريد بلنت ، ومن بعده جورج يونج ، درجات متفاوتة من التعاطف مع عرابى • أما فى مصر فلم يرد اعتبار عرابى بطلا وطنيا أصيلا الا بعد نجاح انقلاب عسكرى آخر فى الاطاحة بأسرة محمد على •

وقد ترى النظرة السطحية فى هزيمة أنصار عرابى ردة للقومية المصرية واستقلال البلاد السياسى • وقد يكون من الصعب مع ذلك أن نفهم كيف استطاعت تلك الحفنة المتنافرة من الرجال قليلى الخبرة

بالسياسة أن تشق لنفسها طريقا آمنـــــا بين الغوغائية والاستسلام للمصالح الاوربية ، بين التحرر الدستورى والديكتاتورية العسكرية ·

غيرأننا لو ألقينا نظرة عامة على التاريخ المصرى لبدت لنا الدلالة الرئيسية للحركة الوطنية الأولى فى أنها تمثل بداية الاتجاه نحو اشتراك نسبة متزايدة من أبناء الشعب المصرى فى العمل السياسى ، ونحو خلق احساس واع بالقومية بعد أن كان غافيا أو غير موجود أصلا ·

الفصل الثاني

الاحتلال البريطاني والبعث القومي

- الاحتلال
- بداية البعث القومي
- تكوين الائتلاف الوطني
- ابتعاد التيار الوطني عن عابدين .

الاحتلال

« .. ان الانجليزى ، الذى يحتمل الكثير من اجل الاحتفاظ بحبيبته الهند ، سيغرس قدما ثابتة على ضفاف النيل ، ويحتل مقعد المقيم على العهد ابدا .. »

أ.و. كينجليك فى روايته «يوثن» (١٨٤٤)

لم تحقق أحداث صيف ١٨٨٢ الا جانبا من نبوءة كينجليك ، لان كرومر أراد أن يوضح (١) أن الانجليزى ان كان قد وضع قدما فى مصر فهو لم يغرسها جيدا . وحتى قبـــل أن تهزم الحملة البريطانية الوطنيين نفى جلادستون أى نية للبقاء فى مصر . واذا كان موقع مصر الاســـتراتيجى عبر طريق بريطانيا الى الهند هو الباعث غير المعلن للتدخل ، فقد كان الهدف المعلن للحملة هو اعادة النظام الى البلاد . ولم يكن هناك بين أعضاء الحكومة البريطانية من يتنبأ باحتلال بريطانى طويل الأمد ، أو أنه سيتطور الى حمـــاية مقنعة لمصر ، وما سيترتب على ذلك من تأثير بالغ على الدبلوماسية الأوربية وتاريخ الشرق الاوسط فى الحقبة التالية .

(١) Modern Egypt, I, p. 331. من أجل التسهيل على القارىء سنشير دائما الى ايفلين بارينج Sir Evelyn Baring قنصل بريطانيا العام فى القاهرة منذ سنة ١٨٨٣ الى سنة ١٩٠٧ بلورد كرومر ، بالرغم من أن منحه هذا اللقب لم يتم الا سـنة ١٨٩٢ .

كانت اعادة النظام الى مصر فـــكرة مطاطة . فلو أن الحكومة البريطانية كانت تقصد بهذه العبارة وقف القلاقل وأعمال العنف فقد تحقق ذلك بهزيمة عرابى فى التـل الكبير ، ولكان عليهـــا أن تتأهب لسحب قواتها . أما اذا كانت تقصد استئصال أسباب الاضطراب فقد كان من واجبها أن تشرع فى تنفيذ برنامج اصلاح شامل ، يســـانده احتلال عسكرى طويل الأمد . وكانت أحوال مصر المالية فى سبتمبر ١٨٨٢ أسوأ مما كانت فى أى وقت مضى ، فالدين العام الذى خفض ما يقرب من مليون جنيه بموجب قانون التصفية لسنة ١٨٨٠ ، تضاعف حوالى عشر مرات خلال الثورة (١) . واحتضرت الرقابة المالية الثنائية ألغتها بريطانيا ، مخيبة بذلك آمال فرنسا ، وعينت مســـتشارا ماليا انجليزيا للحكومة المصرية . ولم يقتصر الامر على الرقابة الثنائية ، بل امتد الضعف الى جميع مراكز القوى المصرية : القصر ، الوزراء . ومجلس النواب ، والجيش . وأصبح على بريطانيا التى هزمت عرابى أن تملأ الفراغ الذى نجم عن هذا الضعف ، أو تعثر على دولة أخرى ، كتركيا تقوم بهذا الدور . وازداد الموقف السياسى تفاقما بثورة المهدى ذات النسق المستقل ضد الحكم المصرى فى السودان (٢) . ولم تكن مصر بعد تسريح جيشها وتطهيره واعادة تنظيمه ، قادرة على قمع الثورة دون معونة بريطانيا .

وتمشيا مع عدائه المذهبى للاستعمار ظل جلادستون يعد المرة بعد الأخرى بأن الاحتلال مؤقت . وفى يناير سنة ١٨٨٣ وجه وزير خارجيته لورد جرانفيل خطابا دوريا الى بقية الدول الكبرى يقرر فيه أن حكومته سوف تسحب قواتها من مصر بمجرد أن تسمح أحوال البلاد بذلك (٣) . وظل ادوارد ماليت أكبر موظف بريطانى فى مصر الى أن استبدل به ايفلين بارينج (لورد كرومر) فى سبتمبر سنة ١٨٨٣ ، ولم يرسل

---

(١) « انجلترا فى مصر » للفيسكونت (الفرد) ملنر

Viscount (Alfred) Milner : « England in Egypt », 13th ed., London, Edward Arnold, 1920, p. 183.

(٢) المهدى : هو — فى فلسفة البعث الاسلامية — من سيعيد الاسلام الى نقائه الأول قبل يوم الحساب الأخير . والمهدى السودانى هو محمد أحمد (١٨٣٤ — ١٨٨٥) ادعى اللقب لنفسه سنة ١٨٨١ عند اندلاع ثورته ضد انحلال المسلمين (فى رأيه) وفساد الحكم المصرى . وليس لثورة المهدى — فيما أعلم — أى علاقة بثورة عرابى ، وان كان اضطراب الأحوال السياسية فى مصر قد ساعد بلا ريب على نجاح الفتنة السودانية .

(٣) لم يزد عدد القوات البريطانية عن خمسة آلاف جندى ، بما فيهم قوات الحملة التى ارسلت لقمع الفتنة فى السودان .

حاكم أو مندوب سام لتولى السلطة · وكان المفروض أن يسترد السلطان العثمانى سيادته ، ويستعيد نائبه الملكى الخديو توفيق سلطاته ، وكان جلادستون يعارض من حيث المبدأ زيادة التزامات بريطانيا عبر البحار · واحتلال مصر فترة طويلة لا بد أن يتكلف الكثير ، ويعطل القوات العسكرية ، ولا شك أنه سيثير عداء فرنسا ، ومن المحتمل أن يستثير محاولات جديدة ، وبخاصة من جانب روسيا ، لادخال الامبراطورية العثمانية فى مناطق النفوذ · فمنذ أربع سنوات لا أكثر اقتحمت ثلاث بوارج بريطانية مضيق الدردنيل وانعقد فى برلين مؤتمر للدول الكبرى للمحافظة على الامبراطورية العثمانية وعلى توازن القوى فى الشرق الادنى ·

أما كرومر فكان يدرك أكثر من حكومته أن بريطانيا لن تترك مصر بسهولة لان الاصلاح المالى يتطلب برنامجا طويل الامد لتقوية القاعدة الاقتصادية فى مصر · فبناء الخزانات والترع واصلاحها وزيادة الاستفادة من مياه النيل ، الى جانب تحرير الفلاحين من نير الكرباج والسخرة والظلم المحلى ·· من الممكن أن يزيد الانتاج الزراعى ، وبالتالى الرصيد المالى للحكومة ، ومن ثم يمكن تخفيض معدل الضرائب أو سداد نسبة من الدين العام · وليست تلك بالمهمة اليسيرة حتى ولو اضطلع بها خبير مالى قدير · ورغم معارضة حاملى سندات الدين الأجانب (معظمهم من الفرنسيين) سدد كرومر ومستشاره نسبة كبيرة من الدين ، وجلبوا من الخارج سيلا من القروض الجديدة لتمويل خطط الرى الجديدة واستبدال العمالة المأجورة بالسخرة · وظلت الحكومة المصرية عدة سنوات تلهث على شفا الافلاس ، ولكن منذ سنة ١٨٨٩ اعتدلت الميزانية وبدأت مصر تعرف الازدهار (١) ·

كانت المشكلة السياسية سنة ١٨٨٢ لا تقل حدة عن المشكلة المالية ، بل ثبت أنها أكثر استعصاء على الحل · فقد أرسلت الحكومة البريطانية — كخطوة أولى — لورد دوفرين سفيرها فى استانبول الى مصر لدراسة الموقف السياسى وتقديم توصيات لاعادة النظام العام والأمن وبناء على توصيته حل محل الرقابة الثنائية مستشار مالى

---

(١) روى كتاب كثيرون قصة « لهاث مصر على شفا الافلاس » ، ولكن أكثرهم اقناعا هو الفريد ملنر فى كتابه « انجلترا فى مصر » الذى ظهرت طبعته الأولى سنة ١٨٩٢ ، وأعيد طبعه عدة مرات وقد ساعد هذا الكتاب على أن تثبت فى أذهان الانجليز صورة مصر باعتبارها بلدا بعث من جديد بفضل مهارة مواطنيهم الانجليز وخبرتهم · وانا مدين للأستاذ هـ·س· دايتون بهذه الملاحظة التى سانميها فى فصل تال ·

انجليزى ، كما أوصى بأن تتطور الحكومة تدريجيا من ممارســة الخديو لسلطاته من خلال وزرائه الى نظام نيابى • ومن أجل تحقيق هذا الهدف أوصى بانشاء مجلس تشريعى مكون من ثلاثين عضوا ، وجمعية عمومية تضم مجلس الوزراء والمستشارين التشريعيين وستة وأربعين عضوا من أعيان الاقاليم ، بالاضافة الى مجلس مديرية فى كل اقليم ، على أن تكون وظيفة هذه التنظيمات النيابية استشارية بالدرجة الاولى ، ويختار أعضاؤها المنتخبون عن طريق التصويت المقيد غير المباشر ، فالمقصود بها هو تقديم اطار للتطور المقبل نحو نظام دستورى • وخرجت هذه التنظيمات الى حيز الوجود بموجب القانون التنظيمى لسنة ١٨٨٣ ولكن سلطاتها وطبيعة تمثيلها للشعب لم يطرأ عليها تغير طوال ربع قرن • وحين أصبحت الحكومة مهيأة لاصلاحها كان الرأى العام اليقظ قد بدأ يتطلع لديمقراطية نيابية كاملة •

ولما كانت الحكومة البريطانية قد أعلنت أن احتلالها لمصر مؤقت فان لورد دوفرين لم يستطع الدعوة الى وضع الجهاز الادارى للدولة تحت اشراف أوربى ، وأصبح لا مفر من الاحتفاظ بالنظام القائم فى أيدى اداريين مصريين مع قدر مناسب من جرعات الاصلاح الضرورية لا أكثر • ومن ذلك تعيين مستشارين انجليز فى وزارتى المالية والأشغال العمومية• ولم يتضح الا فيما بعد أن بقية الوزارات تحتاج هى الأخرى اصــلاحا أساسيا باشراف بريطــانى • فأصبح الاتجــاه فى السنوات التالية ، على عكس توصيات لورد دوفرين ، الى زيادة عدد الموظفين الانجليز فى الحكومة المصرية ، فأصبحوا بذلك هدفا واضحا للسخط الوطنى •

أما الجيش الذى حل بعد هزيمة عرابى فقد أعيد تكوينه تحت وصاية ضباط بريطانيين • وأرســلت الحــكومة المصرية عدة حملات عسكرية الى السودان لقمع ثورة المهدى ، ولكنها منيت كلها بالهزيمة، وأصبح من الواضح أن مصر لا يمكن أن تستعيد سيطرتها على السودان الا بمعونة بريطانية • ولم يكن اللورد كرومر راغبــا فى تقديم هذه المعونة وكذلك حكومته • غير أن جلادستون أرسل سنة ١٨٨٤ الجنرال غوردون « الصينى » (١) لاستنقاذ القلعة المصرية الرئيسية فى الخرطوم، ولكن غوردون عسكر هناك وأخذ ينظم مقاومة جادة ، فحاصر ثوار المهدى القلعة ، وتأخرت النجدة العسكرية التى أرسلت الى الخرطوم ، فلم

(١) اشتهر الجنرال « غوردون » فى بلاده بلقب « الصينى » بسبب نجاحه فى قيادة الحملات البريطانية ضد ثوار الصين بين عامى ١٨٦٠ و ١٨٦٤ •

تسلمها الا بعد يومين من استيلاء المهديين على القلعة وقتلهم غوردون ٠ وتجاهلت الحكومة البريطانية الاصوات الكثيرة المطالبة بالانتقام لمقتل غوردون وسحبت قواتها الى وادى حلفا التى أصبحت منذ ذلك الحين الحدود المصرية السودانية ٠

وهكذا فقدت مصر السودان نهائيا ، بل ان صعيد مصر ظل مهددا بضع سنوات ٠ وأثار فقد مصر للسودان عند الجيل التالى حقدا مريرا نحو الاحتلال البريطانى ، أما من وجهة نظر كثير من البريطانيين فقد كان معناه عدم الجلاء عن مصر قبل السيطرة على السودان وهو ما لم يتحقق الا سنة ١٨٩٨ ٠

والخلاصة أن الاحتلال المؤقت لمصر أصبح احتلالا دائما ، رغم أن بريطانيا ظلت تزعم ـ لاعتبارات دبلوماسية ـ أنه مؤقت ، وأخذت تبحث عن صيغة مناسبة للانسحاب ، غير أن كل خطة كانت تحكم تدبيرها من خلال المفاوضة مع فرنسا أو الامبراطورية العثمانية كانت تنهار تماما بسبب معارضة حاملى سندات الدين ، أو الحكومة الفرنسية ، الاعتراف بحق بريطانيا فى العودة الى احتلال مصر فى حالات الطوارىء (١) ٠

وكان لاحتلال بريطانيا لمصر أثره فى تعويق سياسة الوفاق مع فرنسا نحو عشرين عاما ، اذ كانت مصالح فرنسا الاقتصادية والثقافية فى مصر قد فاقت مصالح بريطانيا ، وكان الفرنسيون يتوقعون أن تنسحب القوات البريطانية انسحابا تاما وسريعا ، فلما لم يتحقق ذلك غضبوا واتهموا البريطانيين بالنفاق ، وأصبحت فرنسا هى المعارض الرئيسى للوجـــــود البريطانى فى مصر ، أكثر حتى من تركيا صاحبة السيادة الشرعية على مصر ٠ ومن المفارقات الغريبة أن السياسة التى اتبعتها فرنسا لم توفق الا فى اطالة أمد الاحتلال الانجليزى لمصر ٠ فقد شرعت فرنسا فى اتباع سياسة « وخز الابر » داخل مصر وخارجها وتعطيل اصلاحات كرومر المالية ، وتشجيع المعارضة السياسية المحلية حتى ليرجع لفرنسا الفضل الأكبر فى انبعاث الحركة الوطنية المصرية فى تسعينيات القرن الماضى ٠ غير أن الواقع أثبت أن هذه السياسة

---

(١) أشــهر تلك المحاولات هى مفاوضــات دروموند ـ وولف ســـــنة ١٨٨٧/٨٥ ، انظر : « المسألة الشرقية ، ١٧٧٤ ـ ١٩٢٣ » تاليف م٠س٠ أندرسون ٠
M.S. Anderson : "The Eastern Question, 1774-1923». London, Macmillan, 1966, pp. 248-251, Cromer : «Modern Egypt». II, pp. 372-381. Hornik : «The Mission of Sir Henry Drumond-Wolff to Constantinople, 1885-1887», English Historical Review, LV, October 1940, pp. 598-623, Langer : « European Alliances», p. 428.

الفرنسية لم تحقق الا عكس ما قصده مخططوها بالضبط . لقد كانت فرنسا أضعف من أن تستطيع طرد البريطانيين بالقوة ، ومناوراتها المضادة الهادفة الى اشاعة الفوضى فى مصر اضطرت البريطانيين الى تأكيد سيطرتهم بحزم أكبر .

وأهم النتائج التى ترتبت على رفض بريطانيا الظاهرى الاقرار بنيتها لاحتلال مصر فترة طويلة أنها لم تستطع وضـع خطة اصلاح شامل ومتكامل لبناء مصر السياسى . ولن تتاح لها بعد ذلك أبدا مثل تلك الفرصة السانحة التى أتيحت لها سنة ١٨٨٢ لتقضى على كل ما يعوق استيعاب مصر للثورتين الصناعية والديمقراطية اللتين عرفتهما أوربا فى القرن التاسع عشر . فمع النمو الهائل لحركة النقل وشبكة المواصلات العالمية لم يعد من المقبول أن تبقى أى دولة على حالة الفطرة البدائية . وموقع مصر الاســـتراتيجى بالاضافة الى الصدمات التى أحدثتها اصلاحات محمد على واسماعيل جعلتها شديدة القابلية للتطور وكذلك فمصر التى بعث كرومر الحياة فى أوصال اقتصادها ينبغى ألا تتجاهل أنها لم تحقق أى تقدم نحو الاكتفاء الذاتى . فقد استوجبت الطبيعة المؤقتة للاحتلال نوعا من الاصـــلاحات الجزئية والمتدرجة ، قامت بريطانيا بتوجيهها ولكن التنفيذ اضطلعت به نفس الصـــفوة التركية - المصرية التى قامت بالاصلاحات السابقة . ومع اتساع مجالات الاصلاح انتقل المزيد من السلطات الى المســـتشارين البريطانيين ولم تحقق مصر أى تقدم نحو الحكم الذاتى .

أما الشيء الذى لم يمسه الاصلاح فهو البيروقراطية العاجزة التى تنفر من اتخاذ أى مبادرة أو تحمل مسئولية اتخاذ القرارات ، ولا تعتبر الوظيفة الحكومية وسيلة لخدمة المصلحة القومية ، بل مصدرا للمناصب المريحة بمرتبات سخية للاغنياء والأقوياء ، وذوى المكانة الاجتماعية . وقد أدى العجز المالى الى اهمال الصـــحة العـــامة والتعليم . فمـــدارس الحكومة غير كافية حجما وعددا ، وكادت سياسة التعليم بمصاريف أن تغلق أبواب المدارس أمام أبنـــاء الفقراء . ووجهت المدارس القائمة اهتمامها للمواد الادبية ، والى أن تصبح مراكز تدريب لتخريج كتبة الحكومة . ولم يدرك البريطانيون والمصريون الا بعد وقت طويل حاجة

مصر الى تعليم فنى وحر فى عصر تزداد فيه أهمية الصناعة (١) ٠

والواقع أن السياسة البريطانية تعمدت تثبيط قيـــام صـناعة انتـاجية فى مصر ٠ ولا شك أن مصر قد أتيحت لها فى الوقت نفســـه فرصه كبيرة الى حد بعيد لزراعة القطن طويل التيلة لتصديره ، وهو ما فطن اليه حكام مصر قبل سنة ١٨٨٢ بزمن طويل ٠ غير أن تخصص مصر على هذا النحو قد ربط اقتصادها بأكمله بمدى الطلب العالمى للقطن ، فى الوقت الذى عوق فيه التصنيع بسياسة التعريفة الجمركية التى فرضت رسوما باهظة غير اقتصادية على البضائع الهامة المستوردة فى حين كانت الرسوم المفروضة على الاقمشة القطنية أقل من أن تحمى قيام صناعة نسيج وليدة ، وفضلا على ذلك فقد أخضعت مصنوعات القطن المحلية لرســوم ضريبية (٢) ٠ وحتى الحرف اليدوية وتجارة التجزئة المحلية سيطر عليها الأجانب فى ظل حماية الامتيازات الأجنبية ٠

وتحسنت الادارة القانونية نتيجة لتعيين مســـتشار انجليزى لوزارة العدل سنة ١٨٩٠ ، ولكن ظلت النظم القانونية غير مفهومـــة لغـــالبية المصريين ومنفصلة عنهم ، فأدى ذلـــك الى زيادة معـــدل الجرائم (٣) (*) وساعد تحويل القضـــاء المصرى الى النظام الأوربى وكان قد بدأ بالفعل

---

(١) عن اصلاح التعليم المصرى فى تلك المرحلة ، راجع الدراســة الشــاملة غير المنشورة : « التعليم المصرى فى عهد كرومر ـ دراسة فى تقابل الشرق والغرب فى ادارة التعليم وسياسته » لداڤيدكينسى ـ
David C. Kinsey : « Egyptian Education under Cromer; a Study in East-West Encounter in Educational Administration and Policy ». Unpublished ph. D. Dissertation, Harvard University, 1965.

(٢) حددت الرسوم الجمركية والضريبية رسميا بواقع ثمانيــة فى المائة من القيمة الكلية ٠ (تشارلز عيسوى : « مصر فى منتصف القرن ـ مسح اقتصادى » ـ
Charles Issawi : «Egypt Mid Century : an Economic Survey», London, Oxford University Press, 1954, p. 37).

(٣) اعترف بهذه الحقيقة حتى حتى مؤيدو الحكم البريطانى مثل جـ٠ الكساندر فى كتابه « الحقيقة عن مصر »
J. Alexandr: "The Truth about Egypt», London, Cassell, 1911, p. 42f.

(*) يعجب القارىء كيف يؤدى عدم الالمام بالقوانين الســائدة فى مجتمع ما الى ازدياد الجرائم فى هـــذا المجتمع اذا كان الحـــاكم المنفذ لتلك القوانين عادلا ، وادارة الأمن على كفاية تتيح الكشف عن الجرائم بسرعة ، ووضع اليد على الجناة والاقتصاص منهم بما يقضى به الحق ٠ فازدياد الجريمة راجع الى اهمال السلطة البريطانية لمقتضيات الأمن فى الريف ، اكتفاء بتركيز جهد الضباط الانجليز فى الشرطة المصرية فى حماية امن العاصمة والمدن التى يباشر فيها الأجانب نشاطهم ٠

بانشاء المحـــاكم المختلطة سنة ١٨٧٥ ، على ظهور طبقة كبيرة من المحامين من أهل البلاد تولت قيادة النضال من أجل الاســـتقلال فى بداية القرن العشرين ٠

وأخيرا لم تتخذ أى خطوات ، طوال بقاء كرومر فى مصر ، لتوسيع فرص المشاركة الشعبية فى اتخاذ القرارات السياسية ٠ وتسممت طبقة كبيرة من المصريين المتعلمين الواعين باستبعادهم ٠ فعلا من صـــياغة سياسات حكوماتهم ٠

ومع ذلك فقد يكون من الاجحـــاف اعتبار الإحتـــلال البريطانى مسئولا وحده عن كل هذه النواقص فى الوقت الذى عوق فيه كرومر اضطراره لمهادنة حساسيات المسلمين مع الحرص على تهدئـــة القوى الأخرى صاحبة الامتيـــازات ، وفضـــلا عن ذلك فالأرجح أن الأحـــرار البريطانيين ،وبخاصة فى العصر الفيكتورى ، كانوا يفضـــلون التغيير التدريجى على العنيف، ويؤثرون الارتجال على التخطيط الكامل ٠ فمادام الاحتلال مؤقتا ، فان بريطانيا لا تستطيع الا أن تضع خططا قصيرة الأمد وتقوم باصلاحات تدريجية ٠

وترى النظرة الغربية التقليدية لتاريخ مصر ان الاحتلال الانجليزى كان كريما ونافعا معا ، وان نقاده من المصريين ناكرون للجميل رجعيون، ومعلوماتهم قاصرة ، أو ممثلون لقـــوى منافســـة ٠٠ أما المصريون ومؤيدوهم فلا ينكرون تحقيق بعض المكاسب الاقتصادية ولكنهم يذهبون الى أن تقدمـــا أكبر كان ســـيحقق بدون البريطانيين ٠ والأدلـــة التى تقدمها هذه الدراسة لاتؤيد أيا من الرأيين تأييدا كاملا ٠ فالمهم هنا أن انبعاث الوطنية المصرية كان رد فعل طبيعى لانجازات نظام كرومر وسلبياته (*) ٠

(*) ليس هناك شىء أبعد عن الحقيقة من هـــذا القول ، فالوطنية المصرية ثابت وجودها ، قبل الاحتلال البريطانى ، وهذا ما قرره المؤلف نفسه عندما سرد بايجاز وقائع الثورة العرابية ٠ أما انجازات كرومر فقد ســـاعدت على تقوية الحركة الوطنية بطريق عكسى كمطاردته للوطنيين والتضييق على حقوق الشعب الدستورية ٠

بداية البحث القومى

، فى السنوات الأولى للاحتلال البريطانى كانت بؤره المسـألة المصرية دبلوماسية لا محلية . فقد جاءت المعارضة الرئيسية للبريطانيين من القوى الأوربية الأخرى ، أو من رعاياها المقيمين فى مصر ، وحتى الصحف المحلية القليلة المعادية للبريطانيين كان أصحابها من الفرنسيين (١)

أما الامبراطورية العثمانية فقد تبنت فكـــرة الجامعة الاســـلامية لمواجهة الانقسام الى قوميات داخل الامبراطورية ، وأخذت تحاول بين

(١) وكانت تشمل « البوسفور المصرى «Le Basphore Egyptien» التى تسببت محاولة الحكومة المصرية مصادرتها فى أزمة دبلوماسية . أنظر : « **الصـــحافة فى مصر (١٧٩٩ ـ ١٩٠٠) مذكرات وذكريات » لجول مونييه**

Jules Munier : « La presse en Egypte (1799-1900) notes et souvenirs », Cairo, Institut d'Egypte, 1930.

والمطبوعات الرسمية الآتية :

ـ « **وثائق دبلوماسية : ١٨٨٥** » ، « مسألة جريدة البوسفور المصرى » لوزارة الخارجية الفرنسية .

— Frnace, Ministere des Affaires Etrangèrs, Documents diplomatiques : 1885, « Affaire du Journal Le Bosphore Egyptien », Paris, 1885.

ـ وزارة الخارجية البريطانية : « وثائق مصر سنة ١٨٨٥ » رقم ١٢ « المراسلات الخاصة بمصادرة جريدة « البوسفور المصرى »

Great Britain, FO, Egypt. 1885. No. 12, « Correspondence » concerning the snppression of the « Bosphore Egyptien », London, HMSO, 1885.

ويشير لانداو فى كتابه برلمانات وأحزاب «Parliaments and Parties», p. 104. الى جريدة أخرى كان يملكها فرنسى وهى « الاتحاد المصرى » الذى لا أعلم عنها شيئا . وكان « الأهرام » من الصحف الأخرى المعـــادية للبريطانيين ، وكان يصدرها شقيقان سوريان هما سليم وبشارة تقلا اللذان تجنسا بالجنسية الفرنسية ليتخلصا من الخضوع لأحكام قانون العقوبات الأهلى .

الحين والآخر تأجيج عداء مصر للحكم الأجنبي ، وشاع الاعتقاد بأن قيادات المندوب السامي العثماني بالقاهرة كانوا بمثابة المركز المحرك لشبكة من العملاء المعادين لبريطانيا (١) ..

ومن المحتمل أن القصر كان أقوى مراكز المعارضـــة للبريطانيين داخل مصر ، غير أن الخديو توفيق وان رفض بين الحين والآخر « الحمـاية المقنعة » (٢) ، فقد كان شــديد الامتنان للبريطانيين لانقاذهم عرشه بدرجة لا تسمح له بمعارضة كرومر علنا . وبعد وفاة توفيق المفاجئة سنة ١٨٩٢ خلفه ابنه عباس حلمي الثاني ، فأصبح القصر لفتـــرة من الزمن المركز الرئيسي للوطنية المصرية .

على انه خلال حكم توفيق لم تعرف سوى حركتين وطنيتين عملتـا ضد الحكم البريطاني . الأولى هي « جمعية الانتقام» السرية ، وكان برنامجها الاعداد لتمرد مسلح لطرد الانجليز واغتيال المصريين الذين خانوا القضية العرابية ، وقد اكتشفت هذه الجمعية وقضي عليها سنة ١٨٨٣ ، وسجن زعماؤها ، وكان من بينهم سعد زغلول (٣) ★

أما الحركة الوطنية الثانية في تلك الحقبة المظلمة من تاريخ مصر فيحيط بها الغموض حتى ليعتبر قيامها افتراضيا . وكانت تتكون من جماعة نمت حول جريدة « المؤيد » التي انشأها وقام على تحريرها سنة ١٨٨٩ الشيخ الأزهري علي يوسف (١٨٦٣ — ١٩١٣) ، وهو واحد من رواد الصحافة المصرية الحديثة . وربما كان منشؤها الحقيقي هو رئيس الوزراء رياض باشا الذي كان بحاجـــة لجريدة تخدم مصالحه ، على نحو ما كانت « المقطم » المنشأة حديثا وقتها تؤيد بريطانيـا

---

(١) « مصر في ظل الاحتلال البريطاني » ، تاليف ه. ف. وود .

H. F. Wood : «Egypt under the British», London, Chapman and Hall, 1896. p. 62f. Milner, p. 134.

(٢) « عزل الخديو » لآردرن هيولم بيمان الذى عاش في القاهرة من سنة ١٨٧٩ الى ١٨٨٩

Ardern Hulme Beaman : «The Dethronement of the Khedive», London, George Allen and Unwin. 1929, p. 28.

(٣) أحمد شفيق : « مذكراتي في نصف قرن » — القاهرة ، مطبعة مصر ، ١٩٣٤ ، جـ١ ، ص ٢١٢ ، عباس محمود العقاد : « سعد زغلول ، سيرة وتحية » ، القـاهرة ، مطبعة حجازى ، ١٩٣٦ ، ص ٧٢ ، ويلفريد سكاون بلنت : « غوردون في الخرطوم »

Wilfrid Scawen Blunt : «Gordon at Khartoum» London, Stephen Swift, 1911, pp. 71, 74f, 628.

(★) سعد زغلول لم يكن عضوا في هذه الجمعية ، انما اتهم بناء على بلاغ كاذب من بعض كارهيه ، وقد ثبتت براءته ، وحرص النائب العام البريطاني المشرف على التحقيق على الافراج عنه ، وتم الافراج فعلا بفضل هذا التدخل .

« والأهرام » تؤيد فرنســا (١) وقد كتب أحد المراقبين البريطانيين المعاصرين لتلك المرحلــة أن « المؤيد » قــد تابعت عن قرب الخط السياسى لرياض باشا ، الذى ظل يؤيد البريطانيين حتى اختلف مع كرومر سنة ١٨٩٠ حول تعيين مستشار قانونى بريطانى ومنذ ذلك الحين غير كل من السيد والجريدة موقفه • (٢) غير أن «توفيق» ظل يعتبر « المؤيد » دائما لسان حال جماعة وطنية سرية تعمل لخلعه ، وكان على وشك ايقافها لولا وفاته (٣) وكان كثير من الشبان المصريين منهم سعد زغلول ومحمد فريد ، يقدمون اعانات مالية « للمؤيد » فى أوائل عهدها ليعاونوا على استمرار صدورها • ومع ذلك فلا يوجد دليل محدد يثبت وجود جمعية وطنية من مؤيديها • (٤)

والواقع أن معظم المصريين خلال السنوات العشر الأولى للاحتلال البريطانى استسلموا لتفوق قوة بريطانيا كما استسلموا من قبل لحكم أجانب آخرين قرون عديدة (*) • غــير أنه كان مقدرا للحركة الوطنيــة أن تبعث أخيرا ، ولكن بشكل جديــد • فالحق أن وطنيــة عرابى ، التى

---

(١) ان اصدار «المقطم» لتواجه «الأهرام» ، ثم المؤيد لتوازن «المقطم» أحد قوانين السياسة الذى يقول بأن لكل فعل رد فعل مساو له كالفيزياء تماما •

(٢) Wood : pp. 154-158.

(٣) عبد اللطيف حمزة : « أدب المقالة الصحفية فى مصر » جـ ٤ : على يوســف ، القاهرة ، دار الفــكر العربى ، ١٩٥١ ، ص ١٨٢ ، الياس زاخورا : « مرآة العصر فى تاريخ ورسوم أكابر الرجال بمصر » ، القاهرة ، المطبعة العمومية ، ١٨٩٧ ، ص ٥٤٠ •

(٤) حمزة ، ص ٤٤ ، مذكرات فريد ، هامش ص ٥٧ ، وكل الاشارات فى هذه الدراسة الى مذكرات محمد فريد هى الى المخطوطة الأصلية ، وليس الى الصورة الناقصة التى نشرت بالقاهرة سنة ١٩٦٤ • قدر « زاخورا » زيادة التوزيع اليومى « للمؤيد » على النحو التالى : ديسمبر ١٨٨٩ : ٨٠٠ ، ١٨٩٠ : ١٢٠٠ ، ١٨٩١ ــ ١٨٩٣ : ٢٠٠٠ ، ١٨٩٤ : ١٨٠٠ ، ١٨٩٥ : ٤٠٠٠ ، ١٨٩٦ : ٦٠٠٠ (مرآة ٠٠ ، ص ٥٤٠) •

(*) أصبح ترديد هذه الاكذوبة العلمية ديدن أكثر الأجانب الذين يتصدون لكتابة تاريخ مصر ، متجاهلين تيارات المقاومة الفكرية والمادية ، واحيانا الانتفاضات الثورية ، التى كانت تدل على بقاء روح الصمود والمقاومة للغاصب الأجنبى ، مع حرص المصرى فى جميع الحقب على خصائصه الروحية ، واستقلاله الفكرى ، وطابعه الثقافى • فبقى مؤمنا بآلهته ، مؤديا لها العبادات والطقوس ، شديد الحرص على لغته ، وعلى أساليبه فى الفن والعمارة ، وتقاليده فى الزراعة والصناعة ، وعاداته العائلية ، وسمات حياته فى القرية ، هذا كله فضلا عن قدرة المصريين العجيبة على هضم الغزاة ، وتحويلهم الى أشباه مصريين لغة ومظهرا ، وعقيدة احيانا ، فآلهة المصريين جاوزت البحر الأبيض المتوسط ، وكانت لها فى ظل الحكم الاغريقى والرومانى مراكز عبادة فى الشاطىء الشمالى •

غرس بذورها محمد على واسماعيل دون قصد ، لم تمت .. لقد بدأت كرد فعل لالتحاق مصر بنظام أوربا السياسي والاقتصادى فى القرن التاسع عشر وتأثير ذلك على مجتمعها وثقافتها .

كل ما أحدثه الاحتلال البريطانى أنه أعاد توجيه بؤرتى اهتمام الحركة الوطنية بالنسبة لكل من « نحن » و « هم » . فمصر الآن وقد تحررت بالفعل من السيطرة العثمانية ، أصبحت بوضوح تام هى بؤرة الولاء الرئيسى ، وبخاصة بالنسبة للصفوة المتعلمة . وأصبح أهلها ، بصرف النظر عن الجنس أو الديانة ، وبقدر ما يعتبرون أنفسهم مصريين يكونون الـ « نحن » التى ستتبلور حولها الحركة الوطنية . ولم تعد « هم » موزعة بين الأقلية الحاكمة من غير المصريين — الأسرة الخديوية والأتراك والجراكسة الذين كانوا يسيطرون على أرقى المناصب فى الجيش والادارة — والأوربيين والأجانب . فقد أصبحت القوة الحقيقية مركزة الآن فى يد كرومر — يظاهره جيش الاحتلال البريطانى ومن ثم فهو الخطر الخارجى الرئيسى الذى سيتحد الوطنيون المصريون ضده .

وبعد اتهام عرابى بالخيانة وتطهير الجيش من أنصاره لن يكون الوطنيون الجدد ضباطا ، ولكن من أبناء الطبقة المصرية المتوسطة حديثة النشأة ، وبصفة خاصة أكثر قطاعاتها وعياوهم الصحفيون والمحامون . وسوف يحتاجون ، فى البداية على الأقل الى تأييد خارجى ، ستقدمه لهم باريس واستانبول ، ثم قصر عابدين ، بعد أن خلف عباس حلمى الثانى أباه سنة ١٨٩٢ . ولن تلبث الحركة أن تخلق زعماءها ، غالبا من بين الشبان الذين لم يعرفوا مد سنة ١٨٨٢ ويأسها ، وكان أعظمهم جميعا المحامى النابه مصطفى كامل .

ومصطفى كامل ، كمعظم زعماء مصر الوطنيين ، لم ينشأ فى أعلى درجات السلم الاجتماعى ولا أدناها . فقد كان أبوه على محمد (١٨١٦— ١٨٨٦) المهندس بالجيش ابن تاجر غلال ناجح ، ينتمى الى سلالة من الفلاحين المصريين الاقحاح (١) ، أراد لابنه على محمد أن يدرس

---

(١) كتب مصطفى كامل يقول : « أنا فخور بأن أكون ابن ضابط جيش وحفيد فلاح » (على فهمى : « مصطفى كامل فى ٣٤ ربيعا » ، القاهرة ، مطبعة اللواء ، ١٩٠٩ ، ج ٦ ، ص ١٠٦ . ومن الآن فصاعدا سنشير الى هذا الكتاب بذكر اسم مؤلفه وحده والعبارة السابقة منقوشة على جدار متحف مصطفى كامل بالقاهرة . وقد أصبح معظم حكام مصر منذ سنة ١٩٥٢ من ضباط الجيش أبناء الفلاحين ، وهما طبقتان لم تنالا الا أقل تقدير من النظام القديم .

علوم الدين ، وهى خطوه الصعود التقليدية بالنسبة للنابهين من ابناء الفلاحين ، ولكن محمد على ــ بظمئـــة الملح لمواطنين مدربين فنيا ــ رأى غير ذلك ، فدرس الفتى الهندسة فى مدارسه الحربية . ورقى فى النهاية الى رتبة يوز باشى أول ، وخدم فى حرس الشرف الخاص بسـعيد ، وتزوج ثلاث مرات من بنات ضباط من زملائه أو موظفى حكومة ٠

وهكذا أصبح على محمد فى طبقـة الصـفوة البيروقراطيـة ــ العسكرية التى كونها محمد على وخلفاؤه ولكن لا شك أن المصرى المسلم المحافظ لم يكن يضع مهندس الجيش فى مكانة أسمى من الشيخ الأزهرى الذى كان من الممكن أن يكونه على محمـد ٠ فالواقع أنه كان من أعـز آمـاله أن يـدرس ابنـه السـادس « مصـطفى » فى الأزهر ذات يوم ٠

وكانت « حفيظة » والدة مصـــطفى كامل ابنة ضـــابط بالجيش ومن سلالة النبى ولم تكن الأسرة غنية ولا فقيرة فسكنت فى قســـم الخليفة ، وكان وقتـــذاك من أحيـــاء المســـلمين المحترمة بالقـاهرة ٠ وأرســـل جميع الأبناء الى المدارس ، والتحق أحدهم بمدرسة الطب بالقصر العينى ٠ وحين توفى « على محمـد » خلف لابنـه الثالث حسين واصف ميراثا وفيرا ليتم تعليم أبنـــاءه الأصـغر ســـنا : على فهمى ومصطفى ، وحسن ٠ (١)

وقد أظهر مصطفى فى طفولته أمارات ذكاء مبكر واستعداد للزعامة وحينما بلغ الخامسة أحضر أبوه فقيها (٢) ليعلمه مبـــادىء القراءة والكتابة بدلا من أن يرسله الى الكتاب ، وفى السنة التالية ألحقه بمدرسة « أم عباس » (٣) الحكومية ذات المكانة الممتازة ٠ وانتقل مصـــطفى من مدرسة لأخرى ، وواصل دراسته بنجاح ٠ ويروى شقيقه قصة تصور نضـــج استقلاله السياسى المبكر ٠ فقد زار الخـــديو مدرسته

---

(١) لتفصيلات عن تاريخ الأسرة ٠ انظر : على فهمى كامل ، ج ١ ، ص ص ٥٤ ــ ٦٢ ، هامش ص ٩٣ ، وحسين واصف (المتوفى سنة ١٩٤٠) أصبح موظفا مهما ، وبعد ذلك بقليل وزيرا للأشغال العمومية ، ولم يقم بأى دور ايجابى فى الحزب الوطنى ٠

(٢) الفقيه فى الأصل هو الخبير فى الفقه ، او التشريع الاســلامى ، وتســتخدم الكلمة فى مصر كثيرا للدلالة على معلم المدرسة الابتدائية المقامة فى المسجد ، أو الكتاب ٠

(٣) لوصف مدرسة أم عباس التى يمكن مقارنتها من حيث المكانة التعليمية بمدرسة مانهاتان الابتدائية رقم ٦ ٠ أنظر : « حياتى » لأحمد أمين ، ط ٣ ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٩ ، ص ص ٥١ ــ ٥٧ ٠

يوم توزيع الجوائز • والقى مصطفى خطبة ، فأعجب توفيق ببلاغة الصبى واستدعاه أمامه وسأله عن اســـمه ، فحثه أحـــد أفراد الحرس (*) على أن يجيب • « عبد سموك » فرفض • وبعد انتهاء المقابلة قال مصـــطفى للضابط :

« لم يكن أبى عبدا ولست عبـــدا ، ولو انى اجبت بغير ذلك كما أردت لكنت كاذبا (١) والتحق مصـــطفى كامل سنة ١٨٨٧ بالمدرســـة « التجهيزية « (٢) ، وبدأ يبدى اهتماما ايجابيا بالسياسة وفى ســـنته الثانية بالمدرسة قاد حملة طلابيـــة لاقناع وزير المعـــارف على مبارك (المصلح المشهور فى القرن التاسع عشر) بالغاء قانون لا يسمح بنجاح الطالب الا اذا حصل على مجموع من الدرجات مبالغ فيـــه (٣) وحظى بعد ذلك برعاية على مبارك الذى منحه مجانية التعليم ودعاه الى منتداه السياسى ، وكان مقرا لاجتماع المصريين الذين لم يهادنوا الحكم البريطانى ومنهم العديد من كبار موظفى الحكومة ، وكان على يوسف من الشبان الذين التقى بهم مصطفى هناك • (٤)

ولم يعتمد مصطفى على اتصالاته الشـــخصية بالمنتديات الراقية وحدها ، بل أخذ ينمى مواهبه وأنصاره • فأسس وهو طالب بالمدرســة التجهيزية أول تنظيماته ، وهو جمعية الصليبة للخطابة ، وكان يلقى فيها خطابا كل أسبوع • ومع أن جمعية الصليبة لم تكن وطنية بالمعنى الدقيق

---

(١) على فهمى كامل ، جـ ١ ، ص ٩٩ •

(٢) لا ينبغى الخلط بين صفة المدرسة « التجهيزية » والمدرسة « الاعدادية » التى استخدمها المصريون حديثا للدلالة على المدارس الحـــكومية التى تتوسط المرحلتين الابتدائية والثانوية • فالمدرسة التى التحق بها مصطفى كامل كانت واحدة من مدرســتين ثانويتين حكوميتين بالقاهرة • وكانت تسمى « التجهيزية » بالنسبة للمدارس « العليا» أو المهنية وكان عدد تلاميذها (سنة ١٨٨٩) ٣٧٨ تلميذا ، من بينهم ١٨٠ يتعلمون مجانا • (محمد عبد الكريم : «على مبارك : **حياته ومآثره** » ، القاهرة ، مطبعة الرسالة ، د• ت• ص ١٢٤) ، وكان من بين مدرسى مصـــطفى كامل الدكتـــور محمـــود كامل الكفراوى (١٨٥٥ ـ ١٩٣١) من قدامى العرابيين (على فهمى كامل : جـ ١ ، ص ١١٢) •

(٣) على فهمى كامل : جـ ١ ، ص ص ١١٧ ـ ١٢٤ •

(٤) عبد الرحمن الرافعى : « **مصطفى كامل ، باعث الحركة الوطنية** » ، ط ٣ ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٠ ، ص ٢٤ • وعن صـــالون على مبارك ، انظر أيضا : احمد امين : «**زعماء الاصلاح فى العصر الحديث** » ، القـــاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٨ ، ص ١٥٨ •

(*) كان الذى طلب منه ذلك احد موظفى المدرسة وليس احد افراد الحرس •

للكلمة ، فقد التحق بالاضافة اليها بعدة جمعيات سياسية سرية كونها طلاب المدارس بالقاهرة (١) ٠٠

وحين نهى مصطفى دراسته الثانوية سنة ٨١٩١ التحق بمدرسة الحقوق الخديوية ، وكانت قبل ذلك مدرسة للغات ٠ ولم تكن مهنة القضاء قد حظيت بعد بكل الاحترام ، غير أن التحاق شاب من بيئة مصطفى المتواضعة نسبيا بهذه المدرسة كان يعتبر خطوة الى أعلى ، (٢) كما أنها كانت — كما كتب مصطفى الى شقيقة فى تبرير اختياره لها — « مدرسة فن الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأفراد والأمم ٠ » (٣) ولم تكن فى مصر مدرسة عليا غيرها يمكن أن تدرب زعيما وطنيا منتظرا تشبع بالفعل بقدر كبير من أيديولوجية القرن التاسع العشر الليبرالية وتأكيدها للحقوق القومية والفردية ٠ فقد كانت مدرسة الحقوق أقرب معهد فى مصر لكلية آداب متحررة ، كما كانت تقتدى فى تنظيمها ومناهجها بمدارس الحقوق الفرنسية (٤) ٠

وفى سنته الأولى بمدرسة الحقوق وقع مصطفى تحت تأثير لطيف سليم الحجازى والد فؤاد زميله فى الدراسة ، الذى مالبث أن أصبح بدوره أحد زعماء الوطنيين ٠ وكان لطيف سليم زعيم تمرد الضباط سنة ١٨٧٩ ، وتقاعد ، وأصبح صاحب ندوة منتظمة التقى فيها مصطفى بكثير من زعماء السياسة والفكر وبعدد ممن سيصبحون فيما بعد من أنصاره (٥) وبالاضافة الى ذلك ظل مصطفى عضوا عاملا فى بعض

---

(١) على فهمى كامل : جـ ١ ، هامش ١٢٥

(٢) لمناقشة ضآلة شأن المحامين فى القرن التاسع عشر ، انظر : « مصر تبحث عن مجتمع سياسى » لنداف صفران ٠

Nadav Safran : « Egypt in Search of Political Community », Harvard University Press, 1961, p. 271.

ونظام التشريع الاسلامى التقليدى لم يكن يعرف المحامين ٠

(٣) على فهمى كامل : جـ ١ ، ص ١٣٧ ٠

(٤) لمناقشة بواعث طلاب مدرسة الحقوق المصرية ودور مدرسة الحقوق الخديوية فيما بين سنتى ١٨٩٠ و ١٩١٤ انظر الفصل الثالث من هذه الدراسة ٠

(٥) كانت جماعة لطيف سليم تضم الشيخ على الليثى (١٨٢١ — ١٨٩٦) واسماعيل صبرى (١٨٥٤ — ١٩٢٣) ومحمود سليم واسماعيل الشيمى (الرافعى : « مصطفى كامل ٠٠ » ، ص ٣٣) وعن حياة لطيف سليم انظر : المرجع نفسه ص ٣٦٨ ٠

جمعيات الطلبة السرية . (١) وبدأ يكتب مقالات الجريدة «الأهرام» (٢)

وكانت وفاة الخديو توفيق فى يناير ١٨٩٢ وتوليـــة ابنـه عباس ذى الثمانى عشرة سنة والارادة القوية ، نقطـــة تحول فى تاريخ الحركة الوطنية ، فلم يكن تعليمه ولا شـخصيته تؤهله للقيام بدور أبيه كقناع حاكم يختفى وراءه البريطانيـون ، ولا أى قوة أجنبية أخرى . (٣) فلم يكد يتولى العرش حتى حاولت فرنسا وتركيا اختبـــار مدى نفوذهمـــا على الخديـو فاقترحتـا عزل وزراء أبيه ، كما أصـــدرت الحـــكومة العثمانية فرمان ولايته منكرة فيه مطالب مصر فى سيناء ، ولكن ضغط بريطانيا الدبلوماسية على استانبول أجبر السلطان على التراجع (٤) .

وقف الخديو فى البداية الى جانب كرومر ضد هذه التهديدات الخارجية ، لكنـه سرعان مادبر حركة التفـاف فى محـاولة لتأكيـد استقلاله السياسى . ووقع أول صـــدام صريح بين الرجلين فى ينـاير ١٨٩٣ حينما حاول عباس عزل رئيس وزرائه مصطفى فهمى المؤيد للبريطانيين وتعيين حســين فخرى مكانه وهـو المعـــارض للتعاون مع كرومر (٥) وتلت هذه الأزمة الوزارية مباشرة عودة الأحرار البريطانيين الى الحكم ، بعد حملة انتخابية قوية معادية للاستعمار .

---

(١) على فهمى كامل : جـ ١ ، ص ١٤٠ .

(٢) على فهمى كامل : جـ ١ ، ص ١٤٣ . لما كانت « الأهرام » تؤيد الفرنسيين ، والى حد ما الأتراك فقد أصبحت ، كالمؤيد ، منبرا مناسبا لمعارضى حكم بريطانيا لمصر .

(٣) تلقى عباس تعليمه الثانوى فى كلية « الترزيانوم » بفيينا ، وهى مدرســة ممتازة المستوى ، أنشئت لتعليم أبناء طبقة نبلاء النمسا والمجر ، وذلك بسبب اعتقاد توفيق أنه من سوء السياسة أن يعلم وريثه فى انجلترا أو فرنسا ، وهما القوتان اللتان تحرصان أكثر من غيرهما على التدخل فى مصر . وقد وصفت كتب كثيرة شخصية الحاكم الشاب ، ومن أشهرها « عباس الثانى » للورد كرومر .

Lord Cromer : « Abbas II », London, Macmillan, 1915.

وان كانت رواية فردريك ك. بنفيلد فى كتابه « مصر المعاصرة » أكثر تعاطفا ومعاصرة

Fredric C. Penfield : « Present-Day Egypt », New York Century, 1899, pp. 272-297.

(٤) Cromer : « Modern Egypt », II, pp. 267-269, and « Abbas II » p. 4f.

(٥) كان من بين من أيدوا الخديوى المندوب السامى التركى ، وقنصل فرنسا العام (الذى ما لبث أن تخلى عن تأييده) ورياض باشا ، وللحصول على قائمة أكبر ، انظر : « مذكراتى » لويليفريد س. بلنت .

Wilfrid S. Blunt : « My Diaries » (Single Volume Ed.), London, Martin Secker, 1932, p. 87.

وخشى كرومر على مستقبل نفوذ بريطانيا فى مصر ، فسعى للحصول على تأييد حكومته ، ولكن غالبية أعضاء مجلس الوزراء ، وعلى رأسهم جلادستون ، كانوا لا يزالون ملتزمين بالجلاء عن مصر فعارضوه . لم يؤيده غير وزير الخارجية لورد روزبيرى (وساندته الملكة فيكتوريا) فى ضرورة أن تتخذ بريطانيا موقفا حازما فى مصر ، فما لبثت أن كتبت له الغلبة ، وأصدر روزبيرى تعليماته الى كرومر بتحذير الخديو من تغيير وزرائه دون استشارة بريطانيا .

ولتجنب خطر أى تحرك للوطنية المنبعثة أنزلت كتيبة من المشاة فى بور سعيد لتعزيز الحامية البريطانية . وتوصل كرومر وعباس الى حل وسط منعا للحرج ، باعادة رياض باشا لرئاسة الوزراء مرة أخرى . (١) ولكن الخديو شعر أنه امتهن علنا فبدأ يتحين الفرص للانتقام .

واذا كان وجود جيش الاحتلال البريطانى قد جعل لكرومر اليد العليا غالبا ، فان هذا لا يعنى أن الخديو كان مجردا من كل قوة . فالواقع أنه لا يمكن دراسة عباس ودوره فى الحركة الوطنية دون التنبية الى أن المال كان مصدر قوته . فقد استخدمه فى الانفاق على الاشخاص والحركات التى تفيده . وكلما ازداد المال الذى يملكه ازداد تبعا لذلك عدد الأشخاص الذين يمكنه السيطرة عليهم . بدأت ثروته بميراث كبير آل اليه من أبيه ، ومرتب حكومى ضخم كما كانت له السيطرة على الأوقاف ، واستباح موظفوه اختلاس مبالغ كبيرة لحسابه أو لحسابهم من الأموال المخصصة للاغراض الدينية دون أن يتدخل كرومر ، مشفقا من زيادة عمق المشاعر المعادية لبريطانيا بالتدخل فى مسائل اسلامية(٢) ، ولكى يحصل عباس على دخل أكبر أخذ يضارب بالأراضى ، وبدأ ذلك التقليد التعس ، تقليد بيع رتب الدولة وأوسمتها . وحين وجد نفسه عاجزا عن اختيار وزرائه حشد بين موظفى قصره عددا من المستشارين

---

(١) Cromer; « Abbas II », pp. 20-41. ، « روزبيرى » لروبرت رودس جيمس .
Robeot James: «Rosebery», London, Weidenfeld and Nicolson, 1963, pp 279-280.

ووفقا لما جاء فى الكتاب الأخير فقد هدد كل من روزبيرى وكرومر بالاستقالة مالم يعدل مجلس الوزراء عن موقفه المعادى للاستعمار . وهذه الواقعة تسجل خطوة حاسمة نحو انتصار فكرة الاستعمار داخل حزب الأحرار . ولم يلق الوطنيون المصريون الا عطفا شحيحا من وزارات الأحرار فيما بين عامى ١٩٠٦ و ١٩١٦ .

(٢) « Abbas II » : p. 70f.

المعادين لبريطانيا كلويس روييه ، والدكتور صادق رمضان ، واحمد شفيق ، والشيخ عبد الرحمن أحمد . (١) وتحول كذلك الى المصريين والأوربيين خارج القصر ، من أمثال يوسف صديق ، ومحمود سالم ، وارستيد جافيو (٢) ، وكان يبحث عن الصحفيين والعملاء السياسيين ممن يستطيعون حشــد التأييد الداخلي والخـــارجي . ومن المرجح أنه بـدأ بتمويل كبير مستشاريه الشيخ علي يوسف الذي جعـل « المؤيد » اداة في يد القصر كما أبدى للسبب نفسه اهتماما بمصطفى كامل .

وخلال عامه الثاني بمدرسة الحقوق الخديوية حقق مصطفى تقدما في عمله الصحفي ، فتحول من كاتب مقالات متفرقة « بالاهرام » الى اصدار مجلته الشهرية « المدرسة » (٣) ، ولعله من خلال تلك المجازفة وقع تحت تأثير عبد الله النديم صـــحافي الثورة العرابية وخطيبهـــا ، وكان عباس قد سمح له بالعودة من المنفى سـنة ١٨٩٢ . وقد أصـــدر النديم مجلة أسبوعية اسمها « الأستاذ » استمرت من أغسطس ١٨٨٢ حتى يونيـــو ١٨٨٣ ، ولـــكن مقالاته الســـاخرة ضـــد الانجليز اضطرت كرومر في النهاية الىطلب ابعاده . والمعتقد أن النديم قابل مصطفى ونصحه باعتباره زعيما وطنيا مأمولا ، بأن يتجنب اعادة أخطاء العرابيين ، وهي معارضتهم للخديو واعتمـــادهم على الجيش أكثر من

---

(١) لويس روييه مواطن سويسري اختاره الخديو سكرتيرا خاصا له . دكتـور صادق رمضان « ١٨٦٧ - ١٩٤١ » كان طبيب القصر . أحمد شفيق (١٨٦٠ - ١٩٤٠) تعتبر مذكراته مصدرا رئيسيا للسياسة المصرية أثنـاء حكم عباس ، وقد تولى رئاسة ديوانه العربي والأوربي سنوات عديدة . الشيخ عبد الرحمن أحمد ، المدرس السابق لعباس ، التحق بحاشيته واصبح حلقة الاتصـال بينه وبين مصطفى كامل . وقد نشر د. محمد أنيس مراســلاتهما في « صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل » ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٢ .

(٢) يوسف صديق (١٨٦٩ - ١٩٢٨) ابن « المفتش » الذي كان مستشارا للخديو اسماعيل ولقي مصرعه على يديه ، وفي سنة ١٨٩٣ كان الابن قاضيا بالمحكمة المختلطة في المنصورة . محمود سالم (عرفات) كان هو الآخر قاضيا وثيق الصلة بلطيف سليم وأصدر فيما بعد « عرفات » ، وهي جريدة اسلامية باللغة الفرنسية . أرستيد جافيو ، كان مراسل وكالة « هافاس » للأنباء بمصر ، وهو مؤلف كتاب « انجلترا تخرب مصر » «L'Angleterre ruine l'Egypte» Paris, André, 1895.

(٣) أعاد علي فهمي كامل نشر أجزاء من مجلة « المدرسـة » في الجزء الأول من كتابه ص ص ١٨٧ - ٣٢٨ . وكان عدد المشتركين فيها ٢٤٠٠ ، وكانت أول مجلة مدرسية مصرية وفقا لما يذهب اليه عبد اللطيف حمزة :« أدب المقالة الصحفية في مصر » ، جـ٥ : مصطفى كامل ، القاهرة ، مطبعة الجريدة التجارية المصرية ، ١٩٥٢ ، ص ٤٧

الرأى العام (١) وكان استاذا مصطفى المبكران ــ النديم تلخص سليم ــ هما كل صلته بالحركة الوطنية الأولى ٠ ونصيحه النديم تلخص الفروق الأساسية بين مصطفى كامل وعرابى ٠ والواقع أن بعض الصعوبات التى ستواجه مصطفى كامل فيما بعد كانت نتيجة لمبالغتة فى الحرص على اتباع تلك النصيحة ٠

والمرجح أن أول لقاء بين الخديو ومصطفى تم حين زار الخديو مدرسة الحقوق فى نوفمبر سنة ١٨٩٢ ، فالقى الكاتب الشاب خطبة ترحيب باسم زملائه الطلبة (٢) ولا بد أن مصطفى استلفت انتباه الخديو مرة أخرى حين قاد مظاهرة احتجاج من الطلبة فى يناير سنة ١٩٨٣ ضد جريدة « المقطم ، لتأييدها لكرومر خلال الأزمة الوزارية (٣) ورغم ذلك فليس هناك دليل على أنه بدا يتلقى على الفور اعانات مالية من الخديو ، وان كان من المحتمل أن عباسا أنفق على طبع مجلة « المدرسة » ، أو دفع تكاليف رحلة مصطفى الأولى الى باريس سنة ١٨٩٣ ليؤدى امتحانه ٠ (٤)

---

(١) الرفاعى : « **مصطفى كامل** » ، ص ٣٦ ، جورجى زيدان : « **تراجم مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر** » ، القاهرة ، مطبعة الهلال ، ١٩٢٢ ص ٢٩٥ ، ك٠ك٠ آدمز : « **الاسلام والتمدين فى مصر** »

C.C. Adams : «Islam and Modernism in Egypt», London, Oxford University Press, 1933, p. 222

وعن حياة عبد الله النديم ومؤلفاته انظر : ابراهيم عبده : « **أعلام الصحافة العربية** » ، القاهرة ، د٠ت ص‌ص ١٢٥ ــ ١٢٩ ، ومقال « عبد الله النديم » لجيلبرت دلانو بمجلة الدراسات الشرقية

Gilbert Delanoue : "Abd Allah Nadim», Bulletin des Etudes Orientales, XVIII (1961-62), pp. 75-115

، على الحديدى : «**عبد الله النديم ــ خطيب الوطنية**» ، القاهرة ، وزارة الثقافة والارشاد القومى ، ١٩٦٢ ، وقد اعتمد فيه على رسالته غير المنشورة للدكتوراه من جامعة لندن ، محمد أحمد خلف الله : « **عبد الله النديم ومذكراته السياسية** » ٠ القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٦ ٠

(٢) أحمد شفيق « **مذكراتى فى نصف قرن** » ، جـ ٢ ، ص ص : ط ، ٥٠ ، ١٩٠ ، عبد الرحمن الرافعى : « **مصطفى كامل** ٠٠ » ، ص ٣٤ ، والعبارة التى نسبها « بلنت » الى مصطفى كامل فى كتابه « مذكراتى » (My Diaries : p. 564). من أنه هو وعباس درسا فى أوربا معا ٠٠ غير صحيحة ٠

(٣) **أحمد شفيق** ، جـ ٢ ، ص : ط ، ٦٢ **على فهمى كامل** ، جـ ١ ، ص ١٤٥ ، الرافعى ، ص ٣٥ ٠

(٤) اقتنع مصطفى سنة ١٨٩٢ بنصيحة صديقه فؤاد سليم بالالتحاق بمدرسة الحقوق الفرنسية بالاضافة الى الحقوق الخديوية ٠ وكانت مدرسة الحقوق الفرنسية =

وأثناء وجود مصطفى فى باريس قام لطيف سليم واتباعه ببعث الحزب الوطنى ليقوموا بتنظيم الشعب المصرى ليعمل من أجل استقلاله عن بريطانيا ، ويعرضوا قضية مصر على الرأى العام الاوربى ، والفرنسى بصفة أخص • وكان من بين أعضاء الحزب نواب ، وملاك ، وقضاة ، وكتاب ، وكل مؤيدى عباس ضد كرومر • (١) وعند عودة مصطفى كامل من باريس انضم بدوره الى الحزب ، ولكن ربما كان على يوسف أكبر كتاب الصحافة الناطقين بلسانه . وليس من المعروف هل كانت للحزب ارتباطات مباشرة بالقصر أم لا ، وهل كان وجوده متصلا أم متقطعا •

= تفرض على طلابها أداء امتحاناتهم فى فرنسا • واعتمادا على رواية محمد حسين هيكل فى كتابه « **تراجم مصرية وغربية** » (القاهرة ، مطبعة مصر ، ١٩٢٩ ، ص ١٤٤) قام الخديو بدفع نفقات تعليم مصطفى • ولكن ربما كان الأقرب للحقيقة أن أخاه غير الشقيق حسين واصف الذى رافقه الى باريس سنة ١٨٩٣ هو الذى دفع نفقات الرحلة • وحينما عاد مصطفى من باريس فى العام التالى من المرجح أن أخاه الآخر غير الشقيق الدكتور عبد الفتاح فتحى هو الذى قام بالانفاق عليه ، على نحو ما ذكر أحمد رشاد فى كتابه « **مصطفى كامل : حياته وكفاحه** » ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٩٥٨ ، ص ٤٩ • ومن المهم معرفة اذا كان الخديو قد أنفق على مصطفى قبل سنة ١٨٩٥ أم لا لتحديد مدى معاونة القصر المباشرة فى بعث الحزب الوطنى المصرى •

(١) كان من بين الأعضاء المؤسسين : اسماعيل صبرى (١٨٥٤ — ١٩٢٣) وهو شاعر مشهور وقاض ، ومحمود سالم ، واسماعيل الشيمى (توفى سنة ١٩١٢) وكانا قاضيين بالمحكمة المختلطة بالمنصورة ، ومحمود مجدى (١٨٥٨ — ١٩٢٠) القاضى بمحكمة الاستئناف الأهلية ، وحسن عاصم (١٨٥٨ — ١٩٠٧) وكان وقتها رئيس النيابة العامة بطنطا ، وأصبح فيما بعد كبير تشريفاتيه الخديو ، ومحمود أنيس ومحمود خلوصى من رجال التعليم ، ومحمد فريد (١٨٦٨ — ١٩١٩) وكيل النائب العام بالقاهرة ، ثم خليفة مصطفى كامل فى زعامة الحزب الوطنى بعد ذلك • واتصل بالحزب بصفة غير رسمية أحمد الصوفانى نائب رئيس مجلس النواب ، وابنه عبد اللطيف الذى ظل وطنيا نشطا حتى وفاته سنة ١٩٢٥ وحسن عبد الرازق نائب المنيا فى مجلس النواب وبعد ذلك أول رئيس لحزب الأمة •

تكوين الائتلاف الوطنى

منذ سنة ۱۸۹۳ بذلت مساع جادة لتكوين اتحاد بين مختلف الأحزاب المعارضة للحكم البريطانى فى مصر وهى : الخـــديو والمحيطون به ، والمواطنون الفرنسيون الذين يؤثرون سياسة استعمارية صريحـة ، والحكومة العثمانية وعملاؤها من دعاة الجامعة الاسلامية ، ثم الوطنيون المصريون . فى البداية قام الخديو بالمبادرة الرئيسية فى هذه المحاولة ، وما لبث مصطفى كامل أن برز كشخصية شعبية بفضل براعته فى الخطابة والكتابة فكانت مهمته الأولى هى كسب تأييد الأوربيين والعثمانيين للخديو ضد كرمر ..

وخــــلال ســـــنة ۱۸۹۳ ازداد توتر العــلاقات بين القصر والمعتمد البريطانى ، وانتشر شعور العــداء لبريطانيا ، وازداد حدة عقب الأزمـة الوزارية . ولاحظ كرومر أن الجميع يـــكادون يقـــاطعون الموظفين الانجليز ومؤيديهم من المصريين . (۱) وشــــاع الاعتقاد بأن بريطانيا لن تلبـث أن ترحل عن مصر بســـبب اصرار جلادســـتون على معـــاداة الاستعمار . (۲) فاتخذ المصريون المهتمون بالســـياسة جانب الخديو ،

---

(۱) الماكيز زيتلاند : « اللورد كرومر » .
Marquis of Zethand : « Lord Cromer », London Hodder and Stoughton, 1932,. p. 205, « Abbas II », pp. 45-49.

(۲) يذكر السيد توماس باركلاى — فى كتابه « ثلاثون سنة ، ذكريات انجلو — فرنسية : ۱۸۷۹ — ۱۹۰٦ » .
Sir Thomas Barclay : «Thirty Years : Anglo French Reminiscences», 1879-1906», Boston, Mifflin, 1914. p. 113 f.
أن السير جون سكوت المستشار القانونى وهو يعرض عليه منصبا بالقضاء المصرى سنة ۱۸۹٤ حذره من الاعتماد على ضمانات الملكية العقارية بسبب الجلاء المحتمل عن مصر فى تاريخ غير بعيد .

ان لم يكن عن عقيدة ، فمن باب الفطنة ، وأصبح من الواضح أن أزمة جديدة تتجمع خيوطها . وما لبثت العاصفة ان هبت فى « حادثة الحدود » فى يناير سنة ١٨٩٤ . فبينما كان الخديو يقوم بجولة تفتيش عسكرية فى صعيد مصر وبصحبته وكيل وزارة الحربية ماهر باشا (*) ، اذا به يوجه نقد علنيا للضباط الانجليز . واعتبر الجنرال كتشنر سردار (أو قائد عام) الجيش المصرى تصرف الخديو محاولة واضحة للقضاء على هيبة النظام فى القوات المصرية ، فقدم استقالته على الفور . وكان كرومر يتحين الفرص منذ مدة طويلة لردع الخديو ، فما كان منه الا أن أيد موقف كتشنر ، واضطر «عباس» الى اصدار أمر ينشر فى الجريدة الرسمية بالثناء على الجيش وضباطه الانجليز . وسحب كتشنر استقالته فى حين عزل ماهر باشا ومعظم أعضاء وزارة رياض . منذ ذلك الحين أضمر الخديو عباس الحقد لكرومر وكتشنر . (١) .

وعلى الرغم من أن أحدا من مؤرخى سيرة مصطفى كامل لم يذكر انه سنة ١٨٩٤ كان قد أصبح عميلا للقصر (**) ، فان تصرفاته فى باريس حين ذهب اليها ليؤدى امتحانات سنته الدراسية الثانية توحى بأنه كان كذلك بالفعل ، اذ ليس من المألوف أن يقيم طالب حقوق فى العشرين من عمره مآدب ضخمة فى باريس على نحو ما فعل مصطفى

---

(١) فيليب ماجنوس : « كتشنر : صورة استعمارى »

Philip Magnus : « Kitchener : Portrait of an Imperialist » London, John Murray, 1958, pp. 83-89.

(٢) الرافعى « مصطفى كامل » ص ص ٣٢١ – ٣٢٣ .

(*) هو محمد ماهر باشا الذى عين بعد هذه الحادثة محافظا للقاهرة ، وهو والد السياسيين المصريين الكبيرين على ماهر باشا وأحمد ماهر باشا ، وشقيق الزعيم الوطنى الفذ عبد الرحمن فهمى بك الذى قاد ثورة سنة ١٩١٩ اثناء غياب سعد وصحبه فى اوروبا ما بين ابريل سنة ١٩١٩ وابريل سنة ١٩٢١ .

(**) لفظ « عمل » غير موفق اطلاقا لأن مصطفى كامل لم يعمل قط لحساب الخديو ، سواء بصفته حاكما رسميا لمصر او زعيما لحركة معادية للاحتلال البريطانى ، انما كان يعمل دائما بوصفة ندا للخديو ، والخطابات والمذكرات التى نشرت اخيرا تثبت كيف كان مصطفى يختلف مع الخديو فى توجيه السياسة الوطنية ، وكيف كان يجرؤ على توجيه النصح ، واحيانا اللوم ، للخديو . ويمكن الرجوع الى هذه المذكرات والخطابات فيما نشره د. محمد انيس وعبد العزيز دنيا ، وقد اشرت اليها وعلقت عليها طويلا فى كتابى مصطفى كامل الذى نشرته دار المعارف فى سلسلة « اقرأ » فى يناير ١٩٧٥ بمناسبة مضى مائة عام على مولد الزعيم .

فى مناسبة عيد جلوس السلطان عبد الحميد على العرش (١) فلعل الخديو ، وكان لا يزال يسعى للفوز بالتأييد العثمانى ، هو الذى دفع النفقات ٠

وقد أصبح مصطفى عميلا ممتازا بسبب انتهازيته (*) وسرعة بديهته ٠ فبينما كان عائدا الى بلاده ــ بعد أن نال شهادته فى القانون من جامعة تولوز ــ جرت محادثة فوق ظهر السفينة بينه والأدميرال بارينج ــ شقيق كرومر ــ الذى اعترف صراحة أن بريطانيا لن تغادر مصر تنفيذا لوعودها ، أو ارضاء فرنسا ٠ ونشر مصطفى تقريرا عن هذا اللقاء فى جريدة « الأهرام » ، فأثار انتباه الرأى العام للكاتب ولغدر بريطانيا الواضح فى وقت واحد ٠ (٢) ولم يلبث أن كون أثر عودته مع الخديو جمعية سرية جديدة معادية لانجلترا ، ضمت كبار المصريين والأوربيين الملتفين حول القصر ، (٣) ووثقت صلاتها بالقنصل الفرنسى وعدد من الموظفين الفرنسيين بالحكومة المصرية (٤)

فمنذ سنة ١٨٨٢ والوطنيون الفرنسيون يعادون بريطانيا بسبب احتلالها لمصر بصورة تكاد تقارب معاداتهم للألمان لخسارتهم الألزاس واللورين سنة ١٨٧١ ، فقد أدركوا أن فى استمرار الوجود البريطانى قضاء تدريجيا على المكانة الممتازة التى حققتها فرنسا فى مجالى

---

(١) على فهمى كامل ج ٢ ، ص ص ١٢١ ــ ١٣٤ ٠

(٢) مصطفى كامل : « حديث ذو شأن » ، الأهرام » ، ٢٨ يناير ١٨٩٥ ٠ ولنشر النص على فهمى كامل ، ج ٣ ، ص ص ٢٠ ــ ٢٨ ، وأحمد شفيق ، ج ٢ ، ص ص ١٩٢ ــ ١٩٥ ، رشاد ، ص ص ٥٤ ــ ٥٨ ٠

(٣) أحمد شفيق ، ج ٢ ، ص ١٩٠ ، حيث ذكر نفسه بين أعضاء الجمعية ، بالاضافة الى روييه واسماعيل الشيمى ، ويوسف صديق ، ومحمود سالم ، وأوستيد جافيو ٠ من المحتمل أن تكون هذه الجمعية هى نفسها « جمعية احياء الوطن » التى أشار اليها على فهمى كامل ، ج ٢ ص ٢٤٣ ٠

(٤) فى مذكراته التى نشرتها جريدة « المصرى » بعد وفاته ، واستشهد بها محمد أنيس فى « صفحات مطوية ٠٠ » ، ص ١٨ ، يذكر الخديو بين هؤلاء الموظفين مسيو بوترون رئيس اللجنة المختلطة بادارة الأملاك ، ومسيو برونيير رئيس المحكمة المختلطة بالقاهرة ، ومسيو فيكتور بروميت بادارة السكة الحديد ، كما ذكر أحمد شفيق أيضا المستشارين القانونيين للمعتمد الفرنسى وهما : مسيون آن مارى ، ومسيو جوردان بيترى ٠

(*) اذا كان المؤلف يعنى بلفظ « انتهازيته » حسن استغلال مصطفى كامل للفرص المتاحة لخدمة قضيته ، وانتهاز الفرص المؤيدة لمساعيه فنحن نوافق على استعمال هذا اللفظ ، أما اذا كان المقصود بالانتهازية هى انتهاز الفرص التى تخدم الأغراض الشخصية والمنافع الذاتية فنحن لا نقره ٠

الاقتصاد والثقافة فى مصر بشق الأنفس . وحاول كثير من السياسيين والمحامين والصحفيين والمدرسين الفرنسيين ابطال هذا الأثر بالعمل من أجل اجلاء البريطانيين عن مصر . وكذلك ينبغى تقدير معارضة فرنسا لحكم بريطانيا لمصر على ضوء كفاحها للتفوق الاستعمارى فى شمال افريقيا . فقد كان من الواضح أن امبراطورية الخليفة السودانى الذى خلف المهدى لن تعمر طويلا ، وأن كلا من بريطانيا وفرنسا تريد ملء الفراغ الذى سينجم عن سقوطه . فقد كان من المسلم به بشكل عام أن من يستولى على السودان يمكنه السيطرة على مصر . فقد القى مهندس فرنسى محاضرة فى القاهرة سنة ١٨٩٣ حول امكان اقامة خزانات فى أعالى النيل لتنظيم امداد مصر بالمياه ، وعن الاحتمالات السياسية المترتبة على مثل هذا المشروع وأثارت المحاضرة اهتماما كبيرا فى فرنسا ، وحث كثير من الساسة الحكومة الفرنسية على ارسال حملة عسكرية للسيطرة على السودان ، وسد النيل الأعلى والتهديد بحجز نصيب مصر من المياه أو اغراق البلاد بأكملها ما لم تسحب بريطانيا قواتها من مصر أو تقدم امتيازات أخرى لفرنسا . (١)

وقام فرانسواز ديلا نكول أحد زعماء الداعين الى هذه السياسة بمجلس النواب الفرنسى بزيارة لمصر فى مارس سنة ١٨٩٥ صحبتها حملة دعاية ضخمة (٢) ولما كان قد ألقى كلمة فى الحفل العثمانى الذى أقامه مصطفى كامل بباريس سنة ١٨٩٤ ، فقد كان ذلك الوطنى الشاب هو الذى قام باستقباله فى الاسكندرية ، وصحبه فى كل حفلاته خلال اقامته التى استمرت ثلاثة أسابيع . ورحب الوطنيون وحاشية القصر

---

(١) وليم ل. لانجر : « دبلوماسية الاستعمار »
William L. Langer : « The Diplomacy of Imperialism », 2nd ed., New York, Alfred A Knopf, 1960, pp. 127-129.

ومما هو جدير بالذكر أن ذلك المهندس هو فيكتور برومبت الذى انضم فيما بعد الى جمعية الخديو السرية .

(٢) جريدة « التيمس » اللندنية أعداد ٢٣ و ٢٥ مارس و ١٥ ابريل ١٨٩٥
« The Times », London, 23 and 25 March and 15 April 1895.

وقد جاء فيما كتبه مراسل الجريدة فى باريس فى عدد ٢٣ مارس تفسير لعطف ديلانكول على القضية الوطنية المصرية لا بتطلعات فرنسا الاستعمارية وحدها ، بل كذلك بطموحه الشخصى لأن يصبح وزيرا للمستعمرات ، وهو مالم يفز به أبدا . وعن فرانسواز ديلانكول انظر مقال هـ . تمرسون فى « قاموس التراجم الفرنسى »
H. Temerson in the "Dictionnaire de biographie Française", fasc. 58, Pairs Librairie Letouzey et Ané, 1964, p. 874.

بديلا نكول وكأنه محرر مصر ، ولا يخفى أنه اتفق مع الخديو على التعاون ضد البريطانيين (١) ومن تلك الاتفاقية أن يبعث الخديو مصطفى الى باريس ليساعد على اثارة ضغط فرنسى رسمى على بريطانيا كى تنسحب من مصر . وتنفيذا لذلك سافر مصطفى الى باريس فى مايو ١٨٩٥ يحمل معه نداء موجها الى رئيس مجلس النواب يناشد فيه فرنسا أن تحرر مصر من طغيان بريطانيا . (٢) وقام ديلانكول بدوره بمساعدة مصطفى على الاتصال بالصحف الفرنسية ومقابلة المسئولين الفرنسيين والحصول على تأييد مراسلى الصحف الألمانية والنمساوية والروسية فى باريس لقيام تحالف أوربى ضد بريطانيا فى المسألة المصرية ، وكان على « مصطفى » كذلك أن ينظم صفوف المصريين المقيمين فى باريس فى شكل حزب سياسى يعمل من أجل تحرير مصر ، وانشاء جريدة للدعاية

ولم تنفذ هذه الخطط ، اذ يبدو أن ديلانكول أحس بالغيرة من مصطفى كامل ، وبدأ يدعى (ولعله كان محقا) أنه احضره الى باريس ليعمل « سكرتيرا عربياله » ، ومن ثم لم يقدمه لأى من أصدقائه ذوى النفوذ ، وأسوأ من ذلك ما اتضح من أن لديلانكول عددا مساوية من الأعداء ذوى النفوذ لم ير مصطفى داعيا لمعاداتهم ، (٣) فما لبثا ان تشاجرا ورغم أنهما تصالحا بعد ذلك ، الأمر الذى خفف كثيرا من ضيق حاشية الخديو (٤) ، فقد افترقا مرة أخرى ، واضطر مصطفى كامل الى العمل وحده (٥) ويبدو أن تلك المشاجرة صحبها انقسام بين الأعضاء المصريين والفرنسيين فى جمعية الخديو السرية . واعتقد مصطفى أن الأعضاء الفرنسيين بقيادة جافيو ، يحاولون اقناع الخديو عباس باعادته الى مصر ، خاصة بعد أن بدأ يلقى الخطب ، ويدلى

---

(١) أحمد شفيق ج ١ ، ص ص ١٩٧ ، ١٩٩ .

(٢) على فهمى كامل : ص ٧٥ . وعن تقديم النداء انظر : جريدة « التميس » « The Times » اللندنية فى ٦ ، ٧ ، ٨ يونيو ١٨٩٥ . 6,7. and 8 June 1895. وتنسب كتابته الى ديلانكول .

(٣) من مصطفى كامل الى أحمد شفيق . باريس فى ٦ يونيو ١٨٩٥ ، فى كتاب شفيق : ج٢ ، ص ٢٠١ من مصطفى كامل الى الشيخ عبد الرحيم أحمد ، باريس فى ٨ يونيو ١٨٩٥ ، فى كتاب أنيس ، ص ص ٢١ ـ ٢٩ .

(٤) من الشيخ عبد الرحيم أحمد الى مصطفى كامل ، الاسكندرية فى ١٧ يونيو ١٨٩٥ ،فى كتاب أنيس : ص ص ٣٠ ـ ٣٣ ، من مصطفى كامل الى الشيخ عبد الرحيم أحمد ، باريس فى ٢٧ يوليو ١٨٩٥ ، كتاب شفيق ج ٢ ، ص ٢٠٣ .

(٥) من مصطفى كامل الى الشيخ عبد الرحيم أحمد ، فيينا فى ٣٠ يوليو ١٨٩٥ . كتاب أنيس : ص ص ٤٢ ـ ٤٥ .

بالأحاديث الصحفية ، ويحرر النشرات وحده • (١) فكتب الى الخديو رأسا فى سبتمبر يطلب مبالغ اضافية حتى يستطيع أن يستخدمها فى اتصالاته لكسب بعض الصحف الأوربية القوية لصف القضية المصرية ، وكان يرجو أن ينجح فى اقناع ألمانيا بالانضمام الى فرنسا وروسيا فى طلب جلاء البريطانيين عن مصر ، وهو ماتنبأ بامكان تحقيقه فى نهاية سنة ١٨٩٦ • (٢) ولم يقتنع القصر ، فاضطر للعودة الى مصر فى يناير ١٨٩٦ بعد أن نفدت أمواله •

على كل حال ، لم تكن رحلته كلها خسائر ؛ فبعد انفصاله عن ديلانكول استطاع أن يفوز بعطف الكاتبة الفرنسية الشهيرة جولييت آدم وتأييدها • (٣) فنشرت عددا من مقالاته فى مجلتها نصف

---

(١) من مصطفى كامل الى الشيخ عبد الرحيم أحمد ، باريس فى ٤ أغسطس ١٨٩٥ فى كتاب أنيس : ص ص ٤٦ ــ ٥١ •

نشرت خطبه مصطفى الأولى بعنوان « مؤتمر عن مصر أقيم فى تولوز ، الخميس ٤ يوليو ١٨٩٥ ، بمدرج كلية الآداب » •
« Confrence sur l'Egypte faite à Toulouse, le Jeudi 4 Juillet 895, à l'Amphitéâtre de la Faculté des Lettres», Toulose, [illegible]
وأعيد نشرها فى كتاب « مصريون وانجليز » •
«Egyptiens et anglais», Paris Perrin, 1906, pp. 21-43
وقد سافر مصطفى كامل الى فيينا فى أواخر يوليو حيث أجرت حديثا معه جريدة « أكسترا بلاط Extrablatt » ذات النفوذ القوى • وفى أغسطس نشر « الخطر الانجليزى المصرى » «Le péril anglo-égyptien» التى ذهب فيهـا الى أن الجلاء عن مصر يمثل ضرورة لسلام أوربا •

(٢) من مصطفى كامل الى الخديو عباس ، باريس فى ١٩ سبتمبر ١٨٩٥ ، فى كتاب أنيس : ص ص ٧٧ ــ ٨٥ • من بين الصحفيين الذين اتصل بهم مصطفى « نيكولاس نوتوفيتش ، الكاتب الرسمى للقيصر (موظف أم مراسل؟) فى باريس ، وشقيقة صاحب جريدة « نوفوستى » « Novostu » الروسية • وبعد ثلاث سنوات نشر « نوتوفيتش » كتابه مصر واوربا
« L'Egypte et l'Europe », Paris, Paul Ollendorf, 1898.
الذى يدعو فيه الفرنسيين الى الاهتمام بمصر ويشير الى احدى خطب مصطفى كامل •

(٣) من الواضح أن مصطفى كامل كتب بوحى من نفسه الى مدام آدم يرجو معاونتها فى عرض القضية المصرية على الرأى العام الفرنسى • من مصطفى كامل الى جولييت آدم ، تولوز فى ١٢ سبتمبر ١٨٩٥ ، فى « خطابات مصرية فرنسية »
« Egyptian — French Letters », Cairo, Mustafa Kamel School, 1909, p. 4.

وهذه المجموعة من الرسائل قامت مدام آدم بمراجعتها قبل النشر ، وينبغى استخدامها بحذر • ومدام آدم كان لها نشاط ملموس فى السياسة الفرنسية خلال نصف قرن ، ومن الصعب أن نصدق أن اشفاقها على مصطفى ومصر كان بلا أى مصلحة • وهذا =

الشهرية قوية النفوذ ، وهى « المجلة الجديدة La nouvelle revue » (١)
وقدمته لأصدقائها من الأدباء والسياسيين : الروائى بيير لوتى ،
ودرومنت رئيس تحرير مجلة « الكلمة الحرة La Libre parole »
وكان من كبار المعادين للسامية ، وهنرى روشفور مؤسس مجلة
« المتشدد L'intransigment » (٤) ورئيس تحريرها •
وباستثناء لوتى كانت معاونة أولئك الوطنيين الفرنسيين لمصطفى
نتيجة كراهيتهم لبريطانيا أكثر مما هى حبا لمصر ، غير أن تأييدهم فتح أمام
الوطنية المصرية صفحات العديد من أكبر صحف باريس •

ورغم أن علاقة مصطفى بمدام آدم نضجت وتحولت الى صداقة
حميمة استمرت حتى وفاته ، فلم يكن لهذه السيدة ورفاقها التأثير
القوى على السياسة الفرنسية الذى كان المصريون يرجون أن يجدوه
عند فرانسوا ديلانكول •

لقد كانت الخلافات الشخصية بين السياسيين الشابين أولهما
استعمارى فرنسى والآخر وطنى مصرى ، تجسيدا للتباين بين المطامح
السياسية لبلديهما . فعطف فرنسا على مصر كان فى أساسه حرصا
على نفوذها فى بلاد أصبحت بريطانيا تهدد فيها مركز فرنسا المتاز
فى الاقتصاد والثقافة • وفرنسا لن تساعد على تحرير مصر من الاحتلال
البريطانى الا بمقدار ما يقوى من وضعها الخاص • ولم يكن المصريون
المطالبون بالاستقلال على استعداد لاستبدال سيد بآخر ، بل كانوا
يريدون معونة الفرنسيين دون قيد يربطهم بفرنسا • (٣)

ومع أن اهتمام فرنسا بالخديو والوطنيين قد فتر تدريجيا ،
فان المنافسة الأنجلو ــ فرنسية فى افريقيا قد تأججت منذ استيلاء
الجيش المصرى ، بقيادة كتشنر ، على أمبراطورية خليفة المهدى فى

ــــــــــــــــ

= هو الخطأ الأساسى فى المعلومات التى وردت فى مقال ايلا ــ راشيل آريى « جولييت
ادم والقضية المصرية » المنشور بمجلة « الشرق » •
Ella-Rachel Arié : «Juliette Adam et le nationalisme egyptien», Orient, 20 (4ème trimestre, 1961), pp. 117-143.

(١) ظهرت مقالات فى أعداد ١٥ أكتوبر ، ١٥ نوفمبر ، ١٥ ديسمبر سنة ١٨٩٥ ،
والأخيرة نص الخطاب الذى ألقاه مصطفى فى الجمعية الجغرافية بعنوان « أطماع
انجلترا » •

(٢) رشاد : ص ٢٣ •

(٣) وهو نفس ما اكتشفه الأمريكيون والروس فى علاقاتهم بالدول العربية منذ
سنة ١٩٥٥ •

السودان • وبلغت المنافسة قمتها سنة ١٨٩٨ فى قرية « فاشودة » السودانية ، حيث واجه جيش كتشنر ، بعد انتصاره فى أم درمان ، الحملة العسكرية الفرنسية القادمة من غرب أفريقيا بقيادة الكابتن مارشان • ورغم قلة عدد جنوده فقد صمد مارشان فى موقعه ، فى حين ارتفعت حرارة التعصب الوطنى فى بريطانيا وفرنسا • وآثر تيوفيل ديلكاسيه ، وزير خارجية فرنسا ، اتباع سياسة التهدئة ، فوافق على انسحاب مارشان من السودان والاعتراف بالمنطقة التى ينبع منها نهر النيل وأوبانجى وشارى خطا فاصلا بين منطقتى النفوذ البريطانية والفرنسية • ومع ازدياد انشغال فرنسا وبريطانيا بنمو قوة ألمانيا وتأهبها للحرب ، ومع انتقال اهتمام فرنسا من مصر الى مراكش ، أصبحت المسألة لا تعدو مرور بعض الوقت قبل أن تصل الدولتان الكبيرتان الى تفاهم شامل ، حتى يمكن القول بأن الاتفاق الودى سنة ١٩٠٤ الذى أنهى خلافاتهما الاستعمارية فى افريقيا قد وقع فى فاشودة (١) •

واستمر مصطفى يقوم كل سنة بعدة جولات فى عواصم أوربا ، سعيا وراء تأييد الرأى العام للقضية المصرية ، ولكنه لم يكد يفوز بعد ذلك أبدا بعون أى حكومة أوربية • وتعبر رسائله الى « مدام آدم » وخطبه ومقالاته بمرارة عن خيبة أمله فى فرنسا (٢) وحين أحزنه ضعف فرنسا فى حادثة فاشودة نشر مقالا فى « المؤيد » أكد فيه أن مصر ، حتى لو تخلت فرنسا عن قضيتها فستظل تبحث عن التأييد عند ألمانيا وتركيا ، (٣) وأرجع الى فاشودة ميل الخديو المتزايد الى مهادنة البريطانيين (٤) • وكان الاتفاق الودى بمثابة الضربة القاضية ، وصفة مصطفى بقوله : « هذا الاتفاق الأنجلو فرنسى المشئوم الذى ستكون له أوخم العواقب على وطننا المسكين وخديوينا التعس » ، وأضاف : « اليوم أصبح مواطنى يكرهون فرنسا أكثر من

---

(١) الدراسة الدبلوماسية المعتمدة هى « مصر وقيام الاتفاق الانجلو ـ فرنسى سنة ١٩٠٤ » لجوزيف ج • ماثيوز

Joseph J. Mathews : « Egypt and the Formation of the Anglo-French Entente of 1904», Philadelphia, University of Pennsylvania press, 1939.

(٢) وحتى فى سنة ١٨٩٧ حذر من تخلى فرنسا عن تأييد الوطنيين والخديو
Letters, pp. 30-36.

(٣) مصطفى كامل « فرحة خبيثة وارهاب » ، « المؤيد » ، ٦ نوفمبر ١٨٩٨ ، وأعاد على فهمى كامل نشره ، ج ٩ ، ص ص ٥٠ ـ ٥٣ •

(٤) Letters, pp. 64, 66, 74.

انجلترا نفسها ... ففرنسا هي أول دولة تعترف بالاحتلال (البريطاني) فأي امتهان للمواطنين المصريين والفرنسيين ! » (١) .

وكان من الممكن أن يسعى مصطفى للحصول على تأييد ألمانيا لو أن اتصالاته الفرنسية لم تكن معادية للألمان بقدر معاداتها للبريطانيين . على أن مثل هذه المحاولة كانت بلا جدوى تقريبا ، لأن سياسة ألمانيا منذ أيام بسمارك كانت تأييد احتلال بريطانيا لمصر مقابل تأييد بريطانيا لمطامع ألمانيا الاستعمارية فى بقعة أخرى . فبعد الاتفاقية الأنجلو فرنسية بقليل وافقت ألمانيا أيضا على عدم الاصرار على تحديد موعد لجلاء بريطانيا عن مصر . (٢) والحقيقة أن مصطفى كامل والخديو كانا يتطلعان منذ زمن طويل الى قوة أخرى تساعدهما ضد بريطانيا ، وهى الامبراطورية العثمانية .

والمصريون يميلون اليوم الى التقليل من شأن دور الجانب المؤيد للاتراك والجامعة الاسلامية فى كفاحهم الوطنى ضد بريطانيا ، بل ان بعضهم ينتقدون مصطفى كامل لولائه للامبراطورية العثمانية (٣) ، مع أن تبنى مصر للقومية العربية التى انبعثت فى سوريا كحركة معادية للاتراك تطلب اخفاء خلافاتهما السابقة . وبالطبع أشار المدافعون عن الحزب الوطنى الى أن السلطان كان صاحب السيادة الشرعية على مصر ، وأن معاونته كانت ضرورية لاخراج حكامها الفعليين من البريطانيين . وبينما لم تفد مصر الا القليل من محاولات مصطفى كامل وخلفائه للفوز بتأييد تركيا ، فقد ربطت جهودهم الحزب الوطنى بمصير الامبراطورية العثمانية ، ومن ثم قضى على فاعليته تماما بهزيمة دول المحور فى الحرب العالمية الاولى .

وكذلك فقد تضمنت سياسة مصطفى كامل فى خطب ود استانبول مخاطرة أخرى ، فسلاطين آل عثمان فى سعيهم لمقاومة غزو الدعوة السلافية لامبراطوريتهم متعددة القوميات ، بدأو منذ الستينات

---

(١) من مصطفى كامل الى جولييت آدم ، فى ١٠ مايو سنة ١٩٠٤ ،
Letters, pp. 134-138.

(٢) عن المفاوضات انظر :
Germany, Auswartiges Amt. "Die Grosse Politik der Europaischer Kalinette». Berlin Deutsche Verlagsellschaft For Politik und Gerschte. 1925. pp. XX, 121-165.

(٣) انظر على سبيل المثال : محمد حسين هيكل : « مذكراتى فى السياسة المصرية » القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥١ ، جـ ١ ، ص ص ٢٢ ـ ٢٤ ، هامش ص ٢٦ .

يستغلون فكرة غامضة تاريخيا ، وهى الدعوة للخلافة أو زعامة العالم الاسلامى كله • فترتب على ذلك أن طالب قياصرة الروس منذ سنة ١٧٧٤ بحق حماية المسيحيين الارثوذكس الذين يعيشون داخل الامبراطوريه العثمانية ، ومارسوا هذا الحق بالفعل بين الحين والآخر • وقد استخدم السلاطنة الاتراك دعوتهم لزعامة المسلمين بالقدر الذى سمحت به قوتهم للبحث عن أتباع من المسلمين خارج المنطقة الخاضعة لهم فعلا ، كنوع من « الحماية » ضد الغزو الاستعمارى الأوربى • وقضى بعض المهيجين السياسيين الموهوبين من دعاة الجامعة الاسلامية ، كجمال الدين الافغانى وعبد الله النديم ، سنواتهم الاخيرة فى استانبول ، وتحول قصر عبد الحميد المعروف باسم « يلدز » الى كعبة لكل المسلمين الساخطين من التتار والتونسيين والهنود • وأصبحت دعوة الجامعة الاسلامية هى الرد العثمانى الرسمى على الدعوة السلافية الروسية ، ورسالة فرنسا الحضارية ، والاستعمار البريطانى • ولما كان أكبر عدد من الرعايا المسلمين يتبعون بريطانيا بفضل امبراطوريتها الهندية ، فقد كانت أشد احساسا بخطر الجامعة الاسلامية عليها • ولم يتردد المصريون فى استغلال هذه الحساسية • وهكذا أصبح مصطفى كامل داعية للجامعة الاسلاميه يستثير عدوان المصريين المسلمين المحافظين ضد حكم بريطانيا المسيحية •

وكان ارتباط الوطنية المصرية بالجامعة الاسلامية التى رعاها العثمانيون يتطلب تسليما شفويا على الاقل بالقيم الاسلامية التقليدية وهو ما أحرج الوطنيين الذين يعتمدون على تقبل الحركة الليبراليه الغربية ويدعون الى الاصلاح الداخلى • وكان مصطفى كامل وهو حصيلة تعليم مدنى ويحمل درجة علمية فرنسية فى القانون ، يؤمن مخلصا بالديمقراطية البرلمانية ، والحقوق والحريات الفردية ، وحرية الاقتصاد، ورغم ذلك فقد حذق وخلفاؤه من بعده ، العزف على نغمتين فى وقت واحد : الوطنية الليبرالية (أو العلمانية) للاوربيين والمصريين ذوى النزعة الغربية ، والتعصب المتمسك بالقيم الاسلامية لجماهيرهم من العثمانيين والمصريين المحافظين (١) • كانت وطنية مصطفى كامل تتمثل

(١) هذا التأرجح الايديولوجى عالجه بتفصيل أكبر فريتز ستبات فى كتابه «الوطنية والاسلام عند مصطفى كامل»

Fritz Steppat : «Nationalism und Islam bie Mustafa Kamil», Leiden, Brill, 1956 —

وكذلك صافران Safran الذى يعتبر مصطفى كامل « وطنيا ليبراليا » دون أن يتنبه ، فيما يبدو ، للنغمة الأخرى التى كان يعزفها فى مخاطبة المشاعر الاسلامية •

آساسا فى اخضاع التصور السياسى الاوربى لحاجة مجتمع ، يسيطر عليه الاسلام الى الحماية فى مواجهة الغرب ونفوذه ٠ فبعد مئات السنين من العداء المستعر بين المسيحية والاســـلام ، من الذى يستطيع آن يلوم مسلمى نهاية القرن التاسع عشر اذا قاوموا سيطرة أوربا بكل وسيلة ممكنة ؟! غير أن ثمن هذه الانتهازية الوطنية فى النهاية سيكون تذبذب أيديولوجية مصر الحديثة بين الليبرالية الغربية والاسلام ٠

ما النفع الذى عاد على الوطنيين المصريين من تأييدهم للامبراطورية العثمانية ؟ والواقع أن باستطاعتنا أن نتساءل أيضا : وما النفع الذى عاد على مصر من افتتان بعض زعمائها افتتـــــانا أفلاطونيا فى أوائل الاربعينيات بالفاشستية والنازية ؟ أو من صـــــداقتها القوية للاتحاد السوفييتى فى السنوات الأخيرة ؟

ففى نهاية القرن التاسع عشر لم يكن باســـــتطاعة الوطنيين آن يقدموا فى الواقع الا القليل لتركيا فى الوقت الذى كانت بريطانيا فيه لا تزال تعتبر حاميتها من الروس واذا كان مما يرضى غرور الســـلطان أن يحظى باهتمام الوطنيين أو عباس الذى زار استانبول عدة مرات دون أن ينال أى تأييد فى صراعه ضد كرومر ، فقد كان على السلطان أيضا أن يتدبر أن النتيجة المتوقعة لشن حملة ناجحة ضد البريطـــانيين فى مصر ســـتكون استئناف الخديو لســياسة محمد على المعادية للعثمانيين ٠ اذ كانت علاقات الخديو بالسلطان غير ودية عادة (١) ، كمـــا كان كثير من أعضاء حزب « تركيا الفتاة » يلجأون الى مصر (٢) ٠

وأيا كان الأمر ، فالثابت أن مصطفى كامل ، سواء بايعاز من الخديو أو بوحى من نفسه ، كان يطالب علنا بالتأييد العثمـــانى ٠ وكان من بين وســـائله لذلك اقامة مآدب تكريم سنوية لعبد الحميد يدعو فيهـــا اخوانه المسلمين الى الاتحاد لحماية الامبراطورية العثمانية من الاعتداءات الأوربية وعقد مؤتمرات صحفية ، ونشر مقالات موجهة لاوربا أو للاستهلاك المحلى،

---

(١) "Abbas II". pp. 45-48. Blunt : «My Diaries», pp. 113, 119, 122f, 166f, 207f.

(٢) « تركيا الفتاة : مقدمة لثورة سنة ١٩٠٨ » لارنست رامسور

Ernest Ramsaur : «The young turks : Perlude to the Revolution of 1908» Princeton, Princeton University Press, 1957, p. 27 n.

(٣) على فهمى كامل : جـ ٢ ، ص ص ١٢١ ـ ١٣٤ ، جـ ٣ ، ص ص ١٩٩ ـ ٢٠٤ ، ص ص ٨٦ ـ ٩٢ ، جـ ٦ ، ص ص ٩٠ ـ ١٤٠ ، جـ ٩ ، ص ص ١٤ ـ ٢٤ ٠

يدافع فيها عن السياسات العثمانية (١) ، بالاضافة الى رحلات الى استنابول يصحبها اعلام جيد ، بل ذهب الى حد الزعم لمستمعى خطبه فى الاسكندرية أن محمد علىقد أدرك فى أخريات أيامه أنه أخطأ بهجومه على السلطان (٢) ٠ وكثيرا ما حث مواطنيه على التمسك بأسس الاسلام ، فتخليهم عنها هو الذى كلف مصر ــ فى اعتقاده ــ استقلالها وأخضعها لأوربا ، فمن واجبهم أن يتخذوا دفاعا عن الاسلام (٣) ٠ وقد فصل آراءه عن الجامعة الاسلامية فى خمسمائة صفحة عن « تاريخ المسألة الشرقية »، نشرها سنة ١٨٩٨ (٤) ٠ وبعد أن استقبله السلطان عدة مرات ، أنعم عليه أخيرا برتبة « متماير » ، فقبلها مضطرا خشية أن تكون سببا فى الطعن فى وطنيته فى مصر ، اذ كان زواج الوطنية المصرية من الجامعة الاسلامية العثمانية زواج مصلحة لا زواج حب ٠ واستانبول الحافلة بالمؤامرات والجواسيس كانت كريهة فى نظره ، أسر لشقيقه على بأنها «وليس فيها شىء محبب ماعدا أنها قارة المسلمين ودار خليفة المؤمنين» (٥) ورغم أن مصطفى واصل تأييده للقضايا التركية والاسلامية (٦) . ورقاه السلطان لذلك الى رتبة « باشا » سنة ١٩٠٤ ، فليس هناك دليل يؤكد أنه كان يتوقع حقا أن الامبراطورية العثمانية ستحرر ولايتها المصرية من مغتصبيها البريطانيين ٠

---

(١) ودعا أيضا الى التحالف مع فرنسا وروسيا وتركيا ضد بريطانيا ٠
«Une Alliance qui s'impose : Le Sultan et l'Europe», La Nouvelle Revue, XCVII, 2 (15 November 1895), pp. 375-383.

(٢) على فهمى كامل ج ٦ ، ص ٤٨ ٠ « Egyptiens et anglais », p. 183

(٣) انظر على سبيل المثال خطبته سنة ١٨٩٨ فى الاحتفال بعيد جلوس السلطان ، ومقاله « أوربا والاسلام » ، «المؤيد» ، ٩ أكتوبر ١٨٩٨ ، فى : على فهمى كامل ،جـ٩ ، ص ص ٣١ ــ ٣٣ ٠

(٤) مصطفى كامل « المسألة الشرقية » ، أعيد طبعه فى كتاب على فهمى كامل ، جـ ٧ ، ٨

(٥) من مصطفى كامل الى على فهمى كامل ، فيينا فى ١٠ يونيو ١٨٩٩ ، فى : على فهمى كامل : جـ ٩ ، هامش ص ١٤٠ ، وعبر عن آراء مماثلة لمدام آدم سنة ١٠٩٢ ، Letters, pp. 86-88.

(٦) من أوضح الأمثلة على ذلك معارضته لفكرة خليفة عربى فقد اعتبرها مؤامرة بريطانية للاسراع بتصفية الامبراطورية العثمانية ، انظر المسألة الشرقية ، على فهمى كامل : جـ ٧ ، ص ص ٢٧ ــ ٣٠ ، ونص خطبته فى القاهرة فى ديسمبر ١٨٩٩ فى : على فهمى كامل ، جـ ٩ ، هامش ص ٢٠١ ، وكذلك «Egyptiens et anglais», p. 246f.

ابتعاد التيار الوطنى عن عابدين

عند تقدير الجهود التى بذلها مصطفى كامل فيما بين عامى ١٨٩٠ و ١٩٠٣ للحصول على تأييد خارجى لاستقلال مصر عن بريطانيا ، ينبغى أن نتذكر أنه كان يتعاون مع الخديو عباس (١) ويتقــاضى منه أموالا بصورة منتظمة ، ولم يستطع أن يتخلص من ارتبــاطه بقصر عابدين الا تدريجيا بعد أن كون لنفسه قاعدة من التأييد المحلى ٠

وظل التنيظم السياسى للحركة الوطنية يتخذ شــــكل الجمعيه السرية ٠ واذا كان التنظيم الذى أقامه القصر سنة ١٨٩٥ قد انهار نتيجة للانقسام بين المصريين والاوربيين من أعضائه ، فان مصطفى كامل أعاد تشكيله سنة ١٨٩٦ من المصريين وحدهم وعلى رأسهم الخديو كما كان من قبل ٠ وفى نفس الفترة تقريبا تكونت جمعية أخرى ، أنشأها محام وكاتب شاب يدعى أحمد لطفى السيد (١٨٧٢ ــ ١٩٦٣) ، وقد أصبح فيما بعد احدى الشخصيات المؤثرة فى تطور الفكر المصرى ٠ واستطاع مصطفى كامل اقناع أحمد لطفى السيد بادماج جمعيته ، وكان معظم أعضائها من زملائه بمكتب النائب العام بالقاهرة (٢) ، فى جماعة القصر ٠

---

(١) محمـــــود رشيد رضا : « تاريخ الأســتاذ الامام الشيخ محمد عبــده » ، القاهرة ، مطبعة المنار ، ١٩٣١ ، ج ١ ، ص ٥٩٣ ، « مذكرات محمد فريد » ، ص ٢ من النسخة المخطوطة ٠

(٢) كان الأعضــاء هم : أحمد طلعت ، ومحمود بدر الدين ، وحميد رضــوان ، وعبــد العزيز فهمى (١٨٧٠ ــ ١٩٥١) ، وكذلك عبــد الحليــم حلمى ، وعلى بهجت (١٨٥٨ ــ ١٩٢٤) من مشــاهير رجال الدين الاسلامى ، ومحمود عبد اللطيف الصيدلى بطنطا ٠

وأصبحت الجمعية الموحدة هي الحزب الوطني ، برئاسة الخديو (١) ٠ وللافادة من مواهب لطفي الصحفية اقترح عليه عباس أن يرسله الى سويسرا ليحصل على جنسية أجنبية ، ليعود بعد ذلك الى القاهرة ويرأس تحرير صحيفة وطنية ، مستعينا بجنسيته السويسرية في ضمان حصانة تحميه من المحاكمة بموجب قانون العقوبات المصرى ٠ غير آن لطفى السيد وقع أثناء اقامته في جنيف تحت تأثير الشيخ محمد عبده ، وكان مكروها في عابدين بسبب رغبته في التعاون مع البريطانيين ٠ وعاد لطفي السيد الى مصر ليستقيل من الحزب ، ويكتب خطابا الى الخديو يقول فيه انه لا جدوى من البحث عن تأييد خارجي ضد بريطانيا وان مصر لن تحصل على استقلالها الا بجهودها الذاتية ، وان على عباس أن يستغل شرف منصبه ليتزعم جمعية علنية ـ لاسرية ـ تعمل على نشر التعليم (٢) ٠ وهي نفس النتيجة التي احتاج مصطفى كامل الى عشر سنوات لينتهي اليها ، ولكن لطفي السيد كان خلال ذلك قد أصبح أكبر مفكر في حزب منافس ٠

ومع أن مصطفى كامل كرس الجانب الاكبر من جهاده المبكر للحصول على تأييد أجنبي للخديو ، فانه اهتم في الوقت نفسه بما قدر له أن يكون أكبر اسهاماته في خدمة بلاده ، وهو نشر فكرة القومية المصرية بين مختلف طبقات الشعب ٠ فابتداء من سنة ١٨٩٥ أخذ يطوف بالريف المصري محذرا مواطنيه من خطر احتلال انجليزي طويل (٣) ٠ وعند عودته من أوربا سنة ١٨٩٦ ألقى أولى خطبه الهامة باللغة العربية أمام جمهور اسكندري ، اختلف في تقدير عدده بين ٨٠٠ و ٣٠٠٠ مستمع (٤) ٠ واذا صح ما ذهب اليه مصطفى فيما بعد من أن تلك كانت

---

(١) أحمد لطفي السيد : « قصة حياتي » ، اعداد طاهر الطناحي ، القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٦٢ ، ص ص ٣٤ ـ ٣٦ ٠ وكان الأعضاء الرئيسيون هم : مصطفى كامل ، ومحمد فريد (١٨٦٨ ـ ١٩١٩) ، وسعيد الشيمي (أركان حرب الخديو) ومحمود عثمان (والد أمين عثمان) والدكتور محمود ٠٠ ، ولبيب محرم (توفي سنة ١٩١٣) ولطفي السيد ، ونفس الأسماء ذكرها سلامة موسى في سيرته الذاتية « تربية سلامة موسى »
«The Education of salama Musa» Translated by : L.D. Shuman, Leiden Brill, 1961, p. 29.

(٢) « قصة حياتي » ، ص ٣٩ ٠

(٣) على فهمي كامل : جـ ٣ ، ص ٣٢ ٠

(٤) المصدر السابق : جـ ٤ ، ص ص ١٣٢ ـ ١٥٠ ،
"Fgyptiens et anglais", pp. 81-99.

أول خطبة سياسية تلقى فى مصر منذ سنة ١٨٨٢ (١) ليسهل تقدير مدى الفزع الذى خلفته هزيمة عرابى فى نفوس المصريين ومقدار الشجاعة التى تحلى بها مصطفى . وكذلك نشر مصطفى مقالات عديدة فى الصحافه المصرية ، وفى عدد ٤ يوليو ١٨٩٦ من « المؤيد » ظهر نموذج جيد لنثره الخطابى فى مقال عن كفاح أمريكا فى سبيل الاستقلال ، وخرج منه بدرس خلاصته أن على المصريين أن يتحدوا فى مطالبتهم بالحرية (٢)

وكانت المحاولات العديدة التى بذلت سنة ١٨٩٦ لاسكات صوت مصطفى كامل دليلا فى نظر الوطنيين على فاعليتهم باعتبارهم خطرا يهدد حكم بريطانيا لمصر . تمثلت أولى هذه المحاولات فى اعتقال كتشنر لشقيقه « على » وتخفيض رتبته ، بدعوى تحريضه لزملائه من الضباط المصريين على التمرد (٣) . (*)

ولكن مصطفى استطاع اطلاق سراح شقيقه بالالتجاء الى الخديو رأسا (٤) . وكتبت مدام آدم فيما بعد أنه لولا اخلاص زملاء « على » له لكان من الممكن أن يعدمه كتشنر(٤) . واذا كان اخلاص زملاء «على» له لم يحظ وقتها باهتمام يذكر ، فان تنكر زملاء مصطفى له وتباعدهم عنه فى فزع فى الوقت الذى كان فيه شقيقه ملطخا بالعار ، لم ينل أى اهتمام بالمرة (٦) . وما كاد الخديو يحبط هذه المؤامرات التى أوحى الانجليز بتدبيرها ضد مصطفى ، حتى بذلت محاولة أخرى لتجنيده فى

---

(١) المصدر السابق : جـ ٤ ، ص ٩٩ ، كتب على فهمى كامل أيضا أن قيادة بوليس الاسكندرية حاولت منع الاجتماع . (ص ص ١٢٩ - ١٣١) .

(٢) المصدر السابق : جـ ٥ ص ص ٧٣ - ٨٠ .

(٣) المصدر السابق ، جـ ٣ ص ص ٢١٧ - ٢٢٣ ، مقدمة محمد مسعود لكتاب « مصر والاحتلال الانجليزى » ، القاهرة ، مطبعة الآداب ، ١٨٩٦ ، هامش ص ٦ ، ويقدم Wood, p. 161 f. رواية مناقضة للسابقة . وكانت تلك احدى المناسبات النادرة التى قام فيها الجيش بدور ، ولو تافه ، فى الحركة الوطنية ، خلال الفترة الواقعة بين سنتى ١٨٨٢ و ١٩٥٢

(٤) على فهمى كامل : جـ ٥ ، ص ص ٧٣ - ٨٠ .

(٥) «Letters» p. 20.

(٦) من مصطفى كامل الى على فهمى كامل ، باريس فى ٧ أغسطس ١٨٩٦ . (على فهمى كامل : جـ ٥ ، ص ٨٤)

(★ التهمة التى نسبت الى « على فهمى كامل » انه قدم استقالته من خدمة الجيش فى وقت كانت فيه الحكومة تعد لحملة الى دنقلة ، فاعتبر فارا من الخدمة .

الجيش ، ولكن الخبرة القانونية استطاعت أحباطها هي الأخرى (١) . (*).

أما أعنف صدام بين البريطانيين ومعارضيهم من الوطنيين المصريين فلم يكن متصلا بمصطفى ولا بشقيقه ، بل بالشيخ على يوسف رئيس تحرير أكثر الصحف المصرية معاداة للبريطانيين . ففى تلك السنة بدأ الزحف على دنقلة ومنعت الحكومة المصرية كل مراسلى الصحف من مصاحبة الحملة العسكرية ، وأنشأت بدلا من ذلك مكتبا بوزارة الحربيه لاعداد نشرات اخبارية ، كان يوزعها على جميع الصحف ما عدا « المؤيد» وحين احتج الشيخ على يوسف على هذه التفرقة ، نصح لكى ينال النشرات الاخبارية بالامتناع عن نقد الحملة . ورفض على يوسف قبول هذا الاعتداء على حريته ، ولجأ الى أساليب أخرى ليزود قراءه بأخبار الحملة . وبطريقة ما حصل على نص برقية سرية أرسلها كتشنر الى وزارة الحربية يخبرها فيها أن وباء الكوليرا يفتك بقواته (٢) ، ونشره فى « المؤيد » . واضطر البريطانيون الحكومة المصرية الى اتهام على يوسف بالاشتراك مع عامل بمكتب البرق يدعى توفيق كيرلوس ، مدفوعين فى ذلك الى حد ما بحاجتهم الى فرض تنظيمات تحمى أمنهم ، وفى هذه الحالة بالذات بسبب حساسية كتشنر لنقد صحفى سبق أن اتهمه بالتقتير فى نفقات الخدمات الطبية للحملة (٣) ، بالاضافة الى رغبتهم فى معاقبة صحفى مشاغب ذائع الصيت . ورغم أن مكتب النائب العام عجز عن العثور على أى دليل على أن كيرلوس قد أفشى سر البرقية لعلى يوسف ، فقد أصر البريطانيون على اعادة التحقيق وتقديم الرجلين للمحاكمة . وحكم القضاة المصريون رغم الضغط الذى نسب الى زميلهم الانجليزى ، بعقوبة مخففة على

---

(١) على فهمى كامل : جـ ٥ ، ص ص ١٨٦ - ١٩٤ . وميل المصريين للتهرب من الخدمة العسكرية كان شائعا الى أبعد حد أيام محمد على ، ولم يختف تماما حتى اليوم انظر على سبيل المثال « مصر والانجليز » ، لدوجلاس سلادن
Douglas Sladen : «Egypt and the English», London, Hurst and Blackets. 1908, p. 122.

(٢) وفقا لما رواه ماجنوس فى كتابه عن « كتشنر » .
Magnus : « Kitchener », p. 97,
قضى الوباء على حياة ٢٠ جنديا انجليزيا و ٢٦٠ مصريا ، ٦٤٠ من الأفراد الملحقين بخدمة المعسكر .

(*) لا نعلم ان كان للخديو يد فى احباط هذه المؤمرة التى فشلت لأن شيخ الحارة الذى كلف باعلان مصطفى بدعوته للتجنيد شهد بانه لم يعلنه بها لأن مصطفى كان فى اوربا ، فى حين ان القانون يستلزم اعلان المطلوب تجنيده .

كيرلوس، وبراءة علي يوسف استنادا الى عدم كفاية الأدلة . واعتبر البريطانيون هذا الحكم سوء تطبيق للعدالة ، وحاولوا نقل رئيس المحكمة ووكيل النائب العام الى محكمتين بعيدتين عن القاهرة ، فاستقال الاخير ، وهو محمد فريد (١) (*) من منصبه ، احتجاجا على الاعتداء على استقلال القضاء . والواقع أن هذه الحادثة هي التي وضعته على أول طريقه السياسي ، أولا كأخلص تلاميذ مصطفى كامل ، ثم خليفته في زعامة الحزب الوطني بعد ذلك (٢) .

وكلما كرس مصطفى المزيد من موهبته وطاقاته للتأثير على الرأي العام المصري ازدادت عنايته بتعليم شباب الامة ، وآمن – ككل مصلحي القرن التاسع عشر – أن التقدم الوطني يعتمد على المواطنين المتعلمين . وكيف يتسنى لمصر أن تحتل مكانها اللائق بين دول العالم المتقدم و٢ر٩١٪ من رجالها و ٣ر٩٩٪ من نسائها لا يعرفون القراءة والكتابة ؟ (٣) وكان التعليم عند مصطفى معناه التفقه في الوطنية ، وبلاد تتكون من فلاحين جهلاء لا يمكن أن تتحول ، دون مدارس ، الى شعب من الوطنيين .

والواقع أن أكثر ما عوق الوطنيين كان اهمال الحكومة المصرية للتعليم ابان الاحتلال الانجليزي . ففي السنوات الاولى لم ينل التعليم الا اهتماما قليلا بسبب الضرورات المالية وشبح الافلاس المخيم (٤) .

---

(١) Ibid., p. 95.

(٢) حول قضية البرقيات أنظر : عبد الله عنان : « أبعاد القضية الصحفية المصرية – محاكمات « المؤيد » في قضية التلغراف ، الكاتب المصري » ، ١٥ ديسمبر ١٩٤٦ ، ص ص ٤٨٨ ٤٩٦ ،

Blunt · "My Diaries", pp. 246f., 230f. el-Hakkani : «La vie politique et parlementaire à l'étranger : L'Egypte,» Revue politique et parlementaire. X. 3 (December 1896) 612-686,

، حمزة : « أدب المقالة » ، جـ ٤ ، ص ص ١٠٧ – ١١١ ، عبد الرحمن الرافعي « محمد فريد رمز الاخلاص والتضحية » ط ٢ ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٨ ، ص ص ٢٧ – ٢٩ ، « الشباب » : ٢١ (٢٤ فبراير ١٩٣٦) ، شفيق : جـ٢ ، زاخورا : « مرآة العصر » هامش ص ٥٤١

(٣) استمدت هذه الأرقام من احصاء سنة ١٨٩٧ ، وقد ذكرها كرومر في تقريره سنة ١٩٠٦ ، ونقلها عنه الكساندر Alexander p. 107.

(٤) Cromer, Modern Egypt, II, p. 527f, Milner, p. 372.

(*) سرد الواقعة على هذا النحو خطأ لأن محمد فريد لم يكن له دور في القضية ، انما علق على الحكم تعليقا علنيا يدل على عطفه على المتهمين واستنكاره للاتهام .

وكانت النسبة المخصصة للتعليم فى ميزانية الدولة أقل من واحد فى المائة خلال بعض السنوات ، ولم يحدث أبدا أن تجاوزت ثلاثة فى المائة قبل أن تستقل مصر (١) ٠ وبعد سنة ١٨٨٢ أغلقت بعض مدارس الحكومة وخفض حجم بعضها الآخر (٢) وألغى الاعفاء من المصروفات تقريبا ٠ وحرمت الرسوم المرتفعة أطفال الفقراء من الالتحاق بمدارس الحكومة (٣) ، مكونة بذلك حاجزا جديدا فى طريق التغيير الاجتماعى (٤) ٠ وترتب على ذلك أيضا زيادة كبيرة فى عدد التلاميذ الملتحقين بالمدارس الخاصة، المصرية منها والأجنبية (٥) ٠ وكانت هذه المدارس أقل انضباطا بشكل عام من المدارس الحكومية فى شروط القبول بها ومستواها العلمى ، كما كانت تكاليفها أقل فى معظم الحالات ٠ وكانت أفضل هذه المدارس أجنبية ، ومعظمها تابعة للارساليات الدينية ، وكثيرا ما كان الآباء المصريون ينفرون من أن يعهدوا بتعليم أبنائهم لمبشرين مسيحيين ، وان كانت جميع المدارس الأجنبية ، بما فيها العلمانية ، تميل الى تغيير ثقافة المصريين (٦) ٠ وكان بوسع المسلمين ارسال أطفالهم الى الكتاتيب المقامة فى المساجد ، ولكن تعليمها كان متخلفا شكلا ومضمونا ، والفرص قليلة أمام خريجيها فى مجتمع بدأ يأخذ بالتطور الأوربى والتقنى ٠

---

(١) Issawi : « Egypt at Mid — Century », p. 50.

(٢) يقول كيسى فى كتابه « التعليم المصرى فى عهد كرومر »
Kinsey : « Egyptian Education under Cromer », p. 460.
ان عدد التلاميذ فى مدارس وزارة المعارف انخفض من ٢٩٠٠ سنة ١٨٨٥ الى ١٧٧٩ سنة ١٨٨٧ ٠

(٣) التلاميذ المعفون من المصاريف هبطت نسبتهم من ٧٣٪ سنة ١٨٨٥ الى ٣٩٪ سنة ١٨٩٠ و ٣٠٪ سنة ١٨٩٥ و ١٠٪ سنه ١٩٠٠ ثم ١٪ سنة ١٩٠٦
(Kinsey, p. 121 and Appendix c/3, p. 544).

(٤) فيما بين عامى ١٩٠١ و ١٩٠٦ كان متوسط رسوم التعليم خمسة جنيهات مصرية فى السنة فى المدارس الابتدائية ، وخمسة عشر جنيها فى المدارس الثانوية
(Kinsey, p. 336)

(٥) انظر : kinsey, Appendix F/1 : ، الذى يوضح تزايد نسبة تلاميذ المدارس غير الحكومية المتقدمين لامتحان الشهادة الابتدائية ٠ ففى سنة ١٨٩٣ دخل الامتحان ٦٩٢ تلميذا من المدارس الحكومية و ١١٥ من غير الحكومية ، نجح منهم ٢٧٦ و ٣٤ تلميذا على التوالى ٠ وفى سنة ١٩١٤ أصبح الرقم ١٥٨٠ من المدارس الحكومية و ٤٥٤٩ من غير الحكومية ، نجح منهم ٨٠٧ و ٢٥٧٩ على التوالى ٠

(٦) مع ذلك فقد درس بعض الزعماء الوطنيين مثل عمر لطفى وأحمد لطفى ، ومحمد فريد فى مدارس يديرها اخوان العقيدة المسيحية (Frères de la Doctrine Chrestienne) بالقاهرة ٠

ولم يكن باستطاعة أى من هـــذه المدارس أن تغرس فى تلاميذها قومية علمانية شأن المدارس العامة فى فرنســا وألمانيا وأمريكــا • وكان مسلمو الطبقة المصرية الصـــاعدة فى المدينة يتطلبون مدارس تحفظ لأطفالهم شخصيتهم القومية والدينية ، وتؤهلهم فى الوقت نفسه لوظيفة حكومية محترمة ، أو على الأقل لتجارة أو حرفة نافعة • ولم يكن هناك نقص فى عدد مدرسى المدارس الابتدائيـة ذوى الرواتب الضئيـلة (١) ، ولكن قليلين منهم تلقوا تدريبا على العلوم الحديثة ومناهج التدريس •

ويبدو أن مصطفى كامل كان متنبها لهذه المشــكلات منذ بداية جهاده ، فرأى فى انشاء المدارس الخاصة التى يديرها مصريون وسيلة لنشر الأفكار الوطنية • وكانت العقبة الرئيسية هى الحصول على المال اللازم لانشاء هذه المدارس والانفاق عليها • وكان الاسلوب الذى اتبعه هو استمرار جمع التبرعات الاختيارية ، محتذيا فى ذلـك النـداء الذى نجح فى جمع أموال وفيرة للدولة العثمانية أثناء حربها مع اليونان سنه ١٨٩٧ • ففى يونيو من ذلك العام نفسه وجه مصطفى كامل نداءه الاول للاكتتــاب الوطنى من أجل التعليم (٢) • وفى خطبة ألقاها على طــلاب المدارس المصرية العالية والثانوية فى ٨ يناير سنة ١٨٩٨ أكد لهم أن أكبر خدمة يمكن أن يؤدوها لمصر هى نشر المعرفة والتعليم • ومما يؤكد اعتناق مصـــطفى كامل للافكار الليبرالية تحذيره من الاستسلام للرغبة المصرية فى انتظار عمل الحكومة ، فى حين أن الدول الاوربية استمدت قوتها من اعتماد معظم أنشطتها التجارية والصناعية والتعليمية على مبادرات الافراد (٣) •

وخلال السنة نفسها أثنى على رسالة نشرتها «المؤيد» لجماعة من الأثرياء المصريين تبرع كل منهم بجنيهين شهريا للانفاق على نظام للتعليم الشعبى يديره الأهالى بأنفسهم (٤) •

---

(١) فى سنة ١٨٨٦ كان مرتب مدرس المدرسة الابتدائية أقل من جنيه شـهريا وفقا لما جاء فى « كينسى » .(Kinsey, p. 462) ، وكان دخل المدرس الأزهرى أقل من ذلك أيضا •

(٢) « Egyptiens et anglais » : p. 174.

(٣) على فهمى كامل • جـ ٦ ، ص ص ١٣٣ — ١٤٩

(٤) المصدر السابق : جـ ٩ ، ص ٢٢ ، وانظر أيضا عدة مقالات كتبها مصطفى كامل « للمؤيد » فى أكتـوبر ســنة ١٨٩٨ ، وأعـاد على فهمى كامل نشرهـا فى جـ ٩ ، ص ص ٢٥ — ٣٠ ، ٣٤ — ٣٩ ، ٤٦ — ٤٩

وفى يناير سنة ١٨٩٩ بدأت جهود مصطفى كامل تؤتى ثمارها ، فقد خطب فى افتتاح مدرسة ابتدائية لابناء الاسر المعوزة (١) · وبعد ذلك بقليل أنشأ اثنان من الوطنيين مدرسة ابتدائية بالقاهرة أطلقا عليها اسم مصطفى كامل · وبعد أشهر قليلة طلب منه المؤسسان ، ربما بسبب صعوبات مالية ، تولى ادارة المدرسة (٢) · فعهد مصطفى ، الذى كان مثقلا بالفعل بمسئوليات عديدة ، بادارة المدرسة الى شقيقه على ، وكان قد استقال من وظيفته بالجيش بعد استعادة السودان · ونجحت المدرسة ، فبلغ عدد المقيدين بها ٢٦٥ تلميذا عند نهاية سنتها الأولى (٣)، وكان من المقرر أن تقبل المدرسة أبناء الفقراء مجانا بنسبة ثلاثين فى المائة من مجموع طلابها (٤) · وكان مصطفى كامل مشغولا لدرجة لم تسمح له بالتدريس فى المدرسة ، ولكنه كان يزورها بين الحين والآخر ليختبر التلاميذ أو يخطب فيهم فى الحفل السنوى لتوزيع الجوائز · وقد تركت المدرسة تأثيرا طيبا فى نفس الكاتب الفرنسى لوى برتراند حين زارها سنة ١٩٠٦ (٥) ، رغم أنه من المتشككين عادة فى ادعاءات الشرقيين · وكانت لغة التعليم فيها هى العربية على عكس المتبع فى مدارس الحكومه حيث كانت الانجليزية هى السائدة ، وان لم يمنع ذلك المدرسة من الاستعانة بالأساليب التربوية والتقنيات الأوربية ·

ورغم اشتمال مناهج المدرسة على التعليم الدينى ، فقد كان يعبر عن ايمان مصطفى كامل بأن الاسلام نظام أخلاقى يكمل القوميه ولا يتناقض معها (٦) ، ولم يكن كل طلابها من المسلمين (٧) · ومع أننا لا نعرف الكثير عما حققه خريجو مدرسة مصطفى كامل فى الحياة العامه بعد ذلك ، فمن الممكن أن نتصور أنها ساعدت على نشر الأفكار الوطنيه بين مجموعة من أبناء الطبقة المتوسطة الصاعدة فى مصر آنذاك ·

---

(١) المصدر السابق : ج ٩ ، ص ص ٧٩ — ٨٧

(٢) المصدر السابق : ج ٩ ، ص ١٠٨

(٣) من مصطفى كامل الى جولييت آدم ، القارة فى ٢٤ ديسمبر ١٨٩٩ (Letters : p. 48).

(٤) على فهمى كامل : ج ٩ ، هامش ص ١١٢ ، والرافعى : « **مصطفى كامل** ·· » ، ص ١٤٠

(٥) Louis Bertrand : « Le Mirage Oriental », Paris, Perrin, 1910, pp. 364-370.

(٦) عن رأى مصطفى كامل فى أهمية التعليم الدينى ، انظر : على فهمى كامل : ج ٩ ، ص ٧٦ ، ١٠٨

(٧) يذكر برتراند (Bertrand : p. 367) أنه استمع الى محفوظات ألقاها طلاب أقباط ويهود ·

وكثيرا ما أدت الصحف فى مصر الحديثة دورا تعليميا يفوق دور المدارس ، وبخاصـة كوسيلة لخلق الوعى السياسى بين المتعلمين وغير المتعلمين • وعمر الصحافة المصرية الدورية — باستثناء الجريدة الرسمية — لا يتجاوز قرنا من الزمان ، غير أن عدد الصحف والصحفيين قد ازداد — كما وضح فى الفصل السابق — زيادة كبيرة فيما بين عامى ١٨٦٦ و ١٨٨٢ ، ثم توقف هذا النمو بعد فشل الحركة العرابية ، لمصادرة الصحف الوطنية أو توقفها عن الصدور • وخلال العقد الاخير من القرن أخذ عدد الصحف العربية وقرائها وكتابها يتزايد فيما يشبه المتوالية الهندسية متأثرا بنمو الصحافة الاوربية فى مصر (١) •

وكان لنقل المصريين لعادة مقهى الشارع الاوربى أثره فى اكتسابهم عادة قراءة الصحف من الاوربيين فقد علق بعض الكتاب الاوربيين بقدر كبير من المرارة على غرس هذه العـادة الاوربية التى أدت الى السمر بالأحاديث وقراءة الصحف وعدوها من عوامل نمو الوطنية المصرية (٢) • ففى القاهرة أقبلت الطبقة العليا والمتوسطة على المقـاهى المنشأة على الطراز الاوربى قرب قصر عابدين أو حدائق الأزبكية ، وكانت تقدم لهم عادة كميات من الصحف الحديثة ليقرأوها وهم يحتسون فناجين «القهوة» المضبوطة • فاذا لم تفعل فقد كان باستطاعة كل منهم أن يشترى نسخة من البائع المتجول بنصف قرش • ووجدت كذلك فى المدن والقرى مقاه أقبـل عليها الفقراء والأميون ، حيث كان أحـد المتعلمين ، لعله الفقيه ، يقرأ الصحف بصوت عال • وترتب على ذلك أن افتتاحيات الصحف كانت

---

(١) وفقا لما جاء فى كتاب « التعليم العام فى مصر » ليعقوب أرتين باشا

Yacob Artin Pasha : «L'instruction publique en Egypt», Paris, Leroux, 1889, p. 214.

كانت تصدر فى تلك السنة خمس عشرة صحيفة عربية فى مصر مجموع توزيعها ٩٧ر٧٨٩ نسخة في الشهر ، من بينها ثلاث صحف يومية هى : «الأهرام» و «المقطم » و «قاهرة حرة» توزع مجتمعة ٢٣٧٧ نسخة يوميا ، وفى سنة ١٨٩٨ كانت تصدر فى القاهرة وحدها خمسون جريدة عربية يومية ، وفى مصر كلها ما يقرب من مائتى دورية • أما بالنسبة للدوريات الاوربية فقد كتب آرتين أنه فى سنة ١٨٨٩ كانت هناك تسع صحف فرنسية ، وواحدة انجليزية ، وأربع ايطالية ، وخمس يونانية ، توزع كل شهر أكثر من ١١٠ر٠٠٠ نسخة • ولوصف حالة الصحافة عند نهاية القرن انظر :

Martin Hartman : « The Arabic Press of Egypt, » London, Luzac, 1899.

(٢) انظر على سبيل المثال :

— H. Hamilton Fyfe : «The New Spirit in Egypt», Edinburgh, William Blackwood and Sons, 1911, pp. 18-23f. 113 f.
— Sladen : « Egypt and the English », p. 36f.

تكتب بأسلوب خطابى ، وتعتمد على مخاطبة العاطفة أكثر من العقل . وساعد انتشار التعليم التدريجى على اتساع سوق الصحافة .

وصحب ازدياد الطلب على الصحف نمو فى العوامل المؤثرة فى عرضها . فقد انخفضت تكاليف الانتاج مع تطوير آلية الطباعة لاستخدام الحروف العربية ، وتدرب العمال على جمع الحروف وادارة آلات الطباعة وتوفرت أنواع أرخص من الورق . وساعد انتشار التعليم لا على ازدياد طبقات القراء فحسب ، بل الكتاب المطلوبين أيضا . ومنذ أصبحت الصحافة أداة يستطيع الكاتب أن يوصل بواسطتها أفكاره لجمهور كبير ، وجد الشباب النابه فيها وسيلة جذابة للتعبير (ولاول مرة مهنة أيضا) بعد أن كانت مواهبهم قد تكرست فى الماضى لتأليف الشعر أو الابحاث الدينية . ولا شك أن الكتابة الصحفية أسهل ، ومن ثم خلقت أسلوبا جديدا أكثر سهولة فى النثر العربى ، ما لبث أن أصبح الطابع المميز للتعبير الأدبى الحديث . ومؤرخو المستقبل الذين سيدرسون تطور الأفكار فى مصر منذ حوالى سنة ١٨٩٠ سيضطرون الى أن يخصصوا الدوريات بوقت لايقل عن الوقت الذى سيخصصونه للكتب . وقد لاحظ كاتب هذه السطور أن كثيرا من المصريين يقرأون جريدتين أو أكثر يوميا ولكنهم لايحتفظون بكتب فى بيوتهم .

وكان مصطفى كامل واعيا دائما بأهمية الصحف التى مكنته من الوصول الى عدد أكبر من الناس وفى وقت أقل مما فعلت الخطب أو المدرسة . ولذلك بدأ يصدر مجلة « المدرسة » وهو لايزال طالبا بمدرسة الحقوق ، كما تتلمذ على عبد الله النديم . وكان الاتصال بالصحف ذا أهمية حيوية فى نظره سواء فى مصر أو فى الخارج . وقد بدأ عمله الصحفى قبل أن يتم عامه الثامن عشر بكتابة مقالات باسماء مستعارة فى « الأهرام » ، ولكن معوقات كثيرة كانت تمنع تلك الجريدة من أن تصبح وسيلة فعالة لنشر الوطنية فى مصر : فقد كانت تصدر فى الاسكندرية (١) ، وكان توزيعها ضئيلا جدا (٢) ، وكان صاحباها سوريين ، وكانت سياستها معادية للبريطانيين بالقدر الذى يتفق مع

---

(١) لم ينتقل « الأهرام » الى القاهرة الا سنة ١٨٩٩

(٢) كان توزيعه سنة ١٩٠٣ يقدر ما بين ١٠٠٠ و ١٥٠٠ نسخة اى ربع توزيع « المؤيد » وقتذاك .
(Germany, Auswärtliges Aml, Egyptishe Press, Jenische to von Bülow, Cairo 18 June 1903, no, 88.
(وثائق وزارة الخارجية الألمانية المصورة بالميكروفيلم رقم UM 38 بجامعة ميتشجان

تأييدها للفرنسيين لا أكثر . لذلك بدأ مصطفى يكتب « للمؤيد » ويبدو أنه كان هناك نوع من التفاهم على أن يتعاون مع الشيخ على يوسف فى حشد التأييد المحلى عن طريق صفحات الجريدة . غير أن الحسد مالبث أن ملأ نفس « الشيخ على » نحو مصطفى بعد أن نجح هذا الأخير فى الفوز بشعبية كبيرة بفصاحته ، فبدأ يستبعد مقالاته من جريدته (١) . وحتى قبل أن يصل الأمر الى هذا الحد كان يريد أن يستأثر بجريدته لنفسه . ومنذ سنة ١٨٩٧ ، ربما بسبب فشل خطة الخديو فى الافادة من خدمات لطفى السيد ، ومصطفى كامل يحاول اقناع شقيقه بالاستقالة من الجيش ليصدر جريدة وطنية (٢) . وسنة ١٨٨٩ اشترى مصطفى آلة طباعة من أوربا ، وتعاقد مع عدد قليل من المصريين ، وأصدر العدد الأول من صحيفة « اللواء » فى ٢ يناير سنة ١٩٠٠ . ورغم أن توزيعها ظل متواضعا فى سنواتها القليلة الاولى (٣) ، فلم يمض عليها طويل وقت الا واعترف بها كأقوى لسان معبر عن الوطنيين المصريين .

وأخذ مصطفى كامل يتخلص تدريجيا من القيام بدور الداعية للقصر ليصبح ممثلا للطبقة المتوسطة المصرية ، فضعفت نتيجة لذلك صلة الخديو بالحركة الوطنية ، وفقد الأمل فى تحقيق مطلبهما المشترك بأن تناصرهما فرنسا ضد الانجليز فى مصر ، وبخاصة بعد حادثة فاشودة وعجز الأوربيين الواضح عن منع البريطانيين من مواصلة حرب البوير (٤) . وقد زار الخديو لندن لأول مرة سنة ١٩٠٠ وكون صداقة مع أمير ويلز الذى أصبح فيما بعد الملك أدوارد السابع (٥) .

ومن ناحية أخرى ازداد اهتمام عباس الثانى بعلاقات مصطفى كامل بالباب العالى ، وبخاصة بعد أن اشتكى للسلطان سنة ١٩٠١ من ازدياد نشاط حركة تركيا الفتاة فى مصر دون رادع (٦) . فكان فقدانه للثقة سببا

---

(١) على فهمى كامل : جـ ٩ ، ص ص ١٢٦ ـ ١٢٩ ، هامش ص ١٥٨ ، « مذكرات محمد فريد » ، ص ٥٧

(٢) على فهمى كامل جـ ٦ هامش ص ٦٩ .

(٣) قدر « جنستش Jenisch» توزيعها سنة ١٩٠٣ بعدد يتراوح بين ١٥٠٠ و ٢٠٠٠ نسخة .

(٤) من مصطفى كامل الى جولييت آدم ، فى ٢١ يوليو سنة ١٩٠٠ ، فى «Letters» : p. 66.

(٥) Blunt : pp. 142, 576.

(٦) أحمد شفيق ، جـ ٢ ، ص ٣٤٨ . لم يكن هناك حب بين الخديو وسيده الأعلى السلطان عبد الحميد ، ولا بين الوطنيين المصريين وأعضاء حزب تركيا الفتاة ، على الأقل حتى تولى الأخيرون السلطة

ونتيجة في الوقت نفسه للتحول الأيديولوجي لدعاية مصطفى كامل • فمن قبل كان مصطفى كامل يدافع عن حقوق الخديو باعتباره حاكم مصر الشرعي ، وكان يناشد الأوربيين للتدخل فرديا أو جماعيا لوقف انتهاك بريطانيا لحقوق الخديو (١) ، ويشيد للمصريين بوطنية الخديو ، وعطفه على شعبه ، وجهوده في النهوض بالتعليم وبعث الروح الوطنية ، ويحث مواطنيه على الاتحاد حول شخص حاكمهم لمقاومة العدو البريطاني (٢) • فلما انشأ « اللواء » اذا به يهاجم لا البريطانيين وحدهم ، بل كذلك الوزراء المصريين الذين يخضعون لأوامر مستشاريهم البريطانيين • وهاجم في مقالة نشرها في يناير سنة ١٩٠٠ القيود الجديدة التي فرضتها الحكومة المصرية على الحج ومما قاله فيها :

« أول مبادىء حكومتنا العادلة هو كراهية المصريين والاستهانة بمطالبهم » ، « •• اذا سألنا لماذا تعتدي الحكومة على الحرية الشخصية في مسألة الحج ، فيجب أن نرد بشجاعة وبلا تردد بأن حكومتنا العادلة قررت أن زمن التقوى قد انتهى ، وأن على الحجاج أن يسافروا الى لندن بدلا من الحجاز » (٣) •

وبعد ذلك بقليل كتب مقالة عنوانها « حقوق الشعب وواجباته » رد فيها تأخر مصر بالقياس الى أوربا الى أن مواطنيها لم يعرفوا بعد حقوقهم السياسية ولم يتمتعوا بها ، ومن ثم لم يؤدوا واجباتهم الوطنية • ولهذا فقد وقعت مصر تحت السيطرة الأجنبية ، وعجز رجالاتها عن الحفاظ على ارتباطهم بالشعب ، عماد البلاد ومصدر رخائها • ولو عرف أفراد الشعب أن حقوقهم وواجباتهم باعتبارهم مواطنين متساوية ، وأدرك الحكام أن وجودهم رهين بارادة الشعب وأنه من الممكن عزلهم اذا خانوا ثقته ، لاستعادت مصر مكاناتها اللائقة بين أمم العالم (٤) •

---

(١) انظر على سبيل المثال مقاله في the Berliner Tageblatt وقد كتبه في ديسمبر ١٨٩٧ ، وترجمته في كتاب على فهمي كامل : ج ٦ ، ص ص ١٣٣ – ١٤٩ •

(٢) خطاب مصطفى كامل في عيد جلوس الخديو في ٨ يناير ١٨٩٨ في كتاب على فهمي كامل ج ٦ ، ص ١٣٣ ، ١٤٩ •

(٣) على فهمي كامل : ج ٩ ص ص ٢٣٦ – ٢٤٠ ، وانظر : رسالة من مصطفى كامل الى جولييت آدم في ٢١ نوفمبر ١٩٠٢ ، في « Letters » : p. 95. ويبدو أن الموضوع كان قاصرا على فرض الحكومة لقيود صحية ومالية على الحجاج المصريين لمنع التسول وانتشار الأمراض المعدية •

(٤) مصطفى كامل : « حقوق الشعب وواجباته » ، « اللواء » ، ١٠ فبراير ١٩٠٠ في كتاب على فهمي كامل : ج ٩ ، ص ص ٢٨٨ – ٢٩٢

وفى تلك السنة نفسها سطر مصطفى دعوته الأولى لحكومة ذات نظام نيابى تستند الى دستور مكتوب (١) · ولم يمض وقت طـــويل الا وتبلورت فى ذهنه فكرة الدستورية ، وكان يقصد بها قيام حكومة دستورية ، وأصبحت احدى النقاط الرئيسية في برنامجه ، وهى سياسة كان من الصعب أن تنسجم مع رغبة عباس فى حكم بلاده ·

وبينما كان مصطفى كامل يزداد استقلالا عن القصر ، ويشيد قوته على أساس من التأييد الشعبى ، اكتسب الشيخ على يوسف المزيد من رضى عباس بالتزامه التام بالخط الخديوى · ومن ثم أصبحت « المؤيد » ـ رغم أنها كانت جريدة محترمة تقرأ فى أرجاء العالم الاســـلامى (٢) ـ ينظر اليها باعتبارها أداة فى يد القصر · لقد استطاع الشيخ على يوسف ذو الأصل المتواضع أن يحتل بذكائه وعمله الشاق مكانة هامة ، وظل أعزب طوال سنوات كفاحه المتصاعد ، وهاهو ذا يطمح الآن فى الزواج بابنة الشيخ عبد الخالق السادات ، زعيم السادة الأشراف (سلالة النبى) فى مصر · ولما كان على يوسف لاينتمى الى أسرة متكافئـة ، فقد رفض الشيخ السادات اقترانه بابنته ، فخطفها « على » وتزوجها بموافقة الخديو وعقد القران نقيب الأشراف الزعيم المصرى المنافس لسلالة الرسول · فكان ذلك الزواج هو الفضيحة القوميـة لســـنة ١٩٠٤ ، وتحول الى منازعات قضـــائية طويلة أمام المحكمة الشرعية (٣) · وناصر الخـــديو صحافيه الأثير ، ولكن غالبية المسلمين انحـازوا بقوة للشيخ الســـادات بسبب منصبه الشريف ·

وفى أغسطس من ذلك العـام قابـل مصطفى كامـل الخديو فى باريس واحتج عليه لوقوفه فى وجه الرأى العـام ، فأجاب عباس بأنه لا يبالى بالرأى العام ، وحتى لو قرر أن يطوف بأرجاء القاهرة مرتديا قبعة (وكان ذلك مساويا لتبرئه من الاســـلام) فهو واثق أن أحدا لن يفتح فمه بكلمة · وخرج مصطفى غاضبا وأقســم ألا تـكون له صـلة

---

(١) « الحكومه والأمة فى مصر » · «اللواء» ، أكتوبر ١٩٠٠ ، أعاد نشرها الرافعى : ص ١٦٤ ، أنظر أيضا مقالات «اللواء» فى ٢١ مايو ، ١٦ نوفمبر سنة ١٩٠٢ ، ٩ مارس سنة ١٩٠٤

(٢) انظر على سبيل المثال : « تربية سلامة موسى » ، ص ٣٣ ،
George Swan : « The Muslim Press in Egypt » The Moslem World, 1,2 (April 1911), p. 150.

(٣) لرواية أكمل للقضـية انظر ، عبـد اللطيف حمزة : « على يوسـف » ص ص ١١ ـ ١٢٢ ·

بحاكم يسقط الرأى العام (*) من حسابه . وحين عاد الى مصر نشر رسالة فى « الأهرام » و « اللواء » أعلن فيها انفصاله عن القصر . وكان السبب الذى أعلنه هو خشيته من أن استمرار اتصـــال الخديو بالوطنيين قد يتيح لكرومر فرصة جديدة لحرمانه من حقوقه ، فى الوقت الذى كانت علاقاته بالبريطانيين آخذة فى التحسن ، ثم وجه بلا مبرر ضربة عنيفة للشيخ على يوسف ، بتحذير الخديو من « المفسدين » (**) الذين ربطوا أنفسهم بالقصر ، والتمس استمرار ولائه للمبادىء الوطنية التى كان عباس أول من نادى بها (١) .

ووراء شجارهما حول زواج الشيخ على يوسف كانت تكمن خلافات أعمق بين الخديو ومصطفى كامل . كان عباس يريد أن يحكم مصر دون أن تعوقه تدخلات أجنبية أو محلية ، فى حين توصل مصطفى بالتدريج الى الايمان بأن ارادة الشعب يجب أن تكون صاحبة السيادة المطلقة . وكانت الاتفاقية الانجليزية ـ الفرنسية التى قوت من احتلال بريطانيا لمصر بمثابة الضربة القاضية لدور مصطفى كامل النافع كداعية فى أوربا . وباعتناقه لمبادىء الديمقراطية الليبراليـة أصبح الآن أقرب أن يـكون تهديدا لسلطة الخديو على الشعب المصرى من أن يكون سندا لها .

أما الخديو فقد تصـور آنذاك أن تسـليم مصـيره للبريطانيين أنفع له من تدبير المؤامرات السرية ضدهم . وهكذا قضى على كل احتمال لقيام حلف معاد لبريطانيا يضم فرنسا ، وربما بعض الدول الأوربية الكبرى ، والامبراطورية العثمانيـــة ، والقصر ، والوطنيين ، لضعف العناصر المكونة لهذا الحلف ، وتبـاين أهدافهـا ، وأصبح على مصطفى كامل وأتباعه أن يواصلوا كفاحهم وحدهم .

---

(١) « مذكرات محمد فريد » جـ ١ ، عبد الرحمن الرافعى : ص ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠ ، أحمد شفيق : جـ ٢ ، ص ص م ، ٢ ، هامش ٥٩

(★) ما قاله الخديو فى مقابلة بينه ومصطفى كامل ومحمد فريد والدكتور صادق رمضان فى احدى مدن مياه الاستشفاء بفرنسا هو انه لا يوجد فى مصر راى عام ، ودلل على ذلك بانه لو لبس قبعة وسار فى الشوارع ما اعترض احد على مسلكه .

(★★) لا اظن ان مصطفى كامل قصد بلفظ « المفسدين » الشيخ على يوسف أساسا ،وانما قصد بعض افراد الحاشية وموظفى القصر الخديو .

الفصل الثالث

تكوين الحزب الوطني

- انسحاب وبعث
- سياسة جورست فى اتجاه الوفاق ونشأة الأحزاب المصرية
- وفاة مصطفى كامل

انســـحاب وبعث

اعتمدت حركة مصطفى كامل بقوة منذ البداية على تأييد الأجانب . والوطنية المصرية — فى نظر ناقديها — ليست أكثر من محصلة لمطامع فرنسا الاستعمارية المحبطة ، وفتن الجامعة الاسلامية العثمانية ، ورغبة عباس المحبطة فى أن يصبح طاغية ، أو مزيجا من هذه القوى الخارجية (١) . ومثل هذا التفسير قد يصدق على بدايات الحركة ، فلم يكن من السهل على مصطفى كامل أن يحقق تلك الشهرة المبكرة دون عون خارجى . ومن ناحية أخرى لم يكن من الممكن أن تقوم حركة معارضة محلية فى مصر للحكم البريطانى مالم يوجد مصريون عانوا على نحو ما من وجوده . ولو أن الوطنية المصرية لم تكن أكثر من محصلة معاونات قوى خارجية ، لكان من المحتم أن تنتهى سنة ١٩٠٤ عقب الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا وانفصال مصطفى كامل عن الخديو . ولكن الحركة بدلا من ذلك ، وكما سيوضح هذا الفصل ، عاشت ، بل ازدهرت على نحو لم يتحقق لها منذ سنة ١٨٨٢ ، وطالبت بتأييد الأمة كلها ، ونالته على الفور .

لقد قضى الاتفاق الودى على آخر أثر لمعارضة فرنسا ، فقوى ذلك الى أبعد حد مركز بريطانيا فى مصر . ورغم أن القوى الأوربية الأخرى لم تخطر بشروط الاتفاق ، فقد اتفقت كل منها على حدة مع بريطانيا على ألا تطالب بفرض زمن محدد لاحتلال مصر . وأزالت هذه الاتفاقيات

---

(١) انظر على سبيل المثال : Alexander, pp. 29f. 40f.
Lord Lloyed : «Egypt Since Cromer». I. London Macmillan, 1933, pp. 40-42, Marshall, p. 192 f. Sir George Young, « Egypt », New York, Scribners, 1927, p. 181.

المختلفة أيضا القيود المفروضة على مصروفات الحكومة المصرية بموجب قانون التصفية لسنة ١٨٨٠ مراعاة لمصالح حملة السندات الأجانب . وكذلك ضعفت المعارضة الداخلية بتخلى الخديو عن الوطنيين وتشويه سمعة أعداء الانجليز السابقين كرياض باشا وصنيعته السابق الشيخ على يوسف (١) .

لقد ضيعت بريطانيا سنة ١٨٨٢ أثمن فرصة أتيحت لها لاعادة البناء السياسى لمصر ، وكان ذلك بسبب معارضة حكومة جلادستون لاحتلال عسكرى طويل الأمد . وفى سنة ١٩٠٤ افلتت كرومر من بين يديه فرصة ممتازة للقيام باصلاحات كان من الممكن أن تساعد على عدم انبعاث الشعور المعادى للبريطانيين ، وتجنب كثير من المرارة التى غلبت على العلاقات الانجليزية المصرية التالية ، حتى جاء وقت سممت فيه كل علاقة العرب بالغرب ، فقد كان ذلك أنسب وقت يمكن أن تثبت فيه بريطانيا حسن نيتها واستعدادها لتدريب المصريين على حكم أنفسهم . وكان باستطاعة كرومر أن يضع فى مراكز المسئولية مزيدا من المصريين، وبخاصة من الشباب المتأثر بالغرب ، بدلا من المزيد من الانجليز حديثى التخرج من أكسفورد وكامبريدج . فقد كان ذلك كفيلا بازالة سبب من أهم أسباب الشكوى التى جذبت الشباب الى وطنية مصطفى كامل المتشددة . وكانت الحكمة تقتضى كذلك مكافأة الخديو على هجره للوطنيين بقدر أكبر من السلطة والمسئولية . ولكن كرومر الذى ظل حتى سنة ١٩١٥ يتذكر بوضوح تفاصيل مشاجراته مع عباس سنة ١٨٩٣ (٢) لم يوافق أبدا على اتخاذ مثل تلك الخطوة ، وهكذا استأنف عباس بعد عامين تأييده للوطنيين .

وكان باستطاعة كرومر أن يمنح الوزراء المصريين قدرا أكبر من السلطة ، ولكن معظمهم كانوا تافهين تعودوا اطاعة « المشورة » البريطانية دون اعتراض (٣) . وكان كرومر قليل الثقة بجدوى الحكم النيابى ، فترتب على ذلك أن ظل المجلس التشريعى ، والجمعية

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : « مصطفى كامل .. » ، ص ص ١٧٢ ـ ١٧٥ ، عبد اللطيف حمزة : «على يوسف» ، ص ١٢٧ وما بعدها .

(٢) Cromer : « Abbas II »

(٣) وعدم اهمية مجلس الوزراء يمكن ان يؤكدها حقيقة أن عديدا من الوزراء ظلوا يشغلون مناصبهم من سنة ١٨٩٥ الى ١٩٠٨ (★)

(★) وفى مقدمة هؤلاء مصطفى فهمى ناظر النظار اى رئيس الوزراء .

العمومية ، ومجالس المديريات ، بلا سلطة تقريبا ولا تمثل الشعب . ومما هو جدير بالملاحظة أن كثرة الأحزاب السياسية فى مصر فيما بين عامى ١٩٠٧ و ١٩٠٩ لم تبذل أى محـــاولة للتنسيق بينها فى تقديم مرشحين لانتخابات هذه الأجهزة .

وبذلت الحكومة المصرية جهدا لعلاج اهمالها السابق للتعليم العام، فقد ظل التعليم ميزة مقصورة فى الأغلب على أبناء الأثرياء ، وأهمـل التعليم المهنى والفنى (١) . وقاومت الحكومة قيام طبقة رأسمالية وطنية فقد كانت الرسوم الجمركية المفروضة على المواد الخام والآلات مرتفعة تكاد تساوى المفروضة على البضـــائع الأجنبيـــة . وكانت المنسوجات المصنوعة محليا تدفع عنها ضريبة انتاج تساوى الرســوم الجمركية المفروضة على الأقمشة المستوردة ، حتى ليصدق ما شكا منه عبد الناصر كثيرا (٢) من أن بريطانيا حاولت منع تصنيع مصر حرصا منها على رواج صناعتها هى . ومع ذلك فالانصاف يقتضى أن نشير الى أن تصنيع مصر لم يكن ميسورا دون ازالة الامتيازات الأجنبية ، ولم تكن بريطانيـــا هى التى حرصت على استمرارها ، بل الدول الكبرى ، والوطنيون أنفسهم (*)

ولايمكن انكار أن كرومر قد بذل خير سنوات عمره لاحياء اقتصاد مصر ، وأن جهوده قد كللت بالنجاح . فأصبح حجم الائتمان بالبـــلاد

---

(١) Rothstein : « Egypt 'S Ruin », pp. 315-324. وفيه علاج مفيد لموضوع التعليم فى مصر خلال تلك الفترة . ومما هو جدير بالذكر أن مدرسة الزراعة كانت ترفض سنة ١٩٠٤ المتقدمين المؤهلين اليها لعدم وجود أماكن ، رغم أن علوم الزراعة لم تكن موضع تقدير غالبا .

(٢) انظر على سبيل المثال حديث عبد الناصر مع دزموند استيوارت سنة ١٩٥٧ فى كتابه :

Desmond Stewart : « Young Egypt », London, Allan Wingate, 1958, p. 183.
President Abdel-Nasser's Speeches and Press Interviews », 1959, Cairo, UAR Information Dept., pp. 184, 431.

(*) ليس هذا صحيحا فان بريطانيا كانت المستفيدة الوحيدة من الحيلولة دون قيام صناعة مصرية ولا سيما صناعة الغزل والنسيج ، ذلك لأنها كانت تحتكر القطن المصرى زهيد النيلة لمغازلها فى لانكشاير وليفربول ، ثم تعيد تصديره منسوجا باسعار مرتفعة ، ولم يكن للدول الأخرى نصيب يذكر فى هذه التجارة الاحتكارية ، ومن ثم فقد كانت الدول الكبرى تتمنى ان تسقط هذه الحواجز التى اقامتها بريطانيا لصالحها دونهم . ومما يؤيد هذه النظرة ان طلعت حرب حينما اراد ان ينشىء صناعة الغزل والنسيج فى مصر ، اضطر ان يدخل فى اتفاقية مع بريطانيا تضمن لها استمرار رواج المنســـوجات البريطانية المصنوعة من القطن المصرى .

معقولا ، وراجت الاستثمارات الخاصة فى الأراضى والعقارات المصرية ، وارتفع مستوى معيشة الفلاحين ، وهم غالبية أهل مصر ، ولعله بلغ أعلى معدل له حوالى سنة ١٩٠٤ بفضل الغاء الكرباج والسخرة ، بالاضافة الى جهود مهندسى الرى البريطانيين (١) • (*)

واذا لم يكن قد صحب ذلك احياء سياسى مماثل فمرجع ذلك الى فشل كرومر فى تقدير حرص المصريين الموهوبين المتعلمين على تحقيق ذواتهم فى خدمة بلادهم (٢) • فكان كل شـــاب مصرى يبدى استعداده للتعـــاون مع الانجليز يكافأ بالتدرج فى سلسلة من الوظائف المجـردة من كل سلطة ، على رأسـها منصب الوزير المفـرغ من كل مضمون • لاغرو أن آثر اللامعون من الشـباب العمـل بالمحاماة أو الصحافة حيث شرعوا يهاجمون الحكومة لأنها غير نيابيـــة ، والبريطانيين لسيطرتهـم عليها • فاذا صح أن شغبهم كان خاليا من الاقتراحات البناءة لاصلاح حكومة بلادهم ــ كما ذهب كرومر ــ فهل يمكن لومهم طالما لم تتح لهم الفرصة لاكتساب الخبرة اللازمة ؟ وهل يمكن نقدهم للالتجاء للفتن ــ وسيلة الضعفاء ــ وكل أسباب القوة يحتكرها جيش الاحتلال البريطانى، أو للدعاية الصوفية العنيفة فى وقت انعدمت فيه كل السبل الشرعية الكفيلة بازالة أسباب السخط (٣) ؟

كان فقدان تأييد القصر خسارة مادية ومعنوية للوطنيين ، ولكنه

---

(١) يقول تشـــارلز عيســوى : « واخيرا فبالنسبة للفلاحين لا شك ان تخفيض الضرائب وتحسين الرى ، والقضاء على السخرة وتقليل عدد المجندين ، قد حسن من وضعهم الى حد بعيد ، رغم أن افلاس الصناعات الفردية قد أدى الى انخفاض الدخل وتضخم المديونية ، فمن المرجح أن وضعهم الاقتصادى فى بداية هذا القرن كان افضل منه فى اى وقت سابق أو لاحق • »

(Charles Issawi : «Egypt at Mid — Century», p. 46).

(٢) Roger own : «The Influence of Lord Cromer's Indian Experience on British Policy in Egypt». St. Antony's Papers, no. 17, London Oxford University Press, 1965, pp. 113-139.

(٣) Sladen : «Egypt and the English», p. 145 f.

(*) رد مصطفى كامل على هذه الدعوى ، واثبت ان اقتصاد مصر زاد ســواء فى ظل الاحتلال البريطانى ، وان ميزانية مصر فى عهد الخديو اسماعيل التى كانت دون ميزانية مصر فى عهد الاحتلال ، استطاعت أن تؤدى خدماتها للشـعب المصرى فى مجالات الصحة وانشاء المرافق من الترع والموانى والمنارات والخزانات ومجانية التعليم ، ومن الطرق والخطوط التليفونية والبرقية ، أضعاف اضعاف ما قام به الاحتلال الذى حرم الفلاح الفقير نهائيا من التعليم والرعاية الصحية والثقافة •

لم يكن نكبة فحسب بل كان له جانبه الايجابى ، فحين تحرروا من القيود التى فرضتها عليهم علاقاتهم الخديوية ، أصبحوا أحرارا فى طلب التأييد الشعبى باعتبـارهم حركة وطنيـة أصـيلة • وما نجحوا فى تحقيقه وما فشلوا فيه يمكن أن يوضح طبيعة حركتهم وابعادها •

ولماذا ــ مثلا ــ لم يحاولوا التفاهم مع عرابى ؟ لقد كان مصـطفى كامل يحتقره ، وبصفة خاصة بعد عودته من المنفى سنة ١٩٠١ ، وثنائه فى حديث صحفى مع جريدة « المقطـم » على انجـازات بريطانيـا فى مصر (١) •

ولماذا لم يحاول مصـطفى كامل كسـب تأييد الفلاحين ؟ (*) ان رخاءهم النسبى وقتذاك كان من الممكن آن يعوق نجاح هذه المحاولة ، ولكن ارتفاع مستوى المعيشة قد سـاعد فى عصور وأماكن أخرى على انتشار الأفكار الثورية • من سوء الحظ آن مصطفى كان بعيدا عن جذور الفلاحين بدرجة لم تتح له الاهتمام بهم ، ومن ثم ظل دورهم ثانويا فى الحركة الوطنية حتى سنة ١٩١٩ •

---

(١) Blunt : « My Diaries », p. 426 نقد مصطفى كامل « عرابى » فى «المسألة الشرقية» الذى اعاد نشره على فهمي كامل : جـ ٨ ، صص ٧٠ وما بعدها ، ١٠٧ ، ١١٢ . ١١٤ واشار كذلك فى رسالة الى مدام آدم سنة ١٩٠٢ الى « خيانة عرابى المخزية » فى التل الكبير • «(Letters, p. 84).

(★) لم يسقط مصطفى كامل من حسابه الفوز بتأييد الفلاحين • وقد تحدث كثيرا عن سوء حال الفلاح وحرمانه من التعليم بعد ان كان متمتعا بمجانية هذا التعليم فى عهد الخديو اسماعيل ، وتحدث حديثا مسـتطابا عن مصطفى بك الشـوربجى ومشروعاته الاصلاحية فى قرية « بريم » بمحافظة البحيرة • وقد كان اهتمامه الشديد بضحايا قضية دنشواى وهم فلاحون مجهولون دليلا قاطعا على مدى ارتباطه بالفـلاحين وانشغال باله بامورهم • ولكن الطبيعى ان يبدأ القائد باكثر الطبقات اسـتجابة لدعوته ، واكثرها قدرة على العمل السياسى • وكان الشبان المتعلمون فى المدارس وأصحاب المهن من المحامين والأطباء هم أحق الناس بأن يتولوا الكفاح السياسى الى ان تزيد اعداد العمال بازدياد المصانع ، ويتم تنظيمهم ، فى هيئات تمثلهم ونقابات تدافع عنهم ، وكذلك حينما يزداد وعى الفلاحين السياسى وقد كانت حملة مصطفى كامل ضد الحكم الاستعمارى والتنديد بمظالمه بمناسبة حادثة دنشواى ، هزة عنيفة لقطاع الفلاحين من اقصى مصر الى اقصاها ، فقد عرفوا مصطفى كامل واحبوه ، وشعروا بان ضحايا دنشواى ليسوا الا رموزا على الفلاح المصرى ، وانهم ذوو قيمة وشأن • فزاد اهتمامهم بمصطفى كامل واصبحت جريدته تقرأ على (المصاطب) فى القرى ، وكان ذلك كله بداية للوعى السياسى واسقاطا لتهمة ان مصطفى كامل قصر اهتمامه على مثقفى العاصمة •

واذا كان مصطفى كامل قد أشار الى صعوبة حياة الفلاح فقد فعل ذلك وهو يخاطب جمهورا أوربيا خلال محاولاته لتجريح البريطانيين . ومن اتهاماته لهم عدم وجود وزارة زراعة مصرية ، وقلة عدد ممثلى الفلاحين ، وعدم الاهتمام باصلاح الطرق وانشاء المدارس الابتدائية فى الريف . (١) كما أرجع ازدياد ديون الفلاح ، لا الى ارهاق التربة بسبب جشع أصحاب الثروات المتزايدة ، بل الى الضرائب المرتفعة ورذائل الحضارة الأوربية (٢) . ولكنه لم يدع ، ولا أى من المصريين المعاصرين له، الى توزيع أكثر عدالة للملكية الأرض .

ولم يكد مصطفى كامل يهتم بالوسائل التى يستطيع بها الوطنيون زيادة ثروة مصر ، فاستشعر - بلا حماسة - بالحاجة الى التصنيع ، وأرجع تأخر مصر الى سياسة بريطانيا فى محاربة المنافسة المحلية لصناعاتها (٣) . وكان العلاج فى نظره - متمشيا مع قوميته الليبرالية - يتمثل فى دعوة كبار الأثرياء للتبرع بالأموال لانشاء المصانع بهدف تحرير البلاد من الاعتماد على المنتجات الأجنبية (٤) ، ولم يبد أى رغبة فى تدخل الدولة فى المشروعات الصناعية ، وكذلك لم يهتم مصطفى بالحالة الواقعية للقوى العاملة المصرية ، وكانت ضئيلة أيامه . فالوطنيون لم يخطبوا ود البروليتاريا الا فى مرحلة تالية (٥) . (*)

---

(١) وردت هذه الاتهامات فى مقال كتبه للمجلة الزراعية الايطالية الصادرة فى ابريل ١٨٩٨ . والترجمة العربية فى : على فهمى كامل : جـ ٦ ، ص ص ٢٠٥ - ٢١٥ . ووزارة الزراعة المصرية لم تنشأ الا سنة ١٩١٣

(٢) على فهمى كامل : جـ ٥ ، ص ص ٢٣٢ - ٢٣٩ .

(٣) المصدر السابق : ص ٢٣٩ .

(٤) وجه مثل هذه الدعوة فى مأدبته التى أقامها سنة ١٨٩٨ لتكريم السلطان عبد الحميد .

انظر على فهمى كامل : جـ ٩ ، ص ٢٢

(٥) عن الوطنيين والعمال انظر : الفصل الرابع من هذه الدراسة .

(*) هذا اتهام آخر ظالم لمصطفى كامل ، فقد كتب وهو بعد تلميذ بمدرسة الحقوق فى مجلته الفتية الشهرية « المدرسة » التى أصدرها سنة ١٨٩٣ مقالا قال فيه : ان الصناعة لها فى الوجود فضل ظاهر ومجد واضح لا ينكره الا جاهل ، ثم قال ان الصناع الذين هم رافعو لواء الصناعة جديرون بالاحترام ، حقيقون بالتبجيل والاعتبار ، ثم انتهى الى القول بأن عظمة الأمم وتقدمها تقاس بمقدار ما يظفر به العمال من الرعاية والتقدير من قومهم . ثم كتب مقالا فى جريدة « اللواء » فى ٢٥ من أكتوبر سنة ١٩٠٠ اى فى السنة الأولى من سنى هذه الجريدة دعا فيه الى ايجاد روح الصناعة ونشر المدارس الصناعية .

أما ما قام به الوطنيون فعلا ، فهو توجيه نداءاتهم ، ككثيرين من أمثالهم في أقطار أخرى ، الى طلبة المدارس الثانوية والعاليـــة ، فهم الذين يكسبون أكثر ويخسرون أقل من تغيير الوضع القائم • وكان الجيل الجديد من طلبة مصر لايزال ضئيل العدد ، غالبيته من الطبقة العليا أو الوسطى ، المتأثرة بالأفكار الأوربية عن الليبرالية والقومية ، وتعتبر رخاء مصر أمرا مسلما به • لم يعرفوا شيئا عن فساد حكم اسماعيل وان ظلت ذكرى هزيمة عرابى تلهب صدورهم • وكان مصطفى كامل شخصية مندفعة فصيحة ، لايزال فى ميعة الصـــبا ، استهواه لمن يصغرونه أقوى ما يكون • وكان الطلاب ينفرون بطبعهـــم من صلف مدرسيهم الانجليز وقســـوتهم الغـــالبة ، (١) وكانوا يعتبرون التعليم وسيلة للحصول على الوظائف العامة ، وان كان عدد الوظائف الحكومية المحترمة المسموح لهم بشغلها قليلا • وشيئا فشيئا احتلها الانجليز (٢)• وحتى لو لم يكن لدى الجيل الجديد من الطلاب مايشكو منه لبحث عن أسباب للثورة • فاذا كان النشاط الســـياسى للطلاب المصريين احدى ظواهر القرن العشرين ، فمقاومة الشباب للسلطة غير محدودة بزمن (٣)•

وكانت جاذبية مصطفى أقوى ما تكون بين طـلاب مدرســة الحقوق الخديوية لأنهم أكثر اهتماما بالسياسة من غيرهم • وكانت دراستهم التى تحتذى المناهج الفرنسية ، تشمل علم الســياسة والاقتصـــاد • كانوا يدرسون القانون غالبا لا للاشتغال بالمحاماة بل ليؤهلوا أنفسهم لشغل المناصب الحكومية العليا ، أو ليحترفوا السياسة • وأياكان الأمر فقد تميزت مدرسة الحقوق بين المدارس العليا بتخريجها عددا كبيرا ممن لم يلتحقوا بخدمة الحكومة ، وكانت تميل بهم الى عدم الاعتماد على الرضـا الرسمى ، كما كان طلاب الحقوق أفصح من سواهم ، لا لأن البلغاء كانوا ينجذبون الى الحرفة فحسب ، بل لأن منهج دراستهم كان يشمل تدريبا

---

(١) Humphery Bowman : «Middle East Window», London, Longman's Green and Co., 1942, p. 39 f.

، سلامة موسى ص ٢٨

(٣) يقرر روز شتاين أن عدد الموظفين الأجانب فى الحكومة المصرية ارتفع فيما بين عامى ١٨٩٦ و ١٩٠٦ ، من ٦٩٠ الى ١٢٥٢ ، فى حين زاد عدد الموظفين المصريين من ٨٤٤٤ الى ١٢٫٢٠٧ • وكان الأجانب ، وغالبيتهم من الانجليز ، يشغلون نسبة أكبر من المناصب الرئيسية •

(٣) انظر : احمد لطفى السيد (« قصة حياتى » : ص ٢٣ وما بعدها) الذى يقدم نموذجا مصريا فى وصفه لجماعات الفتوات فى القاهرة فى أواخر القرن التاسع عشر

على الخطابة من خلال دراستهم للأدب العربى (١) ٠(*)

وظل البروفسير ادوارد لامبير الفرنسى يدير مدرســـة الحقـــوق الخديوية حتى سنة ١٩٠٧ وكان بين هيئة تدريسها عدد من الأســاتذة الفرنسيين الممتازين ، ولأنهم ممن أقاموا بمصر فترات طويلة فلا بد أنهم كانوا ساخطين بصـــفة خاصة لانكماش نفوذ فرنســا الثقافى فى مصر نتيجة للوجود البريطانى فيها ٠ وكان طلاب الحقوق أقرب لتمثيل الصفوة المصرية ، فآباؤهم لابد على قدر من الثراء ليســتطيعوا دفع المصروفات السنوية وكانت ضعف مصاريف كل من مدرستى الطب والهندسة ٠(٢) وكذلك لابد أن يكون هؤلاء الآباء على قدر من الاعجاب بمزايا التعليم الغربى والا لأرســـلوا أبناءهم الى الأزهر (٣) ٠ ورغـم ذلك كله فعدد الملتحقين بمدرسة الحقوق الخديوية كان أكبر بكثير من عدد الملتحقين بالمدارس المهنية الأخرى (٤) وكذلك نظيرتها الفرنســية كان عدد طلابها سنة ١٩٠٥ مائتى طالب ٠ سبعين بالمائة منهم مصريين (٥) ٠

كان مقر مدرسة الحقوق الخديوية فى مواجهة قصر عابدين ، على

---

(١) أحمد لطفى السيد : ص ٢٥ ، اسماعيل صدقى : « مذكراتى » ، القاهرة ٠ دار الهلال ، ١٩٥٠ ، ص ٧ (Rothstein; p. 324 f.)

(٢) أى ٣٠ جنيها مصريا مقابل ١٥ جنيها مصريا للطب والهندسة ، فى حين كانت مدرسة المعلمين مجانا (Kinsey, p. 333). وقد التحق ابراهيم عبد القادر المازنى (١٨٨٩ ــ ١٩٤٩) كاتب مصر الســاخر المشـــهور ، بمدرسة المعلمين لانه كان افقر من أن يلتحق بمدرسة الحقوق الخديوية ٠

(٣) كما حدث لأحمد امين : « حياتى » ، ص ٥٧ ٠

(٤) كان بها سنة ١٩٠٥ : ٢٧٣ طالبا مقابل ٥٧ فى الهندسة ، ١١٦ فى الطب والصيدلة ، ٢١٠ بدار العلوم (المدرسة الخاصة باعداد مدرسى اللغة العربية) ، ٦٩ بمدرسة المعلمين الخديوية ٠ (kinsey, Appendix D/1, p. 549).

(٥) Fernand Faure : « L'école française de droit du Caire », Revue Politique et Parlementaire, LXXXIII, June 1915, p. 392.

(*) من اتهامات كتاب الغرب السمجة للشباب المصرى ان انحيازهم للحركة الوطنية وانتماءهم لمصطفى كامل راجع الى ان الانجليز كانوا يحتلون المناصب العليا فى مصر ويسدون طريق التقدم فى وجههم ، فى حين أن عددا ضخما من الشباب الذى تعلم فى المدارس العليا اتجه الى الوظائف الحرة كالمحاماة والطب والصحافة والتجارة هذا فضلا عن ان الشبان الذين تخرجوا من المدارس العليا الفنية كالهندسة مثلا كانوا يصلون الى أعلى الوظائف بلا عناء ، وكانت الوظائف الكبرى كالمديرين والمحافظين ورؤساء المصالح هى من نصيب المصريين ، فلم تكن هناك ازمة وظائف كبيرة يعانى منها الشبان المصريون ، بحيث لا يجدون لها حلا الا فى الحركة الوطنية ان الشبان المصريين أيدوا مصطفى كامل حبا فى وطنهم لابحثا عن وظيفة كبيرة او صغيرة ٠

مرمى حجر من معظم وزارات الحكومة ومقر جريدة « اللواء » ، فكانت بذلك فى موقع مناسب تماما للقيام بالمظاهرات السياسية ٠ ولهذا ما لبثت الحكومة أن نقلتها الى العباسية (١) ٠

وواصلت مدرسة مصطفى كامل نموها ، وبدأ مصطفى يدعو الى انشاء جامعة وطنية ، ويعتقد بعض الكتاب أنه كان أول من دعا الى انشائها ، (٢) كما أيد تاسيس « نادى المدارس العليا » وهو جمعية تضم طلبة كل المدارس المهنية وخريجيها ، واختير للنادى مقر فخم وسط القاهرة وأهداه محمد فريد مكتبته (٣) ، ووضع له برنامج ضخم يضم محاضرين من الخارج فى موضوعات اجتماعية وأدبية ٠ ورغم أن النادى لم يرتبط رسميا بالحزب الوطنى ، فقد كان معظم المشرفين عليه وأعضائه من الوطنيين ، بحيث يمكن اعتباره تنظيما تابعا للحزب ٠

واذا كان مصطفى كامل قد فقد الأمل فى تأييد الحكومة الفرنسية ، فانه لم يتخل نهائيا عن الاهتمام بعلاقات مصر الخارجية ، وهلل ، ككثير من الزعماء الآسيويين ، لانتصار اليابان على روسيا ، باعتباره دليلا على امكان هزيمة مد التوسع الأوربى ٠

ونشط مصطفى كامل دعوته للاتحاد الاسلامى ، فأصدر ملحقا شهريا « للواء » أسماه « العالم الاسلامى » ، وحرص على علاقاته العثمانية (٤) ، وفى الوقت نفسه وجه نداء لألمانيا لتقوم بالدور الذى

---

(١) Alexander, p. 197. والعباسية من ضواحى القاهرة ٠

(٢) انظر على سبيل المثال :
Christian Phelps Harris : « Nationalism and Revolution in Egypt », The Hague : Mauton, 1964, p. 69, Alexander : p. 203,

من مصطفى كامل الى جولييت آدم ، القاهرة فى ١٣ يناير ١٩٠٥ (Letters : p. 170) وفيه ينسب فكرة انشاء الجامعة الى نفسه ، وانظر ايضا :
Kinsey : p. 511 وهو قاضى انجليزى « Egyptian Enigma », p. 91. J.E. Marshall

(٣) « مذكرات محمد فريد » ، ص ٤١ ٠ وكان مقر نادى المدارس العليا شارع قصر النيل بوسط القاهرة، وقد وصفه عبد الرحمن الرافعى فى « مذكراتى : ١٨٨٩ — ١٩٥١ » ، دار الهلال ، ١٩٥٢ ص ١٠ وما بعدها ٠

(٤) كتب لويد (Lloyd : I, p. 42) ان « اللواء » هاجم سنة ١٩٠٥ سياسة الدول الأوربية الكبرى فى الضغط على السلطان لاجراء اصلاحات ادارية فى مقدونيا ٠

تخلت عنه فرنسا ، وهو دور المعارض الرئيسي للوجود البريطاني في مصر (١) ٠

وبالاضافة الى ذلك لم يكف عن السعي للحصول على تأييد الأحرار من البريطانيين والفرنسيين ، فزار لندن لأول مرة سنة ١٩٠٤، ونشر بعد ذلك مجموعة من خطبه في باريس (٢) ٠

على أنه بالمقارنة بالمرحلة الأولى من عمله السياسي نجد أن مصطفى قد ركز نشاطه بعد سنة ١٩٠٤ داخل البلاد أساسا ٠ فمع ازدياد شكه في احتمال تدخل أوربي لتحرير مصر ، بدأ يتجه الآن الى مواطنيه وأبناء دينه ٠ وبعد سنتين مرتا في خمول ، استطاع مصطفى بسياسته في الاثارة الداخلية ، ونتيجة لبعض الأحداث الرئيسية ، أن يسترد سنة ١٩٠٦ مكانته ، بل يزيد نفوذه وأهميته ٠

فقد وقعت سنة ١٩٠٦ ثلاثة أحداث أسهمت في بعث الشعور الوطني في مصر وهي : اضراب طلبة الحقوق ، ومشكلة طابة ، وحادثة دنشواي ، فدفع كل منها مزيدا من المصريين الى الاشتغال بالسياسة ، وبخاصة في الكفاح ضد الحكم البريطاني ٠

كان اضراب طلبة الحقوق في فبراير سنة ١٩٠٦ أول حركة احتجاج ناجحة قام بها الطلاب في مصر الحديثة ٠ وكان سببه المباشر مجموعة جديدة من القواعد فرضتها وزارة المعارف العمومية بايعاز من دوجلاس دانلوب سكرتيرها العام المكروه ، وكانت احدى هذه القواعد تنص على فصل الطالب الراسب بأي سنة دراسية بمدرسة الحقوق وحرمانه من اعادة قيدة (٣) ٠ وصوت الطلاب في اجتماع عام على الامتناع عن الدراسة حتى يستجاب لشكواهم ٠ وشجع مصطفى كامل تصرفهم في عموده بجريدة « اللواء » ، وينسب اليه أحيانا دعوتهم الى

---

(١) زار مصطفى كامل برلين في أكتوبر سنة ١٩٠٥ ، ونشر مقالا في «Berliner Tageblatt» يناشد فيه الشعب الألماني أن يتبنى قضية حرية مصر ٠

من مصطفى كامل الى جولييت آدم في ٢١ ، ٣١ اكتوبر ، ١٧ نوفمبر سنة ١٩٠٥

France, Ministère des Affaires Etrangères : (Letters : pp. 220-226) «Egypte : Politique exterieure-relations avec l'Allemagne», p. 122f., Raymond Le Comte to Rouvier, Berlin, 25 October, 1905, no. 300.

(٢) « Egyptians et anglais », published by Perrin in 1906, وكتب بلنت (My Diaries, p. 587) ان توزيعه كان سيئا ٠

(٣) محمد حسين هيكل : « مذكرات » ، ج ١ ص ٢٥

الاضراب (١) • وحرصا من كرومر ودانلوب على المحافظة على النظام طالبا بفرض القواعد الجديدة بالقوة وفصـــل الطلاب المضربين ، ولكن بعض كبار الموظفين الآخرين كانوا كثر تعاطفا ، منهم لامبير مدير مدرسة الحقوق ، الذى سرعان ما سيفصل ويستبدل به انجليزيا أقل كفاءة ، وقد وصف لامبير قواعد دانلوب « بسياسة وخز الابر العنيفة واضطهاد دنيء » لا يلائم الا تلاميـــذ المدارس الابتدائيـــة (٢) ووافق شــــكوى ما كيلوريث المستشار القضـــائى البريطـانى على التحقيق فى شكوى الطلبة ، فأنهوا اضرابهم (٣) •

والدلالة بعيدة المدى لهذا الحادث ذات شقين : فقد كانت استهلالا لعادة اضراب الطلاب المصريين (التى ستمارس فيما بعد بصورة تشل النظام التعليمى (، وقرنت نشاطهـم ومصـالحهم بالسـياسة الوطنية •

وكان للنزاع التركى المصرى حول الحدود ، أو ما عرف بحادثة طابة ، أثره فى تأجج الوطنية • فقد نشب النزاع حول ملكية شـــبه جزيرة سيناء لأسباب معقدة ، غير أن انذارا بريطانيا للباب العالى (٤)

---

(١) Landau, p. 123 f.

(٢) Juliette Adam : « L'Angl:terre en Egypte », Paris, Impremerie de Centre, 1922, p. 114.

(٣) عبد الرحمن : « مصطفى كامل •• » ، ص ١٩٥

(٤) رغم أن بريطانيا هى التى كانت تحكم مصر فعلا ، فقد كانت مصر من الناحية القانونية ولاية عثمانيه ، يحدد السلطان حدودها فى فرمان التولية الذى يصدره لكل خديو يتولى العرش • وقد صيغ فرمان تولية عباس سنة ١٨٩٢ بحيث يقتطع من أملاكه جزءا من شبه جزيرة سيناء • ولم تقبل الحكومة العثمانية العودة الى الحدود السابقة الممتدة من العريش حتى رأس خليج العقبة الا بعد ضغط من السفير البريطانى • ورغم ذلك فقد اعتقد بعض الكبار كبلنت (Blunt : «My Diaries» pp. 853-856) أن سيناء كانت دائما خاضعة للسيطرة التركية • وأرسلت الحكومة المصرية ســنة ١٩٠٥ موظفا انجليزيا الى سيناء ، ثم عينته بعد ذلك قائدا ومفتشا لشبه الجزيرة مع حامية مصرية صغيرة عند « النحل » • وشكت الحكومة العثمانية فى أنه يحرض البدو على التدخل فى انشاء سكة حديد الحجاز بامتدادها المحدد الى العقبة وما سيترتب عليه من انشاء سلسلة من نقط الحدود فى جنوب فلسطين فشرعت تركيا تكون حامية فى « طابة » ، وهى قرية على خليج العقبة تقع فى الجانب المصرى من حدود سنة ١٨٩٢ •

وفى يناير ١٩٠٦ شكا السلطان الى السفير البريطانى من أن القوات المصرية بقيادة ضباط بريطانيين تعسكر بالقرب من العقبة معلنة عزمها على اقامة نقط حراسة هناك • فى مواقع أخرى داخل المنطقة التركية وطالب بانســحابها • وواصلت القوات التركية احتلال مواقع أخرى غربى خط حدود سنة ١٨٩٢ • وفى ٣١ مارس طلب مختار باشا =

حسمه أخيرا لمصلحة مصر • وقد ألهبت حادثة « طابة » المشاعر الشعبية في مصر ، لا ضد تركيا كما هو متوقع ، بل ضد بريطانيا لتعاملها مع مصر وكأنهـا من مستعمراتها ولاستهانتها بالسيادة العثمانيـة (١) • وبعض الصحف التي يملكها مصريون ، « كالمؤيد » و « اللواء » ، وكانت دعوتهما الى الوحدة الاسلامية آخذة في التصـــاعد ، دافعت بحماسة عن طلب العثمانيين ضم كل سيناء أو بعضها الى تركيا •

وأقل ما يقال عن هذا الموقف أنه غريب من الوطنيين المصريين الذين رفض أسلافهم السيادة العثمانية ، وسيعتنق خلفـــاؤهم نظرة المشرق العربي المعادية للعثمانيين ، غير أن الوطنيين خلال معارضتهم للوجود البريطاني الأقوى ، كان عليهم أن يفوزوا بتأييد سادتهم العثمانيين الاقرب

= المندوب السامي التركي بالقاهرة رسميا اعتبار قرية «طابة» داخلة المنطقة العثمانية وأصر على أن تمتد الحدود المصرية من رفح الى السويس الى العقبة • واستشهد الخديو بفرمان سنة ١٨٩٢ وطالب بلجنة تحكيم • وكان كرومر مشغولا بازدياد الاثارة التي تقوم بها الجامعة الاسلامية في مصر ، فاعتبر طلب مختار باشـــا محاولة لمد حـــدود تركيا وسكة حديدها الاستراتيجية الى قناة السويس • وأخذت وزارة الخارجية بهذا التفسير للأحداث ، وفي ٢ مايو سلم السفير البريطاني انذارا مدته عشرة أيام الى الباب العالي يطلب منه جلاء القوات التركية من «طابة» وبقية النقط الأخرى غربي حدود سنة ١٨٩٢ • ولمساندة الانذار أرسل الأسطول البريطاني في البحر المتوسط الى ميناء « بيريه » • وانتهى الأمر باستسلام السلطان ، بناء على نصيحة بقية السفراء الأوربيين ووافق على تكوين لجنة تحكيم مشتركة حددت خط الحدود بين تركيا ومصر بنفس الخط المحدد سنة ١٨٩٢ تقريبا• ولمزيد من المعلومات أنظر : « الكتاب الأزرق » الذى نشرته وزارة الخارجية بعد حادثة « طابة »

Great Britain FO, Egypt, No. 2 (1906), « Correspondence Respecting the Turco — Egyptian Frantier», ed. 3006, bound in Parliament "Accounts and Papers," CXXXCII, pp. 645-68 و Sir A. W. Ward and G. P. Gooch : «The Canbridge History of Foreign Policy, 1783-1919», New York Macmillan, 1923. III. p. 380. Grey Fallodon (Sir Edward Grey), «Twenty-five years, 1892-1916», New Haven, Fredrick A. Stocks, 1925, pp. 119-123, G. P. Gooch and Harold Temperely: « British Documents on the Origins of the War. V : the Near East », London, HMSO, 1928, pp. 189-195.

وليست هناك مجموعة مماثلة من وثائق الجانب العثماني ، ولكن أنظر :
Blunt : « My Diaries » pp. 547 f, 522-556, 558, 853-858.

وبالطبع لم يكن لبريطانيا أى حق شرعي في الدفاع عن موقف مصر ، ولكن فشلها في القيام بهذه المهمة كان سيجعل لتركيا السيطرة على جزء من سيناء وقناة السويس • وهذا الخلاف الذى قلما يذكره تاريخ الدبلوماسية الأوربية اكتسب الآن أهمية جديدة بعد أحداث سنة ١٩٦٧ •

(١) عبد الرحمن الرافعي : « مصطفى كامل •• » ، ص ١٩٥ وما بعدها •

للشرعية والاضعف . والاستجابة الشـــعبية لاثارتهم تشير الى أن التمســـك المشترك بالاســـلام كان لا يزال يربط كثيرا من المصريين باستانبول ، فى حين كان البريطانيون ، بتجربتهم مع الملايين من رعاياهم المسلمين فى الهند وتمردهم الكامن ، شديدو الحســـاسية تجاه دعوة الجامعة الاسلامية التى يقوم بها السلطان ــ الخليفة العثمانى ــ وتقام من أجله .

ورغم أن كرومر قد قرر أنه كان من الصعب فى بعض الاحيان « التعرف على الجامعة الاسلامية تحت رداء الوطنية » فقد برر تسويته السهلة بين الجامعة الاســـلامية والوطنية المصرية بالاستشهاد برســـالة تلقتهـــا الوكالة البريطانية فى قمة حادثة « طابة » ، قال فيها كاتبها المجهول :

« باعتبارنا رجالا فنحن لا نحب العثمـــانيين .. ولكنهم اخوتنا باعتبارنا مســـلمين .. والخليفة ظل الله على الأرض ، وعلى كل مسلم أن يسارع الى تلبية ندائه حتى لو افترس الذئب طفله وهو يؤدى طلب سيده . ان نداءه هو نداء الايمان .. وانى وكثيرين غيرى نتمنى أن يظل السلام ســـائدا ، ولكن ثق أن الحرب اذا قامت فكل من لديه سيف سيمتشقه ، وكل من لديه عصا سيضرب بها ، وستصرخ النساء من فوق البيوت : « لينصر الله الاسلام » . هل تقول : « ان المصريين أقل وفاء من الكلب الذى يذكر اليد التى أطعمته ، وانه أحمق مجنون ذاك الذى يهدم فوق أم رأسه سقف بيته المصنوع من فروع الأشجار » . قد يكون ذلك صحيحا من وجهـــة النظر الدنيوية ، ولكن حينما يتعرض الاســـلام للخطر فان كل مسلم يتخلى عن مطالب هذه الدنيا ولا يتطلع الا للدفاع عن الدين حتى ولو ضحى بحياته .. » (١)

ان البريطانيين منذ احتلوا مصر سنة ١٨٨٢ وهـــم يدركون بوضوح تام أن وضع قواتهم ليس له أى سند قانونى ، ورغم ذلك فقد استطاعوا طوال ربع قرن أن ينظروا الى المسألة المصرية باعتبارها مشكلة دولية لا محلية ، وحين وفقوا سنة ١٩٠٤ فى القضاء على معارضة فرنسا وبقية

---

(١) من كرومر الى جراى فى ٢١ مايو ١٩٠٦ .
Great Britain, FO, Egypt no. 2 (1906), p. 35 f.
وملاحظة كرومر المشار اليها جاءت فى تقريره النهائى (Alexander, p. 76)

القوى الأوربية اعتقدوا أن كل متاعبهم فى حكم مصر قد انتهت (١) ·
واذا صح أن هناك « صورة » بريطانيه لمصر فهى صورة بلاد أنفدها حكم كرومر من الأجانب الجشعين والأرستقراطيين الأتراك العاجزين ·

فمن الطبيعى أن بريطانيا قد تتوقع معارضة الطبقة الحاكمة المعزولة ، أما الغالبية العظمى من المصريين الذين تحرروا من الاستبداد والاستغلال فمن المفروض أن تشعر بالامتنان · وقد ثبت فساد هذا التصور لاول مرة بالتأييد الكبير الذى حظيت به حملة الصحافة على السياسة البريطانية فى حادثة « طابة » ، وهى سياسة كان من الواضح أنها تخدم مصالح مصر الاقليمية ، وان حققت فى الوقت نفسه مصالح بريطانيا الاستراتيجية · واذا كانت هذه السياسة المؤيدة لمصر قد أثارت معارضة داخلية ، مع احتمالات لمضاعفات معادية لمصالحها الدبلوماسية والاستعمارية فى أماكن أخرى ، فان موقف بريطانيا المعتمد أخلاقيا على امتنان المصريين الموهوم ، لم يكن مأمونا كما بدا (٢) ·

وبعد أن أتيح لبريطانيا هذا الادراك المفاجىء لوضعها المقلقل فى مصر يصبح من الصعب فهم تورطها السريع فى حادثة دنشواى ، التى كان لها أكبر الأثر فى ازدياد قوة مصطفى كامل فى الداخل والخارج على السواء · وقعت تلك الحادثة نتيجة سوء تفاهم متبادل أسفر عن وقوع تحرش بين عدد من الضباط البريطانيين كانوا فى رحلة لصيد الحمام وأهل قرية من قرى الدلتا تسمى « دنشواى » · وأثناء الشجار اشتعلت النار بمخزن حبوب القرية ، وقتل فلاح وجرحت امرأة ، وهرب الضباط من المشهد فزعين · وحينما وصلت النجدة وجدت أحدهم ميتا ،

---

(١) ادعى البريطانيون أن الفرنسيين الذين كانوا يحركون الوطنيين ، وأنهم كانوا يفتقرون الى التأييد الشعبى · أنظر على سبيل المثال : F.O78 ، من كرومر الى ساليسبورى ، القاهرة فى ٢٦ مايو ١٩٠٠ ، ويضم تقرير هارى بويل عن مشاعر المسلمين :
Harry Boyle's «Report on Moslem feelings».

(٢) لدراسة تطور نظرة بريطانيا لمصر انظر :
H. S. Deighton : « The Impact of Egypt : on Britain » : a Study of Public Opinion» in P. M. Holt (ed.) : « Political and Social Change in Modern Egypt, » London, Oxford University Press, 1968.

وقد كتب « ديتون » ان بريطانيا بعد صدور كتاب اللورد ميلنر « انجلترا فى مصر » سنة ١٨٩٢ بدأت تعتبر نفسها محسنة الى الفلاح المصرى المضطهد دون أن تنشد مصلحة لنفسها · وحتى فى سنة ١٩٣٤ كتب لورد لويد : « منذ سنة ١٨٨٩ حتى سنة ١٩٢٢ ·· كان اهتمامنا الأكبر موجها لتوفير ادارة انسانية مستقرة لشئون الشعب المصرى · »
(Egypt since Cromer, II, p. 354.)

نتيجة تأثره بضربة شمس على الارجح أكثر من تأثره بالجراح التى عثر على آثارها بجمجمته ·

عند وقوع الحادث اتفق المصريون والانجليز على أن الفلاحين ينبغى الا يتركوا دون عقاب · ولكن أسلوب هذا العقاب هو الذى حول الحادثه الى عمل من أعمال القسوة والوحشية ، وأضاف زادا وفيرا لأجهزة الدعاية المعادية لبريطانيا ظلت تفيد منه سنوات عديدة تالية · واستجابت الصحافة الانجليزية التى تصدر فى مصر استجابة محمومة لأخبار هجوم أهل القرية على ضباط فى زيهم الرسمى ، واعتبرتها مكيدة مدبرة ضد الاحتلال وثمرة شهور طويلة من الاثارة لحساب الجامعة الاسلامية · وقبض على تسعة وخمسين من أبناء قرية دنشواى وحوكموا بسرعة أمام محكمة خاصة مكونة من ثلاثة قضاة بريطانيين من المصريين (١) · وحتى المحامون ، وكان من بينهم لطفى السيد آقروا بذنب الفلاحين ، وركزوا دفاعهم على نفى تهمة القتل مع سبق الاصرار (٢) · غير أن المحكمة رفضت التماسهم استخدام الرأفة ، وحكمت على أربعة بالاعدام شنقا ، وعلى اثنى عشر بالاشغال الشاقة لمدد مختلفة وعلى ثمانية بالجلد ، وهى عقوبة زعم البريطانيون أنهم قضوا عليها ، ولكن ها هى ذى محكمتهم الخاصة تبعثها (٣) ونفذت أحكام الشنق والجلد علنا بدنشواى فى ٢٨ يونيو سنة ١٩٠٦ ، أى بعد خمسة عشر يوما لا غير من وقوع الجريمة الأصلية ·

ولم تحاول حكومة الأحرار البريطانية ، ولا كرومر وكان بعطلة فى بلاده ، تأجيل الاعدام ، رغم أنهما وجدا الاحكام قاسية · فقد كان الاحساس العام أن المصريين سيعتبرون تدخل بريطانيا لانقاذ الفلاحين المدانين دليلا على ضعفها فيثيرون المزيد من المظاهرات والاضطرابات (٤) ·

---

(١) أنشئت سنة ١٨٩٥ محكمة اصة بناء على طلب كرومر لمحاكمة مصريين اتهموا بمهاجمة جنود بريطانيين بزيهم الرسمى · وحدد قانون انشاء المحكمة القضاة الخمسة · وكانت أحكام المحكمة غير قابلة للاستئناف وواجبة التنفيذ فور صدورها · كان الهدف من انشاء تلك المحكمة ايقاف الهجمات على جيش الاحتلال ، وكانت قد تعددت قبل سنة ١٨٩٥ ، ونجحت فى ذلك فلم يقع أى هجوم بعدها حتى سنة ١٩٠٦ ·

(٢) FO, Egypt, no. 4 (1906), «Further Paper Respecting the Attack on British Officers at Denshawai» ed. 3091, bound in Parliament, Accounts and papers, CXXXVII, pp. 73-76.

(٣) FO, Egypt, no. 3 «Correspondence Respecting the Attack on British Officers at Denshawai,» ed, 3086.

من قندلاى الى جراى ، القاهرة فى ٤ يوليو ١٩٠٦ ·

(٤) Grey, « Twenty-Five Years », p. 134.

كان الهدف من تنفيذ أحكام الاعدام فى دنشواى بسرعة وعلنا هو ارهاب دعاة الجامعة الاسلامية واخضـــــاعهم ، وكأنها ارهاص مبكر بالدبابات فى بودابست والغارات الجوية على هانوى • أما ما حدث فعلا فهو أن تنفيذ أحكام الاعدام فى دنشواى قدم البشاعة اللازمة لاثارة حركة المقاومة للحكم البريطانى لمصر ، فحقق بذلك للحركة الوطنية أكثر مما استطاع مصطفى كامل تحقيقه خـــلال اثنتى عشرة ســـنة بالخطابة الحماسية فى كل مكان • وأحدثت رواية مصطفى كامل الاليمة للحادث فى جريدة « الفيجـــارو » بعنـــــوان : « الى الامة الانجليزية والعالم المتمدين » (١) تغيرا عنيفا واسع النطاق بين أبناء أوربا المهيئين لســـوء الظن بحكم بريطانيا لمصر • كما تسبب تنفيذ أحكام الاعدام فى اثارة عداء كثيرين من المصريين كانوا قد تقبلوا الحكم البريطانى ، وهم : الفلاحون، أو على الأقل من وصلتهم دعاية الوطنيين منهم ، والأقباط ، وكانوا حتى ذلك الحين متشككين فى دعوة مصطفى كامل للجامعة الاسلامية واخلاصه للمصالح العثمانية (٢) ، بل كذلك أيضــا المسلمون ذوو العقليات المحافظة الذين لم يسبق لهم الاقتناع بأولئك « الافندية » الداعين الى الوطنية على الطريقة الأوربية (٣) •

وكما أثار العنف رد فعل غاضب فى مجتمع ضـــــحاياه ، أثار احساسا بالاثم بين المتحررين من مواطنى مقترفى هذا العنف • فسرعان ما أمسك البريطانيون المعادون للاستعمار بحادث دنشواى وكأنه عصا أخذوا يهوون بها فوق كرومر • فها هو ذا ويلفريد بلنت ، الذى سبق أن ناصر عرابى ، يستقبل مصطفى كامل لاول مرة ، ويكتب نشرة عنيفة بعنوان « بشاعات العدالة فى ظل الحكم البريطانى لمصر » ، ثم يكتتب مع بعض أصدقائه بأكثر من مائتى جنيه لاصـــــدار كتاب عن دنشواى • ووجدت آراؤه تأييدا لدى كتاب من أمثال جورج برنارد شو الذى وصف حادث دنشواى فى مقدمة مسرحيته « جزيرة جون بول الأخرى » ، كما تردد صداها فى مجلس العموم على ألسنة الوطنيين الايرلنديين والجناح المتطرف من حزب الأحرار • وتعرض سير ادوارد جراى وزير الخارجية

---

(١) ظهر نص المقال فى ١١ يوليو سنة ١٩٠٦ ، وأعيد نشره فى :
"L'Engleterre en Egypte," pp. 151-159.

(٢) سلامة موسى ، ص ٢٩ ، ٣١ وما بعدها • وكان أشهر الاقبــاط فى الحزب الوطنى محاميان مشهوران هما : مرقص حنا (١٨٧٢ ـ ١٩٣٤) وويصا واصف (المتوفى سنة ١٩٣١) وقد التحقا بحزب الوفد فيما بعد •

(٣) أحمد أمين ، « حياتى » ص ص ٨٧ ـ ٩١ •

لاستجوابات عدائية عديدة حول الحكم البريطانى لمصر (١) · وكون جماعة من المتطرفين برئاسة جون م · روبرتسون « اللجنة المصرية لاستطلاع الاحوال فى تلك البلاد » ·

وكان حزب الاحرار لم يكد يعود الى الحكم بعد نحو عشر سنوات من الفراغ السياسى ، وكان بعض أعضائه مقتنعين بضرورة احداث تغييرات فى سياسة بريطانيا فى الداخل والخارج ، بما فى ذلك مصر · فساعدت دنشواى على وضع هؤلاء الرجال فى المقدمة · وبعد أن كان زعماء الاحرار يؤيدون بقوة سياسة الحكومة فى مصر بدأوا يترددون · وها هو ذا مصطفى كامل الذى أصبح مشهورا فجأة بعد حملته فى فرنسا على الحكم البريطانى لمصر يزور لندن فى يوليو سنة ١٩٠٦ ، ويتمكن من مقابلة رئيس الوزراء سير هنرى كامبل ـ بانرمان ·

ويبدو أن رئيس الوزراء ـ وفقا لرواية مصطفى ـ قد عبر عن أسفه لحادث دنشواى ، وطلب مشورته بشأن قيام وزارة مصرية وطنية ، كما أكد له أن مصر ستستقل بمجرد أن تصبح مؤهلة لاقامة حكم ذاتى برلمانى (٢) · وكانت تلك أول مرة منذ مقترحات لورد دوفرين ، تفكر فيها الحكومة البريطانية جديا فى اعداد مصر لقدر أكبر من الحكم الذاتى ·

الى أى مدى كان على الأحرار أن يمضوا فى التكفير عن دنشواى ؟

فى البداية كانوا يرجون أن تهدأ ثائرة الوطنيين بانشاء وزارة مستقلة للتعليم ، تولاها سعد زغلول ، ذلك القاضى القدير الذى انقضت سنوات شبابه الثورى منذ زمن بعيد ، وأصبح الآن يتمتع برضى كل من الوطنيين وكرومر ، وان لم يرض الخديو عنه (٣) · غير أن المصريين

---

(١) بصفة خاصة من العضو الأيرلندى جون ديلون Hansard, 4th Series, House of Commens, CLVII, 1366f, CLIX, 361, 956; III 1133 - 1135; 1411 — 1414.

(٢) « L'Angleterre en Egypte, » pp. 172 - 174 · ورغم ذلك فيبدو أنه من غير اللائق أن يتجاهل رئيس الوزراء البريطانى ممثله فى القاهرة باستقبال زعيم وطنى · ولما كان هذا اللقاء لم يذكر فى أى مصدر آخر فمن المحتمل أن تكون القصة كلها محض خيال ·

(٣) عن رأى الوطنيين فى سعد زغلول انظر : Blunt « My Diaries », p. 577 عبد الرحمن الرافعى : ص ٤٠٤ ، وعن رأى كرومر أنظر : FO 800 (Yrey Papers), vol. 45 ، من كرومر الى جراى ، القاهرة فى ٢٦ أكتوبر ١٩٠٦ · وكذلك خص كرومر «سعدا» بالثناء فى الخطبة التى ألقاها فى حفل توديعه ، وتنبأ بأنه «سيحقق تقدما كبيرا» =

اعتبروا تعيين سعد زغلول مجرد بشير باصلاحات تالية ، وربما انهاء الاحتلال البريطاني فقفز كثيرون ممن لا شأن لهم الى عربة الوطنيين ، ليتأكدوا من وجودهم في الجانب الرابح . وتطلبت سياسة التهدئة الجديدة تنازلات أكبر . وحتى الخديو حينما بدأ يتقرب من الوطنيين كان كرومر هو كبش الفداء .

وفي خريف سنة ١٩٠٦ أنهى عباس خلافاته مع الوطنيين على أمل أن يستطيع الانتقام من كرومر ، ولكي يكون في الجانب الرابح في حالة رحيل البريطانيين ، وليبعد الوطنيين عن الاتجاه العرابي (أي المعادي للخديو) . أما بالنسبة للوطنيين فقد كانت رعاية القصر لهم مثلا يحتذيه الوزراء ، وكبار موظفي الحكومة والأعيان ، كما توفر لهم الدعم المالي اللازم لاتساع نشاطهم السياسي والصحفي ، وبصفة خاصة اصدار طبعتين انجليزية وفرنسية من « اللواء » ، وكان مصطفى قد أعلن بالفعل أن هذه هي وسيلته لتغيير الرأي العام الأوربي (١) .

وكان طبيب القصر الدكتور صادق رمضان صديق مصطفى هو وسيط الصلح (٢) . والتقى الخديو بمصطفى سرا في مسجد قريب من قصره الصيفي ، واتفق معه ومع كبار أنصاره على فتح باب الحزب الوطني (الذي بدأ منذ عشر سنوات كجمعية سرية برئاسة عباس) للعضوية العامة ، وتكوين مؤسسة رأسمالها ٢٠٫٠٠٠ جنيه للانفاق على صحف الحزب اليومية : « اللواء » العربية «The Egyptian Standard» الانجليزية ، «L'Etendard Egyptien» الفرنسية ، على أن يقدم الجانب الأكبر من هذا المبلغ الخديو ، والأمراء والأعيان الأثرياء بوحي منه (٣) . وطوال العام التالي ظل الخديو على اتصاله السري بالوطنيين ، ولكن موقفه العام

= وقد فعل . وكان الخديو يكره سعدا لانه زوج كريمة رئيس وزرائه مصطفى فهمي المناصر للبريطانيين وفي الوقت نفسه صنيعته في السياسة . انظر أيضا : احمد شفيق : ج٢ ، مجلد ٢ ، ص ١٠٢ .

(١) Louis Bouvat : «La presse égyptienne», Revue de Monde Musulman, I, 2, December 1906, p. 280, citing al-Liwa, 5; 23; and 30 August 1906

(٢) مذكرات محمد فريد ، ص ١ ، أحمد شفيق : ج ٢ ، مجلد ٢ ، ص ص ١٠١-١٠٣

(٣) مذكرات محمد فريد : ص ٢ ، أحمد شفيق : ج ٢ ، مجلد ٢ ، ص ١٠٣ ، وكان من بين المكتتبين الأميران جميل طوسون وأحمد مدحت يكن من الأسرة الخديوية ، وعمر سلطان (المتوفى سنة ١٩١٧) ، ومحمد فريد الذي دفع ٥٠٠ جنيه ، ومصطفى كامل الذي دفع ألف جنيه ، لعل الخديو هو الذي أمده بها .

كان محيرا • ففي حديث أجرته معه جريدة «Le Temps» الفرنسية تبنى أهداف الوطنيين ، ولكنه غضب حين استشهد مصـــطفى به (١) • وأتبع ذلك ، ربما استجابة لضغط بريطاني (٢) بالادلاء بحديث مناقض لادوارد ديسي محرر « الديلى تلجراف «The Daily Telegraph» نجليزية ، أثنى فيه على الحكم البريطاني (٣) • فلم يكن من السهل أبدا على حاكم مصرى أن يشق لنفسه طريقا آمنا بين الوطنية والواقعية •

وأضعف حادث دنشواى مركز كرومر باعتباره قنصلا عاما ، فقد تلته هجمات على سياسته في الصحافة الأوربية الحرة وفى مجلس العموم، وترددت شائعات عن تغيير قادم فى سياسة حكومتـــه فى مصر ، كمـــا أزعجته كثيرا المعارضـــة المحليـــة ونموها ورعاية الخديو الســـافرة للوطنيين (٤) ، وقد تمثلت فى تعمده التغيب لأول مرة خـــلال ثلاث سنوات عن حضور الاستعراض السنوى للقوات البريطانية في القاهرة (٥) • وقد عبرت الجمعية العمومية فى جلسة فبراير ســـنة ١٩٠٧ عن الروح الجديدة للمعارضة الداخلية لكرومر حين قررت قيام دستور ، والافراج عن مسجونى دنشواى ، وانهاء تراخيص الشركات الأجنبية (٦) • وبدأت المدارس المصرية الثانوية والعالية تتظاهر مطالبة بجلاء القوات البريطانية وتكوين حكومة برلمانية (٧) •

وتحطمت صحة كرومر ، وتخلى عنه معظم من ناصروه من قبـــل ، فاذا به يعلن فى ابريل اعتزاله ويوصى – بضيق على الأرجـــح (٨) – بأن يخلفه الدون جورست ، وكانت له خبرة ادارية كبيرة فى مصر وعلاقات شخصية حميمة بالخديو والعديد من رعاياه • وكان المفروض أنه ، على عكس كرومر ، يؤيد الســـياسة البريطانية لتحرير مصر ، ولهذا فقد

---

(١) Alexander, p. 106 احمد شفيق : جـ٢ ، مجلد ٢ ، ص ١١٣ وما بعدها •

(٢) Blunt, « My Diaries » : p.581

(٣) Alexander, p. 107 ، أحمد شفيق ، جـ ٢ ، مجلد ٢ ص ١١٥ وما بعدها •

(٤) FO 800/45 من كرومر الى جراى ، القاهرة فى ١ و ٧ ديسمبر ١٩٠٦ ، ٢١ مارس ١٩٠٧ ، احمد شفيق : جـ ٢ ، مجلد ٢ ، ص ١٠٣ ، ١٠٦ ، «The Times», London, 27 November 1906.

(٥) عبد الرحمن الرفعى : ص ١٨٢ وما بعدها ، Blunt : p. 577

(٦) Alexander : p. 91

(٧) Ibid., p. 56

(٨) Clara Boyle : «A Servant of the Empire», London, Methuen, 1938, p. 103, Blunt, P 501f.

رضى به حتى بلنت والوطنيون (١) .

وألقى كرومر خطبة الوداع بدار الأوبرا بالقاهرة فى مايو ١٩٠٧ ، حذر فيهـــا الخديو من التواطؤ مع أعداء بريطانيـــا ، وزعم أن جوهر سياسته مستمر ، ثم وجه عدة لكمات أخيرة للوطنية المصرية : « وانى لأدعو أن تلقى كل هذه الحركة المثيرة المصطنعة التى تطالب بتطور سريع فى المؤسسات النيابية المعاملة التى تستحقها ، واسمحوا لى أيها السادة أن أضيفت بأنها لا تساوى الا أقل القليل » (٢)

وفى اليوم التالى اتخذ كرومر طريقه نحو محطة القاهرة وســـط شوارع صامتة تحيط بها القوات البريطانية . ولم ير مصر بعد ذلك أبداً .

---

(١) Blunt : pp. 566 - 578

(٢) Alexander : p. 97f.

سياسة جورست فى اتجاه الوفاق ونشأة الأحزاب المصرية

لم يواصل « سير الدون جورست » المندوب البريطانى الجديد سياسة كرومر ، بل شرع يطبق برنامجا ، أقرته حكومة بلاده ، ان لم تكن هى التى وضعته ، يهدف الى تحقيق الحكم الذاتى فعلا . غير أن بريطانيا لم تر تسليم زمام السلطة لمصطفى كامل . فاذا كان عنف كرومر ودنشواى قد وحد بين القصر وكل درجات الرأى المحلى المستنير فى تحالف وطنى غير طبيعى ، فان جورست كان يهدف بتصرفات أرق ، وسياسة الوفاق بصفة خاصة ، الى ضم الخديو الى جانبه ، فاستطاع بذلك أن يفرق بين تلك الفئات المتنافرة ، وكانت قد بدأت تتخذ شكل أحزاب سياسية .

واذا كان جورست لم يوجد تلك الخلافات فى كيان السياسة المصرية ، فانه من ناحية أخرى لم يقف فى طريق نموها .

لقد تنبه البريطانيون الى أن المصريين ليسوا جميعا اما خديويين واما وطنيين . وبأمل تكوين جماعة توازن هاتين المجموعتين شجع كرومر حركة معتدلة مكونة من أنصار المرحوم محمد عبده المصلح الاسلامى العظيم . وخلال تنفيذه لتلك السياسة رشح كرومر سعد زغلول وزيرا للمعارف ، وكان لايزال معتدلا وقتها .

هل شجع كرومر أولئك المعتدلين على تكوين حزب الأمة ؟

هذه مسألة مازالت قابلة للجدل ، اذ نفاها المشاركون فى حزب الأمة ، فى حين قبلها معظم الكتاب الآخرين (١) . وكغيره من التجمعات

(١) انظر على سبيل المثال Adam, p. 192f; Lloyd; I; p. 50 ، أحمد شفيق جـ٢ ، مجلد ٢ ص ١١٩ .

السياسية المصرية فى الفترة السابقة على الحرب العالمية الأولى بدأ حزب الأمة بجريدة • فموقف المشرفين على تحرير « اللواء » و « المؤيد » فى مناصرة الأتراك أثناء حادثة « طابة » (١) أزعج مجموعة من الأثرياء المصريين المتعلمين ، فقرروا اصدار صحيفة معتدلة اتجاهها مصرى خالص وأسموها « الجريدة » (٢) • واختاروا لرئاسة تحريرها أحمد لطفى السيد ، وكان قد اختير من قبل متحدثا باسم الخديو والوطنيين •

بدأ صدور « الجريدة » فى مارس ١٩٠٧ ، واختطت الجريدة اليومية الجديدة سياسة مصرية خالصة ، بعيدة عن الاتجاه العثمانى والجامعة الاسلامية اللذين كان يروج لهما الوطنيون ، فاعتبرها هؤلاء معادية للأتراك مؤيدة للبريطانيين (٣) • و الواقع أن « الجريدة » لم تؤيد البريطانيين بصورة مطلقة ، كل ما فى الأمر أنها أكدت الراى القائل بأن مصر ينبغى أن تنال استقلالها تدريجيا حين تصبح قادرة على تولى الحكم الذاتى ، ولتحقيق هذه الغاية طالبت بالتوسع فى التعليم على كل المستويات ، وعلى رأسها جامعة أهلية •

ورغم أن مصطفى كامل اعتبر هذه الحركة الجديدة انقساما ، فان خلافاتها الحقيقية مع الوطنيين كانت مركزة حول الوسائل أكثر من الأهداف • وكان المبدأ الرئيسى للجريدة هو معارضة السلطة المطلقة للخديو ، لا الوطنية المصرية • وكان لطفى يؤمن بليبرالية القرن التاسع عشر أكثر من مصطفى نفسه ، ويدافع عن الحرية الشخصية ضد تسلط الحكومة (٤) ، ويرى أن الحكومة النيابية تمثل الضمان ضد كل أشكال استبداد السلطة ، وليست مجرد وسيلة للقضاء على نفوذ بريطانيا فى مصر • ومع أن لطفى كان يأخذ على مصطفى تطرفه

---

(١) أحمد لطفى السيد : « قصة حياتى » ، ص ٤٣ ومابعدها ، محمد حسين هيكل «مذكرات ••» ، جـ١ ، ص ٢٦ وما بعدها •

(٢) « قصة حياتى » : ص ٤٦ وما بعدها ، وكان رئيس شركة « الجريدة » محمود سليمان ، ونائبه حسن عبد الرازق أحد ملاك الأراضى بالمنيا ، وكان صديقا حميما لمحمد عبده ومن زملاء مصطفى كامل المبكرين ، ومن حملة أسهمها : فتحى زغلول (شقيق سعد) ، وأحمد عفيفى ، رعبد الخالق ثروت •

(٣) لنماذج تمثل آراء لطفى السيد فى الجامعة الاسلامية انظر :

J. M. Ahmed : « The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism », London; Oxford University Press; 1960; pp. 61-69.

(٤) Albert Hourani : «Arabic Thought in the Liberal Age», London, Oxford University Press, 1962, p. 173f.

واستعداده للاستعانة بأى عون خارجى لتحرير مصر ، فقد كان معجبا بغيرته الوطنية ودعوته الى الوحدة القومية (١) • وبعد وفاة مصطفى المفاجئة سنة ١٩٠٨ ، كان لطفى أول من اقترح الاكتتاب قوميا لاقامة تمثال للزعيم الوطنى (٢) •

وأخذت حملات الدعاية الصاخبة الصادرة من « اللواء » و « المؤيد » تزيد من قلق المعتدلين الذين أيدوا « الجريدة » ، وخشى من يشغلون مناصب حكومية منهم ، وعلى رأسهم سعد زغلول ، أن يكون الخديو يدبر تنحيتهم ارضاء للوطنيين (٣) • ولم يلبث البريطانيون أنفسهم أن انضموا الى خصومهم فى تجريح المعتدلين • فقد أغضبهم كرومر فى تقريره عن سنة ١٩٠٦ ثم فى خطبة وداعه بعد ذلك ، حين تساءل عن مدى استعداد مصر لحكم نفسها ، وان وجه الجانب الأكبر من هجومه الى الوطنيين الأكثر تطرفا (٤) •

وقد شك المعتدلون فى جورست منذ تولى القنصلية بسبب سياسته فى ترضية الخديو بهدف عزله عن الوطنيين • وأحس أنصار « الجريدة » أن ارضاء حاكم مستبد مكبوت كعباس لايتفق مع ما تدعيه بريطانيا من اعداد المصريين لحكم أنفسهم •

ويبدو أن الاحساس بالحاجة الى قيام تنظيم أكثر تماسكا فى مواجهة البريطانيين والقصر والوطنيين هو الذى دعا أولئك المعتدلين الى تكوين حزب الأمة فى سبتمبر سنة ١٩٠٧ • وتبنوا برنامجا يدعو الى تعميم التعليم الابتدائى المجانى وجعله اجباريا ، وزيادة سلطات المجالس التشريعية والاقليمية للاعداد التدريجى لمجلس تشريعى منتخب ، وبذل الجهود لتقدم الزراعة والتجارة والصناعة • وأكد حزب الأمة ايمانه بالحرية ، ولكنه لم يطالب — كالوطنيين — بالجلاء الفورى للقوات البريطانية من مصر ، أو بحكومة دستورية تقوم فجأة دون تمهيد • كان معظم زعمائه من ملاك الاراضى ، من بينهم عدد من الشخصيات الهامة فى تاريخ مصر الحديث مثل حسن عبد الرازق (والد كاتبين مشهورين) ، ومحمود سليمان (والد أحد رؤساء الوزراء) ،

---

(١) « قصة حياتى » ، ص ٩٧ وما بعدها •

(٢) محمد حسين هيكل : ج ١ ، ص ٣٣ وما بعدها •

(٣) FO 800/45 من كرومر الى جراى ، القاهرة فى ٣٠ مارس ١٩٠٧

(٤) Ahmed, p. 71f. ، وان كانت تواريخه غير دقيقة •

وعلي شعراوى ، وأحمد فتحى زغلول ، وسينوت حنا ، وعبد الخالق ثروت ، وطلعت حرب الذى سيصبح فيما بعد « رائد استقلال مصر الاقتصادى » • أما سعد زغلول « رائد استقلال مصر السياسى » فالمرجح أنه كان عضوا سريا (١) • (*) وكان كثيرون من ملاك الأراضى فى مصر يخشون أن يتحول تطرف الحزب الوطنى السياسى بما يتمتع به من شعبية كبيرة الى تطرف اقتصادى واجتماعى . وهو ما لم يتحقق فى حياة مصطفى كامل ، ولعل معارضتهم للسراى كانت ترجع الى منافستهم الاقتصادية للخديو أكبر ملاك الأرض فى مصر •

واذا كان حزب الأمة لم يول الخديو ثقته الكاملة ، فمن الصحيح أيضا أن الخديو والمحيطين به لم يكونوا يولون ثقتهم الكاملة لجماعات لايستطيعون السيطرة عليها • فرغم معاونته المالية للطبعتين الانجليزية والفرنسية من « اللواء » كان عباس يخشى شعبية الوطنيين • فاذا كانت غالبية المصريين قد أصبحوا ساخطين على الأوضاع القائمة ، فثمت خطر دائم من أن ينقلب « الرأى العام » الذى يزعم مصطفى أنه يعبر عنه ضد الخديو نفسه ، كما حدث فى الحركة الوطنية الأولى بزعامة عرابى • وقد استغل هذا الخوف كل من كرومر وجورست ، وحقق الأخير نجاحا أكبر بسياسته القائمة على الوفاق •

ولذلك بدأ الخديو يكون اتباعه الخاصين معتمدا فى ذلك على المحيطين به ، واتصالاته الأجنبية ، وبعض الصحفيين المخلصين ، من أهمهم حافظ عوض ، وهو كاتب شاب موهوب آثر أن يستلهم وحى السراى بدلا من مصطفى كامل (٢) • وكان عوض ـ لا مصطفى ـ هو

---

(١) أحمد شفيق : حـ ٢ ، مجلد ، ص ١٢٩

(٢) أحمد حافظ عوض (١٨٧٧ ـ ١٩٠٥) ، بدأحياته السياسية بالاشتراك مع مصطفى كامل فى مظاهرة لتأييد الخديو سنة ١٨٩٨ • وأصبح بعد ذلك رئيس تحرير «الموسوعة» مجله محمد فريد نصف الشهرية ، وتوثقت علاقاته السياسية بالشيخ على يوسف رئيس تحرير « المؤيد » جريدة الخديو اليومية • ونشر عوض مذكراته بجريدته اليومية « كوكب الشرق » فى يوليو ١٩٢٧ •

(★) من الطريف الذى يستوقف النظر ان الأستاذ محمد كامل سليم سكرتير سعد زغلول ابان اقامته فى اوروبا على راس اعضاء الوفد عقب الافراج عنه من مالطة ، قد اثبت على لسان سعد هجوما على زملائه اعضاء الوفد ، وكان يصفهم بانهم جميعا اعضاء سابقون فى حزب الأمة ، باعتبار ان هذا الوصف منقصة لهم ودليل على ضعف وطنيتهم ومما لأتهم للانجليز ، فهل يمكن أن يتفق ذلك مع عضوية سعد نفسه فى هذا الحزب ، ام ان تقلبات السياسة تجيز للانسان ان يغير افكاره كما يغير ملابسه ، وينسى ما كان يرتديه امس •

الذى مثل الخديو فى استقبال جون م • روبرتســـون رئيس اللجنة المصرية فى مجلس العموم البريطانى التى تكونت عقب حادثة دنشواى ، حينما قدم الى مصر سنة ١٩٠٧ على رأس بعثة اســتطلاع • وفى ذلك الصيف ســـافر عوض الى لندن على نفقة الخديو ، وبينما كان يؤيــد الوطنيين (١) علنا اذا به يخفف من مطـالبتهم بالجلاء الناجز للقـــوات البريطانية من مصر (٢) • وثار مصطفى كامل لما اعتبره خداعا من جانب الخديو (٣) • وما اعتقده الوطنيون عن أن « عباس » يستخدم « عوض » ليقلل من شأن « مصطفى » فى أوربا ، يبدو أنه كان صحيحا • فالخديو لم يكن يثق فى أى مصرى يتحول الى شخصية عامة مستقلة عنه ، ولعله شك أيضا فى أن وطنيــة مصطفى العنيـــدة من الممكن أن تكسب تأييدا أوربيا كبيرا • وقد وصف عوض نفســـه مصطفى بأنه قدير وشريف ووطنى ، ولكنه فى الوقت نفسه مغرور لايحتمل المنافسة ، ويصر على أن يعتبر الزعيم الوطنى الأوحد (٤) • وكانت استجابة مصطفى الغاضبة لتحدى عوض أشبه باستجابة العاشق الغيور ، فلم يحتمل مطالبة رجل غيره أن يتحدث باسم مصر •

وبتشجيع من لجنة التحقيق فى مصر (٥) ، وربما من جورست أيضا (٦) ، مضت حاشية الخديو • تكون جماعتها السياسية الخاصة : « **حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية** » • واذا كان الخديو لم يبتر كل علاقاته بمصطفى ، فقد حظيت هذه الجماعة الجديدة بتشـــجيع الخديو (٧) ، وهى التى انتوت خوض الصراع مع كل من حزب الأمة

---

(١) Blunt : p. 592, Alexander : p. 126

(٢) من مصطفى كامل الى صادق رمضان • نيوهاوزن (سويسرا) فى ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ • وأنا مدين بالشكر للنقيب بالاستيداع جعفر صادق رمضان من مصر الجديدة لسماحه لى بالافادة من مراسلات جده وغيرها من الأوراق •

(٣) التقى ب• ل• موسلى B. L. Mosely وهو قاض انجليزى بالمحاكم الأهلية بمصطفى كامل عقب مادبة أقامها عوض بباريس فى يوليو ١٩٠٧ ، وكان مصطفى غاضبا لأنه لم يستشر قبل اقامة المادبة ، وحذر موسلى قائلا انه يستطيع بكلمة واحدة هدم كل ما حققه عوض • (Alexander, p. 116)

(٤) Blunt, p. 592

(٥) أحمد شفيق : ج ٢ ، مجلد ٢ ، ص ١٣٠ •

(٥) Adam : "L'Angleterre en Egypte", p. 1889. : ينقل نص رسالة من مصطفى بتاريخ ٥ يونيو ١٩٠٧ •

(٧) احمد شفيق : ج ٢ ، مجلد ٢ ، ص ١٢٨ •

والوطنيين . وكان رئيسها والناطق بلسانها هو الشيخ علي يوسف ، وكان معظم أعضائها القليلين من موظفي السراي والحكومة . ونشرت الجماعة برنامجا لايكاد يختلف عن برنامج الوطنيين الا في تأكيده لسلطة الخديو ، ورغم ذلك فقد هاجمه الوطنيون بعنف . وسرعان ما انهار « حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية » ، وتحول الى عرض يضطلع ببطولته ويخرجه ممثل فرد ، هو علي يوسف ، ولم يعد دستوريا ولا مشغولا بالاصلاح أكثر من الخديو نفسه (١) .

وفي سنة ١٩٠٧ كان الحزب الوطني ، على عكس بقية الانقسامات السياسية ، قد عاش بالفعل وجودا متصلا (٢) لأكثر من عشر سنوات ، كان في معظمها جمعية سرية يقودها الخديو . فمنذ سنة ١٩٠٠ ومصطفى يدعو الى قيام حزب منظم ، مفتوح للعضوية العامة ، يعمل من أجل استقلال مصر (٣) ، ولكن ذلك لم يتحقق ، ربما بسبب معارضة الخديو .

ومع البعث الوطني أثر حادثتي « طابة » و « دنشواى » شعر مصطفى أن الوقت قد حان أخيرا ، فاستخدم سيطرته على الرأى العام المصرى (وكان يؤمن به ايمانا قريبا من التصوف) ليقترح تحويل الجمعية السرية الى حركة احتجاج تستند الى قاعدة عريضة تقضى على سلطة الحكومة في مصر ، وتثبت للبريطانيين اعتناق غالبية المصريين للمبادىء الوطنية ، ومن ثم تقنعهم بالانسحاب . أما الخديو فكان يريد أن يظل الحزب الوطني جمعية سرية خاضعة لسيطرته ، خوفا من تضخمها وتحولها الى ثورة شعبية كما حدث عام ١٨٨٢/٨١ . وخلال لقاءاته السرية مع الوطنيين سنة ١٩٠٦ وافق على فتح باب الحزب للعضوية العلنية ، ولكن بشرط أن يعاد تشكيله ، اذا اقتضت الضرورة في شكل جمعية سرية تضم أخلص الوطنيين وحدهم (٤) .

ومما يدل على رغبة مصطفى في العمل على نطاق أوسع أنه لم

---

(١) Alexander : p. 128f ، أحمد شفيق : ج ٢ ، مجلد ٢ ، ص ١٢٨ وما بعدها

(٢) اشارات المصريين والأجانب الى أتباع مصطفى « بالحزب الوطني » ترجع الى سنة ١٨٩٦ على أقل تقدير . (عبد الرحمن الرافعي : ص ٢٥٥) .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٥٥ وما بعدها ، حيث يستشهد « باللواء » في ٢ يوليو ١٩٠٠ .

(٤) مذكرات محمد فريد ـ ص ٦ .

يسارع بتنظيم الحزب الوطنى فى مصر ، بل جعل الأولوية المطلقة للعمل فى الخارج ، لعزل كرومر أولا ، ثم لاقناع البريطانيين بمغادرة مصر • ولتحقيق هاتين الغايتين أصدر صحيفتيه الانجليزية والفرنسية • غير انه فى سنة ١٩٠٧ اضطرته صحته المتدهورة الى تدبر الحاجة الى تنظيم مستمر يمكن أن يواصل عمله فى حالة وفاته ، كما وجد نفسه مضطرا الى القيام بعمل لمواجهة قيام حزب الأمة بأعضائه ذوى المكانة وبرنامجه المعتدل ، وسياسة جورست القائمة على الوفاق التى جذبت الخديو بعيدا عن الوطنيين ، وما اعتبره تآمرا من جانب السراى حين استخدمت حافظ عوض للتقليل من نفوذه فى أوربا •

وعند عودته من حملته الأوربية ، التى سيتضح فيما بعد أنها الأخيرة ، خطب مصطفى فى حشد هائل بالاسكندرية فى ٢٢ أكتوبر سنه ١٩٠٧ ، وأعلن قيام الحزب الوطنى ، وأن هدفه الرئيسى هو تحقيق جلاء القوات البريطانية عن مصر ، وأن الحزب سيعتمد فى عمله على الاقناع لا الثورة ولا التعصب ، ولا القوى الأجنبية ، وقال :

« اننا نعلن للملأ كله أن الحزب الوطنى مستقل عن كل الدول والحكومات ، والملوك ، والأمراء • » (١) ، وسجل أن « الامم لا تنهض الا بنفسها ولا تسترد استقلالها الا بمجهوداتها • » ، ودعا مستمعيه الى ضم الصفوف والعمل بجد وهمة « •• لتثبتوا للأعداء والأصدقاء أننا أحق الامم بالدستور والاستقلال • » (٢)

وبعد خطبته اضطر مصطفى الى اختصار نشاطه بسبب اشتداد المرض عليه ، ولكن أتباعه بدءوا يعدون لاول جمعية عمومية (مؤتمر) للحزب الوطنى • وعقد هذا الاجتماع فى ٢٧ ديسمبر بمقر جريدة « اللواء » ، وحضره أكثر من ألف مصرى ، معظمهم ــ وليسوا جميعا ــ من المهنيين من أبناء المدينة ، وانتخبوا مصطفى كامل رئيسا للحزب مدى الحياة ، وناقشوا اللوائح الداخلية وأقروها ، واختاروا من بينهم ثلاثين ليقوموا بعمل اللجنة الادارية (٣) • ويبدو أن الحزب الوطنى احتذى

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : ص ٤٩٤ •

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٦٧ ، ٤٩٥ •

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٦٠ وما بعدها ، وقليلون من أعضاء الحزب هم الذين قاموا بأدوار بارزة فى نشاط الحزب الصحفى والسياسى ، وبعضهم الآخر يكادون يكونون غير معروفين بحيث لا يسعنى الا أن أتصور أنهم كانوا المولين الرئيسيين ، أو شخصيات اجتماعية بارزة ترى أن المشاركة فى السياسة العملية أمر لا يليق بكرامتهم •

فى تكوينه — لا فى عمله — نموذج بعض الاحزاب ذات الشعبية الكبيرة فى الجمهورية الفرنسية الثالثة • فقد كان لجميع أعضائه حق حضور الجمعية العمومية السنوية بالقـــاهرة ، وهم الذين ينتخبون الرئيس واللجنة الادارية ، ويصوتون على ميزانية الحزب ونشاطه ، ويناقشون الاقتراحات المفيدة للبلاد • أما اللجنة الادارية فتعمل كمجلس للمديرين، تجتمع مرة كل شهر على الأقل ، وتنتخب بقية اداريي الحزب ، كما تختار من بين أعضائها اللجنة التنفيذية التى تجتمع مرة كل أسبوع على الأقل لتنفيذ قرارات اللجنة الادارية •

الى أى حد كان الحزب الوطنى استجابة لرغبات أعضائه ؟ لقد ظل أكثر من عشر سنوات جمعية سرية قبل أن يظهر الى الوجود فجأة كاتحاد عام ضخم ، لذلك فلم يكن مما يدعو للدهشة أن يكون أســـلوب عمله التطبيقى أقل ديمقراطية من أسلوبه النظرى • فقد شغل أصدقاء مصطفى المقربون معظم المناصب الادارية : محمد فريد — الوكيل الاول ، فؤاد سليم — السكرتير ، عمر سلطان — أمين الصندوق • وفى البداية كانت اللجان المختلفة تعمل بعلانية تامة ، وتنشر تقاريرها فى « اللـــواء » • ويبدو من هذه التقارير أن الأعضاء لم يكونوا يناقشون شؤون الحزب وحدها ، بل كذلك موضـــوعات أكثر عمومية ، كالتعليم والمؤسسات النيابية (١) • ولكن قيادة الحزب اضطرت فيما بعد ، بالرغم من مطالبتها بحكومة برلمانية ، الى استخدام اجراءات أبعـــد ما تكون عن الديمقراطية لتستطيع مواجهة الانقسامات الداخلية والمعـــارضة الخارجية ، وبصفة خاصة بعد وفاة مصطفى كامل وتباعد الخديو • ولم يتقدم الحزب الوطنى بمرشحين لعضوية الاجهزة النيابية القـــائمة ، ولكنه ظل بعض الوقت يزود الشباب المصرى من الطبقتين العليا والوسطى بالتدريب الأساسى فى فنون التوعية والادارة والجدل ، وغير ذلك من أشكال المشاركة فى العمل السياسى •

---

(١) انظر على سبيل المثال : « اللواء » فى ٤ يناير و ٩ فبراير سنة ١٩٠٨

وفاة مصطفى كامل

كان الحزب الوطني لا يزال في مرحلة الطفولة حين تلقى الصدمة التي كادت تودى به ، والتي لا شك عوقت تقدمه · فبعد أن ظل زعيمه يعاني من سل الأمعاء عدة سنوات توفى في ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ · كان مصطفى يتجاهل أوامر الاطباء ويواصل حملاته الخطابية في أوربا خلال عامي ١٩٠٦ و ١٩٠٧ ، فكان كمن يحرق نفسه شهيدا على مذبح الوطنية المصرية · (١) بعض الكتاب يعتقدون أن البريطانيين سمموه (٢) ولكن هذا غير معقول · ورغم أن المصريين يميلون الى رد كل وفاة مفاجئة الى عملية تسميم (٣) ، فمن الصعب أن نصدق أن أنصار مصطفى كامل قد عجزوا عن اذاعة خبر مثل هذا العمل الشائن ، لو أنهم اعتقدوا بصدقه، ليحدثوا به أثرا أقوى من دنشواى ذاتها في حشد الامة كلها وراءهم ·

(١) قد تغرى وفاة مصطفى كامل بتفسيرها سيكلوجيا · فكارل منينجر يقول في كتابه « الانسان صد نفسه » : « ان السل ليس في نهاية الأمر سوى وسيلة كريمة يدمر بها الانسان نفسه ببطء ومأساوية ، وفي أغلب الأحوال ، مع قدر معقول من الراحة ، والغذاء الجيد ، والهدوء والسكينة ، ودموع العطف من الجميع · وكذلك فغالبا ما يصاب به الذين تبدو حاجتهم الى الحب ملحة » ·

Karl Menninger : «A Man against Himself», New York, Harcourt, Barée, and Co. 1938, p. 395

وقدم طاهر الطناحي وصفا متخيلا لوفاة مصطفى كامل في مقال « غروب » : « الهلال » ، مجلد ١٠٦ ، عدد ٢ ، فبراير ١٩٤٨ ، ص ص ٦٩ – ٧٦ ·

(٢) Adam : p. 182 ، محمد على غريب : « محمد فريد ، الفدائي الأول » ، القاهرة ، المكتبة العلمية ، ١٩٥٨ ، ص ١٠ ·

(٣) في العصر الحديث اعتقد شعبيا – لا رسميا – أن الخديو توفيق وحسن صبرى توفيا مسمومين ·

George Kirk : «The Middle East in the War», London, Oxford Unviersity Press, 1952, p. 196n.

احدثت وفاة مصطفى كامل تأثيرا رهيبا فى نفوس المصريين من جميع الطبقات • وكانت جنازته مناسبة للتعبير عن حزن عام لم تعرف مصر له نظيرا فى تاريخهـــا الحديث • فســـارت خلف نعشــــه الآلاف المؤلفة (١) ، وأرسلوا الخطابات والبرقيات لشقيقه على (٢) • وتنافس كبار شعراء العصر فى رثاء مصطفى • وحتى الكثيرون من معارضيه ، كلطفى الســيد وقاســـم أمين ، حزنوا لوفاته • وكان سعد زغلول من القليلين الذين لم يحزنوا لانه سيرث بصفة نهائية مكانة مصطفى كزعيم مصر الوطنى (٣) أما من وجهة نظر البريطانيين فقد كانت مظاهرات الحزن التى شملت المحامين والصحفيين والموظفين وتلاميذ المدارس (الذين تركوا مدارسهم دون اذن للسير فى موكب الجنازة) دليلا لا يدحض على شعبيه الحزب الوطنى (٤) رغم ما لاحظه جورست من أن الفلاحين الذين اشتركوا فيها كانوا قلة ضئيلة (٥) •

ومنذ سنة ١٩٠٨ لم يسمح الشعب المصرى لذكرى مصطفى كامل أن تذبل أو تتلوث • وأصبحت حياته موضوعا لعديد من الكتب والمقالات والقصائد والمسرحيات ، بل لفيلم سينمائى أيضا • وجـرى اكتتاب عام للانفاق على صنع تمثال له ، نحته مثال فرنسى مشهور • وضع أولا فى المدرسة التى تحمل اسمه ثم نقل بعد ذلك الى أحـــد الميادين الرئيسية بالقاهرة • وفى سنة ١٩٥٣ نقل جثمانه الى ضريح خاص ، أضافت اليه الحكومة فيما بعد متحفا يضم مخلفـــــات جهاده ، وزين بنقوش حائطية

---

(١) تراوحت تقديرات عدد من اشتركوا فيها فعلا بين ١٠٠٠٠ (Zyfe : p. 164) و ٥٠٠٠٠ (Blunt : p. 601) و ٧٠٠٠٠ (Gervais-Courtellemont in Le Figaro, 12 February 1908) و ٢٥٠٠٠٠ (عبد الرحمن الرافعى ، ص ٢٦٩ وما بعـــدها) و ٥٠٠٠٠٠ (من على فهمى كامل الى جولييت آدم ، القاهرة فى ٢٧ فبراير ١٩٠٨ فى Letters : p. 312)

(٢) فى حالة يقظة غير متوقعة لموهبة احصائية نادرة قرر « على » أنه تلقى ١٣٬٣٣٤ برقية تعزية و ٨٤٣٠ رسالة • (المصدر السابق)

(٣) مصطفى أمين : ما هو سبب الخلاف بين سعد ومصطفى كامل ؟ ، « **الأخبار** » ، ١٦ ســبتمبر ١٩٦٤ • ويزعم مصطفى أمين أن الخديو هو الذى زرع بذور الخصومة المتبادلة بينهما ، ولكن الأرجح أن سعدا قد أسخطه هجوم مصطفى على عرابى ، وعلى تصرفاته وهو وزير للمعارف • وينقل رشيد رضا عن سـعد اعتقاده أن مصطفى كان مجنونا • (« **تاريخ الأستاذ الامام** » : جـ ١ ، ص ٥٩٣)

(٤) FO/633/14 ، من جورست الى كرومر ، القاهرة فى أول مارس سنة ١٩٠٨ •

(٥) FO/371/449 ، من جورست الى جراى ، القاهرة فى ١٦ فبراير سنة ١٩٠٨ • وانظر أيضا Zyfe : p. 146

ومختارات من خطبة . وقرر كل من نجيب وعبد الناصر أن قراءة كتابات مصطفى كامل قد أثرت بعمق فى آرائهما السياسية (١) .

لماذا حزن مثل هذا العدد الكبير من المصريين على مصطفى كامل وقدسوا ذكراه ، لم يشذ حتى من لم يعتنقوا آراءه ؟ .. مع انه لم يكن لديه الا القليل ليقدمه من أجل أيديولوجية متكاملة أو برنامج للاصلاح الاجتماعى والاقتصادى . ولم يذكر الفلاح المصرى فى مبادىء الحزب الوطنى العشرة التى أعلنت سنة ١٩٠٧ ، رغم أن أربعة أخماس أهل مصر كانوا من الفلاحين . وكانت وطنيته عاطفية فى الأغلب ، ويتضح ذلك من عبارته التى يستشهد بها أكثر من سواها :

« بلادى ، بلادى ! لك حبى وفؤادى ، لك حياتى ووجودى ، لك دمى ونفسى ، لك عقلى ولسانى ، لك لبى وجنانى ! فأنت أنت الحياة ، ولا حياة الا بك يا مصر ! » (٢) .

ان المصريين الذين تتميز ثقافتهم بالطابع الشفاهي قد يتقبلون هذه الانفجارة الوطنية العاطفية دون أن يتساءلوا عن معناها ، ولكن لا بد أن بعضهم قد تساءل لماذا اعتبر مصطفى الاسلام سندا للشخصية الوطنية أكثر منه أسلوبا شاملا للحياة (٣) . فاذا كان تصوره للدين تصورا وطنيا ليبراليا ينتمى الى القرن التاسع عشر ، فقد كان باستطاعته أن يتخلى تماما عن ليبراليته ، كما فعل سنة ١٩٠١ ، حين هاجم قاسم أمين ، معتمدا على الضجة الشعبية التى أثارتها دعوته لتحرير المرأة . (٤) ورأى نقاده أيضا أنه خلط بين قومية مصر الاقليمية ، وهى فكرة غريبة بالنسبة لمواطنيه المسلمين وان كانت مقبولة لدى العاطفين الاوربيين ، وبين فكرة الجامعة الاسلامية التى كان يعتنقها السلطان عبد الحميد أما مؤيدوه فقد ذهبوا الى أن تبنيه للدعوة العثمانية و الجامعة الاسلامية لم يكن الا مناورة دفاعية ، لان بريطانيا هى التى كانت تحتل مصر لا تركيا . وأيا كان الامر فقرب نهاية حياته بدأ يتخلى عن الاعتماد على القوى الخارجية ويميل الى الاعتماد على النفس وطنيا ، فكان فى ذلك قاعدة أكثر ثباتا للحركة الوطنية .

---

(١) Mohammed Naguib : « Egypt's Destiny », Garden City, N. Y. Doubleday, 1955, Steward : Young Egypt, p. 184.

(٢) عبد الرحمن الرافعى : ص ٤١٦

(٣) هذه المشكلة ناقشها بتوسع « ستبات » Steppat : « Nationalismess und Islam bei Mustafa Kamil » كما تعرض لها كل من « أحمد » ، وحورانى ، وصفران

(٤) محمد حسين هيكل : ج ١ ، ص ٢٧ Ahmed, p. 47

أما فيما يتعلق بالوسائل التى تحقق الاستقلال ، فقد آثر مصطفى الاقنــــاع على الثورة والعنف ، فقد كان يبغضه بحـــكم تكوينه المزاجى والجسمانى وخبرته القانونية وذكرى فشل عرابى فيه • وقد تجنب بشكل عام الهجوم الشخصى على الافراد ، وهى ســـــياسة عجز خلفاؤه عن مواصلتها • كانت خصومته مع الاحتلال الانجليزى لمصر لا مع أشخاص ولو أن بريطانيا أرادت أن تلتقى بمصطفى فى منتصف الطريق وأعدت المصريين فعلا للحكم الذاتى ، لكان من المحتمل أن تحافظ الحركة الوطنية على طابعها التطـــورى ، ولما قامت ثورتا ١٩١٩ و ١٩٥٢ ، ولما اتخذ موقف مصر من الغرب طابع العدوان •

على أنه لا ينبغى المبالغة فى تقدير دور مصطفى كامل فى تاريخ مصر الحديث • فقد كانت أهم انجازاته تنظيم الحزب الوطنى حركة علنية معارضـــة للاحتـــلال البريطانى ، فى وقت لم يكن فيه المصريون يتوقعون أى عون أجنبى • وحتى هذا العمل كان على خلفائه أن يتموه • ومع أن شخصيته كان لها تأثير عميق على بعض الاجانب (١) وغالبية المصريين ، فقد كانت تفتقر ــ فيما يبدو ــ الى العمق والاصرار • ولعل سياسته كانت انتهـــازية (*) ، ولكننا لا نستطيع أن نتصـــور أنه كان بوسعه أن يحقق كل ما حققه عن طريق آخر • لقد بدأ نشاطه بلا ثروة موروثة ، ولا سند من أسرة أرستقراطية ، ولا منصب حكومى هام • كان محاميا وصحافيا فى وقت لم تكن فيه هاتان المهنتان موضع تقدير فى مصر • ولولا علاقاته التى نماها بمهارة ، وموهبته فى التعبير عن نفسه

---

(١) انظر على سبيل المثال :

Henry Nevinson : « More Changes, More Chances », London, Nisbet and Co., 1925, p. 178, Bertrand : p. 190

(*) ان رأى المؤلف فى مصطفى كامل بعامة رأى ينقصه الانصــاف ، وهــذا هو المنتظر من مؤلف ينتمى الى الغرب الذى يضمر – ضمن موروثاته الفكرية العديدة – عداء متصلا لكل ما هو عربى ومسلم ، ومنتم الى الشرق بصلة ، فهو يرمى مصطفى بانه كان ينقصه الاصرار ، فى حين ان اعظم صفات مصطفى هى الاصرار الذى كان فى رأى بعض خصومه عنادا لا يطاق • فقد وضع امامه هدفا لم يغيره قط • اما اتهام مصطفى بالانتهازية فيبدو لونا من التجديف فلم يعدل مصطفى خصومه او اصدقاءه تحقيقا لمصلحة عابرة ، او منفعة خاصة •

(أو الدعاية لنفسه كما قد يذهب أعداؤه) ومشـــاجرات كرومر مع الخديو ، لما استطاع مصطفى كامل أن يبعث الوطنية المصرية فى الوقت المناسب ليستغل صدى حادث دنشنواى ويخلق حركة شملت الامة كلها . كانت أعظم خدمة أداها مصطفى لبلاده هى بعث ايمان أبناء الشـــعب المصرى بأنفسهم كامة ، وكان هذا الايمان قد اختفى مع فشـــل الحركة العرابيـــة ، وهو نفس الايمان الذى ســـيحقق ثمرة أنضج فى ثورة سنة ١٩١٩ .

الفصل الرابع
تقدم الحزب الوطنى

- الصراع على الزعامة
- الخديو والدستور
- الشيخ جاويش والأقباط
- نمو الحزب الوطنى

الصراع على الزعامة

اعتبرت وفاة مصطفى كامل منذ زمن بعيد ـ وبحق ـ أكبر كارثة لحقت بالحزب الوطنى (١)٠ ولا يعنى هذا أن الحزب اختفى ، فقد استمر بقيادة خلفائه عدة سنوات ، كسب خلالها الانصـــار وكان له أثره فى السياسة المصرية ، غير أن الانقســـامات الداخلية ما لبثت أن أضعفت فعاليته ٠ فبعد مصطفى كامل لم توجد شخصـــية مسيطرة ولا اجماع فى الرأى بين الأعضاء على تحديد سياسة الحزب وأهدافه ٠ لقد نشأ الحزب وكأنه امتداد لشخصية مصطفى كامل ، واستطاعت مواهبه فى الخطابة والكتابة ، وبصـــفة خاصة قدرته على التعبير عن آمال الطبقة المتوسطة فى مصر وآلامها ، أن تفوز بغالبية قوية بين المصريين المستنيرين سياسيا حوالى سنة ١٩٠٨ ٠ وكان داخل الحزب شخصية قوية مسيطرة بدرجة حولت زملاءه الوطنيين أتباعا مخلصين لاقادة بدورهم ٠ أما أولئك الذين استطاعوا بفضل شخصيتهم أو مكانتهم ، أن يكون لهم نفوذ خاص فقد انفصلوا عنه أما بسبب خلافات مبدئية أو شخصية ٠ فالواقع يشهد أن زعماء الحزبين المنافسين قد سبق لهم التعاون معه ، وهم حسن عبدالرازق والشيخ على يوسف وتابعاهما الصحفيان لطفى السيد وحافظ عوض ٠

كيف يمكن اختيار خلف يقوم بدور مصطفى كامل ؟ ان هذه المشكلة كثيرا ما برزت فى مجرى السياسـة المصرية ٠ فسعد زغلول بشخصيته الطاغيـة أبعدت كثيرين من مؤيدى الوفد الأقويـاء فيما بين ثورة ١٩١٩ وسنة وفاته ، وكان خليفته مصطفى النحاس أضعف من كثيرين منهم ،

(١) انظر على سبيل المثال
Hourani : « Arabic Thought », p. 208, Alexander, p. 24, Lloyd; I; p.78

حتى لقد تحدى زعامته غير قليل من أعضاء الحزب نفسه · ولو لم يعدل عبد الناصر عن استقالته فى يونيو ١٩٦٧ لكان من المرجح أن تحدث أزمة سـياسية خطـيرة ، ولكن بدلا من ذلك اذا بعبد الحـكيم عامر ، أكبر معاونيه ونائبه المشهور يفقد منصبه ، ثم ينتحر خوفا من السجن ·

وحينما توفى مصطفى كامل لم يكن أحد من الوطنيين مهيئا بوضوح أو مقررا أن يخلفه · فادعى اثنان الحق فى خـلافته : على فهمى كامل شقيق مصطفى الاكبر ومحمد فريد أخلص رفاقه · واعتقد البعض أن مصطفى أشار بأن يتولى محمد فريد رئاسة الحزب الوطنى فى حين يدير « على » صحف الحزب (١) · ولكن ليس هناك دليـل معاصر على أن مصطفى قد أدلى بمثل هذه الوصية · لذلك كان لا بد أن ينتخب أعضاء الحزب فريدا فى جلسة خاصـة ، عن طـريق التصـويت السرى على الأرجح · اذ كان من الضرورى الحفاظ على المظهر الخارجى لوحدة الحزب لضـمان اسـتمراره · غير أن مذكرات فريد تشير الى أنه حدث خلف الكواليس صراع فعلى على السلطة ، كان من أطرافه «على» ، و «الخديو» من وراء ستار (٢) ·

كانت مطالبة « على » بقيادة الحزب الوطنى تستند الى حق الوراثة جزئيا لا غير ، فرغم أن المصريين والأجانب الذين التقى بهم كاتب هـذه السطور يميلون الى رفض « على » ويعتبرونه سياسيا ومفكرا تافهـا ، فلا شك أنه كان على أقل تقدير يشارك شقيقه بعض مواهبه ، فقد كان كاتبا غزيرا للمقالات كما ترجم بعض الكتب ، والسيرة التى كتبها لمصطفى بمثابة كنز من المعلومات عن المرحلة المبكرة من حياته ، وكان خطيبـا متدفقا (وأحيانا مملا) · (٣) وكان قد عمل ــ كأبيه ــ ضابطا بالجيش المصرى ، وخفضت رتبته بسـبب شغبه الوطنى · (٤) وبعد استعادة

---

(١) من على فهمى كامل الى جولييت آدم ، ٢٧ فبراير ١٩٠٨ (Letters : p.316)

(٢) هنا موضع يتطلب الحذر · فقد كتب فريد مذكراته بعد أن غادر مصر سـنة ١٩١٢ · وفيها تصوير جانب من سوء علاقته بعلى فهمى كامل خلال السنوات الأربع التى تزعم فيها الحزب بالقاهرة · ولا يوجد مصدر مقابل يصور وجهة نظر « على » · وقد أكد لى شقيقه الأصغر حسن حسنى كامل ، فى مقابلة معه سنة ١٩٦٣ ، أن « على » لم يعارض أبدا تولى فريد زعامة الحزب · ومن المؤسـف أن أوراق « على » فقدت فيما يبـدو ·

(٣) فى الاجيبشان جازيت The Egyptian Gazette ، ١٦ مارس ١٩١٩ ، تعليق طريف على احدى خطب « على » ، اهم نقطة فيه أن « على » قد خدرته شـهرة أخيه ، فاصبح اذا وقف على قدميه خطيبا لم يستطع الجلوس بعد ذلك ·

(٤) انظر الفصل الثانى من هذا الكتاب ·

السودان استقال من وظيفته وعمل مديرا لمدرسة شـــقيقه • (١) وعند وفاة مصطفى كان « على » عضـــوا باللجنتين الادارية والتنفيذية للحزب الوطنى (٢) • (*)

واذا صح أن موقف « على » فى الصراع على زعامة الحزب الوطنى شبيه بموقف سميه فى المنافسة الاسطورية على الخـــلافة عقب وفاة النبى محمد ، فان موقف « فريد » فى هذه الحالة يصبح شبيها بموقف أبى بكر الصديق • ففريد كان أحد العمد المالية التى قام عليها الحزب الوطنى • والواقع أنه الزعيم الوحيد المعروف فى الحركة الوطنية المصرية الذى لم يكن ابنا أو حفيدا لفلاح ، أو ابنا من أبنـــاء الطبقة المتوسطة الصاعدة فى مصر ، بل كان سليل أسرة تركية أرستقراطية وثيقة الصلة بالطبقة المصرية الحاكمة • فأبوه أحمد باشا (١٨٣٦ ــ ١٩٠١) شغل فى الحكومة عديدا من المناصـــب الهامة ، من أهمهـــا ناظر الدائرة

---

(١) على فهمى كامل : ج ٩ ، ص ٩٥ ، ١٦٣ •

(٢) للمزيد من التفاصـــيل عن حياة « على » انظر : الزركلى ج ٥ ، ص ١٣٦ وما بعدها ، مجاهد : ج ١ ، ص ١٥٣ وما بعدها ، بالاضافة الى بعض الفصول التى كتبها فى سيرة شقيقه مصطفى • وقد صدرت عنه عدة مجلدات تذكارية أهمها اثنان : « ذكرى فقيد الوطنية على فهمى كامل » للسيدة لبيبة أحمد ، القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٩٢٧ ، « الوطنية فى شخص على فهمى كامل بك » لمؤلف مجهول ، القـــاهرة ، مطبعة النهضة ، ١٩٣٣ •

(*) الحق ان الحزب الوطنى اثبت عقب وفاة مصطفى كامل المفاجئة ، انه كان على قدر عظيم من وحدة الكلمة والانضباط الحزبى الرائع ، فان اختيار خليفة لمصطفى كامل ، كان خليقا بان تظهر له آثار بالغة السوء لوجود قوى شديدة الكراهية للحزب الوطنى ، عظيمة الخوف من استمراره ووحدته ونموه ، وهى الخديو والانجليز والطبقات الغنية التى يمثلها حزب الأمة • ولا شك ان هذه الجهات جميعا بذلت اقصى ما تملك لتحدث فتنة فى الحزب تؤدى الى تصدعه وتفرق كلمته وانشقاقه وقيام اكثر من حزب ولكن الذى حدث اقل بكثير من أن يستحق الوقوف امامه وتســـميته « بالصراع » فلا اقل من أن يوجد اثنان يتنافسان على زعامة الحزب ، فاذا كان احد هذين المتنافسين بالصدفة هو شقيق الزعيم ، وكان هـــذا الشقيق صاحب دور مذكور فى حياة الحزب ونشاطه ، واوذى بسبب عقيدته وايمانه بالحزب ، فان ترشيح نفسه لا يعنى فى قليل او كثير ان الحزب تفرقت كلمته بعد وفاة الزعيم الأول • والثابت ان محمد فريد انتخب فى اول جلســة عقب وفاة مصـــطفى ، وان على فهمى كامل ايده آخر الأمر وبقى معه ، مؤيدا له ، حتى توفى محمد فريد • ولم تترك هذه الانتخابات جروحا فوق جسم الحزب ولا فى علاقات اعضائه • واذا قورن ما حدث عقب وفاة مصطفى ، بما حدث فى كثير من الحركات ، كالحركة الشيوعية عقب وفاة لينين لاعتبر الحزب الوطنى مثلا اعلى فى حسن التنظيم والولاء للحزب •

السنية (١) وكان أحمد فريد سياسيا أيضا فهو الذى أقنع رياض باشا بقبول رئاسة الوزراء لانهاء الأزمة الوزارية سنة ١٨٩٣ (٢) ، وعبر بعد ذلك عن نزعته الوطنية بتقديم استقالته احتجاجا على بيع جزء من أملاك الدائرة لشركة أجنبية (٣) • واقترن بابنة قاضى البحار (٤) وأحد أعيـان القاهرة ، وأنجب منهـا ولدين (٥) ، كان أكبرهما هو محمـد فريد الذى تعلم فى مدارس الحكومة ، وكلية الفرير (٦) ، ومدرسة اللغات والادارية التى أصبحت فيما بعد مدرسة الحقوق الخديوية ، وبعد أن تخرج سنة ١٨٨٧ (٧) ظل يرتقى درجات الوظائف الادارية حتى وصل سنة ١٨٩٥ الى منصب وكيل النائب العام بمحكمة استئناف القاهـرة (٨) • وكانت تلك وظيفة هامة بالقياس الى شاب فى السابعة والعشرين من عمره ، ونقطة انطلاق محتملة لمنصب حكومى رفيع •

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : « محمد فريد » ، ص ١٤٧ ، والدائرة السنية هى الأراضى التى يملكها الخديو ، وكانت مساحتها عدة آلاف من الأفدنة ، وكانت مرهونة لصالح حملة أسهم دين سنة ١٨٧٧ (Milner : p. 57f)

(٢) صبرى أبو المجد : « محمد فريد مؤرخا ، مصر فى أعقاب الثورة العرابية » ، « الهلال » ، مجلد ١٥٣ ، العدد ٣ ، مارس ١٩٦٥ ، ص ١٨ •

(٣) صبرى أبو المجد : « محمد فريد مؤرخا » ، « الهلال » ، المجلد ١٥٣ ، العدد ١ ، يناير ١٩٦٥ ، ص ٢٧

(٤) قاضى البحار هو قاضى السويس الذى يقدر الكميات التى سيعاد شحنها برا الى القاهرة •
Stanford I. Shaw : « The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt, 1517 - 1798 », p. 104
ويعتقد « شو » أن قاضى البحار كان مقره القاهرة ولا يذهب الى السويس الا عند وصول البضائع • وفى القرن التاسع عشر كان المنصب قد أصبح شرفيا تقريبا •

(٥) أصبح ابراهيم فريد الابن الآخر قاضيا بالمحاكم الأهلية ، ولم يقم بأى دور فى الحركة الوطنية

(٦) فرج سليمان فؤاد : « ذكرى فقيد الوطن وزعيم النهضة المصرية المرحوم محمد فريد بك رئيس الحزب الوطنى » ، القاهرة ، د•ت• ، ص ١
«The Champion of Egyptian Independence» in «The African Times and Orient Review», N. S. 1, 18, (21 July 1914) p. 411.

(٧) عبد الرحمن الرافعى ، ص ١٨ • وكثير من زملائه بالمدرسة أصبحوا فيما بعد رفاقا فى العمل السياسى ، كشقيق اسماعيل صدقى الأكبر : عزت شكرى الذى أصبح رئيس نادى المدارس العليا ، وعمر لطفى (١٨٦٧ ـ ١٩١١) مؤسس ذلك النادى ورائد الحركة التعاونية فى مصر •

(٨) المصدر السابق : ص ٢١ •

ولكن محمد فريد ، ككثير من الوطنيين الذين تلوه فى البـــلاد المستعمرة ، رفض السير فى الطريق المؤدية الى احدى الوزارات الهـامة • والى جوار دوره العلنى كموظف عمومى بدأت تصبح له حياته الخاصة كثائر وطنى • وقبل أن تصـبح الصحافة محترمة كتب عدة مقالات لمجلة الشـــيخ على يوسف الاولى ، وهى « الآداب » ، وكان يكتفى بتوقيعها بالحروف الاولى من اسمه ، لان والده حذره من الاساءة لسمعة الاسرة بالكتابة فى الصحف أو المشاركة فى السياسة (١) ، ثم أسهم فى تمويل « المؤيد » فى فترات ضيقها المالى الاولى ، وأيد معارضة رياض باشا لتعيين أول مستشار قضائى بريطانى سنة ١٨٩٠ ، وعلق فى مفكرته على عدم جدوى تأييد فرنسا فى هذه المسألة :

« لا توجد حكومة تعمل الا لزيادة نفوذها ، بصرف النظر عن مصلحة البلاد صاحبة المشكلة • وسيظل هذا الوضع قائما فى مصر الى أن يظهر رجال يقدرون حقـا قيمة وطنهم ويدافعون عن مصالحه بالوسـائل السلمية ــ أو بغير ذلك من الوسائل اذا اقتضت الضرورة ــ ولن يتحقق هذا الا مع انتشار التعليم » (٢) •

وسنة ١٨٩٢ قابل مصطفى كامل لاول مرة ، وكان وقتها لا يزال أميل للتفاؤل باحتمال فوز مصر بالحرية عن طريق التدخل الاجنبى ، فبدأت رفقة حياتهما فى جمعية لطيف سليم السرية (٣) •

وكانت قضية البرقيات سنة ١٨٩٦ هى التى أقصت « فريد » عن العمل الحكومى ذى المستقبل المرموق ، ووضعته على أول الطريق الذى قاده الى زعامة الحزب الوطنى • وهذه القضية ــ كما وضحنا من قبل ــ اتهم فيها على يوسف بالحصول ــ بطرق غير مشروعة ــ على نص برقية مرسلة من كتشنر الى وزارة الحربية المصرية ونشرها فى « المؤيد » ، وكان البريطانيون حريصين على ادانته ، ولكن القضاة المصريين برءوا على يوسـف ، وعبر « فريد » وكيـل النيابة عن تأييده صراحة لحكم البراءة بقاعة المحكمة (٤) • فحـاول البريطانيون نقله الى خارج القاهرة عقابا له على تصرفه « الوقح » • فما كان منه الا أن قدم استقالته ، ومضى

---

(١) مذكرات محمد فريد : ص ٥٧ •

(٢) « الهلال » ، يناير ١٩٦٥ ، ص ٣٠

(٣) عبد الرحمن الرافعى : ص ٣٢ ، على فهمى كامل ، جـ ٢ ، ص ص ٥٥ ــ ٥٧ •

(٤) عبد الرحمن الرافعى : ص ص ٢٧ ــ ٢٩ ــ وانظر أيضا الفصل الثانى فى هذا الكتاب •

ـ لخيبة أمـل أبيـه ـ (١) يفتتح مكتبـا للمحاماة ، حقق فيـه نجاحا كبيرا ، (٢) ودرب عددا غير قليـل من المحامين أصبحوا من أنصـــاره فيما بعد (٣) ٠

ولم يكن محمد فريد مجـرد تابع لمصـــطفى كامل رغم أن الكتاب الغربيين يتجاهلون هذه الحقيقة عادة ٠ فقد أصدر ، معتمدا على الثروة الكبيرة التى ورثهـــا عن أبيه ، مجلة عربية أدبية وعلمية أســماها « الموسوعة » ٠ (٤) وكان يكتب فيهـا مقالات عن شئون العالم المعاصر ، مع التعريض المستمر بالاسـتعمار (٥) ، كمـا ألف عدة كتب ، وطوف بأوربـا وشــــمال افريقيـــا (٦) ، وأشرف على تربيـــة أسرة كبيرة

---

(١) لم تكن ممارسة المحاماة الأهلية عملا يحظى باحترام الطبقة الراقية من المصريين المسلمين فى القرن التاسع عشر ٠ وقد روى لطفى السيد فيما بعد (« قصة حياتى » : ص ٣٧ وما بعدها) أن أحمد فريد شكا وهو ينتحب باكيا لمحمد عبده :

ـ هل يصح يا سيدى الأستاذ أن يهزئنى محمد فريد فى آخر الزمن ويفتح دكان افوكاتو (مكتب محام) ؟!

وكان على « محمد عبده » أن يؤكد للأرستقراطى المنزعج أن المحاماة ليست مهنة مخلة بالشرف ٠

(٢) جاء فى مذكرات محمد فريد (ص ٦٥) أن الأميرة الثرية اللعوب نازلى كانت من بين موكليه ٠ ويكتب عبد الرحمن الرافعى (ص ٣٠) أن « فريد » لم يكن يقبل قضية الا اذا شـــعر أن الحق فى جانب صاحبها ، حتى لقد رفض قضية احدى أميرات الأسرة الخديوية لأنها كانت قائمة على الخداع ٠ وهذا دليل على سمو مبادئه من ناحية او على نجاح مكتبة من ناحية أخرى ٠

(٣) منهم على سبيل المثال : أحمد وفيق (المتوفى سنة ١٩٣٨) ومحمد زكى على ٠

(٤) ربما صدرت « الموسوعة » كمقابل مصرى اسلامى للمجلتين اللتين كان يصدرهما ويسيطر عليهما السوريون وهما « الهلال » و « المقتطف » ٠ وكان من أشهر كتابها مصطفى كامل ، ومحمد عبده ، وقاسم أمين ، ومصطفى عبد الرازق ، ولطفى السـيد !!

(٥) من أمثلة ذلك مقال : « كيف فقدت جزيرة كوبا استقلالها » ٠

(٦) أصبحت هذه الرحلات موضوعا لسلسلة من الحكايات بعنوان «من مصر الى مصر» ظل فريد ينشرها سنويا فيما بين عامى ١٩٠١ و ١٩٠٤ ويوزعها على أصدقائه دون مقابل ٠ وكتاب « أسبانيا كما رآها الرحالة المسلمون من سنة ١٦١٠ الى ١٩٣٠ » :

Henri Pérés : «L'Espagne vue par les voyageurs musimans de 1960 à 1930», Paris, Librairie d'Amerique et d'Orient, 1937.

يحوى نقدا طريفا لما رواه محمد فريد عن رحلته الأسبانية سنة ١٩٠١ ، يتضح منه أن هدف فريد الرئيسى كان أن يوضح لقرائه الى أى حد تدهورت مدن الأندلس بعد

العدد (١) ولم يتفوق أحد عليه فى دعم مصطفى كامل أدبيا وماديا ..(٢) ورغم ذلك فلم يبرز فريد كواحد من زعماء الوطنيين الا حين تولى ادارة صحف الحزب الوطنى أثناء حملة مصطفى الأخيرة فى أوربا . (٣) وكان خطيبا متوسـط القدرة ، لم يتح له القاء أى خطبة قبل سنة ١٩٠٨ . وكانت اللجنة الادارية قد انتخبته وكيلا لها سنة ١٩٠٧ ، وتولى رئاسة آخر جلساتها أثناء مرض مصطفى الأخير ، ومن ثم بدا أنه خليفته الطبيعى .

ورغم ذلك لم تمر خلافته لمصطفى كامل دون أحداث . فقد أراد الخـديو عباس ـ وفقـا لما جاء فى مذكرات فريد ـ زعيما وطنيـا لا يعارضه حتى فى تنازلاته الكثيرة المتزايدة للمندوب البريطانى الجديد: سيرالدون جورست . وأرسل الخديو عدة مندوبين الى الاجتماع الرسمى الذى تلا جنازة مصطفى كامل ليقترحوا مرشحين يخلفونه . وسرعان ما برز على فهمى كامل باعتباره الشخصية الرئيسية فى خطة عباس لمنع انتخاب فريد . ويزعم فريد فى مذكراته أن « على » طبع منشورات ذكر فيها اسمه مقترنا بوصف رئيس الحزب الوطنى ووزعها على الأعضاء الذين حضروا الاجتماع غير العادى للجمعية العمومية ، كما عهد الى بعض مؤيديه بالوقوف عند المدخل ونبه عليهم بأن يسمحوا لعدد من غير الأعضاء بالدخول

= انتهاء الحكم الاسلامى . ولا شك أن ملاحظات فريد عن سوء أحوال مرفق السكة الحديد وتعصب الفلاحين الأسبان كانت ممتعة لكل من ألف امثال هذه الأوصاف لمصر من جانب الرحالة الأوربيين .

(١) اقترن فريد سنة ١٨٨٨ باحدى بنات عمه ، وأنجبا أربع بنات وولدين . وتوفى أحد الأبناء فى صغولته فى حين أنهى الآخر وهو عبد الخالق فريد ، خدمته مؤخرا كرئيس لمحكمة أسيوط العليا ، وأنا شديد الامتنان له لكل ما قدمه من عون لتسهيل بحثى أثناء اعدادى لهذه الدراسة .

(٢) فى خطابات مصطفى كامل الى فريد كثير من الاشارات لمسـائل مالية . من أمثـلة ذلك ما كتبه مصـطفى من باريس فى ٢٢ يوليو ١٨٩٨ يطلب فيه من فريد أن يرسل له بالبرق ثلاثين جنيها لينشر خطبه باللغة الفرنسية ، وبعد أسبوعين كتب اليه مرة أخرى يطلب عشرين جنيها ينفق منها على رحلته الى ألمانيا ، أمثـال هذه المعـونات كانت مهمة بالنسبة لمصطفى لأنها قللت من اعتماده على الخديو . وقد نشر عبد الرحمن الرافعى (« مصطفى كامل .. » ص ٣٣٧) نص الرسالة الأخيرة وهى حافلة بالتفاصيل الدقيقة . وانظر أيضا : « الفلوس فى حياة مصطفى كامل ومحمد فريد والخديو عباس » لصبرى أبو المجد ، « المصور » ، العدد ٢٠٧٨ ، ٧ أغسطس ١٩٦٤ ، ص ص ٣٣ ـ ٣٦ . وقد شك كرومر فى أن « فريد » كان الوسـيط المالى بين الخديو ومصطفى كامل ـ من كرومر الى جراى ، القاهرة فى ٢١ مارس ١٩٠٧ ، أحمد شفيق : جـ ٢ ، مجلد ٢ . ص ١٠٣ ، ١٠٦ .

(٣) مذكرات محمد فريد : ص ٢ .

ليصوتوا الى جانبه ٠ ولكن ما ان تحول المد ــ رغم ذلك ــ لمصلحة فريد حتى حول « على » خطته وألقى خطبة في تأييد ترشيحه ٠ (١) وكان فريد قد انتخب بالاجماع لمدة ثلاث سنوات ، على أن يحل « على » مكانه في وكالة الحزب ، كما عهد الى « على » برئاسة تحرير « اللواء » في حين أصبح « فريد » مديرا لمؤسسة « ليتندار » ٠ (٢)

وسواء أصبح أن الخديو عارض في تولى فريد زعامة الحزب الوطنى أم لم يصبح ، وأن على فهمي قد طمع في منصب أخيه المحتضر أم لم يطمع، فالمهم من الناحية التاريخية في الحالتين أن « فريد » اعتقد أن « على » ضده وأن الخديو أوحى بطريقة ما ، أو شجع على معارضـــته ٠ وهذه الشكوك جعلت « فريد » يعمل على التقليل من نفوذ « على » على الوطنيين ومن ثم زاد من اعتمـــاده على الشـــيخ جاويش ٠ المسرف في عدائه للمسيحيين (*) رغم مواهبه ، وهو الذى خلف « على » في رئاسة تحرير « اللواء » في مايو سنة ١٩٠٨ ، فسرعان ما صبغ الحزب الوطنى بلون فاقع من التعصب الاسلامى ، وهو ما جاهد مصطفى كامل كثيرا لتجنبه ٠

أصابت وفاة مصطفى كامل الحزب الوطنى بضربة قاصمة ، فقد كان الحزب التجسيد التنظيمى لشخصيته ، وأفكاره ، ومواهبه الاداريه ومن ثم كان من الصعب على أى شخص يخلفه أن يشرع في تنفيذ أى سياسة أو برنامج جديد دون أن تتصدع الحـــركة ٠ لقد عوق طغيان شخصية مصطفى كامل ظهور زعماء آخرين داخل الحزب ٠ وكان محمد فريد شريفا ووطنيا ، ولكنه كان يفتقر الى الجاذبية الشخصية التى تميز بها سلفه ٠ فقد كان بمظهره الناضج ومنظاره السميك وتكوينه الممتلىء أبعد ما يكون عن مظهر الزعيم الوطنى ، فكيف يتسنى له النهوض بدور مصطفى كامل في استثارة آمال شباب مصر ؟

غير أن أسوأ ما منيت به الوطنية المصرية أن « فريد » استهل زعامته وهو يشك في أن بعض أنصاره يتآمرون مع الخديو ضده ، فترتب على ذلك أن الوحدة شبه الكاملة التى ظهر بها السياسيون المصريون في جنازة

---

(١) مذكرات محمد فريد : ص ٣ وما بعدها ٠

(٢) عبد الرحمن الرافعى : ص ٤٥ وما بعدها ٠

(*) ليس صحيحا أن الشيخ عبد العزيز جاويش كان مسرفا في عدائه للمسيحيين ، فقد اختاره بعض المستشرقين من اساتذة جامعة « اوكسفورد » لتدريس اللغة العربية بها ، ولو علموا منه اتجاها معاديا للمسيحية لما خصوه بهذا الاختيار ٠

مصطفى كامل ما لبثت أن تحطمت • وقد يكون صحيحا ما يميل المصريون الى تصديقه (١) ، من أن « عباس » وجورست قد ساعدا على توسيع شقة الخلاف (وكذلك كتشنر الذى سـيقوم بدور المطرقة فى الوقت المناسب) ، ولكن يظل مع ذلك الضعف الرئيسى الذى أصاب الحزب الوطنى مرجعه الى العلاقات الشخصية بين خلفاء مصطفى كامل •

(١) من الأمثلة الجيدة لهـذا التفسير ما جاء فى « الأخبار » ، ٨ يونيو ١٩٦٤ تعليقا على اكتشاف مذكرات محمد فريد ، وكانت تنشر وقتذاك على صفحات الجريدة •

الخديو والدستور

في يوم انتخابه رئيسا للحزب الوطني ، تلقى محمد فريد مكالمة من القصر تدعوه لمقابلة الخديو · وأخفى عباس ما لعله شعر به من خيبة أمل ورحب بفريد بحرارة وهنأه قائلا :

« حقا انه لمن النافع جدا أن يكون على رأس الحركة الوطنية شخص مثلك ، لأنك لا تحتاج الى المال ولا تطمع فيه ، كما أنك تنتمى لأسرة أخلصت فى خدمة البلاد · وقد عرف أبوك بأخلاقه الفاضلة وأمانته واخلاصه · ولن يستطيع البريطانيون أن يتهموك بأنك تسعى وراء الشهرة ، أو المال ، أو المنصب الحكومى · » (١) ثم عرض الخديو مزيدا من العون المالى للنسختين الانجليزية والفرنسية من « اللواء » ، ولكن « فريد » رفض العرض · وكتب بعد ذلك :

« رفضت (عرضه) لكى لا أصبح مجرد أسير له ، ليس على الا أن أطيع كل أوامره ·· وترتب على هذه المقابلة أن الخديو أدرك أننى لست واحدا من أولئك الذين يمكن أن يطيعوا أوامره بلا تفكير ، وهكذا بدأ التآمر ضدى ، فى حين كان يتظاهر بالود نحوى ·· » (٢)

لماذا رفض « فريد » عون الخديو ، فعجل بذلك بوقوع الانفصام الثانى بين القصر والحزب الوطنى ؟

لقد عرف فريد من تجارب مصطفى كامل المبكرة أن عباسا كان يستخدم المال للسيطرة على الرجال والحركات السياسية ، والآن وقد

(١) مذكرات محمد فريد : ص ٣ ، أحمد شفيق : جـ ٢ ، مجلد ٢ ، ص ١٤٥

(٢) مذكرات محمد فريد ، ص ٣ وما بعدها ، عبد الرحمن الرافعى ، ص ٦٤

ذهب مصطفى فمن الممكن أن يحاول الخديو اجبار الوطنيين على التخفيف من مبادئهم الدستورية أو مطالبتهم بالاستقلال الناجز ٠ ففضل فريد أن ينفق ارثه على الحزب الوطني على أن يصبح دمية في يد القصر ٠

ولا يعني هذا أن « فريد » و « عباس » كانا على طرفي نقيض ، بل كان التقـــارب كبيرا بين شخصيتيهما ، وخلفيتهما الطبقية ، وحتى رغبتهما في الاستقلال الذاتي لمصر ٠ أما أهم اختلاف بينهما ، على الأقل سنة ١٩٠٨ ، فقد تمثل في أن « فريد » كان يعتقد أن تحرير مصر يجب أن يتقدم على أي هدف آخر ، وهي أيضا عقيدة سلفه الشهير ، وان تميز فريد عنه باستقلال مالي أتاح له أن يعول الحزب الوطني ، بعض الوقت على الأقل ، وقد حماه ذلك من الرضوخ لأي ضغط خارجي ٠

لقد استـطاع الخديو خـلال فترة حكمه التي استمرت ست عشرة سنة ، أن يضاعف ثروته دون أن يفقد كل رصيده الشعبي ، ولكنه لم يعد في موقف يسمح له بقيادة حركة معادية للبريطانيين كما فعل سنة ١٨٩٥ ٠ فقد حل محل كرومر أكبر خصومه ، وهو جورست الأكثر حنكة وصاحب خبرة سنوات طويلة من العمل في مصر ٠ واستغل جورست صداقته القديمة المتينة بعباس في اغرائه بانهاء علاقاته بالوطنيين حتى قبل أن يتـــــوفى مصطفى كامل ٠ وكان الخديو كلما ازداد اقترابا من البريطانيين تضاعفت شكوك الوطنيين فيه ، غير أنه وجد العوض في حريته المتزايدة (بموافقة جورســـت وان لم يكن بتشجيعه) في التصرف في أراضي الحكومة واحتكار الاوقاف التي وضعت تحت اشرافه ، وفي بيع الرتب والأوسمة ٠ وشيئا فشيئا أصبح الحزب الوطني يمثل في نظره تهديدا لمكانته السياسية ومصالحه المادية ٠ وكما فعـــل ابن أخيه بعد أربعين عاما ، ضحى عباس بشعبيته الســـابقة التي قامت على اقترانه الفاشل بالأهداف الوطنية على مذبح المال ، وربما مذبح الحب أيضا ٠

كانت شخصية سيرالدون جورست ـ وما زالت ـ موضع خلاف ٠ فقد رفضه كثير من البريطانيين العاملين في خدمة الحكومة المصرية لمحاولته تنفيذ سياسة حكومة الاحرار واعداد مصر سياسيا للاستقلال الذاتي ، ورأوا في جهوده لوضع مســـئوليات أكبر في أيدي المصريين تهـــديدا لانجازاتهم ، ونفوذهم ، وربما وظائفهم أيضا ٠ وبدا أن صداقة جورست للخديو ستنقل مركز النفوذ السياسي من قصر الدوبارة (مقر المندوب السامي) الى عابدين مرة أخرى ٠ وصدم اهماله للمظاهر والطقوس كثيرا من الانجليز الذين قارنوا بين كرومر بقبعته العـــالية وعربته الفارهة وجورست الذي كان يفضل ارتداء قبعة من القمـــاش ويمتطي دراجة

بخارية . كيف يمكن أن ينظر المصريون الى رجل كهذا باعتباره تجسيدا للوجود البريطاني ؟ واعتبر رفضه اتخاذ اجراءات حازمة لقمع الاثارة الوطنية ضعفا . أما ما فشل نقاده في رؤيته فهو نجاحه في اقناع الخديو بالتخلي عن تحالفه غير الطبيعي مع الوطنيين، فأضعف بذلك الحزب الوطني بطريق غير مباشر حين حرمه من عدد من أثرى مؤيديه وأقواهم نفوذا . لذلك فليس من الانصاف رفض جورست واعتباره فاشـــلا ، كما فعل معاصروه وواحد من المؤرخين على الأقل (١) .

أما الخطأ في سياسة جورست ، فهو أنه حين كسب الخديو الى جانبه خسر تعاون حزب الامة المعتدل الذى كان له أنصاره من بين الوزراء ، وأعضاء المجلس التشريعي ، والجمعية العمومية والهيئة القضائية . وترتب على فقد تأييد هذه المجموعة الصغيرة ذات النفوذ القوى مع ذلك ، المكونة من أثرياء المصريين ، الميالة الى الاصـلاح التدريجي ، اضـعاف سياسة جورست في نقل مركز السلطة (وكان من الممكن نبذها لأسباب أخرى) ، وكذلك تبديد كثير من النوايا الحسنة ، التي كانت لا تزال موجودة بالرغم من دنشوى ، بين الانجليز والمصريين ، ولذلك فقد انبثقت معظم قيــادات ثورة ١٩١٩من بين صفوف حزب الامة .

أما الزعيم الجديد للحزب الوطني فقد وجه جل اهتمامه للمحافظة على حيوية الحركة ، ثم بعد ذلك تحويل ذلك الشعور العام بالحزن على فقد الزعيم المحبوب الى ولاء دائم للمبادىء التي نادى بها . وكان من الطبيعي أن يوجه الوطنيون جانبا كبيرا من وقتهم وجهودهم لتخليد البطل الراحل ، ولكن كان عليهم في الوقت نفسه أن يثبتوا للعالم أن حركتهم كانت أكبر من مجرد امتداد لشخصية مصطفى كامل . اســتهل فريد رئاسته للحزب بارســال برقية الى سير ادوارد جراى (وزير خارجيه بريطانيا) يعلن فيها انتخابه واصراره على المضي في طريق ســلفه حتى تفي بريطانيا بوعودها بالجلاء عن مصر ، (٢) كما أرســل برقيتين الى الخديو ووزير الحقانيــة يطالبهما بالغاء المحكمة المخصوصة التي حاكمت أبناء قرية دنشواى (٣) . وفي أوائل مارس افتتح الحزب الوطني ناديه

---

(١) Ahmed, p. 76

(٢) FO 371/449. من محمد فريد الى سير ادوارد جراى ، القاهرة في ٤ فبراير ١٩٠٨ ، عبد الرحمن الرافعي : ص ٤٥

(٣) المصدر السابق : ص ٤٧ ، « اللواء » ، ٢٥ فبراير ص ٤٥

الذى يقع فى أحد شوارع القاهرة الرئيسية (١) ٠

وجه فريد الدفعة الأولى من نشاطه السياسى لاقناع الخديو باعادة دستور سنة ١٨٨١ الذى ألغى بعد هزيمة عرابى ٠ وكان دستور مصر القائم ، أو القانون التأسيسى لسنة ١٨٨٣ يسمح بقيام عدة مجالس شبه نيابية ، ولكن بلا سلطة تشريع وطنية حقيقية ٠ ومع أن القانون التأسيسى قصد به أن يكون أساسا انتقاليا لقيام نظام نيابى ، فانه ظل ربع قرن دون أى تعديل ٠ وكجزء فى برنامجه الاصلاحى اقترح جورست زيادة صلاحيات مجالس المديريات ، مستندا الى النظرية القائلة بأن تطوير المؤسسات الديمقراطية ينبغى أن يبدأ على المستوى الاقليمى ٠ واعتبر الوطنيون خطة جورست حيلة المقصود بها صرف اهتمام الرأى العام عن هدفه فى قيام نظام برلمانى وطنى ٠ ولم يطالب الوطنيون وحدهم بل ومعهم كل الأحزاب التى تكونت سنة ١٩٠٧ ، بمجلس تشريعى ينتخب انتخابا شعبيا ، اذ كانت غالبية المصريين المستنيرين سياسيا تعتقد أن الديمقراطية البرلمانية هى أساس قوة أوربا ، كما كان الوطنيون يتصورون أن من مزايا قيام برلمان أنه سيمكن ممثلى الشعب من استخلاص السلطه من أيدى الوزراء المصريين الخاضعين لسيطرة البريطانيين ٠ وحتى الجمعيه العمومية المجردة من كل سلطة تقريبا أصدرت فى مارس ١٩٠٧ قرارا تطالب فيه بالدستور ، فلم يرد عليها الوزراء المصريون الا بعد أحد عشر شهرا قائلين :

« ترى الحكومة أن الوقت لم يأت بعد لتشكيل مجلس النواب ٠٠ ولكنها تشتغل الآن فى توسيع اختصاص مجالس المديريات ٠ » (١)

وكرد فعل لهذا الرد الذى اعتبره الوطنيون « اهانة للامة » ، بدأوا بحركة جمع للتوقيعات على عريضة الى الخديو تطلب اعادة الحكومة النيابية ٠ ونجحت حملتهم فى أن تصبح موضوعا للنقاش فى مجلس العموم البريطانى ، حيث صرح جراى بأن الخديو لا يستطيع أن يمنح

---

(١) لعل الذى أوحى بفكرة النادى هو حزب على يوسف المسمى « حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية » الذى ذكره الكساندر (Alexander : p. 28) ٠ وكان يسمح بالالتحاق بنادى الحزب الوطنى للأعضاء الذين يدفعون اشتراكا قدره ثمانية جنيهات بالنسبة للمقيمين بالقاهرة ، وأربعة لغيرهم ، وفقا لما نشر « باللواء » فى ٢٥ فبراير ١٩٠٨ ، وأصبح النادى المكان الثابت لاجتماعات اللجان الفرعية وبقية أعمال الحزب الروتينية ٠

(٢) عبد الرحمن الرافعى : ص ٥٧ ٠

Hansard, 4th series, House of Commons, CLXXXVII

شعب مصر دستورا أو مجلسا نيـــابيا دون استشارة الحـــــكومة البريطانية (١) • واحتج محمد فريد على هذا التصريح ببرقية أرسلها الى وزارة الخارجية البريطانية ، وبمقـــالات نشرها « باللواء » طالب فيها باستقالة الوزراء المصريين ، لأن هذا أفضل من قبولهم سـلب بريطانيـا لحقهم فى تقرير المستقبل الدستورى لبلادهم • ان الخديو ، حاكم البلاد الشرعى ، هو الذى يملك وحده أن يمنح الدستور ، وفريد يرجو أن يستجيب سموه ، رغم سياسة الوفاق ، لمطالبة الشعب بالدستور •

وفى أول خطبه الهامة ، وقد ألقاها فى ابريل ، أعاد فريد تحديد موقف حزبه :

« أننا لا نطلب الدستور من انجلترا ، بل نطلبه من حاكم البلاد الشرعى •• اذا كان لا يستطيع منحنا مجلسا نيابيا الا بعد استشارة بريطانيا ، وكان قبولها شرطا واجبا ، فنحن نعلن جهارا بأننا نفضـــل عدم الحصـــول على الدستور مؤقتا على أن نأخذه بهذه الصفة التى يكون من ورائها القضاء المبرم على استقلال البلاد • »

وواصل فريد ابراز الهوة الآخذة فى الاتساع بين الحكومة والشعب ناقدا الخديو لعلاقاته الوثيقة بجورست ، والوزراء لخضوعهم ، داعيـــا المصريين الى الاتحاد فى تأييد حملة الوطنيين من أجل الدســـتور (٢) • وفى مايو كان ٤٥٫٠٠٠ مصرى قد وقعوا بأسمائهم أو طبعوا أختامهم على العريضة (٣) ، وباستثناء موكب جنازة مصطفى كامل ، فقد كانت تلك الاستجابة لدعوة فريد أقوى شهادة حتى وقتذاك على زيادة شعبية الحركة الوطنية فى مصر •

غير أن « فريد » مهما حاول التنديد بتلك الحقيقة ، فقد كان يعلم مع ذلك أن القدرة على تغيير نظام الحـــكومة فى مصر كانت فى يد البريطانيين لا المصريين • وكان يريد اثارة الجماهير لاقناع الحكام اذا استطاع ، ولكن دون أن يطيح بهم • من هنا كانت باريس ولندن هما المسرح الرئيسى لحملات الوطنيين من أجل استقلال مصر • ورغم أنه منذ

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : ص ٥٢ وما بعدها ، « اللواء » ، ٥ و ٨ و ١١ ابريل ١٩٠٨

(٢) النص الذى وصفه الكساندر (Alexander : p. 148) والذى دعا فيه الوطنيين الى تجنب استخدام القوة لا يكاد يشبه ما قاله فريد فعلا كما أورده عبد الرحمن الرافعى : ص ٥٤ وما بعدها ، و « اللواء » ، ١٨ أبريل ١٩٠٨ •

(٣) « اللواء » ، ٢ مايو ١٩٠٨ ، الواقع أن مجموعهم بلغ ٧٥٫٠٠٠ •

الاتفاق الودى لم تطلب أى دولة أوربية بشكل جدى جلاء بريطانيا عن مصر ، فقد ظل الوطنيون يؤملون أن يستطيع الرأى العام الحر ان يدفع حكومة أوربية أو أكثر الى تأييدهم • وبالنسبة لحزب يدير شئونه محامون كانت دعوات الشرعية أهم من حقائق القوة ، والعبارات محكمة الصياغة (بلغة ممتازة لا تكاد تفترق عن فرنسية الباريسيين) أكثر اقناعا من التهديد بالثورة أو العنف (*) • وكما وفق مصطفى كامل ، من وجهة نظر الوطنيين ، بخطبه فى لندن ومقالاته فى باريس ، الى اسقاط كرومر ، أصبح من واجب فريد الآن أن يسافر الى أوربا ليواصل حملته من أجل الدستور وانسحاب القوات البريطانية من مصر •

وفى أوائل مايو أبحر « فريد » الى فرنسا ، حيث التقى بجولييت آدم ، وبيير لوتى ، ويوجين كالمت (رئيس تحرير « الفيجارو ») وغيرهم من المعجبين بسلفه • وفى انجلترا أجرى معه رئيس تحرير « المانشستر جارديان » فى لندن حديثا حقق دعاية طيبة لبرنامج الوطنيين (١) • وكذلك قابل « فريد » جون روبرتسون رئيس اللجنة البرلمانية للمسألة المصرية الذى كشف عن عدم فهمه لطبيعة الوطنية المصرية حين دعا الحزب الى التنازل عن مطلبه بجلاء القوات البريطانية فى مقابل الحصول على الدستور • ورفض فريد نصيحته التى وصفها فيما بعد بأنها حيلة للنيل من شعبية الحزب تمهيدا لتحويله الى أداة فى أيدى البريطانيين كحزب الأمة (٢) • وكان أعضاء البرلمان من الايرلنديين أكثر تعاطفا من الانجليز المتطرفين • فحاول جون ردموند الزعيم الوطنى الايرلندى اقناع سير ادوارد جراى بمقابلة فريد ، ولكنه لم يوفق اذ أجاب وزير الخارجية بأنه سبق له أن رفض مقابلة مصطفى كامل ولا يرى سببا يدعوه لمقابلة خليفته (٣) • والواقع أنه حتى وفد المصريين المعتدلين الذى هاجمته الصحافة الوطنية لاقتصار مطالبه على الاصلاحات الداخلية فشل فى الفوز بالعطف الرسمى فى لندن (٤) • فقبل سنة ١٩١٩ كان من النادر

---

(١) Alexander : p. 161

(٢) مذكرات محمد فريد : ص ٥٠

(٣) Blunt : « My Diaries » : p. 617

(٤) Alexander 168. كان يرأس تلك البعثة من المستشارين التشريعيين اسماعيل اباظة (عضو حزب الامة الذى أصبح فيما بعد وطنيا) وكانت تضم من الوطنيين : محمود سليم وعبد اللطيف الصوفانى • وقد اعتبر فريد وفد أباظة مؤامرة دبرتها السراى =

(*) لم يغفل الحزب الوطنى ، وعلى الأخص محمد فريد ، الوسائل الثورية تماما ، اذ الثابت تاريخيا ان الحزب الوطنى لم يكن منقطع الصلة بالشبان الذين استعملوا السلاح ضد الانجليز وأعوانهم •

آن يتعامل أى مسئول بريطانى رسمى فى لندن أو القاهرة علنا مع أحد الوطنيين ٠

لماذا تحولت وزارة الاحرار التى كانت متحمسة لحرية مصر شيئا فشيئا الى سياسة دعم الاحتلال البريطانى ؟

أولا ، وقبل كل شيء ، كان ازدياد قوة المنافسة البحرية مع ألمانيا يضخم فى نظر بريطانيا من قيمة القوة الاستراتيجية التى يحققها لهـا وجودها فى مصر ، وكان احساس « الاحرار » بالاثم من حادث دنشواى قد تلاشى مع مرور الوقت ، وبصفة خاصة بعد أن أفرج عن بقية المسجونين بقرار خديوى صدق عليه جورست ، كما كان من الواضـح أن بضعه اصلاحات مهدئة لن توقف تصاعد الحركة الوطنية ٠ ومن الناحية الداخليه كانت الأغلبية القوية التى تمتع بها « الاحرار » فى مجلس العموم ذات يوم آخذة فى الانكماش نتيجة لفشلهم فى عدة انتخابات تكميلية ٠ وأخيرا فان وفاة رئيس الوزراء سير هنرى كامبل سنة ١٩٠٨ ، وكان على قـدر من التطرف ، جعلت الثلاثى الاستعمارى المكون من اسكويث ، وجراى وهالدين ، يسيطر على مجلس الوزراء ٠ فأصـبح التعبير عن العطف الأفلاطونى على الوطنية المصرية أمرا لا غبار عليه ، ولكن بشرط ألا يصل بالوطنيين الى تقديم مطالب محرجة « للأحرار » ٠

وأكدت زيارة الخديو للندن ذاك الصيف ، وكانت الأولى بعد حادث دنشواى ، مقدار البغض المتزايد بين السراى والوطنيين ٠ غير أن حادثا غير متوقع بعث دفعة جديدة فى قضية الدستوريين وحول اهتمامهم من « عابدين » الى « يلدز » ، وهو ثورة أعضاء « تركيا الفتاة » التى أجبرت السلطان عبد الحميد على اعادة الدستور العثمانى بعد ايقافه الطويل ٠ ورغم أن الوطنيين كانوا بشكل عام يؤيدون السلطان ويهاجمون « جمعية الاتحاد والترقى » (تركيا الفتاة) ، فسرعان ما داروا على أعقابهم بعد الانقلاب (١) ٠ فمن الطبيعى أن يبتهجوا ، وان تشككوا فى البداية (٢) ،

= للتقليل من نفوذه ، وهاجمها فى خطبته بالاسكندرية فى ١٥ أغسطس ١٩٠٨ ، ومثله فعل « **اللواء** » فى ٩ أغسطس ١٩٠٨ ٠ أما أعضاء الحزب فقد انقسـموا فيما بينهم بشأنها ، وارسل بعضهم خطابات تأييد للبعثة الى « **اللواء** » واهم ما فى الأمر أن بعثة اباظة لم تحقق شيئا ٠

(١) FO 371/449 ، من رونالد جراهام الى جراى ، الاسكندرية فى ١٢ أغسطس ١٩٠٨ ٠

(٢) سيد سى : « السابحون فى الخبال » ، « **اللواء** » ، ٢٢ يوليو ١٩٠٨ ، وهو ينقد رسالة بعث بها رفيق العظم ونشرت فى عدد ١٩ يوليو ، وتتضمن وصف الانقلاب المقدونى الذى ساعد على قدح شرارة انقلاب جماعة الاتحاد والترقى بعد ذلك سنة ١٩٢٣

لاعادة الدستور العثمانى ، الذين رجوا أن يشد أزر حملتهم ، بل لقد ذهب بعضهم الى حد المطالبة بأن يكون لمصر ممثلين فى البرلمان العثمانى باعتبارها احدى ولايات الامبراطورية وان تميزت بوضـع خاص (١) ·
أما حماسة الوطنيين التى عبرت عنها احتفالاتهم فى طول البلاد وعرضها بعيد جلوس السلطان ، فلا شك أن مصدر قوتها هو احساسهم نحو الجامعـة الاسـلامية (٢) · وأيا كان الأمر فقد كان لا بد من مرور بعض الوقت قبل أن يستطيع زعماء تركيا الفتاة الاهتمام بقضية الوطنيين ·

ماذا كان تأثير الانقلاب على الخديو عبـــاس ؟ ان اقامته الطويلة باستامبول (عقب زيارته للندن) بعثت الآمال فى أنه نصح بتطبيق الدســتور العثانى فى مصر (٣) · ولكنــه ما ان عاد الى مصر فى أواخر سبتمبر حتى فوض أحمد شــوقى (٤) المتحدث باسمه ليدلى بتصريح الى « المؤيد » بأنه لا يمكنه ، رغم عطف الدستوريين ، أن يقوم بأى تغيير جذرى فى حكومة مصر دون موافقة بريطانيا ·

واذا كان الوطنيــون قد ألفوا صـــدور مثل هــذه التصريحات من البريطانيين الرسميين ، فقد أذهلهم أن يسمعوها من الناطق باسم الخديو خاصة وهو الشاعر الذى لم يمض على رثائه لمصطفى كامل أكثر من سبعة أشهر · ورد فريد بمقال فى « اللواء » اتهم فيه عباسا بأنه أيد الوطنيين

---

(١) « اللواء » ، ٤ اغسطس ١٩٠٨ ، والمعتقد ان مصدر هذا الاقتراح هو الشيخ على يوسف ·

(٢) وفقا لما جاء فى « اللواء » ، فى ٣ و ٤ ســبتمبر ١٩٠٨ ، اقيمت الاحتفالات بالاسكندرية ، واسوان ، واسيوط ، وأبو كبير ، وبنها ، ودمياط ، والقناطر الخيرية ، ومحافظة الغربية · والحبانية ، وكفر الزيات ، وكوم الشيخ ، والمنصورة ، والمنيا ، ومنيا القمح ، وبور سعيد ، وقسم السيدة زينب بالقاهرة · ولا أذكر مناسبة أخرى فى التاريخ الحديث شارك فيها مثل هذا العدد الكبير من المصريين فى مظاهرات سياسية لتكريم حاكم غير مصرى · وكما حدث فى بقية الامبراطورية ، نســب الناس الى الســلطان عبد الحميد فضل اعادة دستور ســنة ١٨٧٦ ، مع ان الحقيقة أن تركيا الفتاة هى التى أجبرته على اعادته ·

(٣) Alexander : 179.

(٤) كان شوقى الشاعر المشهور شديد التعصــب للخديو فى آرائه الســياسية · وكثيرا ما لقب « بأمير الشعراء » ، وكان الأنسب ان يسمى « شاعر الأمراء »

ليتخلص من كرومر ، ثم غير سياسته بعد أن حل جورست مكانه (١) . وصدم تعريض فريد الجرىء الخديويين ، بل كثيرا من الوطنيين المعتدلين ، ولكنه مضى فى الاسبوع التالى يكتب هجوما أعنف (٢) . وهكذا تمت القطيعة بين عباس وفريد .

عاد الخديو الى القاهرة فى أول نوفمبر ، فحيته مظاهرات وطنية تطالب بالدستور ، فتجاهلها ، وتعمد — لأول مرة منذ دنشواى — أن يحضر استعراض الجيش البريطانى فى مناسبة عيد ميلاد الملك (٣) ، ثم توج سياسة الوفاق بتعيين بطرس غالى رئيسا للوزراء مكان مصطفى فهمى المريض وكان يكرهه ، فى حين كان بطرس مكروها من الوطنيين ، لا لأنه مسيحى فحسب (*) ، بل لأنه كان يجاهر بتعاونه مع البريطانيين ، وهو الذى وقع اتفاقية الحكم الثنائى للسودان ، ورأس محكمة دنشواى . وعلى الفور بدأ الوطنيون اطلاق نيرانهم ، وان ظل موقفهم العام أقرب لخيبة الأمر الحذرة . (٤) فلا شك أن مصطفى فهمى ظل رئيسا للوزراء عدة سنوات متعاونا مع البريطانيين ، غير أن الوطنيين كانوا يعتقدون أن كرومر هو الذى فرضه على الخديو ، أما بطرس فقد اختاره عباس بمحض

---

(١) محمد فريد : « ماذا يقولون ؟ » ، « اللواء » ، ٢٨ سبتمبر ١٩٠٨ ، وله ترجمة بجزئيه فى . FO 371/452 ، من جرا هام الى جرين ، القاهرة فى ٣ أكتوبر ١٩٠٨ ، رقم ٩٩ .

(٢) « اللواء » ، ٤ أكتوبر ١٩٠٨ .

(٣) Alexander : p. 190f. ، عبد الرحمن الرافعى : ص ص ٧٧ — ٧٩ .

(٤) كتب فريد : « نحن لا نبدى رأيا فى سعادة الرئيس الجديد ، بل نجتهد فى نسيان ماضيه ، ونأمل أن يمحو بخدماته الجديدة ما نقش فى الأذهان من تأثير أعماله الماضية ، ونحكم على أعماله فى مركزه الجديد . » ، « اللواء » ، ١٤ نوفمبر ، عبد الرحمن الرافعى : ص ٨١ .

(*) لم يكره المصريون بطرس غالى لمسيحيته قط ، أو على الأصح لقبطيته ، ولم يحدث أن كره المصريون رجلا عاما أو سياسيا ذا شأن لأنه قبطى ، وانما كرهوا الساسة المسلمين والمسيحيين على السواء اذا سايروا السياسة البريطانية وأذعنوا للمندوب البريطانى ، وقد أطلق الشبان الوطنيون الرصاص على وزير قبطى واحد هو يوسف وهبه باشا ، وعلى أكثر من عشرة وزراء مسلمين يحملون اسم محمد مثل محمد توفيق نسيم ، ومحمد سعيد باشا ، ومحمد شفيق باشا ، فضلا عن اسماعيل سرى باشا ، كما شرعوا فى قتل ابراهيم فتحى باشا خلال الحرب العالمية الأولى ، والسلطان حسين كامل .

رغبته • (١) لذلك فقد أصبح من الواضح أن الخديو قد قطع كل صلة له بالحركة الوطنية •

(١) كثير من المصريين وبعض الأوربيين يتهمون جورست خطأ باحداث انقسام فى الحركة الوطنية بتعيينه قبطيا رئيسا للوزراء ، انظر على سبيل : Max Montesole : «The British in Egypt», "Tontnightly Review,» XCIV, 3 (September 1910), p .410 F.

فالواقع أن الخديو هو الذى عين بطرس غالى ، ويكتب أحمد شفيق فى مذكراته (جـ٢ ، مجلد ٢ ، ص ١٥٩ وما بعدها) أن جورست حاول اقناع الخديو بعدم اختيار بطرس غالى على أساس أن ديانته القبطية ستثير ضده الغالبية المسلمة فى مصر ، ولكن «عباس» أصر على تعيينه • وتؤكد ذلك المراسلات الدبلوماسية البريطانية انظر FO 371/452 من جورست الى جراى ، القاهرة فى ١٠ نوفمبر ١٩٠٨ ، برقية رقم ٦١

الشيخ جاويش والأقباط

أدى النفور بين الخديو والوطنيين الناتج عن مهادنة جورست لعباس وانفصال فريد عنه ، الى أن انسحب من الحزب كثير من المصريين الذين تنتهى وطنيتهم عند أبواب السراى · (١) فساعد ذلك الحزب على التخلص من المحافظين الذين كانوا يثقلون حركته ، ومن ثم حلق فى آفاق جديدة من النضال · وظهر داخل الحركة أفراد قرنوا — فيما يبدو — بين الثورة والتعصب الاسلامى ·

وهذا النضال المتصاعد لم يكن ببساطة نتيجة لسياسة جورست كما أكد بعض النقاد البريطانيين المعاصرين ، ولا لقلة خبرة فريد وتذبذبه (٢) ، ولكنه كان نتيجة للتنافس بين الأحزاب المصرية وصحفها على الفوز بتأييد الرأى العام ، وللصراعات الطائفية التى نشبت بين الوطنيين عقب وفاة مصطفى كامل ·

ورغم أن الصراع على زعامة الحزب كان قد حسم لمصلحة فريد ، فقد عهد بادارة « اللواء » الى على فهمى كامل · وحين نتذكر أهمية «اللواء» بالنسبة للحزب الوطنى تبدو هذه التسوية اجراء لايساعد كثيرا على الاستقرار · وسرعان ما تعرضت كل صحف الحزب لمشكلات التمويل وتصرفات هيئة تحريرها ، فاستقال أحمد حلمى (١٨٧٥ — ١٩٣٦) أقدر محررى « اللواء » فى ابريل ١٩٠٨ ، ربما لانه لم ينصب رئيسا

---

(١) من امثال مؤسسى حزب « النبلاء » المنشق ، وهم حسن حلمى وثابت فرج الجرجاوى ، Alexander : p. 184f., Landau : p. 144.

(٢) Ahmed : p. 77f., Marlowe : p. 201

لتحريرها (١) ، ونشر مقالا في صحيفة منافسة ينقد فيه سياسة الحزب بعد وفاة مصطفى كامل ، ويعلن اختلاف الزعماء الوطنيين مع « اللواء » (٢) ، ثم ما لبث أن بدأ يصدر جريدة « القطر المصرى » ، فاذا بها أقوى فى حملاتها الوطنية من « اللواء » نفسه ، كما كانت تهاجمه بين الحين والآخر ٠

وأتاحت المشكلات المالية التى خلفها مصطفى كامل الفرصة لفريد كى يحكم سيطرته على « اللواء » ٠ ولما كان مصطفى قد توفى و « اللواء » مثقلة بالديون ، فقد وضعت (كمثيلتيها الاوربيتين منذ نشأتهما) تحت اشراف شركة رأسمالها ٠٠٠ر٤٠ جنيه ٠ اشـــترى ثلاثة من الوطنيين (عمر سلطان ومحمد شريف وفريد) نصف الأسهم ، وخصص الباقى لأشقاء وشقيقات مصطفى كامل الباقين على قيد الحياة ٠ غير أن « فريد » و « عمر لطفى » جلبا مساهمين اضافيين فســـيطرا بذلك على مجلس الادارة أيضـــا (٣) ، ثم بدأ ابعـــاد على فهمى كامل بالتدريج عن الادارة الفعلية « للواء » ٠ وقبل أن تمضى ســـــنتان كان ورثة مصطفى كامل يقاضــــون شركة « اللواء » وينجحون فى حرمان الحزب من لسانه المعبر (٤) ٠

وردا على هجمات « القطر المصرى » و « المؤيد » قرر محمد فريد تقوية « اللواء » بتعيين رئيس تحرير جديد بدلا من أحمد حلمى وينافس الشيخ على يوسف فى شعبيته ، واختار مفتشا مصريا بالتعليم الابتدائى من أصل مغربى ، وهو الشيخ عبد العزيز جاويش (١٨٧٦ ـ ١٩٢٩) الكاتب الخبير فى الشئون الاســـلامية والتربوية (٥) ، وكان يحظى منذ

---

(١) أحمد أحمد بدوى : « احمد حلمى » ، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة ، ١٩٥٧ ، ص ٥٦

(٢) « اللواء » ، ٧ ابريل ١٩٠٨ ،
Sladen : "Egypt and The English", pp. 147-149;

(٣) مذكرات محمد فريد ص ١٠ ٠

(٤) انظر فيما بعد الفصل السادس ٠

(٥) الشيخ عبد العزيز جاويش (١٨٧٦ ـ ١٩٢٩) أو شاويش (كما ينطق بالعربية) أبوه تونسى وأمه تركية ، نشأ بالحى المغربى بالاسكندرية ٠ وبعد أن درس بالأزهر ودار العلوم عمل فترة قصيرة مدرسا للغة العربية بمدرسة الزراعة ، ثم أرسلته نظارة المعارف العمومية للدراسة بكلية « بارو رود » لاعداد المدرسين بلندن ٠ على الرغم من أنه وصل الى لندن وهو لا يعرف غير العربية ، فقد استطاع اتقان اللغة الانجليزية بدرجة جعلته يعين عند عودته الى القاهرة سنة ١٩٠١ مفتشا لتعليم اللغة الانجليزية (بالاضافة الى بعض المواد الأخرى) بالمدارس الحكومية ٠ ونشر سنة ١٩٠٣ كتابين عن مناهج التعليم : « غنية المؤدبين فى الطرق الحديثة للتربية والتعليم » و « مرشد المترجم » ٠ وعاد الى =

سنوات باعجاب مصطفى كامل وفريد باعتباره من ألمع منتقدى الحكم البريطانى ، حتى لقد عرضا عليه من قبل رئاسة تحرير «اللواء» ، ولكنهما لم يستطيعا قبول طلبه عقدا مدته خمس سنوات (١) . أما فى ابريل ١٩٠٨ فقد كان فريد مستعدا لقبول هذا الشرط خلال بحثه عن التأييد ضد انشقاق على فهمى كامل عليه . ويقال ان « جاويش » كان حاقدا على سعد زغلول لانه تخطاه وقدم عليه أحد أقربائه فى ادارة مدرسة القضاء الشرعى الجديدة ، (٢) فما كان منه الا أن قبل عرض « فريد » واستقال من وزارة المعارف . وقد وضح لمفتش انجليزى من زملائه أنه لا يكن له أى عداء شخصى ولكنه مصر مع ذلك على مهاجمة الحكم البريطانى لتنال مصر استقلالها (٣) .

ولم يكن جاويش بحاجة الى وقت طويل لاثبات وجهة نظره ، فبعد مقال افتتاحى عاطفى عالى النغمة ، وهب فيه حياته وقلمه لقضية تحرير مصر ، (٤) نشر عدة مقالات فى الهجوم على سعد زغلول (٥) ، ومقالين فى وصف فتنة « الكاملين » بالسودان ، (٦) ختمهما بوصف للمحاكمة ، والأحكام التى صدرت ، وتنفيذ أحكام الاعدام فى الزعماء . وفى هذا

= انجلترا سنة ١٩٠٣ ليعمل مدرسا للغة العربية باكسفورد . وخلال السنوات الثلاث التى قضاها هناك كتب أشهر مؤلفاته : « الاسلام دين الفطرة » الذى تبلور فى ذهنه خلال محاولاته لتصحيح المفاهيم الخاطئة عن الاسلام لدى تلاميذه . وسنة ١٩٠٦ قبل وظيفة مفتش التعليم الابتدائى ، وظل محتفظا بها حتى عين رئيسا لتحرير « اللواء » . وأهم السير التى كتبت عنه هى :

أنور الجندى : « عبد العزيز جاويش » ، سلسلة أعلام العرب ، رقم ٤٤ ، القاهرة وزارة الثقافة والارشاد القومى ، ١٩٦٥ ، حسن الشيخة : « عبد العزيز جاويش » ، القاهرة ، الموسوعة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٦١ ، عبد المنعم خفاجى : « قصص من التاريخ » ، القاهرة ، مطبعة المنيرة ، ١٩٥٤ ، وانظر أيضا مقدمة ناصر جاويش لكتاب أبيه « الاسلام دين الفطرة » ، طبعة دار الهلال .

(١) مذكرات محمد فريد : ص ٤٥ وما بعدها ، وفريد لم ينصفه تماما ، اذ لم يكن من المعقول أن يتوقع من رجل بلا موارد أن يجازف بدخل أسرته الثابت ويغامر بقبول مثل هذه الوظيفة .

(٢) عباس محمود العقاد : « سعد زغلول » ، ص ١٣٣ وان كان من الضرورى تحذير القارىء من أن العقاد لم يستثمر أى قدر من الحب لجاويش .

(٣) Bowman : « Middle East Window », p. 76f.

(٤) « اللواء » ، ٢ مايو ١٩٠٨ ، عبد الرحمن الرافعى :ص ٥٥ وما بعدها

(٥) « اللواء » ، ٩ و ١٠ و ١١ و ٢٥ مايو ١٩٠٨

(٦) « اللواء » ، ٥ و ١٢ مايو ١٩٠٨

المقال الاخير المعنون « دنشواى أخرى فى السودان » قرر أن السلطات البريطانية لكى تنتقم لحياة ضابطين ، أحدهما انجليزى ، ذبحت أثناء الفتنة ، وأعدمت سبعين فلاحا سودانيا ، وسجنت ثلاثين ، وعلق جاويش قائلا :

« لا شك أن الثورة ذنب عظيم ، ولكن العقوبة المقابلة رهيبة ، وهى لا تليق بأى أمة متمدينة الا أن تكون أكثر توحشا من قبيلة متوحشة .. فلا شىء يثير الانجليز أكثر من تهجم بعض مستعمراتهم عليهم ، لأنهم يعتقدون أنهم السادة وأهل البلاد عبيد لهم . وقطرة دم انجليزى تساوى فى نظرهم أكثر من أنهر الدم التى تسيل من الخاضعين لحكمهم » (١) .

واضح أن أحدا لم يلتفت الى أن أحد الضابطين القتيلين كان مصريا وأن الفلاحين المذنبين سودانيون ، فقد كان الجميع مشغولين بالبحث عن عمل بشع جديد لالهاب الرأى العام المصرى ضد الاحتلال البريطانى . وفى مثل هذه الاحوال لا تهم جنسية الضحية ، ففى العام التالى ستمجد « اللواء » طالبا هنديا شنق لانه قتل موظفا بريطانيا .

وأذاعت وزارة الحربية بيـــانا يقول ان محـــكمة « الكاملين » حكمت بالاعدام على اثنى عشر فقط لا سبعين وأن السجناء ثمانية لا غير . ورد جاويش فى اليوم التالى بأن الحكومة لم تكن لتنشر الأحكام لولا مقاله وأبدى شكه فى صدق وزير الحربية بالنسبة « لكمية احتقار الانجليز لحياة الآخرين والتفصيلات المخففة التى أذاعتها الحكومة المصرية وقت حادث دنشواى . » (٢) ففى سنة ١٩٠٦ قررت الحـــكومة المصرية ومستشاروها البريطانيون أن حادث دنشواى فتنة فلاحين مدبرة ، أثارها مهيجو الجامعة الاسلامية ضد ضباط بريطانيين فى زيهم الرسمى . ترى هل كان الوطنيون محقين — على ضوء هذه التجربة — فى التكهن بوقوع شرور أكبر قياسا على شرور أقل ؟ وهل تذكرت الحكومات العربية انكار بريطانيا وفرنسا فى البداية لدورهما فى دعم الحملة الاسرائيلية على سيناء ١٩٥٦ ، حينما ادعوا اشتراك بريطانيا وأمريكا فى حرب يونيو ١٩٦٧ ؟ لا شك أن الخداع السياسى يعدى .

---

(١) « اللواء » : ٢٨ مايو ١٩٠٨ ، والفقرة الواردة نقلا عن الترجمة الانجليزية المضمنة محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/447 ، من جراهام الى جراى ، الاسكندرية فى ٨ اغسطس ١٩٠٨ ، رقم ٨٢ .

(٢) « اللواء » ، ٣١ مايو ١٩٠٨ .

وسرعان ما قدم الشيخ جاويش للمحاكمة بتهمة نشر أنباء كاذبة والتشهير بوزير الحربية • ويوضح سير المحاكمة مدى ضعف سيطرة البريطانيين على القضاء المصرى ، ومن ثم اضطرارهم فيما بعد الى اللجوء الى الاجراءات التعسفية ضد الوطنيين • فكثيرا ما كانت جموع الوطنيين المحيطين بقاعة المحكمة يقاطعون بضجيجهم اجراءات المحاكمة • فحكم القاضى - ربما بتأثير الخوف - ببراءة جاويش من التهمة الأولى ، وبتغريمه مبلغا صغيرا لتهمة التشهير (١) • واحتفل الوطنيون بانتصارهم فجروا عربة الشيخ حتى بيته ، وقد أحاط بهم حشد من الشارع قلب بعض الموائد الموضوعة خارج مقهى ايطالى ، وتحرش بعدد قليل من المارة الأوربيين •

واستأنف الحكم كل من الدفاع والاتهام ، وفى النهاية برىء جاويش من التهمتين ، على أساس أنه لم يكن يعرف أن الأخبار كاذبة ، وبالتالى لم يتضمن نقده للحكومة سوء نية • (٢) وبدت البراءة نصرا للوطنيين شجعهم على المزيد من العنف • غير أن السلطات البريطانية التى أزعجها خضوع القضاء المصرى للرعاع بهذه الصورة الواضحة (*) بدأت تفكر فى وسيلة تكبح بها جماح الصحافة الوطنية (٣) •

ولم يفق « جاويش » مصطفى كامل و « فريد » فى ازعاج السلطات البريطانية والمصرية فحسب ، ولكنه استطاع أيضا أن يبعد الأقباط عن الحزب الوطنى (**) ، وكان مصطفى كامل قد جاهد فى سنواته الاخيرة

---

(١) 8371/447 ، من جراهام الى جراى ، رقم ٨٢ •

(٢) FO 371/451 ، من جراهام الى جراى فى ٤ أكتوبر ١٩٠٨ ، رقم ١١

(٣) انظر الفصل الخامس فيما بعد •

(*) يقرر المؤلف ان حكم براءة الشيخ جاويش كان بسبب خوف القضاة من غضب الجماهير ، وهو تقرير لا يقوم على سند فهو قول بغير دليل • والمؤلف لم يقرأ اسباب الحكم ولا ملف الدعوى ليتبين مدى سلامة الحكم وعدالته حتى يسمح لنفسه بان يتهم القضاة بما اتهمهم به •

(**) ان القول بأن الشيخ جاويش نجح فى ابعاد الاقباط عن الحزب الوطنى هو قول يلقى على عواهنه فان الشيخ جاويش لم يفعل شيئا ليزعج اخوانه الاقباط ، سواء اكانوا اعضاء فى الحزب او مواطنين عاديين • ولكن الذين اثاروا هذه الفتنة هم لانجليز ، ونجحوا - لفترة جد قصيرة - فى احداث شعور بان انقساما ما وقع بين الاقباط والمسلمين وهذه كانت امنيتهم منذ وضعت جيوش الاحتلال اقدامها على ارض مصر فان المستعمرين سواء كانوا بريطانيين أو فرنسيين او هولنديين ، فى مصر او الهند او الهند الصينية أو الجزائر ، يحبون أن يلعبوا على وتر العصبية الطائفية ، وان =

= يبعثوا الحانا مثيرة لمشاعر الاغلبية ، لتنقلب على الاقلية وتعصف بها ، ولكن ضيع على الانجليز المحتلين هذه الاحلام القبيحة امران :

اولا : طبيعة الشعب المصرى الوادعة المسالمة الكارهة للعنف .

ثانيا : متانة العلاقة بين الاقباط والمسلمين على مدى الحقب والدهور ، فالطائفتان تعيشان فى القرى ، والمدن ، دون أن يحس احدهما بأن الآخر من طائفة غير طائفته يلبسون نفس الملبس ويتكلمون نفس اللغة ، بنفس اللهجة ، ويمارسون نفس العادات . وقد حدث هذا الوفاق النادر طويل العمر فى فترات ساد فيها الجهل ، وفشت الخرافات ، وضعف الفهم الدينى الصحيح عند الطائفتين .

اما الشيخ عبد العزيز جاويش فرجل بحكم ثقافته وعلاقته الطويلة العملية والثقافية بالانجليز ببلادهم وبمصر ، وبحكم مزاجه وسماحته ، أبعد الناس عن أن يكون داعى الفتنة . فقد وقع عليه الاختيار ليتلقى العلم ، بعد أن أتم دراسته العليا فى دار العلوم ، فى جامعة (برو رود) بلندن وهى جامعة خاصة بالتربية والمربين ، ثم ما لبث حتى وقع عليه اختيار جامعة (أكسفورد) ليكون مدرســا لغة العربية فيها لطلاب الجامعة الراغبين فى التزود بمعرفة لغة القرآن وآدابها . ورجل يختلط بالانجليز المســيحيين ، ويعمل معهم ، ويتبادل وإياهم الرأى لا يمكن أن يكون رجلا متعصبا عصــبية الجاهل المتطرف بغير علم أو فهم

ومقدمات فتنة سنة ١٩٠٨ تدل على أن الشيخ عبد العزيز جاويش لم يسع اليها ، ولم ينفخ فى نارها ، فقد بدأت بمقالات نشرها جندى ابراهيم صاحب جريدة « الوطن » شكا فيها من سوء معاملة الاقباط ومن مظالم تقع عليــهم ، ثم ينشىء بعد ذلك اخنوخ فانوس « جمعية الاصلاح القبطى » لنفس الغرض ، فيتصدى له المحامى الكبير الأســتاذ ويصا واصف ويهاجم مساعيه ، فترد عليه جريدة «الوطن» وتسميه «يهوذا الاسخريوطى» . و « اللواء » طوال هذه الحملات صامت ، والشيخ جاويش لا يشارك فيها بحرف ، حتى كان عدد « اللواء » الصادر فى ٤ من يونية ســنة ١٩٠٨ فيحذر بمقال منه مواطنيه من مكائد ودسائس « السير جورست » ويقول فى هذا الصدد : « ها هو ذا السير جورست يريد أن يقدم لقومه قبل سفره الى لندره ما يثبت مهارته ، حتى اذا حط بها الرحال قال : هاأنذا قد نلت ما لم ينله سلفى ، ونجحت فيما فشل فيه أســتاذى . اذ حاول اللورد كرومر مرارا التفريق بين عنصرى الأمة ، وطعن المسلمين بالأقباط ، والأقباط بالمسلمين ، فلم ينجح ولم يفلح ولكننى تمكنت باشارة صغيرة منى الى فريق من صغار الموظفين أن أوجد الفرقة التى كان اللورد يجد وراءها ولا يصل » .

وحسب القارىء أن يقرأ هذه العبارات فى مقال ٤ من يونية ليدرك تماما :

أولا : أن الشيخ جاويش يحذر من فتنــة الدين بين طائفتى الأقباط والمســلمين ،

ثانيا : أنه يعتبر محاولة الخصومة والعداوة بين الأقباط والمسلمين مكيدة استعمارية . ان وقعت فهى لصالح الاستعمار وضد خير الوطن .

ثالثا : أنه ينوه بأن المصريين مسلمين وأقباط ، نجحوا بفضل وحدتهم أن يسدوا على الاستعمار سبيل مكائده ودسائسه . =

القومى ، وكانت كلمة السر بين أنصـــاره هى أنهم « مصريون قبل كل شيء » ، فاتضح فيما بعد أن روابط هذا المجتمع كانت واهية الى أبعـد حد • فحينما نشر جورست فى مايو ١٩٠٨ تقريره الاول بوصفه مندوبا بريطانيا وذكر فيه أرقاما تشير الى أن نسبة الاقباط بين موظفى الحكومة أكبر من نسبتهم بين المصريين ، فى حين كان تمثيلهم فى الجيش والوظائف الاقليمية ضئيلا ، بدأ كل من المسلمين والأقباط يطالبون بزيادة تمثيلهم فى القطاعات التى أحسوا أنهم مبعدون عنها • وضخمت صحافة القاهرة الخلاف بمعارك طائفية ، حتى غضب الشيخ جاويش لافتتاحية معاديه للمسلمين نشرتها جريدة « الوطن » القبطية ، فرد عليها قائلا :

= فهل يجوز بعد ذلك أن يتهم رجل هذه هى عقيدته ، وهذا هو ادراكه السياسى بانه اشعل الفتنة الطائفية ونفر الاقباط من الحزب الوطنى •

ولكن المكيدة كانت قد احكمت خيوطهـــا ، ولذلك بدأ كاتب يدعى فؤاد كامل فى الكتابة فى جريدة « الوطن » سلسلة من المقالات ملأها طعنا فى المسلمين ، فلم يحرك الشيخ جاويش ساكنا فلما تجاوز (فؤاد كامل) هذا كل حد ، وبدأ يهاجم الاسلام بقوله : « ان الاعتزاز بالقوة ، والاســتهتار بالضعيف هما الحجران اللذان بنى عليهما ما يسمونه مجد الاسلام » •

وهذا قول جارح خال من كل لياقة ومجاملة ، فضلا عن مخالفته للتاريخ ولما درج المستشرقون من خصوم الاسلام على الاقرار به للاسلام من حسن علاقته بغير المســلمين فى ظل جميع ممالك المسلمين فى الشرق والغرب • وكان لابد ان يرد على هذا الاجتراء الكاذب ، وقد يلتمس للشيخ جاويش العذر ، ان هو استعمل نبرة عالية فى رده ، فهـذا هو شأن المجادلات فى الصحف السيارة •

الا أن هذه العاصفة الصغيرة لم تكن سوى سحابة صيف ، اذ سرعان ما هدأت ، فلما احتفل الحزب الوطنى براس السنة الهجرية حضر الى مكان الاحتفال كل من الأستاذين مرقس حنا ويصا واصف ، وخطبا فى الاجتماع بما راب الصدع ، وجمع الشمل • وقال الشيخ جاويش فى ختام الاحتفال : « رب ضـــارة نافعة ، فلقد كان نتيجة تباعد الطرفين زمنا أن محص الله المخلصين للجمع بينهما ، فالطرفان لم يخلقا الا ليتحدا » •

هذا هو قول الحق فى شأن ما رمى به الشيخ عبد العزيز جاويش ظلما من انه فرق بين المسلمين والأقباط عامدا ، ونفر أبناء الصليب من ابنـاء الهلال ، فهذا عمل لم يخلق له هذا العالم السمح المؤمن بمصر كلها ، اقباطا ومسلمين • وهذا ما قاله بالضبط وهو يؤبن محمد فريد عندما مات فى برلين سنة ١٩١٩ • ولما رشح الشيخ جاويش نفسه لاحدى دوائر مدينة الاسكندرية كتب جندى ابراهيم صاحب جريدة «الوطن» مقالا طويلا حارا فى ٢١ من ديسمبر سنة ١٩٢٣ مؤيدا له وداعيا لانتخابه ، فسقطت تهمة التعصب عنه تماما •

« لقد كان الاسلام هو الذى خلصكم ، أيها الأغبياء ، من سيطرة اليونانيين بعد قرون طويلة من العبودية، كنتم خلالها تسخرون كالدواب ، وتهانون ، وتركلون . وبعد أن رحل اليونانيون ألقيتم بأنفسكم بين أيدى الاسلام ، فحفظ أرواحكم ، وحمى نساءكم وأطفالكم . ولو كان الاسلام ديانة من النوع الذى تصفونه به ، لكننم قد سحقتم وذريت بقاياكم أدراج الرياح لتتطهر التربة المصرية من أجسادكم . كان الاسلام جديرا بأن يقطع ألسنتكم من جذورها حتى لا تتكلموا ، ويبتر أصابعكم حتى لا تكتبوا . ولكنكم قبلتم سيادة الاسلام فحماكم ... لقد قضيتم ثلاثة عشر قرنا فى بلاد مسلمه حيث سمنتم وتضخمت ثرواتكم وممتلكاتكم . ولو أنكم عشتم ربع هذا الزمن لا أكثر مع الانجليز لاصبحتم مثل الهنود الحمر فى أمريكا ... ولو كنتم تابعين للملك ليوبولد لجدل من شعوركم حبالا وصنع من جلودكم أحذية ، ولانهالت الهراوات على أجسادكم ... لقد عشنا طويلا فى هذه البلاد وفقا لشرائع الاسلام ، اخوة فى الوطنية ، وجيرانا تتبادلون الزيارات والنصائح فما سبب هذا التغير فى موقفكم الآن ؟ لعلكم وقد رأيتم أن رجال الاحتلال يعتنقون نفس ديانتكم فكرتم أن تبيعوهم بلادكم وضمائركم لتبتروا كل علاقة لكم بنا بعد كل هذه القرون ؟ فمثل هذا يفعل الخونة والمارقون .. » (١)

أثار المقال عاصفة من الاحتجاج من المسلمين والأقباط على السواء ، ولم يقتنع غالبية الأقباط بتوضيح جاويش بأنه لم يهاجم المسيحية بل جريدة « الوطن » وحدها لهجومها العنيف على المسلمين . (٢) وأيا كان الدافع لكتابة المقال فقد كان كارثة على كاتبه الذى اكتسب شهرة لا تمحى كهجاء سليط ومتعصب دينى ، حتى لقد طغت هذه الشهرة على صفاته الأكثر ايجابية ، بل اتضح فيما بعد أن المقال كان كارثة أكبر على الوطنيين

---

(١) عبد العزيز جاويش : « الاسلام غريب فى بلاده » ، « اللواء » ، ١٧ يونيو ١٩٠٨

Alfred Cunningham : «Today in Egypt» London, Hurst and Blackett, 1912, pp. 245-249, Alexander : p. 164.

(٢) Alexander : p. 164

فقد اجتمعت اللجنة المركزية وأصدرت بيانا ينكر وجود أى انقسام بين طوائف الأمة ، وأن أى رأى قد يثير مثل هذا الانقسام لا يعبر الا عن كاتبه لا عن الحزب الوطنى الذى يهيب بجميع المصريين ، من مسلمين ومسيحيين ويهود ، أن يتحدوا فى العمل من أجل حرية بلادهم (١) ، ورغم ذلك فان كثيرا من الاقباط قرروا أن يخففوا من حماستهم للوطنيـة المصرية ، وبدأ الحزب يتحول تدريجيا الى كيان اسلامى خالص • أما أولئك المصريون الذين اعتقدوا أن الحركة الوطنية يجب أن تشمل جميع الطوائف فقد تحولوا الى أحزاب أخرى أو هجروا الاحزاب كلها (٢) •

ورغم تنصل الوطنيين فلعل مقال جاويش لم يكن مجرد تعبير عن رأيه الشخصى •

فالمصريون قلما يعترفون للأجانب بوجود حالة شك متبادل بين المسلمين والأقباط ، ولكن لا يطيل أجنبى المقام بمصر دون أن يسمع شـــكاوى الاقباط من تعصب المسلمين وتحيزهم ، أو همسات المسلمين حول «حذق» الأقباط أو عدم ولائهم المزعوم للمصالح الوطنية • وقد شـــكا عدد من المسلمين لكاتب هذه السطور من تفضيل المؤسسات والمدارس الاجنبيه والسفارات للأقباط بشكل واضح (٣) •

ان الأقباط ، باعتبارهم جماعة طائفية تعيش فى بلاد ظلت حتى القرن التاسع عشر تتحدد فيها الحقوق السياسية والمكانة الاجتماعية على أساس الانتماء الدينى ، كونوا لأنفسهم نمطا سلوكيا يضمن استمرار حياتهم ، ويحتكر خلال ذلك عدة حرف ومهن ، كمســك الحسابات • والتغيرات العنيفة التى أحدثها حكم محمد على والاحتلال البريطانى مكنت عددا من الأقباط من تحسين وضعهم الاقتصادى والاجتماعى • فقد قضى محمد على على كثير من القيود المفروضة على الأقباط ، فوصل بعضهم خلال حكم خلفائه الى مناصب كبيرة ، بل مناصب عسكرية أيضا • وكان من الطبيعى أن تجتذب المدارس التبشيرية أعدادا من الأقبـــاط تفوق المسلمين ، فتزودوا بتعليم غربى وسيطروا على اللغات الاوربية مما قوى

---

(١) «اللواء» ، ٢٠ يوليو ١٩٠٨ ، وادلى فريد بتصريح مماثل فى حديث مع مجلة : «Pall Mall Gazette»

(٢) انظر على سبيل المثال : « تربية سلامة موسى » •

(٣) Edward Wakin : «A Lonely Minority : the Modern Story of Egypt's Copts», New York William Morrow; 1964.

وهو يقدم تقريرا كاشفا عن احوال القبط الحالية ، ولم يخل من بعض المبالغات • والمؤلف صحافى أمريكى من أصل لبنانى مسيحى •

مكانتهم في بلاد تتعرض لصدمة الاحتـــكاك بأوربا • وازدادت تطلعاتهم بانتكاس الحركة العرابية ذات الاتجاهات الخفية المعـــادية للمسيحيين ومجيء الاحتلال البريطاني • ويرجع انضمام بعض الاقباط الى الوطنيين الى خيبـــــة أملهم في كرومر ، الذى لم يظهر أى تمييز رسمى للاقباط (اذا كان قد ميز طائفة فهى السوريون) • ومع ذلك فكثير من المسلمين، وقد أذهلتهم متطلبات مجتمع ازداد أخذه بالتقنية الحديثة ، شعروا أنهم منبوذون ومحرومون من كثير من الفرص بالقياس الى الأقليات التى كانت أقدر منهم على التأقلم • وهذا الشعور هو الذى أججه جاويش ، فقد زاد مقاله من شعبيته ، ولم يقللها بين المسلمين من أبناء الطبقة المتوسطه الدنيا التى تفتقد الأمان الاقتصادى والاجتماعى ، وهو نفس العامل الذى ضخم فيما بعد عدد المنضمين للاخوان المسلمين • ومن سوء حظ الوطنيين أن هذه الطبقة لم يكن أى من المسئولين البريطانيين على استعداد لتسليمها مقاليد الحكم ، كما أنها كانت قادرة على ملء الشوارع ، لا خزائن الحزب الوطنى •

ولم يكن كل الوطنيين يقرون الاتجـــاه الذى اتخـــذه « اللواء » باشراف جاويش • واتخذت مجموعة من الرافضين مقرا لها فى لجنـــه السيدة زينب الفرعية التى عرفت بتشددها • (١) وفى أوائل نوفمبر ١٩٠٨ قام محررو « اللواء » وعماله بالاضراب بمساندة على فهمى كامل والخديو ، أو هذا ما اعتقده محمد فريد • وبينما كان الطلاب المتطوعون يقومون بطبع أعداد هزيلة من « اللواء » على مطابع «الجريدة» (٢) نصح رئيس لجنة السيدة زينب الفرعية فريدا بقبول مطالب العمال وأيده على فهمى كامل وعدد من الأعضاء • وبعد مناقشات حادة قرر فريد فصـــل المضربين وتعيين مجموعة جديدة • وعلى الفور قام يوسف المويلحى (الذى اعتبره فريد عميلا للبوليس السرى) بتعيين المجموعة القديمة ليصدر من مقر لجنة السيدة زينب الفرعية جريدة منافسة أسماها « مصر الفتاة » (٣) وخلال السنوات الثلاث التالية نافست « مصر الفتاة » جريدة الحزب

---

(١) مذكرات محمد فريد : ص ١٠ وما بعدها ، وكان رئيس اللجنة هو محمد العفيفى • والسيدة زينب حى سكنى وتجارى فى جنوب وسط القاهرة ، أبناؤه من الطبقة المتوسطة الدنيا •

(٢) قد يبدو ذلك مثيرا للدهشة لأن الجريدة كانت لسان حال حزب الأمة ، غير أن فريدا ولطفى السيد كانا صديقين شخصيين يتفقان فى معارضتهما للخديو •

(٣) مذكرات محمد فريد ، ص ١ وما بعدها ، Alexander : p. 196
عبد الرحمن الرافعى : ص ٧٧ ، « اللواء » ، ٣ و ٤ نوفمبر ١٩٠٨

الوطنى لدى نفس القراء • وكانت الخلافات بين الجريدتين لا تكاد تبين ورغم ذلك فان الجـــريدة الجـــديدة لم تكد تنجـــح فى تهـــدئة عنف « اللواء » •

واذا كان توزيع « اللواء » لم يتاثر بسبب حدته المتزايدة فى وجه المنافسة ، فان زميلتيه الاوربيتين أصبحتا على شـــفا الافلاس • فكان العاملون فيهما يتقاضون مرتباتهم متأخرة وأحيانا لا يتقاضـــونها (١) • اذ أن قليلا من المصريين هم الذين يقرأون الصحف ولا يســــتطيعون ــ فيما يبدو ــ التـــأثير فى الرأى العـــام الاوربى (٢) • وكان محررو «الاستاندارد» عدة شبان من الوطنيين الايرلنديين ، (٣) وروسى اشتراكى مطرود من بلاده هو تيودور روذشتاين ، (٤) وقد بدأت تصدر أسبوعية منذ ابريل ثم ما لبثت أن اختفت تدريجيا من الوجود • وكان الوطنيون يقرأون الفرنسية ويكتبونها أفضل من الانجليزية ، ولكن «ليتاندر» كانت تمثل نزيفا مكلفا لموارد الحزب • وحينما رفض عمر سلطان صاحب أكبر عدد من أسهم الشركة الموحدة « للواء » و « ليتندر » مواصلة الانفاق على الأخيرة اضطر فريد الى ايقاف صدور الجريدة اليومية الفرنسية (٥) •

---

(١) تشمل مراسلات محمد فريد المحفـــوظة خطابات من رئيس تحرير الجريدتين ، شارل سوفاج ووليام مالونى ، يشـــكوان فيهـــا من تاخير صرف المرتبـــات ، كما كتب تيودور روذشتاين مراسل لندن الى على فهمى كامل سنة ١٩٠٩ يهدد بمقاضاة الحزب الوطنى اذا لم يدفع له مائة جنيه مصرى مقابل خدماته •

(٢) كان كثير من المشتركين من الاتراك والجراكســـة » Alexander : p. 39

(٣) خلف فردريك ريان ذو النشاط المعروف فى جمعية « سين فين » ويليام مالونى فى رئاسة تحرير « ذى اجيبشيان ستاندارد » FO 371/448 من دينجهولى الى جراى ، دابلن كاسل فى ٢١ يناير ١٩٠٨ • وقد عمل رايان بعد ذلك مع بلنت فى كتابه عن مصر ، وتوفى فجأة وهو يزوره فى ابريل ١٩١٣

Blunt « My Diaries », p. 82f.

(٤) روذ شتاين Rothstein (١٨٧١ ــ ١٩٥٣) ألف فيما بعد « خراب مصر Egypt's Ruin » وهو تفنيد لزعم كرومر أنه بعث حياة مصر اقتصاديا • وبعد ثورة البلاشفة عاد الى روســـيا واصبح السفير الســـوفييتى فى ايران • وعن حياته مؤرخا ودبلوماسيا وعالما اجتماعيا انظر الموسوعة السوفيتية الكبيرة : Rothstein, Fyodor Aronovich, « Bol' shaya Sovietskaya Entsklopedya, » XXXVII;p. 262

(٥) مذكرات محمد فريد : ص ١١ وما بعدها • وقد لاقى قرار فريـــد بايقـــاف الجريدتين معارضة شديدة داخل الحزب •

وفشلت كل محاولات بعث « ليتندر » . ومنذ ذلك الحين اتبع الوطنيون سياسة اعانة العديد من الصحف الاوربية المستقلة التى كانت تصدر فى مصر . فلم يكن من السهل على الوطنيين الاختيار بين اكتساب الاصدقاء فى الخارج والتأثير على الشعب فى الداخل ، فاضطرتهم الصعوبات الماليه وقتذاك الى اختيار الطريق الأخير (١) .

---

(١) France, Ministere des Affaires Etrangères, Egypte : Presse, IV, 5; 12

نمو الحزب الوطنى

رغم أن السنة الاولى للوجود الرسمى للحزب قد أضرت بها الخلافات والانقسامات وفصم الروابط مع القصر وأنصـــــاره ، ونشوب المعارك الطائفية فى الصحافة ، فقد استمر الحزب الوطنى يكتسب المزيد من الأعضاء المصريين ، ومن الممكن قياس ذلك بالنظر الى تضاعف عدد لجان الحزب الوطنى فى القاهرة ، والاسكندرية ، والاقاليم ، والمدن الرئيسية فى أوربا ٠

ولقد قيل الكثير عن أن مؤيدى الحزب الوطنى كانوا محصورين فى الطبقة المثقفة فى القاهرة والاسكندرية ٠ (١) غير أن الوطنيين حاولوا مد نفوذهم الى الأقاليم والفوز بتأييد عمال القاهرة ٠ لكن الغالبية العظمى من أهل مصر كانوا فلاحين ، وتحويلهم الى وطنيين ليس بالمهمة السهلة ٠ فكان فريد يحث تلاميذه ــ وبعضهم من أبناء ملاك الأراضى ــ على قضاء عطلاتهم الصيفية فى تلقين الفلاحين الوطنية ، (٢) كما كانت هناك وسيلة اتصال أفضل تتمثل فى مشتركى الاقاليم فى الصحف الوطنية ، وكانوا أحيانا يقرأون صحفهم بصوت عال للفلاحين الأميين فى مقاهى القرى ، وكذلك شيوخ الريف وفقهائه الذين تأثروا بالمبـــادىء الوطنية ، ربما مصطبغة بوجهة نظر اسلامية ، فى القاهرة وطنطا والاسكندرية ، بالاضافة الى بعض الفئات دائمة التنقل بين القاهرة والاقاليم ، كالتجار ، والاطباء، والمحامين وملاك الاراضى (٣) ٠

(١) Landau : p. 135

(٢) Revue of Monde Musulman, V, 6 (June 1908), p. 367.

(٣) على سبيل المثال : د٠ ناصر فريد فى طنطا ، والمحاميان عبد الرحمن الرافعى فى الزقازيق ، ومصطفى الشوربجى فى طنطا ، ومالك الأراضى عبد الله طلعت فى أبو كبير ٠

واذا كان مدى تغلغل الوطنيين فى المناطق الريفية أقرب للتخمين عادة ، فان تجسيد وجود الحزب من خلال لجانه الفرعية يمكن أن يشير ــ على الأقل ــ الى مواطن قوته النسبية ، فنجد أكبر تركيز لهذه اللجان خارج القاهرة فى الدلتا ، وبشــكل عام فى المدن متوســطة الحجم ، فقد أنشئت فيها عشر لجان على الأقل سنة ١٩٠٨ ، وست أخرى سنه ١٩٠٩ . وثمة مدن أخرى احتفلت بعيد جلوس السلطان عبد الحميد (١) ، أو أرسلت برقيــات احتجــاج الى جراى على اســتمرار الاحتلال البريطانى (٢) .

ورغم أن المتعلمين من أبناء الطبقة المتوسطة المصرية كانوا يسيطرون على هذه اللجان الفرعية فقد كانوا حريصين على الوصول الى العمال والفلاحين بانشاء مدارس العمال الليلية ، ونقابات العمال ، والجمعيات التعاونية الاستهلاكية . ومن الجدير بالملاحظة أنه بينما لا تكاد تظهر فى خطب مصطفى وكتاباته أى اشارة الى أحوال العمال والفلاحين المصريين مع أنه حفيد فلاح ، نجد مزيدا من الاهتمام بمشكلات مصر الاقتصاديه والاجتماعية فى خطب وكتابات فريد مع أنه سليل أرستقراطية تركية . ففى حديث نشرته جريدة « ديلى نيوز » اللندنية فى يوليو سنة ١٩٠٨ أفاض فريد فى وصف فشل الحكومة فى تنظيم أحوال العمل فى مصانع السجائر ومحالج القطن رغم المقالات العديدة التى نشرتها الصــحافه الوطنية (٣) .

ولما كانت معظم المشروعات الصناعية القليلة فى مصر يملكها أجانب فقد كانت الفرصة متاحة للوطنيين للتعاون مع العمال متى استطاعوا ايجاد سبل للاتصال بهم . وتمثل الجهد الأكبر فى انشاء المدارس الليليه للعمال ، التى افتتحت أولاها لجنــة بولاق الفرعية فى نوفمبر سنة ١٩٠٨ . وكان منهج الدراسة يشمل بالاضافة الى القراءة والكتابة ، الدين (وكان يدرسه الشيخ جاويش) ، والقانون ، والصــحة ، والشــئون

---

(١) انظر هامش (٢) ص ١٥٧ فى هذا الكتاب .

(٢) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/452 ، من ف٠١٠ كامبل الى رونالد جراهام ، لندن فى ١٨ سبتمبر ١٩٠٨ ، ويضم برقيات من لجان الوطنيين الفرعية فى جرجا ، أبو كبير ، كفر الدوار المنصــورة ، بولاق ، قســم الخليفــة ، طنطــا المنيا ، الزقازيق ، بنى ســويف ، بنهــا ، العباســية ، الســيدة زينب ، ببــا ، ناميا ؛ والدرب الأحمر .

(٣) عبد الرحمن الرافعى : ص ٩٠ .

الاجتماعية ، والحساب ، والعلوم ، والجغرافيا ، والأخلاق • (١) وكان كثير من الزعماء الوطنيين يحاضرون فى بولاق • وأنشئت مدارس مماثلة فى مواقع أخرى بالقاهرة والاسكندرية وبعض لجان الحزب الفرعيه الأخرى ونادى المدارس العليا وكان تابعا للحزب الوطنى تقريبا ، وباسهام الأثرياء من الأفراد (٢) • كانت الدراسة مجانية ، وعدد التلاميذ حوالى ١٢٠ فى كل فترة دراسية • وحتى جورست نفسه تنبه الى امكان استخدام هذه المدارس مراكز لنشر الدعوة الوطنية (٣) •

وكانت الخطوة التالية هى انشاء نقابات عمالية • وكانت قوة العمال المصريين، الذين وصل عددهم سنة ١٩٠٧ (٤) الى حوالى٣٨٠٠٠٠ تكاد تكون بلا أى تنظيم بعد اختفاء النقابات التقليدية فى القرن التاسع عشر (٥) • حقا كان معظم العمال من الحرفيين الذين يشتغلون فى محلات صغيرة ، أو من الفلاحين الموسميين ، غير أنه فى بعض الصناعات الأكبر . كصناعة السجائر ، والنقل ، والتعدين بدأت تتكون نقابات عمالية ، أنشأها العمال اليونانيون والايطاليون المهاجرون • وما لبث المصريون أن استجابوا بتكوين نقابات خاصة بهم ، ومنذ سنة ١٨٩٩ حدثت بعض الاضرابات العارضة ، لم يحقق أى منها نجاحا ملفتا (٦) • فقد كان معظم العمال المصريين غير منظمين وعاجزين أمام تقلبات سوق العمل •

وفى سنة ١٩٠٩ أنشأ اثنان من زعماء الوطنيين ، وهما على ثروت ود • محجوب ثابت ، نقابة لعمال المصانع اليدوية فى بولاق ، كما أنشئت عدة نواد للعمال فى قسمى الصليبية والخليفة بالقاهرة ، ووصلت العضوية فيها الى بضعة آلاف • وفى سنة ١٩١١ كان عدد النقابات قد أصبح

---

(١) « اللواء » ، ٢ نوفمبر ١٩٠٨ ، وكان من بين المدرسين الآخرين عمر لطفى واحمد لطفى وامين الرافعى • وبولاق حى سكنى من أحياء الطبقة الدنيا فى القاهرة •

(٢) عبد الرحمن الرافعى : ص ٩٠ ، « اللواء » ١٢ ابريل و ١٥ و ٢١ نوفمبر و ٢ ديسمبر ١٩٠٨ و ٩ و ٢٣ مارس و ٦ ابريل و ١٩ يونيو و ٢٨ أكتوبر ١٩٠٩ •

(٣) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/892 من جورست جراى ، القاهرة ، ٦ مايو ١٩١٠ رقم ٥٧ •

(٤) Issawi : « Egypt at Midcentury », p. 37

(٥) Baer : « Egyptian Guilds in Modern Times », reviewed by Afaf Loutfi El-Sayed in « Middle Eastern Studies », II, 3 (April 1966), pp. 272-276

(٦) Issawi : p. 172f. Walter Z. Laquer : « Communism and Nationalism in the Middle East», New York, Praeger, 1956, p. 35.

احدى عشرة ، مجموع أعضائها ستة آلاف ، بما فيهم الأجانب (١) ٠
وأيد فريد بقوة حركة نقابات العمال وأول جمعيات تعاونية استهلاكية أنشأها عمر لطفى فى القاهرة والاسماعيلية سنة ١٩١٠ ، وشجع الوطنيون اضراب عمال السكة الحديد سنة ١٩١٠ ، وربما أيضا اضراب عمال الترام فى يوليو ١٩١١ ، فقد تولى أحمد لطفى وكيل الحزب مهمة الدفاع عن المضربين (٢) ٠

وفى عصر التنظيمات الشعبية الضخمة ، حينما أصبح باستطاعة جهاز كالاتحاد الاشتراكى الذى أنشأه عبد الناصر أن يضم خمسة ملايين عضو (٣) ، تبدو التنظيمات العمالية التى رعاها الوطنيون شديدة الضآلة فعلا ، كما كانت قصيرة العمر ، ولم توفق – فيما يبدو – الى تحقيق أية مكاسب اقتصادية لأعضائها ٠ ومع ذلك فقد كانت وسيلة ناجحة لتزويد بعض أعضاء الطبقة العاملة المصرية بموقف وطنى ٠ فقد كان حزب مصطفى كامل الوطنى فى حقيقته مجموعة من المعجبين ، غالبيتهم من طبقات المهنيين وملاك الأراضى ، وكانت أهم ثمرة له نادى المدارس العليا الذى واصل نضاله بتوجيه عمر لطفى ، ولكن قيادة فريد للوطنية المصرية سجلت بدء انتقالها من الصفوة الممتازة الى حركة جماهيرية عريضة ، وهى عملية تطورية مازالت مستمرة الى اليوم ٠

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : ص ٩٠ وما بعدها ، محمد فهيم أمين ، « **تاريخ الحركة العمالية النقابية** » ، القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٦١ ، ص ١٤ – ١٧ ٠

(٢) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية Fo371/1115 من تشيثام الى ماليت ٠ الرمل فى ٣ يوليو ١٩١١ ، خاص ٠

(٣) U. S. Army Handbook for the United Arab Republic (Egypt), Washing. G. P. O., 1964, p. 198.

الفصل الخامس

الحزب الوطني في أوج قوته

- ازدياد عنف الوطنيين
- قانون المطبوعات
- الوطنيون المصريون و « تركيا الفتاة »
- الشباب المصرى فى أوربا
- الخلاف حول قناة السويس وعواقبه

أزدياد عنف الوطنيين

لو أن هناك وقتا بين سـنتى ١٨٨٢ و ١٩١٩ كان من الممكن أن تنشب فيه ثورة لكان سنة ١٩٠٩ أو أوائل سنة ١٩١٠ ، فالحزب الوطنى ـ وقد نجا من الاختفاء بعد وفاة مؤسسه ـ أخذ يكتسب الأنصـار ويفرض مطالبه بشجاعة متزايدة ، فى الوقت الذى أخذت فيه السياسة البريطانية تتأرجح بين التسامح والقمع ٠ ورغم أن محمد فريـد لم يكن صالحا ـ فيما يبدو ـ بحكم تكوينه الطبقى ومزاجه وخبراته ، لقيادة حركة ثورية، فقد وجد تيار الأحداث يدفعه الى اتخاذ موقف متطرف متصاعد ٠ فالحزب الوطنى أصـبح الآن يهاجـم ، عن طريق الخطب والمقالات ومظـاهرات الشوارع ـ لا الانجليز وحدهم ـ بل كذلك السراى ومؤيديها ، والحكومة المصرية بشكل عام ، ووزارة بطرس غالى بصفة خاصة ٠ واذا كان زعماء الحزب قد ظلوا يستبعدون الثورة فان هجومهم الشفوى كان يهدد بتحريض أتباعهم على أعمال العنف ، بل لقد ساعدوا فعلا على قيام المظاهرات فى شوارع القاهرة سنة ١٩٠٩ ، وعلى أول اغتيال سياسى فى تاريخ مصر الحديث سنة ١٩١٠ ٠ غير أن الثورة لم تقم ٠

لقد شاع بين الوطنيين وأنصارهم قدر متزايد من التفاؤل قرب نهاية سنة ١٩٠٨ (١) ٠ والواقع أن آمالهم ظلت تتصاعد باستمرار منذ ظهورهم أمام الرأى العـام عقب تنفيذ أحكام دنشواى ٠ وزاد من قوتهـم عزل كرومر ، وماتلاه من اعلان سياسة حكومة الأحرار فى اعداد مصر للحكم الذاتى ٠ واذا كانت الأزمة المالية خلال عامى ١٩٠٧ و ١٩٠٨ قد أضعفت

(١) Blunt : «My Diaries», p. 641.

الموقف المالى للحزب (١) ، فلا شك أنها زادت فى الوقت نفسه عدد المصريين المتذمرين زيادة كبيرة • وفسر الوطنيون انقلاب « تركيـــا الفتـاة » فى يوليو سنة ١٩٠٨ باعتبـاره نصرا للمبادىء الدستورية التى يعتنقونها بدورهم ، بالرغم من أن زعماء « تركيا الفتاة » لم يبـدوا اهتماما سريعا بمصر • وكانت زيادة أعضـاء الحزب الوطنى سـببا ونتيجة فى الوقت نفسه لهذا التفاؤل (٢) •

ولم يكن ازدياد عنف هجمات الوطنيين راجعـا الى تفاؤلهم وحده ، بل كذلك الى منافستهم للأحزاب والطوائف المصرية الأخرى ، واتســاع هوة الخلاف مع الخديو ، بالاضـافة الى التنافس بين الصحف الوطنية • ووجد هذا العنف التعبير عنه فى المدارس ، والشوارع ، والصحافة •

وكان طلبة المدارس الحكومية العليا يتصـدرون مســيرة الحركة الوطنيـــة ، وهاهم يقومون الآن بالاضرابات والمظاهرات • ففى نوفمبر ١٩٠٨ امتنع معظم طلبة مدرسة الهندسة عن الدراسة بتشجيع من جريدة « اللواء » ، احتجاجا على طول ساعات دراستهم • وفى نفس الوقت تقريبا انتهز طلاب مدرسة الحقوق الخديوية فرصة موقعهم القريب من السراى للتظاهر احتجاجا على حضور الخديو الاسـتعراض العسكرى البريطانى بميدان عابدين • ولتجنب تكرار مثل هذه الأحداث نقلت وزارة المعارف المدرسة الى العباسية (٣) • وفى أواخر ديسمبر قام ما يقرب من أربعـة آلاف وطنى ، معظمهم من الطلبة ، بمسيرة من حدائق الأزبكية الى مكاتب تحرير « المؤيد » احتجاجا على تصـاعد سـياسة على يوسف فى تأييد البريطانيين ، مما اضطر البوليس الى تفريقهم (٤) •

---

(١) كتب فريد فى مذكراته أن مصطفى كامل وشقيقه خسرا مبالغ كبيرة فى مضاربات البورصة • وقد صدم هذا الكشف الرأى العام المصرى عند نشر المذكرات سنة ١٩٦٤ ، مما يدل على مدى تغير القيم الفكرية فى مصر • ويقول فايف فى كتابه « الروح الجديدة فى مصر » ان أزمة سنة ١٩٠٧ قللت من استعداد الأثرياء المصريين والأتراك لمؤازرة الحزب Fyfe :« The New Spirit in Egypt », p. 160.

(٢) المعلومات التى يمكن الحصول عليها عن عضوية الحزب الوطنى قليلة جدا بحيث يصبح أى تقرير عن مقدار نموها تخمينى الى حد بعيد • وكان « اللواء » ينشر أحيانا تقريرا عن عدد الأعضاء الجدد ، فيذكر مثلا فى عدد ٤ يناير ١٩٠٨ أن اللجنة الادارية للحزب تلقت خلال الأيام الخمسة السابقة ٢٧٥ طلبا للعضوية ، وأنها قبلت ٧٢ عضوا خلال شهر فبراير ، ٨١ فى مارس ١٩٠٨ •

(٣) Alexander : p. 196f.

(٤) Ibid. p. 199f. ، ومن سخريات تاريخ مصر السياسي أن « المؤيد » الذى كان ذات يوم أكبر معبر عن الوطنية المصرية اصبح الآن الهدف الرئيسى لسخط الوطنيين •

وبلغت موجـــة السخط الوطنى الجـــديد قمتها فى يناير حينمـا خرج ٥٥٠٠ من طلاب الســنتين الثالثة والرابعـة بالأزهر فى اضراب ، أيدهم فيه « اللواء » بحماسة ٠ (١) وهـــذا الاضراب يســجل انتقال اشـتغال الطلبة المصريين بالسياسـة الى مرحلة جديدة ، اذ كان معظم الأزهريين ينتمون الى الطبقة الدنيا ، فساعد ذلك على عزلهم عن الحزب الوطنى الذى كانت تسيطر عليه طبقة المهنيين بالمدينة ٠ ولكن حينما بدأ الحزب يمد دعوته الى بيئات أوسع ، كان الأزهر بصفة خاصة مجالا خصبا لدعايته ، فهو بمثابة الجهاز العصبى لشبكة العلماء المسلمين فى مصر ٠

وكان ســبب اضراب الأزهر محاولة حمقاء لاصلاح المناهج قام بها مديره الشــيخ حسونة النواوى ، (٢) ولكنه نســبها الى الحكومة ٠ فكتب الطلاب عريضة بشكاواهم شكلت لجنة لبحثها ، ولكن الاضراب لم ينته ٠ وأصر المجلس الأعلى للأزهر على فصـــل الطلبة المضربين ، فى حين استقال الشيخ حسونة احتجاجا ٠ فعينوا بدلا منه مدير ديوان الأوقاف خليل حمادة ، وهو أحد المقربين للقصر (٣) ، فأضفى ذلك على الاضراب الذى يؤيده الوطنيون دلالة سياسية جديدة ٠ ودفع الانفعال عدة مئات من الطلاب المضربين الى اقتحام الأزهر والتحرش ببعض الطلاب المستمرين فى الدراسة ٠ فكان لابد من استدعاء البوليس لتفريق المتشاجرين واعادة النظام ٠ واتهم الوطنيون بعـد ذلك خليـــل حمـادة بالقبض على بعض

---

(١) كان مجموع المقيدين بالأزهر وقتذاك حوالى ١٩٫٠٠٠ (Alexander : p. 223)

(٢) الشيخ حسونة النواوى (١٨٣٩ ـ ١٩٢٤) كان شخصية محترمة فى عصره ، وهو جد أمين عام الجامعة العربية الأسبق : عبد الخالق حسونة ٠ وقد بذلت محاولات عديدة لاصلاح مناهج الدراسة بالأزهر ، ظلت تتعثر حتى عهد قريب بســبب معارضة شيوخ الأزهر الذين كان من مصلحتهم استمرار الوضع على ما هو عليه ، وهى حالة ليست غريبة على بعض كليات الجامعات الأمريكية ٠ ورغم توفر حسن النية فى اصلاحات سنة ١٩٠٩ ، فقد كانت تتطلب جهدا كبيرا من الطلاب الذين كانوا وقتها على وشك التخرج وفقا للنظم القائمة ٠ ومن الظلم اتهام الوطنيين بالخضـــوع لأهواء المســلمين الرجعيين لا أكثر كما فعل كل من « الكساندر » (Alexander : pp. 221-227) و « الاجيبشيان جازيت » « The Egyptian Gazette », 23 January 1909

(٣) ديوان الأوقاف هو المجلس الذى يدير الهبات الدينية ، وقد ظل تحت الاشراف المباشر للقصر حتى سنة ١٩١٣ حينما أنشئت وزارة مستقلة للأوقاف لتحد من اختلاسات الخديو ، وكان للقصر ـ فيما يبدو ـ يد فى ادارة الأزهر أيضا ، وكان عباس يتمتع بشعبية بين علمائه لحرصه على الاحتفاظ بكرامة المعهد (Beaman : 89) ، ولذلك فقد كان تأييد الوطنيين للمضربين تحديا لسيطرة الخديو على أحد المعاهد العلمية الرئيسية ٠

المتظاهرين والاعتداء عليهم بالضرب (١) ، غير أن مكتب المدعى العام حفظ الاتهامات ٠

وأثار الحادث تعليقات عديدة فى الصحافة العربية ، حركت عطف الرأى العام الاسلامى على الطلاب ٠ وكان لابد من تأجيل الاصلاحات المقترحة الى أجل غير مسمى ٠ وصدر عفو عام عن جميع الطلاب المضربين ، وأصبح الشيخ حسونة بطلا وطنيا (٢) ٠ وكان ذلك دليلا على انتصار الوطنيين على القصر ٠ وسرعان ما امتدت عدوى اضطرابات الطلاب الى المعاهد الدينية فى طنطا ودسوق ودمياط (٣) ٠ وازداد ارتباط علماء المسلمين فى مصر كلها بالحركة الوطنية ٠

---

(١) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/661 ، من جورست الى جراى ، القاهرة فى ٢٠ فبراير ١٩٠٩ ، رقم ١٧

(٢) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/661 ، من جورست الى جراى ، القاهرة فى ١٢ مارس ١٩٠٩ ، رقم ٢٢

(٣) Alexander : p. 227

قانون المطبوعات

من الموضـــوعات التى اختلف حولها الاستعماريون والليبراليون فى أوائل القرن العشرين ، هل اتباع سياسة التسامح مع الآراء المخالفة فى الشعوب المحتلة يشجع المعارضـــة الوطنية أم يكون بمثابة صمام أمان ضد قيام حركات سرية وثورية ؟ ٠

وبشكل عام كانت سياسة بريطانيـا فى مصر تميل الى التسامح مع الصحافة المعارضة الا اذا خرقت هجماتها القوانين المحلية ٠ ومع ذلك فلم يكن باستطاعة الحكومة المصرية السيطرة على الصحف العديدة التى يملكها كلها ، أو يشارك فى ملكيتها ، أجانب تحميهم الامتيازات الأجنبية ٠ وبعد تبرئة « جاويش » من تهمة التشـــهير فى حادث « الكاملين » ، لاحظ البريطانيون عدم كفاية الرقابة الحكومية على الصحافة الأهلية أيضـــا ، اذ بدا قرار المحكمة وكأنه انتصار للوطنيين شـــجع « اللواء » و « القطر المصرى » على رفع صوتيهما أكثر بالتنديد بالاحتلال البريطانى ، والخديو ، ووزرائه ٠

ولم يستطع البريطانيون الوقوف صامتين يتفرجون على الصـــحف الوطنية وهى ترهب المصريين الذين يشغلون مناصب هامة ، وتجبرهم على الانضمام للحركة المعادية للاحتلال ، فأرسل « جورست » فى سبتمبر ١٩٠٨ تقريرا الى وزارة الخارجية يوصى فيه ببعث قانون المطبوعات المصرية لسنة ١٨٨١ ، وكان « كرومر » قد سمح بتجاهله ٠ وكان القانون ينص على ايقاف أو مصادرة أى صحيفة تنشر أخبارا تسىء الى الأخلاق ، أو الدين ، أو النظام العام ، يقوم بذلك وزير الداخلية أو مجلس الوزراء ، بعد توجيه انذارين ،

كما كان يتيح للحكومة المصرية ضبط تجاوزات الصحافة دون الرجوع الى القضاء ، الذى كان « جورست » يعتقد أنه خاضع للضغط السياسى . (١) وفى ديسمبر صرح « جراى » لجورست بصفة شخصية بأن بريطانيا لن تعترض على احياء الحكومة المصرية لقانون المطبوعات . (٢) وفى ٢٥ مارس سنة ١٩٠٩ (وكان تأخير الأشهر الثلاثة بناء على طلب بطرس غالى) صوت مجلس الوزراء المصرى رسميا على اعادة القانون .

وكانت أخبار البعث الوشيك للقانون قد انتشرت قبل ذلك ببضعة أيـــام ، (٣) فهاجمـــه « اللـــواء » و « مصر الفتــــاة » فعـــلا . أما استجابة جاويش للقانون الجـــديد فكادت تكون دعـــوة ســـافرة للتمرد : « أيها القلم : فلتكن كما يريدونك (يقصــــد البريطانيين أو الحـــكومة المصرية) اما نائما أو ميتا الى الأبد . ولـــكن ستترك وراءك عيـــونا يقظة لاتنـــام وأيدى لا يمـــكن تقييدها .. » (٤) وانهمرت على اللواء رسائل وبرقيات عديدة تدافع عن حرية الصحافة وأرسلت اللجنة الادارية للحزب الوطنى رسائل احتجاج الى الخديو ، ورئيس الوزراء ، ووزير الداخلية ، وأبرقت الى الصدر الأعظم والمتحدث باسم مجلس النواب العثمانى (٥) ، وفى ٢٦ مارس بدأت مظـــاهرات الشوارع وأخذت تزداد قوة ، حتى بلغت قمتها فى أول ابريل بتجمع هائل بدأ من حدائق الجزيرة واتخذ طريقه عبر كوبرى قصر النيل الى أحياء وسط

---

(١) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/451 « الصحافة فى مصر » ، لجورست ، القاهرة فى ١٦ سبتمبر ١٩٠٨ .

(٢) محفوظات وزارة الخارجية البريطانيه FO 371/451 ، من جورست الى ماليه ، القاهرة فى ١١ ديسمبر ١٩٠٨ .

(٣) ظهرت مقالات عن مشروع قانون المطبوعات فى عدد « اللواء » و « الاجيبشيان جازيت » الصادرين فى ٢٣ مارس ، وفى صحف أخرى . وكتب (ج . الكساندر) فيما بعد أن « الأجانب المقيمين فى مصر ظنوا فى البداية أن شائعة قانون المطبوعات ليست أكثر من خبر لا أساس له من الصحة نشره المهيجون السياسيون المجردون من الأخلاق . » ودهشوا الى أبعد حد حينما ظهرت صحته . ولا شك أن اتساع الهوة الاجتماعية بين المصريين المثقفين ثقافة غربية والمجتمع الأوربى وتبادل الشك بينهما كان من العوامل التى ساعدت على نمو الوطنية المصرية .

(٤) عبد العزيز جاويش : « أيها القلم » ، « اللواء » ، ٢٦ مارس ١٩٠٩ ، نقلا عن Alexander, p. 234 ، الجندى : ص ٩١ وما بعدها .

(٥) Alexander, p. 234 ، عبد الرحمن الرافعى : ص ١٠١

القاهرة • وأشعلت خطب أحمــد حلمى (١) حماسة الجماهير حتى بلغت ذروتها ، فما أن وصلت الى ميدان الأوبرا ، مركز الحى الاوربى بالقاهرة حتى أفلت زمامها ، فألحقت خسائر كبيرة ببعض المحلات المشهورة مثل (نيوبار) قبل أن يفرقها البوليس بخراطيم المياه (٢) وحوكم أحمد حلمى بسبب دوره فى المظاهرات وحكم عليه بالسجن ستة أشهر لاهانة الوزراء واثارة الاضطرابات العامة (٣) كما حكم عليه أيضا أيضا بالأشغال الشاقة لمدة سنة لتشهيره بالخديو فى احدى مقالاته « بالقطر المصرى » (٤) ولم تحدث مظاهرات أخرى ضد قانون المطبوعات وأوقفت الحكومة « القطر المصرى » ولكنها لم تتخذ أى اجراء عاجل ضـــــد صحف المعارضــــة الأخرى •

وتأخر صدور قانون المطبوعات ، لالتساهل البريطانيين ، ولكن لأن كلا من فرنسا وألمانيا والولايات المتحدة رفضــت قبول شرط تطبيقه على رعاياها فى مصر • ويعتبر هذا نموذجـــا ممتازا لدور الامتيـــازات الأجنبية وكيف أنها كثيرا ما تعارضت مع سيطرة البريطانيين على مصر • وسرعان ما اكتشف الوطنيون هذا العيب فى القانون فأسرعوا الى حماية صحفهم بتعيين مديرين صوريين لها من الأجانب • وهكذا أصبح الدكتور منصور رفعت الذى ادعى الجنسية الأمريكية ، مديرا سياسيا « للواء » ، غير أن الحكومة العثمانية والقنصلية الأمريكية بالقاهرة لم تعترف بادعائه حينما تلقت « اللواء » بعد ذلك انذارها الأول (٥) • وبيعت « مصر الفتاة »

---

(١) نقلت « الاجيبشان جازيت » فى عدد ١٢ أبريل قول حلمى « لقد انتهكت حرمة الاسلام ، واعتدى على طلاب الدين • من الذى يستطيع أن يصادر حريتكم وأنتم شعب يقدر عدده بالملايين ؟ ان عددهم (أى الوزراء) لا يزيد على خمسة أشخاص ، فهل ستخضعون لهم وتطيعون أوامرهم وهم يحاربون الاسلام بالحيل والمكائد ؟ »

(٢) لوصف مظاهرات الاحتجاج على قانون المطبوعات انظر :
Alexander : p. 236 f.,
عبد الرحمن الرافعى : ص ٣ وما بعدها ، Rothstein «Egypt's Ruin», p. 349.
وأى صحيفة مصرية فيما بين ١ و ٣ ابريل ١٩٠٩ وكان الهجوم على « نيوبار » فى نظر كثيرين من مسلمى الطبقة المتوسطة رمزا للاعتراض على النفوذ الغربى ، وهو بمثابة ارهاص لحريق القاهرة فى يناير ١٩٥٢ •

(٣) أحمد بدوى : ص ١٠٤ وما بعدها

(٤) أحمد حلمى : « مصر للمصريين » ، « القطر المصرى » ، ٨ يناير ١٩٠٩ ، نقلا عن بدوى : ص ص ٨٩ ــ ٩٢ ، وقد صودرت « الجريدة الأسبوعية » أيضا •

(٥) Alexander : p. 256 كان د• منصـــور رفعت شـــقيق كل من ابراهيـــم حافظ واسماعيل لبيب وعبد الله طلعت ، وكلهم كانوا من الوطنيين البارزين ، وكان أبوهم =

بيعا صوريا لطابعها الألمانى ، فحمى ذلك أكبر منافس « للواء » بضعة أشهر • اذ بينما كان جورست ووزارة الخارجية البريطانية يسعيان عبثا للحصول على موافقة ألمانيا على قانون المطبوعات ، ظلت « مصر الفتاة » ، والعلم الألمانى يرفرف فوق مكاتبها ، تهاجم بحرية كلا من كرومر ، وجورست ، وبطرس غالى ، وجيش الاحتلال البريطانى (١) • وأخيرا تلقى القنصل الألمانى أوامر من برلين بعدم الاعتراف بالبيع الصورى لجريدة « مصر الفتاة » ، فنصحت وزارة الداخلية بهدوء « المالك » بمغادرة مصر •

هل كانت الحكومة الالمانية ، كما شك جورست وان لم يستطع أن يثبت (٢) ، تتلكأ فى هذه المسألة لأنها كانت تؤيد الوطنيين سرا ؟ ان وثائق وزارة الخارجية البريطانية لا تؤكد شكوك جورست ، وكل ما تصوره هو اهتمام معاصريه الزائد بالتسابق البحرى بين انجلترا وألمانيا وما صحبه من منافسات استعمارية • والحقيقة أن ألمانيا ، بعد أن اعترفت سنة ١٩٠٤ بالاحتلال البريطانى لمصر ، تباطأت فى تقدير قيمة التعاون مع الوطنيين ذوى الميول الفرنسية القوية •

وشجع تأخير صدور قانون المطبوعات الوطنيين ، فأرجعوا ذلك مغالطين عن عمد الى مظاهراتهم وبرقيات احتجاجهم • واستأنفت « مصر الفتاة » « واللواء » منافستهما فى الفوز برضى العامة عن طريق الهجمات المثيرة ، التى بلغت قمتها فى ٢٨ يونيو ، حين نشرت الجريدتان مقالات عنيفة فى ذكرى تنفيذ أحكام الاعدام فى دنشواى • وكما يحدث كثيرا فى

= ضابطا تركيا خدم فى عهد محمد على ، وعند احالته الى المعاش منح اقطاعية فى أبى كبير وكان منصور رفعت هو الأخ الوحيد الذى مارس مهنة ، اذ درس الطب بالكلية البروتستانتية (الجامعة الأمريكية ببيروت الآن) ، ثم بكلية طب جامعة جيفرسون بفيلاديلفيا ، ومن هنا كان ادعاؤه الجنسية الأمريكية • واصبح بعد ذلك من كبار دعاة الوطنيين فى جنيف وبرلين ، ولكن قواه العقلية بدأت تختل ، حتى قضى على حياته فى فيينا سنة ١٦٢٥ •

(١) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/660 من جورست الى جراى ، القاهرة فى ١٧ ابريل ١٩٠٩ ، رقم ٤٢ ، من جورست الى ماليه ، القاهرة فى ١٧ ابريل ١٩٠٩ ، خاص ، من جورست الى جراى ، الرمل فى ٢٠ يونيو ١٩٠٩ رقم ٧١ Alexander : p. 258 f.

(٢) محفوظات وزارة الخارجية FO 371/660 من جورست الى ماليه ، القاهرة فى ١٧ ابريل ١٩٠٩ خاص •

كتابات الوطنيين ، وجه أقسى النقد للمعاونين المصريين ، وبصفة خاصة لبطرس غالى ، وأحمد فتحى زغلول القاضيين المصريين فى محكمة دنشواى المخصوصة ، وكانا لايزالان يشغلان منصبين حكوميين رفيعين . وكذلك هاجم جاويش فى مقاله الذى أقرته اللجنة التنفيذية للحزب الوطنى (١)ـ كما اتضح فيما بعد ـ أحد محاميى الدفاع ، وهو محمود يوسف ، وحينما اتخذ محمود يوسف اجراءات مقاضـــاة الشيخ مطالبـــا بتعويض قدره ١٠٠٠٠ جنيه ، أيدت الحكومة المصرية الدعوى ، واضـــافت اليها تهمة التشهير الجنائى ببطرس غالى وأحمد فتحى زغلول . وحوكم جاويش ، وأدين فى التهمتين ، وغرم مبالغ رمزية (٢) . وكمـــا حدث فى محاكمـــة سنة ١٩٠٨ استأنف الحكم كل من جاويش والادعاء ، ولكن المحكمة العليا شددت الحكم هذه المرة ، وحكمت على جاويش بالســـجن ثلاثة أشهر ، وأقنعه أصدقاؤه بعدم الهرب من مصر (٣) ، فاصبح ثانى صحفى وطنى يسجن سنة ١٩٠٩ ، فزاد ذلك من مجد الوطنيـــة المصرية ، التى لم ينل زعماءها المسئولين أى أذى لرفض جورست لسياسة العنف .

وبدا وكأن تشدد السياسة البريطانيـــة بدأ يصد المد الثورى . وحاول الوطنيون تنظيم مظاهرة احتجاج ضخمة فى حدائق الأزبكيـــة ، ولكن « تصادف » أن وزارة الداخليـــة أخطرت الصحف أن منـــدوبين من الأزهر والمعاهد الأخرى سيكونون هناك لتسجيل أسماء الطلاب المشتركين فى المظاهرة (٤) . ولذلك استدعى وزير الداخلية « محمود حسيب » ،

---

(١) Alexander ; p. 259 ويؤكد محمد فريد فى مذكراته (ص ١٩١) أن كل ما كان يكتبه جاويش كان لا بدأن يقره الحزب قبل النشر .

(٢) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/664 من جراهام الى جراى ، الرمل فى ٨ اغسطس ١٩٠٩ ، رقم ٩٤ .

(٣) محفوظات وزارة الخارجية البريطانيـــة FO 371/664 ، من جراهام الى جراى ، الرمل فى ٣٠ اغسطس ١٩٠٩ ، رقم ١٠٣ . وفى خطاب الى لويس ماليه كتب فى اليوم نفسه وضح جراهام : « لقد أصبت بشىء من خيبة الأمل لأن الشيخ لم يفر كما كان معتزما ، وقد قدمت له كل التسهيلات التى أرادها ، ولكن أصدقاءه أقنعوه بأن الفرار معناه القضاء على مستقبله السياسى فى هذه البلاد ، وأن عليه أن يتدبر الأمر جيدا . وبصراحة فان وجوده فى السجن هنا يمثل عبئا ثقيلا ان لم يكن أسوأ . وقد ظهر قدر من العطف الأفلاطونى على الشيخ ، وبصـــفة خاصة فى الصحف الأوربية المحلية . واعتبر كبش الفداء لحزبه ، وحقيقة أن سفر زعيمه محمد فريد فى رحلة الى أوربا لم يزد من شعبيته ، ولكن العطف على الضحية ليس من طبائع المصريين بحال .. »

(٤) محفوظات وزارة الخارجية البريطـــانية FO 371/454 من جراهام الى ماليه الرمل فى ٣٠ أغسطس ١٩٠٩ ، خاص .

وكـان قد عين حديثا « مشرفـا » على الحزب و« اللواء » ، وانذره بـأن الحكومة مصرة على سحق المظاهرة • ولما كانت « اللواء » قد تلقت منذ فترة وجيزة انذارها الأول وفقا لقانون المطبوعات بسبب مقال مجد وطنيا هنديا أعدم لقتله موظفا بريطانيا كبيرا ، (١) فقد تعهد محمود حسيب بأن تكون المظاهرة سلمية بشرط ألا تتدخل الحكومة بالقوة • وقاد حسيب مظاهرة الاحتجاين بنفسه ، ولم تقع أى حوادث (٢) • ووجه العطف المنتشر على جاويش الى الدعوة للإكتتاب فى وسام ذهبى ، قدم للشيخ عند اطلاق سراحه من السجن •

وفى منتصف سـنة ١٩٠٩ بدا وكأن هنـاك دفعة لتحويل نشاط الوطنيين من الكفاح المحلى الى الدعاية فى الخارج ، كما كان الحال أيام مصطفى كامل •

---

(١) « اليوم يقتل دهينغرا » ، « اللواء » ، ١٧ اغسطس ١٩٠٩ ، ولترجمة المقال انظر : Alexander, p. 234 ومما هو جدير بالذكر ان بطرس غالى أراد مقاضاة « اللواء » على مقال آخر ، وهو رسالة كتبها طالب من اسيوط ، ولكن رونالد جراهام اقنعه بالا يفعل ، لان ذلك سيوحى برغبة فى الانتقام من « اللواء » بوحى من البريطانيين • وحين اغتال احد الوطنيين بطرس غالى بعد ستة اشهر ، ندم كثير من البريطانيين لانهم لم ياخذوا تلك الهجمات الصحفية بجد أكبر •

(٢) « اللواء » ٣٠ اغسطس ١٩٠٩ ، من محمـود حسيب الى فريد ، القاهرة فى ٣ سبتمبر ١٩٠٩ •

الوطنيون المصريون و « تركيا الفتاة »

على قدر ما كان الوطنيون يتطلعون الى تأييد استانبول ضد البريطانيين فانهم لم يفيدوا فورا من انقلاب سنة ١٩٠٨ الذى وصل بحزب تركيا الفتاة الى الحكم . فولاء الوطنيين السابق للسلطان عبد الحميد أبعدهم عن حكام تركيا الجدد . وكان جانب من هذا الولاء يرجع الى افتتان مصطفى كامل بالجامعة الاسلامية ، والى قرار حكيم بعدم مقاومة أكثر من طامع أجنبى فى وقت واحد . وقد رفض الوطنيون المصريون اتهامهم بأنهم يؤيدون الأتراك دون تبصر . فلا شك أن مصر كانت من الوجهة الشرعية جزءا من الامبراطورية العثمانية ، وكانت الأسرة الخديوية وغالبية الطبقة العليا تتحدث باللغة التركية ، وان كانت الحركة الوطنية الأولى بدأت تمردا ضد امتياز طبقة الأتراك والجراكسة . ومهما كان الأمر ، فبريطانيا ــ لاتركيا ــ هى التى سيطرت على مصر منذ سنة ١٨٨٢ ، ومن ثم رأى حزب مصطفى كامل الوطنى فى الأولى عدوا ، وفى الاخيرة حليفا ، ولو بصفة مؤقتة .

وحين نتأمل المشهد الدبلوماسى الأوسع نجد أن بريطانيا قد بدأت تتخلى شيئا فشيئا عن دورها السابق فى حماية تماسك الولايات العثمانية . فاحتلال بريطانيا لمصر ، ثم تأييدها الارمن سنة ١٨٩٦ ، والاتفاق الودى مع فرنسا سنة ١٩٠٤ ، وحادثة طابة سنة ١٩٠٦ ؛ وتسوية الخلافات الاستعمارية مع روسيا سنة ١٩٠٧ (مع ما ترتب على ذلك من احتمال تقسيم الدولتين الكبيرتين لتركيا الى منطقتى نفوذ كما فعلتا بايران من قبل) . كل ذلك أسهم فى تدهور النفوذ البريطانى لدى الباب العالى . وكانت الصحافة البريطانية تسمى « عبد الحميد » « عبد اللعين » و « السلطان الأحمر » ، مضطهد الأقليات المسيحية البائسة ، ومدبر مؤامرات الجامعة الاسلامية (وكان دوره فيها يهدد ، بصورة مبالغ فيها

بلا شك ، سيطرة بريطانيا على الملايين من رعاياها من المسلمين الهنود) ٠ لاغرابة اذن اذا اعتبر الوطنيون المصريون عدو عدوهم صـــديقا لهــم ، وأعداءه المحليين فى تركيا الفتاة ، أو جمعية الاتحاد والترقى ، أعداء لهم أيضا ٠ وكذلك لم يكن من قبيل المصادفات أن جمعية الاتحاد والترقى حينما اضطرت السلطان الى اعادة الدستور التركى بعد طول ايقافه ، أن تبحث عن التأييد الدبلوماسى عند بريطانيا (١) ٠

ولذلك فلم يبد أعضاء تركيا الفتاة أى حرص على مساعدة الوطنيين المصريين فى بداية الأمر ٠ فأنور بك ، بطل انقلاب سنة ١٩٠٨ وفيما بعد مصمم تحالف تركيا مع المانيا أثنـــاء الحرب ، ألقى فى سبتمبر ١٩٠٨ خطابا أثنى فيه على منجزات بريطانيا فى مصر وأنكر أى علاقة بالوطنيين ٠ وذهب على فهمى كامل الى استانبول بعد شهر من الانقلاب ، ولكنه فشل فى الحصول على أى تأييد لأهداف حزبه (٢) واعتقد الوطنيون أن السلطان سينصح الخديو ، وكان يصطاف بقصره المطل على البوسفور ، بأن يمنح البلاد دستورا عند عودته الى مصر ٠ والواقع أن السلطان فى أحد لقاءاته بالخديو حرص على أن يترك لتقديره ــ اذا شاء ــ أن يستجيب لمطالب الوطنيين ٠ أما التأييد الذى ناله الوطنيون فقد كان من مختار باشا (٣) المندوب السامى العثمانى بالقاهرة الذى سرعان ما عزل من منصبه ، ومن أحمد رضا الذى نصح فريدا بألا يكترث بادعاءات الصحافة بأن جمعية الاتحاد والترقى لاتهتم بالمسألة المصرية (٤) ٠ والواقع أن رضا الذى تزعم أعضاء تركيا الفتاة فى المنفى خلال أقسى سنيهم ، لم يكن له نفوذ يذكر على الرجال الذين استولوا على السلطة سنة ١٩٠٨ ٠ فمحمد فريد لم يكن موفقا بشكل عام فى اختيار الأصدقاء فى تعامله مع الأتراك وغيرهم من الأجانب ٠

---

(١) نوقشت هذه المسألة بتفصيل أكبر فى :
Alan Cunningham : «The Wrong Horse ? — a Study of Anglo — Turkish Relations before World War I », in Albert Hourani, ed. : « Middle Eastern Affairs », no. 4. London; Oxford University Press, 1965, pp. 56 - 76, Larger : « The Diplomacy of Imperialism », pp. 161 - 163, 197 - 201, Sir Iohn A. R. Marriott : «The Eastern Question» 4th ed., London, Oxford University Press, 1940, pp. 393f., 407, 434; Romsaur : « The Young Turks », p. 141

(٢) محفوظات وزارة الخارجية FO 371/449 من لوثر الى جراى ، ثيرابيا فى ٢٨ اغسطس ١٩٠٨ ، رقم ٥٢٢ ، FO 371/452 من جراهام الى جراى ، القاهرة فى ٢٧ سبتمبر ١٩٠٨ ، رقم ٩٥ ٠

(٣) Alexander : p. 179

(٤) من رضا الى فريد ، باريس فى ١٠ سبتمبر ١٩٠٨ ٠

ولما كان الوطنيون قد فقدوا فعلا تأييد كل من فرنسا والخديو ، فقد أرادوا المحافظة على علاقتهم بالحكومة العثمانية ، مركز القوة الوحيد الباقى الذى كانت له مصلحة فى معارضة استمرار الاحتلال البريطانى لمصر • وفى أوائل سنة ١٩٠٩ بدأت آمال الوطنيين تنتعش ، وتحقق لهم نصر صغير تمثل فى تعيين الباب العالى مندوبا ساميا جديدا فى مصر متجاهلا بذلك معارضة الخديو وجورست (١) • وكذلك فقد كتب الصدر الأعظم الى الخديو ، ربما بتحريض من الوطنيين ، يطلب تفسيرا للاتفاقية التى أقيم بموجبها حكم ثنائى انجليزى ـ مصرى فى السودان ، وكان مرور عشر سنوات عليها فى ١٩ يناير ١٩٠٩ مناسبة لاحتجاجات عديدة قام بها الوطنيون • واستطاع السفير البريطانى اقناع الصدر الأعظم بعدم اثارة المسألة علنا (٢) •

وتحولت استانبول سنة ١٩٠٩ الى كعبة بالنسبة لسلسلة من الحجاج الوطنيين الذين قصدوها للحصول على تصريحات بتأييد الحكام العثمانيين الجدد لهم • وكانت الصحافة الوطنية تتلقف كل اشارة تأييد رسمى وتضخمها ، وتقلل من شأن معارضيها ، فتصبح موضوعا لمقابلات بين السفير البريطانى والباب العالى •

قام الشيخ جاويش برحلته الأولى الى تركيا فى يناير ، واضطر السفير لوثر الى الاتصال بوزير التعليم العام للتحرى عن صحة ما أشيع عن تعيين الشيخ فى تلك الوزارة (٣) • وفى ابريل سافر فريد بنفسه الى استانبول حيث شاهد الثورة المضادة الفاشلة التى دبرها عبد الحميد

---

(١) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/659 من جورست الى جراى القاهرة فى ١٢ فبراير ١٩٠٩ ، برقية رقم ٧ ، من لوثر الى جراى ، استانبول فى ٤ ابريل ١٩٠٩ ، برقية رقم ١٠٣ ، من جورست الى جراى ، القاهرة فى ٨ ابريل ١٩٠٩ ، برقية رقم ١٤ • وكان البريطانيون يشكون من زمن طويل من أن دار المندوب العثمانى تحولت الى وكر لمؤامرات الجامعة الاسلامية ، وكان ذلك أثر مفاوضات بعثة دروموند ـ وولف الفاشلة ١٨٨٧/٨٥ التى لم تسفر الا عن تأكيد السيادة العثمانية على مصر •

(٢) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/660 من جورست الى جراى ، فى ٧ فبراير ٩ ١٩ برقية رقم ٥ ، من لوثر الى جراى ، استانبول ، ٩ فبراير ١٩٠٩ ، برقية رقم ٥•

(٣) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/659 من لوثر الى جراى ، استانبول ، ٨ فبراير ١٩٠٩ ، رقم ٤٤ •

ضد جماعة الاتحاد والترقى وانتهت بعزلة • (١) وقد أتاح له وجوده هناك سرعة الانتقال الى الجانب المنتصر : فقد حضر صـــلاة الجمعة مـــع السلطان عبـــد الحميد قبل الانقـــلاب ، ثم حضرها بعد ذلك مـــع خليفتـــه محمد الخامس (٢) •

وفي يونيو أستقبل السلطان الجـــديد وفدا صـــغيرا من الوطنيين برئاسة الدكتور عثمان غالب (١٨٤٥ ــ ١٩٢٠)، ولكن يبدو أنه لم يلتزم بشيء في تصريحاته أمامهم • (٣) وفي يوليو قام فريد برحلة أخرى الى استانبول على رأس وفد وطني كبير هذه المرة (٤) ، لحضـــور الاحتفال الرسمي بالذكرى الأولى لاعادة الدستور العثماني • وقد انزعج الخديو كثيرا ، وكان هو الآخر في استانبول وقتـــذاك ، لدعـــوة وفد الوطنيين لحضور المأدبة الرسمية التي أقامتها جمعية الاتحاد والترقى بقصر يلدز ، المقر الرسمي للسلطان • وشكا كل من عباس والسفير البريطاني للباب العالي هذا التكريم الذي ناله الوطنيون ، فساعدا بذلك على منع وفد فريد من الفوز بمقابلة السلطان •

وعند مغادرة فريد لاستانبول أرسل برقية شكر للصدر الاعظم ، رد عليها بخطاب ودى لم يلتزم فيه بشيء ، فنشره فريد في « اللواء » (٥) هذا التصرف العادى فيما يبدو دفع بطرس غالى الى الكتابة للخديو في استانبول محتجا (٦) • وكلف « جراى » لوثر بأن يشير على الصدر الأعظم بأن الخديو يعتبر استقبال السلطان لوفد « غالب » وعلاقات جمعية الاتحاد والترقى بالوطنيين تصرفات غير ودية ، وينذره بأن تركيـــا اذا حاولت

---

(١) أرسل فريد مشاهداته عن الانقلاب وما تلاه الى « اللواء » ، فكانت باعتراف « الاجيشيان جازيت » و « الوطن » افضل ما نشر عن الموضـــوع في الصحف المصرية Alexander : pp. 245 - 247 ومذكرات محمد فريد : ص ٦ وما بعدها •

(٢) مذكرات محمد فريد : ص ٦

(٣) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/663 من لوثر الى جراى ، ثيرابيا ٢٩ يونيو ١٩٠٩ ، رقم ٥٠٦ •

(٤) كان من المشتركين في الوفد ثلاثة من أعضاء اللجنة الادارية للحزب الوطني ، بالاضافة الى عدد قليل من شباب الوطنيين ، كان الورداني أحدهم ، وهو الذي اغتال فيما بعد رئيس الوزراء بطرس غالى • ومثل حزب الأمة بعضو في الوفد ، فقد كانت العلاقات الودية سائدة بين الحزبين في تلك المرحلة •

(٥) مذكرات محمد فريد : ص ٧ وما بعدها • « اللواء » ، ١٥ اغسطس ١٩٠٩ •

(٦) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/662 من جراهام الى جراى ، الرمل في ٢١ اغسطس ١٩٠٩ ، رقم ٦٩ •

اثارة المسألة المصرية فان بريطانيا قد تعيد النظر فى موقفها الودى نحو تركيا (١) • وكان الصدر الأعظم قد تلقى بالفعل اعتراض الخديو على تشجيعه للوطنيين وعدم لياقة استقبال السلطان لوفود مصرية دون موافقة نائب السلطان فى مصر (٢) • فأصدر الصدر الاعظم تعليماته للمندوب السامى العثمانى فى مصر بعدم تشجيع الوطنيين (٣) ، ثم صرح بعد ذلك لمراسل جريدة « التان » الفرنسية بأن حكومته ليس لها ، ولا تريد أن يكون لها ، أى علاقة بالحزب الوطنى المصرى (٤) •

وأثار هذا التصريح ثائرة الوطنيين ، لأنه ضيع هباء كل جهودهم لمحاولة اثبات أنهم يستندون الى تأييد صاحب السيادة الشرعية على مصر• ورد فريد ، وتصادف أن كان فى باريس فى جريدة « لينوفل » بأن الصدر الأعظم قد أكد لوفده أن الحكومة العثمانية لا يمكن أن تنسى مصر أبدا ، ولكن ضعفها الحالى يمنعها من القيام بأى عمل ايجابى (٥) •

وأيا كان الأمر فان الوطنيين لم يحاولوا الافادة سياسيا مرة أخرى من علاقاتهم بالعثمانيين الا بعد مرور سنوات عديدة •

---

(١) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/662 من جراى الى لوثر • لندن فى ٢١ سبتمبر ١٩٠٩ ، رقم ٢٩٠ •

(٢) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/662 من لوثر الى جراى ثيرابيا فى ٧ سبتمبر ١٩٠٩ ، رقم ٧٢٠ •

(٣) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/661 من لوثر الى جراى ، ثيرابيا فى ١٨ سبتمبر ١٩٠٩ ، رقم ٧٦٣ •

(٤) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/662 من جراهام الى جراى ، القاهرة فى ٩ أكتوبر ١٩٠٩ ، رقم ١٢٣ « **Le Temps** » فى ٥ أكتوبر ١٩٠٩ •

(٥) Rothstein : p. 364f. و **Alexander : p. 282f.**

الشباب المصرى فى أوربا

منذ سنة ١٩٠٤ لم تناصر أى دولة أوربية قضية استقلال مصر عن الحكم البريطانى ، غير أن الوطنيين لم يفقدوا الأمل أبدا فى أن حملة دعاية منظمة من الممكن أن تميل بالرأى العام الحر الى جانبهم ، ومن ثم تغير احدى الحكومات الأوربيـــة خطتها • وكان حزب تركيا الفتاة قد نجح فى الاستئثار بقلوب الأحرار فى أوربا بحـرمانه « السلطان الأحمر » من سلطته أولا ، ثم من عرشه بعـــد ذلك ، وببعث الدســـتور العثمانى ، والاعتراف بحقوق الأقليات الدينية والقومية داخل الامبراطورية ، فلماذا لايفوز « شباب مصر » أيضـــا ، وهم لايرون أنفسهم أقل تقـــدما من الأتراك بعطف الأوربيين وتأييدهم ؟

وضع الاطار التنظيمى لهذه الحملة الدعائيـة فى منتصف ســـنة ١٩٠٨ • فقد كان عدد المصريين الذين يدرسون بالخارج آخذا فى التزايد، وبصفة خاصة فى المدارس والجامعات البريطانية والفرنسية والسويسرية • وفى أى مدينة يزيد فيها عدد الطلاب المصريين عن اثنى عشر كانوا يتجهون عادة الى تكوين ناديهم الاجتماعى ، وكان يصطبغ غالبا بصبغة سياسية • وفى سنة ١٩٠٨ كانت جمعيات الطلاب الكبيرة فى كل من لندن وباريس وليون تنظيمات تابعة للحزب الوطنى فى حقيقتها (١) •

(١) تضم أوراق فريد الخاصة خطابات عديدة من المسئولين فى الجمعية المصرية بلندن • وقد خرجت جماعة من الوطنيين الذين كانوا يدرســون بلندن من الجمعية فترة قصيرة خلال سـنة ١٩٠٨ ، وكونوا جمعية شـباب مصر على النحو الذى أوضحه مؤسسها ابراهيم رمزى (١٨٨٤ ــ ١٩٤٩) فى رسالة الى « اللواء » فى ١١ ابريل ١٩٠٨ • ورأس فريد الاجتماع الأول لجمعية باريس التى انتخبت د• عثمان غالب (١٨٤٥ ــ ١٩٢٠) رئيسا فعليا ، وكان مديرا لمدرسة الطب بالقاهرة قبل أن ينفى نفسه مختارا • وعن جمعية باريس انظر : "Revue du Monde Musulman», V, 8 (August, 1908), p. 709f.

وكانت جنيف بمثابة المركز الرئيسى غير الرسمى للتوجيه السياسى للطلاب المصريين بالخارج ٠ وفى سبتمبر ١٩٠٨ نظم محمد فهمى المدرس بكلية الحقوق بجامعة جنيف مؤتمرا « لشباب مصر » ، فكون المشتركون فيه ، ومعظمهم من الطلاب ، لجنة دائمة لتنظيم مؤتمرات سنوية لشباب مصر ، ولأن فهمى لم يكن عضوا فى الحزب الوطنى ، فان مؤتمره الاول لم ينل الا تأييدا ضئيلا من الحزب (١) ولكن اللجنة الدائمة شرعت على الفور فى القيام بحملة دعاية للاجتماع المزمع عقده سنة ١٩٠٩ ٠ وقام أحد الأعضاء ، وهو على الشمسى ، بنشر مقالات فى مختلف الصحف الأوربية يعلن فيها عن المؤتمر ، كما زار نوادى المصريين الأخرى، وكتب الى فريد كثيرا يلتمس تأييد الحزب الوطنى (٢) ٠

وكان المتوقع أن يرحب الحزب الوطنى بهذه الفرصة لنشر آرائه فى قلب أوربا ، غير أنه لم يفعل فى البداية ٠ ويبدو أنه كان أسهل على الشمسى أن يعثر على أوربيين مشهورين يقبلون حضور مؤتمر شباب مصر (بعد تغطية كل النفقات) من أن يجد وطنيين مصريين راغبين فى تأييده فقد كتب الى فريد فى مارس يشكو له أن أحدا من أعضاء الحزب لم يرسل خطبة لتلقى فى المؤتمر أو اسهاما لمواجهة نفقاته ، ثم تساءل : هل يعتقد الوطنيون أن كتابة المقالات لصحف القاهرة أجدى من تنوير الرأى العام الأوربى ؟ ، وحذر من أن مؤتمرا صغيرا غير مدعم لابد أن يسىء الى الحركة الوطنية فى الخارج (٣) ٠

وحين فشلت هذه الدعوة ، ربما لعدم ثقة الوطنيين فى محمد فهمى ، قدم على الشمسى ، الى القاهرة ليستحث التأييد بنفسه ٠ وأخيرا وافق فريد على حضور المؤتمر ومعاونة الشمسى فى الحصول على المال والخطباء (٤) ٠ ولاضفاء جو من الوئام على المؤتمر وافق حزبا الأمة

---

(١) من على الشمسى الى فريد ، جنيف فى ٢٢ نوفمبر ١٩٠٨ ، والشمسى ينتمى الى أسرة اقطاعية ثرية من الزقازيق من أصل تركى اختلط بالمصريين ٠ وعمل بعد ذلك فى البرلمان ، وفى عدة وزارات ، ثم مديرا للبنك الأهلى ٠ وكان ابن أخيه – على صبرى – رئيسا لوزراء مصر فيما بين عامى ١٩٦٢ و ١٩٦٥ ٠

(٢) من الشمسى الى فريد ، جنيف فى ٢٢ نوفمبر و ٣١ ديسمبر ١٩٠٨ ، ١٤ فبراير ١٩٠٩ ٠

(٣) من الشمسى الى فريد ، ادنبرة فى ٢٠ مارس ١٩٠٩ ، والواقع أن البريطانيين فى القاهرة كانوا يميلون الى اعتبار المؤتمر مجرد أضحوكة
Alexander : p. 271f., « The Egyptian Gazette », 16 February 1909.

(٤) من الشمسى الى فريد ، جنيف فى ١٣ يوليو ١٩٠٩ ٠

والاصلاح الدستورى أيضا على ايفاد ممثلين لهما • وأعلنت اللجنة الدائمة للمؤتمر أنه يهدف الى « •• التعريف بمطامع انجلترا فى وادى النيل ، وفضح المساوىء التى ترتكبها كل يوم باسم الحضارة والتقدم ، والبحث عن علاج للموقف بكل الوسائل الممكنة والمشروعة •• » (١) •

وأيا كانت درجـــة تأثر الرأى العـــام الأوربى باتفـاق الأحزاب السـياسية المصرية حـول ضرورة الاسـتقلال الوطنى ، أو الجدية التى تقبل بها بعض الموضوعات الجدلية مثل « شرور الاحتلال » و « اشتراك جيش الاحتلال فى تهريب الحشيش » و « المقارنة بين المسألتين المصرية والايرلندية » (٢) ، فلاشك أن أبرز سمات المؤتمر كانت اشتراك مالايقل عن أربعة نواب من مجلس العموم البريطانى ، كان أهمهـــم كيرهاردى رئيس حزب العمال المستقل ، وقد ألقى خطبة نصح فيها المصريين بتجنب تكتيكات المتطرفين ، كالاساءة الشخصية الى الموظفين الانجليز المتمصرين، أو الالحاح على حوادث فردية مثل حادثة دنشـــواى ، أو تكوين جمعيات ثورية سرية (٣) •

وكان ذلك أبعد ما يكون عما يريد الشباب المصرى سماعه • وقد وصف لطفى جمعة طالب الحقوق بليون فى مذكراته غير المنشـــورة ، وهو الذى قام بالدور الرئيسى فى اقناع أعضاء مجلس العموم البريطانى بحضور المؤتمر ، خطبة هاردى بأنها كانت ثناء على عمل كرومر فى مصر ودعوة للمصريين للخضوع للحكم البريطانى • وما ان انتهى هاردى من خطبته حتى نهض جمعة ، متجاهلا رفض فهمى الاعتراف به ، وشرع يفند الخطبة نقطة نقطة ، فحمله زملاؤه على أكتافهم وطافوا به القاعة وسط الهتاف والتصفيق • ودهش فريد الذى لعله لم يفهم خطبة هاردى ، وسر

---

(١) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/662 من كارترايت الى جراى فيينا فى ٩ مايو ١٩٠٩ ، رقم ٧٠ • وتوجد مقتطفات منها فى : Alexander : p. 272

(٢) يقدم عبد الرحمن الرافعى قائمة لغالبية الكلمات التى ألقاها المصريون فى المؤتمر : ص ١١١ وما بعدها ، تضاف اليها التقارير التى نشرتها جريدة « L'Eclair » فى ٢٢ سبتمبر ١٩٠٩ ومحفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/662 من باكس ـ ايرونسايد الى جراى ، برن فى ٢٩ نوفمبر ١٩٠٩ ، رقم ٥١ ولم يخطب فى المؤتمر أى من أعضاء اللجنة الادارية للحزب الوطنى ، باستثناء فريد الذى ألقى خطبة طويلة باللغة الفرنسـية عن مســاوىء الحكم البريطانى فى مصر ومطالب الحزب الوطنى • وللترجمة العربية لهذه الخطبة انظر : عبد الرحمن الرافعى ص ص ١١٢ ـ ١١٦ •

(٣) Emrys Hughes : « Keir Hardie »; London; George Allen and Unwin, 1956, p. 188, Alexander : p. 275f.

برد جمعه الفورى ، فضمه وقبله وصاح والدموع تترقرق فى عينيه : « انت ابنى ! أنت خليفتى ! أنت زعيم ! »

واذا بكيرهاردى يصبح ، بغبائه ربما ، كمتحرر أبيض وسط تجمع قوى من السود ، ولكنه مالبث أن تخلى عن هذا الدور بتوضيح لملاحظاته يلائم الجو السائد بين الحاضرين ٠

كانت استجابة « جمعة » الخاصة تناسب شابا متطرفا كاستجابته العامة ، فى حين كانت خطبة هاردى مؤامرة من حزب العمال حرض عليها فهمى لخذلان الوطنيين ٠ وكان فريد « غير مشغول بهذه المسائل ، مهتما فقط بالقاء خطبته وحضور المآدب » ، بل كان يشك فى أن أقرب أصدقائه ومعاونيه ، وهو حامد العلايلى ، عميل للخديو (١) ٠

كان القصد من مؤتمر مصر الفتاة أن يكشف لأوربا عن رغبة مصر الموحدة فى الاستقلال الوطنى بصرف النظر عن الانتماءات الحزبية ، وبدلا من ذلك اذا به يكشف عن انقسامهم العميق الى فئات كل منها يشك فى الآخر ٠ فقد اعتقد فريد أن الخديو ضم فهمى الى حزب منافس (٢) ٠ وكان مؤتمر مصر الفتاة مناسبة نادرة تعاون فيها فريد مع حركة مصرية لاتخضع لسيطرته ، بحيث لاندهش لقرار الحزب بالاشراف على مؤتمره الأوربى فى العام التالى ٠

---

(١) أنا مدين لرابح لطفى جمعة بمصر الجديدة (ج٠ ع٠ م٠) للسماح لى بقراءة مذكرات والده عن سنة ١٩٠٩ ٠ وفى لقاء مع حامد العلايلى أخبرنى أنه لم يصبح عميلا للخديو الا منذ سنة ١٩١١ حين تزوج ابنة الشاعر أحمد شوقى ٠

(٢) Blunt «My Diaries» : pp. 686, 693.

الخلاف حول قناة السويس وعواقبه

على الرغم من أن الوطنيين قادوا حملة ضخمة تطالب بحكومة دستورية ، فمن الخطأ الظن أن مصر كانت بلا دســـتور ، اذ كان القانون النظامى لسنة ١٨٨٣ ، وقد ظل القاعدة التشريعية للحكومة المصرية ثلاثين سنة ، يسمح بقيام عدة أجهزة نيابية : مجلس شـــورى القوانين ، والجمعية العمومية ، ومجالس المديريات • ولكن انتخاباتها جميعا كانت غير مباشرة ، والتصويت محدد ، واختصاصاتها ضئيلة للغاية ، فى حين كانت سلطة التشريع الفعلية مقصورة على الوزراء ، أو على مستشاريهم البريطانيين فى حقيقة الأمر •

ومن الخطأ أيضا الظن أن البريطانيين كانوا غافلين عن حاجة هذه الأجهزة الى الدعم والاصلاح ، فخلافهم مع الوطنيين كان حول سرعة هذا الاصلاح ومداه • وزاد من تعقيد المسألة الاختلاف حول هذا الكيـــان التشريعى وهل يكون من حقه فرض القوانين على الأجانب المقيمين بمصر أم لا • كان الوطنيون يريدون الاحتفاظ بنظام الامتيازات القائم ، فكثيرا ما طبق لمصلحتهم (كما فى حالة قانون المطبوعات) واقترح البريطانيون انهاء الامتيازات فى مقابل حماية مصـــالح الأجانب عن طريق تمثيلهم تمثيلا حقيقيا فى أى مجلس تشريعى يخطط له • ومثل هذه الخطوة العنيفة كان لابد أن تقابل بمقاومة عنيفة من الدول الأخرى صاحبة الامتيازات(١)، فضلا عن « الأجانب » أنفسهم الذين لم تقع أعين الكثيرين منهم على البلاد التى يحملون جنسيتها • لذلك فقد فضل البريطانيون أن يقوموا باجراء

(١) كانت دول الامتيازات هى : النمسا ، المجر ، بلجيكا ، الدانمرك ، فرنسا ، المانيا ، بريطانيا العظمى ، اليونان ، ايطاليا ، هولندا النرويج ، البرتغال ، روسيا اسبانيا ، السويد والولايات المتحدة •

اصلاحات تدريجية فى المؤسسات القائمة ، وهو اجراء يلائمهم لخبرتهم فى الاصلاح السياسى الداخلى التى اكتسبوها خلال القرن التاسع عشر • أما الوطنيون فلم يستهوهم اتباع هذا الاسلوب لعدم تمرسهم بمزايا التدرج •

وكان أعضاء مجلس شورى القوانين قد أخذ ميلهم للحزب الوطنى يزداد مع قلة اختصاصاتهم التشريعية ، وعلى أمل أن يكبح الخديو هذا الميل عين عمه (وخليفته فيما بعد) الأمير حسين كامل رئيسا للمجلس فى مارس سنة ١٩٠٩ • وأهم من ذلك أعلنت الحكومة فى نوفمبر أنها ستسمح لأعضاء المجلس باستجواب الوزراء ، بشرط أن يقدموا أسئلتهم قبلها بخمسة أيام • ومن حق رئيس المجلس أن يستبعد الأسئلة التى يرى أنها ضارة أو غير لائقة (كأن يكون الوطنيون هم الذين أوحوا بها) • وباستطاعة الوزراء بعد ذلك أن يمتنعوا عن الاجابة اذا شاءوا • وقد عارض عدد من أعضاء المجلس بقيادة اسماعيل أباظة (١) اقتراح الحكومة بسبب هذه القيود ، ولكنه قبل فى النهاية ، وأصبح المجلس على نفس القدر من العناد ، فانضم أحمد يحيى الى اسماعيل أباظة فى مضايقة الحكومة حول ميزانية ١٩١٠ ، وزاد تأثير الصحافة الوطنية على أعضاء المجلس بدرجة لم تحدث من قبل • وتمثلت الخطوة الحقيقية الأولى فى برنامج جورست لدعم العنصر النيابى فى الحكومة المصرية فى زيادة صلاحيات مجالس المديريات التى أجريت انتخاباتها فى مايو ١٩٠٩ • وعاد الوطنيون الى اتباع سياسة « اما الكل واما فلا » فعارضوا هذا الاصلاح على أساس أن الهدف منه هو شغل الشعب عن المطالبة بمجلس نيابى قومى •

---

(١) دور اسماعيل أباظة فى السياسة المصرية محير ، فهو يرتبط عادة بحزب الأمة ، وقد راس وفدا من أعضاء مجلس شورى القوانين الى لندن سنة ١٩٠٨ ، للقيام بضغط من أجل الاصلاح الدستورى • وقد هاجمه الوطنيون لذلك ، فرد عليهم بتعويق جهودهم لانشاء لجنة فرعية للحزب فى محافظة الشرقية ، حيث تتمتع أسرته بالسيطرة الاقتصادية والسيادة السياسية ولكن تطلع اسماعيل أباظة لمنصب وزارى جعله يغير موقعه ليشغل مكانا فى الحزب الوطنى فيما بين عامى ١٩٠٩ و ١٩١٠ • وبعد ذلك حينما بدأ الحزب فى الضعف ، سعى لمهادنة الحكومة والبريطانيين • وقد ضعفت أهميته السياسية بعد فشل دعوته لاعادة انتخاب مجلس شورى القوانين فى يناير ١٩١١ ، ومع ذلك فقد انتخب فى الجمعية التشريعية سنة ١٩١٤ باعتباره من أنصار الحكومة (أى معاديا للحزب الوطنى) • (مذكرات محمد فريد : ص ٨٢ ، محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/894 من جون م• روبرتسون الى جراى ، مجلس العموم فى ٣ أغسطس ١٩١٠) •

وكانت المسالة فى الحقيقة من الأفكار التى اختلف حولهـــا بشأن البناء الحكومى • فبينما كانت الحكومات المحلية تقوم بدور هام فى النظم السياسية الانجلو سكسونية كانت اختصـــاصاتها فى المجتمع الاسلامى تقوم بها عادة المجتمعات الطائفية ذات الاســتقلال الذاتى • أما بالنسبة للزعماء الوطنيين ذوى الميول الأوربية فلعـل النموذج الذى آثـروه هو الحكومة المركزية التى خلفها التراث النابليونى وتجسدت فى الجمهورية الفرنسية الثالثـة • والنتيجة أن هوة الخـــلاف ازدادت اتســـاعا بين الوطنيين والبريطانيين •

وكانت الجمعية العمومية هى التى تعرض دورها بالفعل الى أكبر قدر من التغيير ، لأسباب لا صلة لها بخطط البريطانيين للاصلاح الدستورى ، مما ترتب عليه نتائج غير متوقعة • فقد اهتمت شركة قنـــاة السويس بتزايد الاضطرابات من أجل الاســـتقلال ، واحتمـال أن يقدم الأحرار البريطانيون تنازلات للوطنية المصرية ، وعبرت عن حرصها على مد فترة امتيازها التى تنتهى سنة ١٩٦٨ • وكانت الحـــكومة المصرية بدورها بحاجة الى مال بسبب تدهور ايراداتها خلال الأزمة المالية • فبدأت تروج منذ مايو ١٩٠٩ شائعات عن اتفاق وشيك بين الجانبين ، وفى أكتوبر قدم المستشار المالى البريطانى مســـودة مشروع للحكومة المصرية • وكانت الاتفاقية المقترحة تقضى بمد امتياز شركة قناة السويس الى سنة ٢٠٠٨ مقابل أن تدفع الشركة للحـــكومة أربعـة ملايين جنيه على أربعة أقساط متساوية فيما بين سنتى ١٩١٠ و ١٩١٣ ، وتتلقى الحكومة كذلك نصيبا من صافى ايراد الشركة يتزايد تدريجيا من أربعة الى اثنى عشر فى المائة فيما بين عامى ١٩٢١ و ١٩٦٨ ، وابتداء من سنة ١٩٦٩ تتلقى الحكومة نصف صافى الايراد ، بشرط ألا يقل نصيب الشركة عن خمسين مليون فرنك (مليونى جنيه مصرى) ، على أن يســمح للحكومة أيضا بأن يكون لها ثلاثة ممثلين فى مجلس الادارة (١) •

ومهما تكن المزايا المباشرة التى قدمتها هذه الخطة للحكومة المصرية (التى لم تتسلم أى نسبة من ايرادات القناة منذ سنة ١٨٨٠) فلا شك أنها كانت خطة قائمة على تصور خاطىء من جانب واحد • فيبدو أن الشركة كانت تتوقع نصرا وطنيا مظفرا فأرادت أن تحمى وضـــعها فى مصر • أما بالنسبة للمصريين ، وليس الوطنيون وحدهم ، فكانت الخطة تؤجل الى مالانهاية تقريبا الوقت الذى تصبح فيه القناة ملكا لهم أخيرا •

---

(١) ملخصا عن Alexander : p. 286

وبدأت الصحافة الوطنية تهاجم على الفور اتفاقية مد الامتياز ، واللجنة الادارية للحزب تنظم العمل لافساد الخطة (١) . وعقد مجلس شورى القوانين اجتماعا غير عادى مع أعضاء الجمعية العمومية ومجالس المديريات والبلديات لمناقشة المشروع (٢) ، واضطر رئيس الوزراء بطرس غالى أمام عنف هجمات الصحافة الوطنية الى دعوة مجلس الوزراء الى الاجتماع فى بيته ، حيث قرروا عرض الاتفاقية على الجمعية العمومية للتصويت عليها . وكان قرار الوزراء ثوريا لأن المجلس لم تكن له أى سلطة تشريعية غير التصديق على ضرائب جديدة . وأصر جورست على تأييد القرار الذى تعرض لنقد حاد من الصحافة البريطانية (٣) . وشاع الاعتقاد بأن الخديو كان المسئول عن تلك الخطوة ، فرحب الوطنيون بتصريحاته العامة المؤيدة باعتبارها بشيرا بالدستور الذى طال انتظاره (٤) . وحينما انتقل من الاسكندرية الى القاهرة مع تقدم الشتاء أقيمت مظاهرات حماسية لتكريمه . ولم يقلل سفره للحج بعد ذلك من شعبيته الجديدة .

اجتمعت الجمعية العمومية فى ٩ فبراير ١٩١٠ ، وخطب فيها الخديو ، وأوصى بالموافقة على اتفاقية مد الامتياز . وبينما واصلت صحافة الحزب الوطنى التنديد بمشروع الاتفاقية ، ونظم الحزب مسيرات وخطب احتجاج انتخبت الجمعية العمومية لجنة لدراسة الاتفاقية المقترحة . ولم يكن أعضاء اللجنة من ذوى الخبرة الخاصة بالشئون المالية ، ولكنهم كانوا حساسين لنقد الصحافة ، فشاع الاعتقاد بأنها ستوصى الجمعية برفض الاتفاقية (٥) . غير أن الحكومة لم تكن قد ألزمت نفسها بتنفيذ قرار الجمعية .

ووسط هذا الخلاف أطلق صيدلى شاب يدعى ابراهيم ناصف الوردانى النار على بطرس غالى وأصابه بجراح خطيرة . على الرغم من نقله الى المستشفى واجراء عملية جراحية سريعة له لاخراج الرصاصات فقد أزهقت روحه ، وتوفى فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى .

---

(١) « اللواء » ، ٣٠ أكتوبر ١٩٠٩ .

(٢) Alexander : p. 285.

(٣) «The Egyptian Gazette», 3 November, 1909. على سبيل المثال .

(٤) « اللواء » ، ٣ نوفمبر ١٩٠٩ ، Alexander : p. 288

(٥) « The Egyptian Gazette », 14 February 1910

وقبض على الوردانى فى موقع الجريمة واستجوبته النيابة العامة ، واعترف بجريمته ، وقرر أن دافعه للجريمة هو خيانة بطرس للأمة بتوقيع اتفاقية الحكم الثنائى للسودان ، وبرئاسته لمحكمة دنشــــواى ، واحيــاء قانون المطبوعات ، والحث على قبول اتفاقية قناة السويس (١) •

وفتشت الشرطة بيت الوردانى وعثرت على أوراق تثبت انتماءه الى جمعية سرية تسمى « التضامن الأخوى » ، هدفهـــا الرئيسى هو تحرير مصر من الحكم البريطانى بكل وسيلة بما فى ذلك استخدام القوة • ورغم اصرار الوردانى على أنه عمل وحده ، فقد قبض على ثمانية أعضاء آخرين بتهمة التآمر ، ولكنهم مالبثوا أن أفرج عنهـم لعدم وجود نص فى قانون العقوبات الأهلى يعاقب على عضـــوية الجمعيات السرية المتآمرة • وأنكر زعماء الحزب أى معرفة بالجمعية ، ولكنهم اضطروا للاعتراف بأن الوردانى كان عضوا فى الحزب •

وحوكم الوردانى فى ابريل بتهمة القتل ، وحكم عليه بالاعدام ، وكان الرأى العام يؤيد الدفاع ، فقد بدا أن المحامين يخاطبون الشـــارع أكثر مما يخاطبون المحكمة (٢) ، وأسرف فى استغلال حقيقة أن الوردانى مسلم وضحيته مسيحى ، فسارت جماعات من الشباب المسلم تصيح فى الشوارع :

« وردانى ، وردانى
الى قتل النصرانى » (٤) (*)

ورفض مفتى الديار المصرية اصدار فتوى تؤيد اعـــدام الوردانى ، وبذلت جهود عديدة لانقــاذ حياته ، وبالرغم من أن الجميـــع توقعوا أن ينجو الوردانى من المـــوت بطريقـــة ما ، فانه شنق فى سرية تامة فى

---

(١) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية من جورست الى جراى ، القـاهرة فى ٢٤ فبراير ١٩١٠ ، رقم ٢٢ •

(٢) كانت المرافعة الختامية للمحامى ابراهيم الهلباوى مشحونة بالســياسة لدرجة اضطرت المحكمة الى اخلاء القاعة من الجمهور ، ولكن ظهر فيما بعد أن المرافعة كانت قد نشرت فى الصحف بالفعل • كان الهلباوى يحاول استعادة شعبيته التى فقدها بقيامه بدور ممثل الاتهام فى محاكمة دنشواى •

(٣) Storrs : "orientation» : p. 84.

(*) لم يحدث قط ان سارت جموع للشباب تهتف بهذا الهتاف او بما يشبهه • انما جاءت هذه العبارة فى احدى الأغنيات الشعبية مجهولة المصدر ، وهى لا تمثل رأيا عاما ، لأن الرأى العام كان ينظر الى قتل بطرس غالى من زاوية وطنية بحتة •

٢٨ يونيو ١٩١٠ ، بعد أربع سنوات بالضبط من تنفيذ أحكام «دنشواى» ، وقبل أربع سنوات بالضبط من وقوع حادث اغتيال آخطر ٠

وبعد اغتيال بطرس غالى بقليل عين الخديو « محمد سعيد » وزير الداخلية خلفا له ٠ واعتبر الوطنيون هذا التعيين نصرا لهم لأنهم اعتقدوا أن سعيدا متعاطف معهم (١) ٠ وفى ٢٤ فبراير اســـتقال الأمير حسين كامل من رئاسة مجلس شورى القوانين ، ربما لانه تلقى تهديدات من مجهولين باغتياله (٢) ٠ وسرعان ما بدأ أعضاء الجمعية العمومية يقرأون كلمات تهديد مكتوبة بخط اليد على الجدران ٠ فاذا صح أن الوطنيين كانت تناصرهم جمعية ارهابية سرية ، كما أكدت ذلك الصحف المناصرة للبريطانيين فى تحذيراتها التى أعقبت الاغتيال ، فمعنى ذلك أن أعضاء الجمعية العمومية لو وافقوا على اتفاقية قناة السويس لعرضوا حياتهم للخطر ، ومن ثم فقد استجابوا لتوصية لجنتهم الخاصة ورفضوا مشروع الاتفاقية فى ابريل (٣) ٠ وكانت وزارة محمد سعيد قد قررت بالفعل قبول قرار الجمعية واعتباره ملزما للحكومة ٠ وهكذا أهملت الاتفاقية ٠

كان هذا أعظم نصر حققه الحزب الوطنى ، وهو يقدم مثالا نموذجيا لحدود سلطة البريطانيين فى مصر ٠ وقتذاك تشجع كثير من المصريين وتوقعوا أن يلى ذلك الدستور ، ثم انسحاب جيش الاحتلال البريطانى ٠ ولكن الواقع أن هذين الهدفين الرئيسيين عند الوطنيين لم يتحققا ٠ فزعامة الحـــزب الوطنى فى تنافسها مع الطوائف المصرية الأخـــرى على الفـــوز بالتأييد الشعبى تبنت ، أو أقرت القيام بحملة مقاومة علنية ، ولكنها كانت تفتقر الى الارادة والوسائل اللازمة للقيام بثورة ٠

ان الرصاصات التى أطلقها الوردانى لم تقتل رئيس وزراء مصر وحده ، بل قتلت أيضا سياسة حكومة الاحرار البريطانية فى العمل على

---

(١) Alexander : p. 312, A. J. Butler : «The Misgovernment of Egypt», The Nineteenth Century, LXVIII, 404 (October 1910), p. 593.

(٢) « The Egyptian Gazette »; 24 February 1910 وقد هاجمتها « اللواء » لتأييدها لاتفاقية قناة السويس

(٣) نص التقرير الذى قدمته اللجنة الخاصـة الى الجمعية العمومية منشـــور فى Rothstein : pp. 371 - 408 وقد قدر التقرير أن الحكومة المصرية ستخسر ١٣٠ مليون بين عامى ١٩١٩ و ٢٠٠٨ اذا نفذ المشروع ، وكان هذا هو السبب الرئيسى الذى استند اليه لرفض الاتفاقية بعد أن حث الخديو والوزارة الجمعية على التصديق عليها ولكن السبب الحقيقى كان سياسيا بلا ريب ٠

نقل السلطة تدريجيا وسلميا من أيدى البريطانيين الى المصريين • وقام تيودور روزفلت بزيارة للقاهرة ثم لندن آكدت تغير سياسة بريطانيا في مصر من التحرر الى الاستبداد • وكذلك حطم الورداني ، حتى سنة ١٩١٩ على الأقل ، وربما حتى اليوم ، آخر أمل لمصطفى كامل فى قيام اتحاد بين مسلمى مصر وأقباطها بشأن قضيتهم القومية ، والواقع أن الوردانى الذى ضحى بحياته مختارا للقضاء على رجل اعتبره خائنا لأمته قد قضى في الوقت نفسه على الحزب الوطنى الذى كانت تضحيته من أجله أساسا • (*)

(★) هذه تقريرات ألقاها المؤلف جزافا وبلا سند من الواقع او التاريخ ، فالاتحاد بين المسلمين والاقباط لم يصبه انهيار بل انه بعد فترة اعقبت قتل بطرس غالى ازدادت العلاقة بين الفريقين توثقا وقد شهدت احداث ثورة ١٩١٩ ، التى هى امتداد مباشر لنشاط الحزب الوطنى السياسى صورا من اندماج الفريقين وانصهارهما فى وحدة كاملة مثلها واعلن عنها شعار (الهلال والصليب) •

اما الحزب الوطنى فقد ازدادت قوته ونما تأييد الشعب له ، ولكن الانحسار الذى اصابه بعد ذلك لا صلة له بقتل بطرس غالى ، وانما جاء لأسباب منها اضطرار فريد وجاويش الى الهجرة الى تركيا ، ولم تكن هذه الهجرة لتضعف الحزب الوطنى لولا أن الحرب العالمية الأولى اندلعت نيرانها بعد اقل من سنتين من وقوع هذه الهجرة ، ثم ما أسفرت اخيرا عنه هذه الحرب من انتصار بريطانيا وخروجها قوية من الحرب الدولية الأولى ، وما تلا ذلك من غلبة التيار المؤمن بالمفاوضة والتعاون مع الاحتلال البريطانى •

الفصل السادس

أفول الحزب الوطني في مصر

- الاجراءات البريطانية المضادة
- حملة الوطنيين في أوربا
- الزعيم السجين والانقسام الطائفي
- نظام الحكم الجديد في مصر

الاجراءات البريطانية المضادة

فى الوقت الذى بدا فيه أن الحزب الوطنى متجه الى مزيد من الثورية اخذت الحكومة البريطانية تعيد النظر فى سياستها المصريه المتحررة التى نفذها جورست باخلاص ثلاث سنوات ، فى حين كان رد الفعل المباشر للحكومة المصرية ازاء اغتيال بطرس غالى هو تبنى سياسه ممالأة — ظاهريا على الأقل — للوطنية المتقدة • وتمثل ذلك فى تعيين محمد سعيد ، والمفروض أنه وطنى غير متحفظ ، (١) خلفا لرئيس الوزراء المغتال ، ثم استقالة الامير حسين كامل من رئاسة المجلس التشريعى ، ورفض الجمعية العمومية لاتفاقية قناة السويس ، وتخلى الحكومة عن الخطة التى أقرتها من قبل ، كل ذلك بدا وكأنه بشير بالنصر الوشيك الذى سيحققه الحزب الوطنى •

ومع ازدياد عنف الصحافة الوطنية واضطرابات الشارع أصبحت مصر مهددة بالفوضى • ولو وصلت الاضطرابات الى الدرجة التى يرفض معها أى وزير تولى المسئولية لما كان أمام البريطانيين الا أن يلجأوا الى القانون العسكرى لاعادة النظام ، أو أن ينسحبوا من مصر نهائيا • وعقد المراقبون المعاصرون مقارنات متشائمة بحالة مصر السياسية سنة ١٨٨١ (٢) ، غير أن الحكومة المصرية لم تستسلم سنة ١٩١٠ للوطنيين، بل عملت بتأييد بريطانى قوى ومتزايد على الحد من نفوذ الحزب الوطنى حتى فقد قدرته على تشكيل خطر حقيقى •

---

(١) لعل الرافعى اقترب من الحقيقة أكثر حينما كتب : « بالرغم من الآمال التى علقها الوطنيون على معاملة الوزارة الجديدة لهم برفق ، لما عرف من ميول محمد سعيد باشا الوطنية • فالحقيقة أن وزارته كانت أسوأ فى معاملتها للحركة الوطنية من وزارة بطرس غالى • » (« محمد فريد •• » ، ص ١٥٦)

(٢) Alexander : p. 346f., «The Times», 23 April 1910.

كيف أمكن للحركة الوطنية أن تنجب ، وهى التى تعارض العنف، قاتلا كالوردانى ؟

هل كان الحزب الوطنى الظاهر الذى يسعى لاستقلال مصر بالوسائل السلمية يخفى شبكة من الجمعيات التآمرية والثورية ؟

لقد قام مكتب المدعى العام عقب الاغتيال مباشرة بالتحرى عن الجمعية السرية التى ينتسب اليها الوردانى . وتاريخ « جمعية التضامن الأخوى » كما أسفرت عنه تلك التحريات يمثل نموذجا مصغرا لمحاولات تسييس طلبة مصر فى تلك الفترة . (١) فقد كونها سنة ١٩٠٥ تسعة من طلبة مدرسة الهندسة جماعة أخوية للتعاون المتبادل فى شئون الدراسة ، وبالتدريج وسع الأعضاء مجال مناقشاتهم ليشمل المسائل السياسية والاجتماعية . وسرعان ما تحول الكلام الى عمل . وفى سنه ١٩٠٧ زكى أحد الأعضاء « الوردانى » لعضوية الجمعية لأن خبرته فى الصيدلة تمكنه من صنع المتفجرات والعقاقير السامة . وسنة ١٩٠٨ كانت الجمعية قد أصبحت سياسية بصورة واضحة ، وأصبحت أهدافها الجديدة هى الحصول على استقلال مصر وحكومة دستورية بأى وسيلة ، بما فى ذلك القوة . واقترح أحد مسئوليها الجدد (٢) ، وهو شفيق منصور ، الذى سيظهر فى تاريخ مصر مرة أخرى باعتباره واحدا من المتآمرين على اغتيال سير لى ستاك سنة ١٩٢٤ ، برنامجا محكما يشمل تكوين خلايا فى المدارس الثانوية والعليا ، وتشجيع الصناعة الوطنية بمقاطعة التجار والمنتجين الأجانب ، وانشاء مدارس حرفية وتوعية زعماء الطرق الصوفية وعلماء الاسلام بشرح موقف بريطانيا المعادى للاسلام لهم ، وتأليف أشعار وأغان وطنية لتنبيه الفلاحين الى سوء حالهم فى ظل الحكم البريطانى .

---

(١) هذا التاريخ ملخص عن تقرير النائب العام عن « التضامن الأخوى » المؤرخ ٣٠ مارس ١٩١٠ ، محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/890 من جورست الى جراى ، القاهرة فى ١٧ ابريل ١٩١٠ رقم ٤٦ .

(٢) كان المسئولون الذين أختيروا جميعا طلبة فى المدارس الحكومية العليا : عبده البرقوقى (رئيسا) شفيق منصور (سكرتيرا) ، ومحمود أنيس (أمينا للصندوق) وقد أتم البرقوقى ومنصور دراستهما القانونية فى باريس بعد ذلك ، حيث نشر الأول رسالته « العلاقات بين السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية فى مصر «Rapports entre le pouvoir judicaire et le pouvoir executif en Egypte» وفى سنة ١٩٢٥ كانت خطط البرقوقى للجمعية تشمل الكتابة والقاء المحاضرات وانشاء علاقات مع الطرق الصوفية .

وشجع الأعضاء الذين يدرسون بالخارج هذا الاتجـــاه الجديد : واقترح الورداني وكان يدرس في لوزان الحصول على السلاح ، وقصر الجمعية على المسلمين ، وكتب طالب من ليون الى أحمد فؤاد طالب الطب بالقاهرة ، يغريه بخطة ارهابية ، ولكنه ينصـــــح بعدم تنفيذها قبل أن يتدرب الشعب على استخدام السلاح ويتهيأ للثورة (١) ٠

وأعد أعضاء الجمعية في مصر قائمة بالتجار الوطنيين تمهيدا لمقاطعة الأجانب وأنشأوا أول مدرسة في سلسلة مدارس الشعب التى تمنوا أن تنتشر في كل أرجاء البلاد برعاية « جمعية التضامن » ٠

وبالرغم من الشك الشائع في أن « جمعية التضامن » هي التي تآمرت على حياة بطرس غالى ، فلم يثبت أبدا أنها أقرت عمل الوردانى قبل قيامه به ، وكذلك فليس من الواضح اذا كانت « جمعية التضامن » قد تلقت أوامر من الحزب الوطنى ، وان كان كل أعضـــائها تقريبا من الوطنيين ٠ والوردانى نفسه كان وطنيا بلا شك ، مثل طلبة لوزان في الاحتفال بذكرى الاربعين لوفاة مصطفى كامل ، وحضر مؤتمرات جنيف واشترك في الوفد الوطنى في الاحتفـــالات بالدستور العثمـــــانى سنة ١٩٠٩ (٢) ٠

وأوضحت التحقيقات التالية أيضا أن « جمعية التضامن » كانت على صلة بعدة جمعيات سرية أخرى ، كلها مكونة من شباب الوطنيين ٠ (٣)

---

(١) انظر نص الرسالة في Alexander : pp. 313 - 315 وكان أحمد فؤاد وقد فصل من مدرسة الطب بسبب دوره في المؤامرة المزعومة ضد بطرس غالى ، وأتم تعليمه في استانبول حيث عمل في وزارة الداخلية العثمانية خـــلال الحرب العـــالمية الأولى ٠ وأثنـــاء الاستجواب زعم فؤاد أن الاشـــارة الى الارهاب كانت اجابة على تعبيره عن نيته لقتل مدير مدرسة الطب لأنه كان السبب في رسوبه في الامتحانات ثلاث مرات ٠ وشهادته توحى بعقلية مختلة ، ولكنها يمكن أن تصور جو التوتر والمؤامرات الذى كان سائدا في مصر خلال سنتى ١٩٠٩ و ١٩١٠ ٠

(٢) تضم أوراق محمد فريد رسالة من الوردانى بتاريخ ١٣ يوليو ١٩٠٩ تتحدث عن ترتيبات مع وزارة التعليم العثمانية لقبول الطلبة المصريين بالمدارس التركية العليا ٠ ومن المحتمل أن يكون فريد قد مزق رسائله الأخرى قبل أن تستدعيه النيابة لاستجوابه حول دور حزبه في الاغتيال (مذكرات فريد : ص ٢٤٦) ٠

(٣) وكانت هذه الجمعيات تشمل : « التعاون الأخوى » بزعامة رئيس لجنة الحزب الفرعية بالعباسية و « الحياة » وكان من بين المسئولين عنها خليل مذكور (المولود سنة ١٨٨٨) وقد شارك في اغتيال لى ستاك بعد ذلك ، ومحمود أبو الفتح الذى أنشأ فيما بعد « المصرى » جريدة الوفد الكبرى ٠ (محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/1114 من تشيشام الى جراى ، الرمل في ٣ يونيو ١٩١١ ، رقم ٨٦ ، سرى) ٠

واذا كان اكتشاف هذا العدد الكبير من الجمعيات السرية التى تكاد تملأ مصر قد أنذر الحكومة والبريطانيين ، فقد أوقع الوطنيين فى الوقت نفسه فى مأزق ، حين أدان الزعماء الاغتيال وعرضوا المعاونة فى التحقيق فأثبتوا أنهم لم يكونوا ثوريين · لقد تحول الحزب من التآمر السرى برعاية القصر الى حركة تشمل الامة كلها وتستهدف تحرير مصر بالطرق الشرعية ، ويقودها محامون يعتقدون أنهم أصحاب قضية قوية يمكنهم الدفاع عنها أمام محكمة الرأى العام · ولكن المشكلة أن هذه المحكمة ليس لها وجود · فقلة من المسئولين البريطانيين هم الذين اقتنعوا بأن أحكم سياسة يمكن أن يتبعوها هى مغادرة مصر · فاذا باغتيـــال بطرس غالى واكتشاف الجمعيات السرية الخاضعة لنفوذ الوطنيين يقضى على كل أثر لهذه السياسة ·

ترى هل كان على الوطنيين أن يصبحوا ثوريين صراحة ؟ لقد أثبت التاريخ القريب أن الثـــورة ــ لا التطور ــ هى التى حققت الاصـــلاح الدستورى فى كل من روسيا وايران وتركيا · وهذه الجمعيات السريه فى مصر لو كانت أقوى وأكثر تعاونا فيما بينها أكان باستطاعتها القيام بثورة سنة ١٩١٠ ؟

الأرجح أن تكون الاجابة بالنفى ، لأن سخط جماهير المصريين وقتذاك لم يكن عميقا بالدرجة التى وصل اليها سنة ١٩١٩ ، ولأن قيادة الحزب الوطنى كانت منقسمة على نفسها بصورة بالغة السوء · وقد أسهم صراع سنة ١٩٠٨ المهلك فى القضاء على الطبعتين الأوربيتين من « اللواء » ، وظهور صحف عربية منافســـة « كالقطر المصرى » و « مصر الفتاة » · وفى فبراير سنة ١٩١٠ قضت على « اللواء » نفسه أزمة داخلية أخرى ·

فعقب وفاة مصطفى كامل ورث أشقاؤه وشقيقاته الباقون على قيد الحياة نصف ريع ممتلكاته ، اذا جاز أن تسمى كذلك · وقام على فهمى بادارة هذه التركة باسمهم · ونتيجة للمتاعب المالية فى « امبراطورية » مصطفى كامل الصحفية ما لبث أشقاؤه وشقيقاته أن أصبحوا فى ضـــائقة موئسة ، فانتهى بهم الأمر الى مقاضاة شركة « اللواء » لانها ضمت اليها شركة « ليتاندر » شبه المفلسة · وفى الوقت نفسه قاضتها شركة فرنسية لاسترداد ديون لم تسدد قيمتها ألفا جنيه · وحكمت محكمة الاسـكندرية لمصلحة المدعين وعينت يوسف المويلحى (١) حارسا قضائيا على « اللواء »

---

(١) يوسف بن عبد السلام المويلحى شخصية سياسية محيرة · اعتبره فريد عميلا سريا لوزارة الداخلية ، وحتى ورثة مصطفى كامل أصحاب الدعوى عارضوا فى تعيينه =

لمدة عامين • وحين تذكر زعماء الوطنيين دور المويلحى فى اضراب سـنة ١٩٠٨ ضد « اللواء » ، وما تلا ذلك من ميلاد « مصر الفتاة » حاولوا منعه من دخول مكاتب « اللواء » • فلما أصر على حقه فى تولى ادارة « اللواء » خرج منه فريد والدكتور رفعت ، وقطعا علاقة الحزب به ، وأعلنا انشاء لسان جديد للحزب أسمياه « العلم » (١) • وحصل شقيق زوجة فريد على ترخيص باصـدار « العلم » بسهولة بسبب ما زعـم من ميل رئيس الوزراء الجديد للوطنيين • وظهر أول عدد من الجـريدة الجديدة فى ٧ مارس سنة ١٩١٠ • ومع انتقال محررى « اللواء » تدريجيا الى «العلم» تعرض الجمهور المصرى لمنافسة هابطة تعتمد على تبـادل السباب بين صحيفتين المفروض أنهما وطنيتـان • وقاطع معظم الوطنيين « اللواء » لهجومهـا على زعامة فريد • (٢) وهكذا ترك لورثة مصطفى كامل تركة أخذت تذبل بسرعة ، وفشل على فهمى فى تغيير المويلحى ، فظل «اللواء» يحتضر طوال فترة عزله •

ورد « العلم » على « اللـواء » بنشر سلسلة من الهجمـات العنيفة المتصاعدة ضد الحكومة والانجليز ، حتى اتخذ مجلس الوزراء قرارا فى ١٩ مارس بايقاف « العلم » شـهرين • (٣) وحاول الوطنيون وقتذاك الحصول على عدة صحف أخرى ، فكانت الحكومة تصادرها كل مرة الى أن وفقوا أخيرا الى مجلة « الشعب » الأسبوعية ، وكانت مجهولة حتى

= وقد كتب فيما بعد خطابا الى كرومر فى ٢٢ صفحة يصف فيه دوره فى القضية ، ويعرف نفسه بأنه وطنى معتدل (أى معاد لفريد) ، ويطلب معاونته فى خلاف قام بينه ورئيس الوزراء سعيد • واعترف فى خطابه بان كان يتسلم اعانة شهرية قدرها عشرون جنيها للانفاق على جريدة « مصر الفتاة » ، بالاضافة الى مائة جنيه مرتبه الشهرى باعتباره حارسا على « اللواء » • (محفوظات وزارة الخارجية البريطانيـة FO 371/894 من يوسـف المويلحى الى كرومر ، لندن بدون تاريخ مرفق برسالة كرومر الى جراى ، لنـدن فى ٣ سبتمبر ١٩١٠ ، خاص) •

(١) يوسف المويلحى « كلمتى الثانية الى الرأى العام » ، « اللواء » ، ٥ مارس ١٩١٠ ، «The Egyptian Gazette», 2 March 1910. والكلمتان العربيتان « لواء » و « علم » مترادفتان تقريبا بمعنى « راية » •

(٢) Alexander : p. 345 مذكرات محمد فريد : ص ١٣ ، «العلم» : ٧ مارس ١٩١٠ ، « اللواء » : من ٧ الى ١٩ ، ٢٤ ، ٢٧ مارس ١٩١٠ • وكانت مادة الهجوم على فريد تدور حول اساءة استخدام الحزب للمال الذى جمع لاقامة تمثال لمصطفى كامل وكتاب تذكارى فى قرية دنشواى ، وقد أقيم التمثال بالفعل ، أما الكتاب فلم ينشأ فيما أعلم •

(٣) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/889 من جورست الى جراى ٢٠ مارس ٩١١٠ ، رقم ٣١ •

ذلك الحين ، فاستخدموها لسانا للحزب حتى ســـمح «للعلم» بمعاودة الظهور (١) .

وحين نرجع الى الماضى لا نستطيع أن نفهم لماذا لم تستمر الحكومة فى تطبيق قانون المطبوعات ، أو سلطتها فى رفض الترخيص للصحف للقضاء على الصحافة الوطنية نهائيا ، فلا يبقى أمامنا الا أن نفترض أن البريطانيين قد خشوا أن تكون مظاهرات الاحتجاج الوطنية التى لا بد أن تتبع مثل هذا الاجراء ، شرارة قد تشعل ثورة ، أو لعل سعيدا رئيس الوزراء أراد الاحتفاظ بدوره المزعوم فى تأييد الوطنيين ، أو ربما كان رجال السلطة ببساطة منقسمين بين مناصرة المبادىء التحررية وسياســـة القمع المناسبة (٢) .

بدأت سياسة الحكومة تتغير فى مارس ، فى نفس الوقت الذى مر فيه الرئيس السابق تيودور روزفلت بالسودان ومصر فى طريق عودته من رحلة صيد افريقية . وبقدرته الخاصة أقحم نفســـه فى أزمة مصر السياسية متخذا جانب قوى القانون والنظام كما ارتآها . فنصح الضباط المصريين فى السودان ، مدفوعا بمخاوف البريطانيين من قيام فتن عرابية جديدة . (٣) بالابتعاد عن السياسة والمحافظة على ولائهم للعلمين اللذين يخدمون فى ظلهما . (٤) وأثناء زيارة روزفلت للقاهرة خطب فى الجامعة المصرية الجديدة . فتجاهل تحذير « بلنت » المســـبق ، ونوه بجريمة الوردانى وأدان الجهود المبذولة لتبريرها ، ونصح سامعيه بالصبر ، لأنهم بحاجة الى عدة أجيال قبل أن يصبحوا قادرين على حكم أنفسهم . (٥)

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : ص ١٥٧ ، Alexander : p. 346

(٢) مما هو جدير بالملاحظة أن « العلم » صودرت فقط ، وأن الشعب لم تمس ، فى حين أن جريدتين أقل أهمية ، وهما « الاعتدال » و « الشجاعة » ، أوقفتا لنشرهما مقالات معادية حول الاغتيال .

(٣) أثناء زيارة روزفلت للخرطوم وزع منشـــور بلا توقيع يحـوى نقـد السردار ريجنالد وينجت للضباط المصريين الذين علقوا صورة مصطفى كامل بناديهم
Alexander : pp. 334 - 336,
Elting E. Morrison ed. "The Letters of Theodore Roosevelt», Cambridge, Harvard University Press, 1954, VIII, pp. 350f., no. 5523.
من روزفلت الى جورج أوتو تريفيليان ، أو يستر باى فى أول أكتوبر ١٩١١ .

(٤) « The Times », 18 March 1910

(٥) Lawrence F. Abbott, ed. : "African and European addresses by Theodore Roosevelt», New York, G.P. Putnam's Sons, 1910, pp. 18-28, « The Times », 29 March 1910.

ولم يكن باستطاعته أن يختار طريقة أفضل لاثارة ثائرة الوطنيين الذين استجابوا بسيل من برقيات الاحتجاج ومظاهرات الشوارع ، والخطب والمقالات فى الصحف • (١) وحتى أكبر ناطق بلسان الأحزاب المصرية الأخرى لم يستطع الا أن يهاجم الخطبة (٢) •

واذا كانت زيارة روزفلت قد أغضبت كثيرا من المصريين ، فقد دفعت كذلك حكومتهم ومستشاريها الانجليز الى العمل ضد خطر الوطنيين ، فبعد رحيله الى أوربا بقليل قـــدمت الوزارة الى المجلس التشريعى ثلاثة قوانين تهدف الى تقليم أظفار الحركة الوطنية • أول هذه القوانين قصد به علاج نواحى النقص فى قانون المطبوعات بادخال مخالفات المطبوعات تحت السلطة القانونية للقضاء الجالس • وقاد اسماعيل أباظة المجلس لمعارضة هذا الاجراء ، غير أن الوزارة أصدرته رغم ذلك • (٣) وكان القانون الثانى خاصا بلائحة النظام فى المدارس ، ويقضى بمنع طلاب المدارس الحـكومية بعد أن أصبحوا بمثابة كتائب الصـــــاعقة للوطنيين من المشاركة فى المظاهرات السياسية ، أو كتابة المقالات « المثيرة » فى الصحف • وأجاز المجلس القانون ، ولـكن بعد أن ضيق دائرته ، وخفض عقوباته • (٤) أما القانون الثالث ، وهو الأهم ، فهو قانون التآمر السياسى الذى حرم العضوية فى أى جمعية سرية تدعو الى تغيير الحكومة بالقوة • وحاول المجلس تحت ضغط الصحافة الوطنية أن يخفف القانون ، ولكن الوزارة

---

(١) « الشعب » ، ٣ مارس ١٩١٠ ، Alexander : p. 337 f. وكتب محمد فريد فى « الشعب » ، أول ابريل ١٩١٠ ، هجوما ربط فيه بين أصل روزفلت الهولندى وسياسة هولندا الاستعمارية القائمة على القمع فى جاوة وسومطرة ، وذكر قراءه بالتفرقة العنصرية الأمريكية ضد الزنوج والسوريين (ا) وغيرهم من الأجناس غير البيضاء • ورد روزفلت فى تعبيره عن سبب كراهيته لزعماء الوطنيين بقوله : « انهم مسلمون متعصبون فى ملابس أوربية •• مزعجون عاطفيون ، ميئوس منهم تماما ، ولا يصلحون أساسا يمكن البناء عليه » • (Letters : VII, p. 351)

(٢) خطب أحمـــد لطفى السـيد فى أعضاء حزب الأمة وقال لهم انهم جديرون بالدستور ، وان عليهم أن يذهبوا ويأخذوه •

(«The Egyptian Gazette». 30 March 1910).
Shaykh Ali Yusuf : «Egypt's Reply to Mr. Roosevelt», «North American Review» cxcl, 6 (June 1910). pp. 728-737,

وأحمد شفيق : جـ ٢ ص ٢١٢ ومابعدها •

David H. Button : Theodore Roosevelt and Egyptian Nationalism», «Mid America». XLI, 2 (April 1959). pp. 88-103.

(٣) Alexander : pp. 329, 332

(٤) Ibid : p. 330 عبد الرحمن الرافعى (ص ١٧٢) يسخرون من القانون الذى يزعم أنه حرم استخدام كلمات مثيرة « كالحرية » فى العروض المسرحية •

أصدرته فى يوليو ١٩١٠ محتفظا بجوهره كما اقترحته • (١) وبتخطى الحكومة للمجلس التشريعى ، ومن ثم تجاهلها لسياسة « جورســـت » السابقة فى اعداد المصريين لحكم أنفسهم بالتوسع التدريجى فى المسئوليات البرلمانية ، اكتسبت أسلحة جديدة تمكنها من ســـحق تهديد الوطنيين للقانون والنظام •

وكان أول ضحايا تغيير موقف الحكومة الشيخ جاويش أكبر كتاب الحزب الوطنى ، الذى لم يتأثر بالحكم عليه بالسجن سنة ١٩٠٩ ، فظل ثوريا صريحا ، وكان يتميز بأسلوب أدبى يفضل أسلوب فريد ، فتمتع بين مسلمى مصر بشعبية أعظم بكثير من شعبية زعماء الحزب • ووصلت خطورته فى ربيع سنة ١٩١٠ درجة حاول معها جورست نفيه الى جبل طارق ، ولو الى أن يتم اعدام الوردانى ، ولكن الخطة فشلت (٢) •

وأيا كان الأمر ، فلا شك أن دعم قانون المطبوعات هو الذى أجبر « جاويش » على الصمت مؤقتا • وفى يوليو نشر أزهرى آخر هو الشيخ على الغاياتى ديوان شعر عربى عنوانه « وطنيتى » ، ورغم أن كثيرا من قصائده سبق نشرها فى الصحف الوطنية دون رد فعل حكومى ، (٣) فان نشرها مجتمعة فى وقت تراجعت فيه بريطانيا عن تساهلها السابق مع الحزب الوطنى ــ جعلهـــا تبدو مثيرة الى درجة كبيرة ، ووجد فيها المستشارون القانونيون للحكومة المصرية تبريرات للجريمة ، وتهجمات على الخديو ، ومحاولات لاثارة الحقد والكراهية ضد الحكومة • ولما كان جاويش وفريد قد كتبا مقدمتين للديوان تتضمنان تأييدهما لمحتوياته فقد اعتبرا شريكين فى التهم • (٤) وحينما علم الغاياتى بمصادرة نسخ من الديوان فر متنكرا الى اســـتانبول ، وكان فريد وقتها فى أوربا ، فأصبح على جاويش أن يواجه المحاكمة وحيدا • وحـــكمت عليه محـــكمة القاهرة بالسجن ثلاثة أشهر ، وأجلت قضية فريد الى حين عودته • أما

---

(١) Alexander : pp. 330 - 333

(٢) Lloyd : «Egypt since Cromer», 1, p. 100.

(٣) باستثناء واحد حينما أنذرت « اللواء » • فى أغسطس ١٩٠٩ بسبب مقال « دمينجرا » ، وكانت قد نشرت أيضا قصيدة للغاياتى يمدح فيها الوطنى الهندى •

(٤) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/893 من تشـــيثهام الى جراى ، الرمل فى ١١ يوليو ١٩١٠ ، رقم ٩٨ • ولنماذج من الشعر انظر القصائد التى هاجمت الخديو فى : مذكرات أحمد شفيق : جـ ٢ ، مجلد ٢ ، ص ٢٣٢ وقد ترجمها الى الانجليزية ج٠م٠ أحمد فى كتابه « الأصول الفكرية »
J. M. Ahmed : «Intellectual origins» : 7E.

الغاياتى ، وكان قد عمل فى مجلة حزب الاتحاد والترقى الأسبوعية « دار الخلافة » فقد حكم عليه غيابيا بسنة مع الاشغال الشاقة • (١)

وأثبت الحكمان أن القوانين الاستثنائية الجديدة التى طبقتها الحكومة بقرار قادرة على الحاق الأذى ، ومن ثم فترت حدة المعارضة الوطنية السافرة •

وفى انجلترا ـ كما فى مصر ـ كان الاتجاه يميل الى سياسة أكثر حزما فى مصر • وأشار روزفلت الى هذا الرأى فى خطبته « بجيلد هول » فى ١٠ مايو ، حيث نقد السلطات البريطانية فى مصر لضعفها المبالغ فيه فالوطنيون باغرائهم الوردانى على اغتيال بطرس غالى ، ثم غفرانهم جريمته ، قد أظهروا مصر بمظهر العاجزة عن حكم نفسها • ومن ثم أصبح على بريطانيا ، لمصلحة الحضارة اتخاذ اجراءات حازمة لاعادة النظام • ولو أنها أحست وقتها بأنها ليس لها الحق فى الوجود بمصر ، لكان معنى ذلك أن تترك المصريين يغرقون فى بحار الفوضى (٢) •

ورغم أن جورست (٣) رفض بحدة نقد روزفلت ، فقد أحست لندن استقباله • وفى ١٣ يونيو أقيمت مناقشة فى مجلس العموم تناوب فيها المحافظون والأحرار الهجوم على سياسة حكومة الأحرار فى مصر • وتحدث سير ادوارد جراى باسم الوزارة ، فدافع عن جورست ، ووعد بعدم تقديم أى تنازلات استجابة لمطلب الحكم الذاتى قبل أن يتوقف الشغب القائم ، وقرر أن اجراءات حازمة ستتخذ لحماية الموظفين المصريين المتعاونين مع مستشاريهم البريطانيين (٤) •

ومنحت خطبة جراى تأييدا رسميا لسياسة القمع الجديدة التى

---

(١) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/893 من تشيتهام الى جراى ، الرمل فى ٧ أغسطس ١٩١٠ ، رقم ١٠٨ ، Alexander : pp. 365-367 ولسيرة موجزة للشيخ على الغاياتى انظر : عبد الرحمن الرافعى : « شعراء الوطنية » ، القاهرة ،مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٤ ص ٣٠٥ •

(٢) "African and European Addresses» pp. 157-172, «The Times». I June 1910.

(٣) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/893 من جورست الى ماليه ، ٥ يونيو ١٩١٠ • بعد أن غادر روزفلت مصر عبر بصفة شخصية لصديقه هنرى وايت عن رأيه فى علاج جورست للموقف فى مصر قائلا : « لا شك عندى فى أن جورست شخص ممتاز ولكن من الواضح أنه يخشى التصرف قما. أن يتاكد من تاييد بلاده » • (من روزفلت الى وايت ، نابولى فى ٢ ابريل ١٩١٠ Letters : w1, p. 65. no. 5270

(٤) «Parliamentary Debates». 5th series, XVII, pp. 1103-1159.

اتخذتها الحكومة المصرية وأنذرت الوطنيين بأن اجراءات أشـــــد فى الطريق • (١) وكان معناها أن « الاحرار » قد عدلوا ــ مؤقتا على الأقل ــ عن سياستهم الرامية الى تسليم مقاليد الحكم تدريجيا للمصريين • وكانت تلك سياسة صعبة التنفيذ منذ بداية تطبيقها فى أعقاب دنشواى ، وها هى ذى بريطانيا تواجه مشكلات أكثر الحاحا : تحـدى ألمانيا العســـكرى ، وقوتها الدبلوماسية ، والمسألة الايرلندية ، واعتراض مجلس اللوردات على ميزانية لويد جورج ، وما ترتب على ذلك من مناقشات حول الاصلاح البرلمانى • وفى سنة ١٩١٠ أجريت الانتخابات العامة مرتين ، وكانت اغلبية الأحرار فى البرلمان قد تناقصت منذ عام ١٩٠٦ • وأصبح مجلس الوزراء الآن أكثر التزاما بالمحافظة على مصالح بريطانيا الاستعمارية وأقل حرصا على تشجيع الحكم الذاتى • وكان الملك ادوارد الســابع الذى كان صديقا للخديو قد توفى منذ قليل •

وأخيرا فقد تقبل الرأى العـــام البريطانى نقد روزفلت لسياســـة حكومتهم فى مصر ــ وحتى جراى أقر أنه وافق على خطبته قبل القائها ــ لأن معظم الشعب كان يعتقد أن الاحتـــلال يفيدهم ويفيد المصريين • واذا كانت الأعمـــال الوحشية التى ارتكبها البريطانيون ضـــد المصريين ســـنة ١٩٠٦ قد زعزعت هذا الاعتقاد ، فان اغتيال بطرس غالى بيد أحد مواطنيه قد أقنع البريطانيين الآن أنهم لا يستطيعون ترك مصر للوطنيين •

---

(١) Alexander : pp. 353 - 354 نقلا عن : «The Egyptian Gazette», 23 June 1910 :

حملة الوطنيين فى أوربا

كيف استجاب الوطنيون لردود الفعل البريطانية ؟ ٠٠ لقد طامنوا من اثارتهم فى مصر فى الوقت الذى استأنفوا فيه محاولة الفوز بتأييد المتحررين فى أوربا ، فحاولوا دحض الرأى السائد فى الخـــارج بأنهم جماعة ثورية خطرة من دعاة الجامعة الاســـلامية ٠ ومن أجل تحقيق هذه الغاية سافر فريد الى فرنسا وبريطانيا ، حيث قام خلال شهرى مايو ويونيو بحملة كبيرة من الخطب والمقالات ، (١) كما مهد للمؤتمر الوطنى المصرى ، الذى سيعقد فى باريس فى ســـبتمبر من نفس العام ، وهو التجمع الاوربى الوحيد الذى تحمل الحزب الوطنى نفقاته كاملة ٠ وكان ذلك المؤتمر منفصلا تماما عن المؤتمر السنوى للشبيبة المصرية فى جنيف لان الوطنيين كانوا قد اختلفوا مع محمد فهمى بسبب سلوكه فى اجتماع سنة ١٩٠٩ ٠ وعين فريد طالبـــا مصريا يدعى حامد العلايلى ، ومؤيدة فرنسية شابة شـــديدة التحمس هى رينيه (عزيزة) دى روتشبرون سكرتيرين لرئاسة المؤتمر ، فأرسلا دعوات الى كثيرين من مشـــاهير الساسة الأوربيين ٠ (٢) وقررت نشرة صحافية أن المشتركين فى المؤتمر

---

(١) جمعت خطب محمد فريد وكتاباته خلال تلك الفترة ونشرت فى مجلد بعنوان :
«Compagne de Mohamed Bey Farid», Brussels, St. Catherine's Press ca-1910

ويشمل خطبه فى الاتحاد الفرنسى ، والجمعية النســائية الفرنســية بباريس ، والبعثة العلمانية بليون ومؤتمر موضوع الأجناس بلندن ، بالاضافة الى ثلاث رســـائل لجريدة L'Eclair رواحدة لكل من Les Nouvelles (وقد أجرت معه حديثا أيضا) «The Manchester Guardian», «Le Siécle», "L'Action».

(٢) وكان من بين من قبلوا دعوتهم وحضروا على نفقه الوطنيين : كير هاردى وأربعة آخرون من أعضاء مجلس العموم ، وعضو بمجلس الشيوخ الفرنسى ، وخمســـة نواب فرنسيون ، وعضو من الرايخستاج الالمانى وعضو بمجلس الشيوخ الايطالى ، وأكبر مساعدى ملك بافاريا ، ومدير الجمارك النرويجى ، وأمير روسى ، ومجموعة متباينة من =

من أوربيين ومصريين سيناقشون « الوضع السياسى والقانونى والادارى والتنظيمى فى مصر ··· واعلان ··· موقف الحكومة الحالية وحالتها المالية · » وهكذا يتاح للأوربيين « أن يروا أننا شعب هادىء مسالم يحترم حقوق الاجانب · وأننا جديرون بحكم أنفسنا · » (١) وشملت المناقشة موضوعات محددة كالسياسة العامة فى مصر والسودان، والمسائل الادارية والمالية والضريبية والأوضاع الاقتصادية العامة ، والتعليم العام والخاص · (٢)

وكان من مظاهر التغير الهامة التى طرأت على موقف فرنسا بعد سنة ١٩٠٤ أن الحكومة الفرنسية لم تكن شديدة السعادة باستخدام عاصمتها مركزا للاثارة ضد بريطانيا ومناصرة الجامعة الاسلامية والهجوم على الاستعمار على الأرجح · فقررت الحكومة الفرنسية ــ بناء على نصيحة قنصلها العام فى القاهرة ــ منع عقد مؤتمر الوطنيين فى باريس · (٣) ورغم أن هذا القرار لم يعلن الا قبل أسبوع من موعد بدء المؤتمر فان اللجنة التنظيمية اجتمعت واختارت نقل الاجتماعات الى بروكسل ، وهو ما كاد يحرج الحكومة البلجيكية · (٤)

واجتمع المؤتمر وفقا للبرنامج الموضوع ، مع تخلف عدد قليل من المشتركين المنتظرين وافتقاد قدر كبير من الضغط الذى كان من الممكن أن يحققه لو انعقد فى باريس · وكان من أهم المتحدثين فيه عدد من

= المواطنين الهنود ، من بينهم سافار كار المتطرف رئيس تحرير محلة «The Indian sociologist».

(عبد الرحمن الرافعى : ص ١٩٣ وما بعدها) ·

(١) Alexander : p. 370.

(٢) Ibid : p. 370f.

(٣) France, Ministère des Affaire Etrangères, «Egypte : Politique Interieure - Dossier Général» IV, p. 21,

من ريبوت الى بيشون ، الاسكندرية فى ٩ اغسطس ١٩١٠ ، رقم ٣٦٨ ، وربما كان التحرك لمنع المؤتمر نتيجة لمبادرة من الحكومة المصرية. Ibid : v, p. 123f. من فوشيه الى بوانكاريه ، القاهرة فى ٥ سبتمبر ١٩١٢ ، رقم ٣٨٥ ، محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO371/1364 من كتشنر الى جراى ، القاهرة فى ٢٧ أكتوبر ١٩١٢ ، رقم ١١٧ ·

(٤) Belgium, Ministére des Affaires Etrangères, « L'Egypte : Dossier Général », AF 10, 1910

وكانت ضمانات حرية الاجتماعات المنصوص عليها فى الدستور البلجيكى هى التى حالت دون منع اقامة المؤتمر ·

الساسة الألمان ، (١) وبعض الهنود المتطرفين ، وعدد من الضباط المصريين الذين اشتكوا من سوء أحوال جيشهم تحت سيطرة البريطانيين ، وكيرهاردى الذى كفر عن سقطته سنة ١٩٠٩ بدعوة الوطنيين الى أن يصبحوا أكثر ثورية (٢) ٠

ورغم أن بعض الصحف الاوربية أبدت اهتماما متزايدا بمشكلات مصر الاجتماعية والاقتصادية ، فان غالبيتها خاضت فى السياسة أكثر (٣) ٠

بعد أن منعت فرنسا عقد مؤتمر الوطنيين فى عاصمتها أدركوا آن الدولة الاوربية الوحيدة التى يمكن أن تؤيدهم هى ألمانيا ٠ فبعد المؤتمر بقليل قام محمد فريد برحلته الأولى الى برلين حيث ألقى خطبة فى الجمعيه الألمانية المعادية للاستعمار ، وأجرى مقابلات مع عدة صحف ٠ (٤) ورغم منافسة ألمانيا لبريطانيا فلم تكن قد أظهرت حتى ذاك الحين الا اهتماما ضئيلا بالوطنيين ، اللهم الا اذا كانت مشاركتها فى مسألة جريدة « مصر الفتاة » متعمدة ٠ وقد ظل البارون فون أوبنهايمر ، العالم الأثرى ذو الصلات الوثيقة بمختلف الطوائف السياسية فى مصر ، حتى لقد أسماه البريطانيون « جاسوس القيصر » (٥) ، ظل يمد الصحف الأوربية فى مصر بالمال عدة سنوات ٠ ولكنه لم يتوسع بالهبات الالمانية لتشمل أى جريدة عربية قبل سنة ١٩٠٩ ، حين قدم بعضها لجريدة « النظام » التى لم تكن تناصر الوطنيين الا قليلا ٠ (٦) ومما يوضح قلة ادراك

---

(١) يرجع الفضل فى ذلك الى جهود د٠ محمود لبيب محرم (توفى سنة ١٩١٣) وهو من أوائل مؤيدى مصطفى كامل ، وقد أقام سنوات طويلة فى ميونيخ ٠

(٢) حرص عبد الرحمن الرافعى (ص ٢٠٧) على أن يشير الى أن دعوة هاردى كانت تتناقض مع مبادىء الحزب الوطنى ٠ ولكن هل كان هاردى أول من خرج على هذه المبادىء ؟

(٣) جمعت الكلمات التى ألقيت فى المؤتمر ونشرت فى كتاب بعنوان :
«Oeuvres du Congrès National Egyptien tenu à Bruxelles le 22, 23, et 24 Septembre 1910», Bruges, St. Cotherine's Press, 1911.

(٤) عبد الرحمن الرافعى : ص ٢١٢ ، « العلم » ١٧ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٣٠ نوفمبر ١٩١٠

France, Ministère des Affaires Etrangères : « Egypte : Politique Etrangère Relations avec l'Allemagne, 172,

من ديفرالس الى بيشون ، القاهرة فى ٢٤ نوفمبر ١٩١٠ ، رقم ٣٩٣

(٥)
Sir Ronald Storrs : "Orientations», London, Ivor Nicholson and Watson, 1937, p. 121.

(٦) تقرير أوبنهايمر ، القاهرة فى ٣٠ مارس ١٩٠٩ ، شريط ميكروفيلم رقم ٣٢
Germany, Auswartiges Amt : «Egyptische Frage» um 32.

الالمان لدقائق السياسة المصرية أن القنصل الالمانى فى القاهرة رحب بتولى يوسف المويلحى ادارة « اللواء » سنة ١٩١٠ على اعتبار أنه نصير للالمان لموقفه من حادثة « مصر الفتاة » ، وأن « اللواء » هى أوسع الصحف العربية انتشارا • (١) وفاته أن ولاء القراء المصريين كان للحزب الوطنى لا « للواء » •

ولعل المنافسة الانجليزية الالمانية كانت أقوى أثرا من زيارة «فريد» لبرلين ، اذ لم تأت سنة ١٩١١ الا وكانت المانيا تتبع سياسة مصرية أكثر ايجابية • فعلى سبيل المثال رشحت القنصلية الالمانية سكرتيرها الشرقى الدكتور كيرت بروفر ليصبح مديرا لدار الكتب الخديوية • ورغم أن الحكومة المصرية كانت تحتفظ منذ زمن بعيد بمناصب معينة للالمان ، فقد اعتبرت ترشـــيح بروفر غير قانونى ، واعترضـــت بريطانيا على تعيينه (٢) •

وبمزيد من التحريات علمت المخابرات البريطانية أن بروفر قد درس بمدارس الوطنيين ، وأن البنك الالمانى الشرقى يقرض الحزب الوطنى بفوائد مخفضة ، وأن « جاويش » وغيره من الوطنيين يتلقون رسائل عن طريق الحقيبة الدبلوماسية الالمانية • (٣) هذه التطورات ، ولعـــل تفسيلاتها مبالغ فيها ، كانت نذيرا بزيادة اعتماد الوطنيين على ألمانيا ، مما كان له أعمق الآثار فى التطورات التى عرفها الحزب بعد ذلك •

وفى خريف سنة ١٩١٠ وجد فريد فى استانبول ، كما سبق أن وجد فى برلين ، جمهورا أكثر تعاطفا من جمهور باريس • وكان من مظاهر تجدد اهتمام تركيا بالوطنية المصرية أن طلعت بك وزير الداخلية العثمانى والرئيس الأعظم للماسونيين فى استانبول عين « فريد » رئيسا لمحفل القاهرة • (٤) واعترض الموظفون البريطانيون (بلا جدوى) على هذا

---

(١) من هاتزفلدت الى بيتمان
Germany, Auswärtiges Amt : « Egyptische Frage »
هولفيج ، القاهرة فى أول ابريل ١٩١٠ ، سياسية رقم ٤٠ ، شريط ميكروفيلم رقم 32 um

(٢) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/7114 من كتشنر الى جراى ، القاهرة فى ٣٠ سبتمبر ١٩١١ ، رقم ٩٩ Storrs : p. 142 وقد ظهر بروفر مرة اخرى مديرا للمخابرات السياسية وادارة الخدمات السرية فى القدس اثناء الهجوم التركى ـ الالمانى على قناة السويس سنة ١٩١٥ •

(٣) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/1114 من روبرت جرج الى سير و • تيرل ، القاهرة فى ٩ نوفمبر ١٩١١ ، خاص ، ويتضمن تقريرا لرونالد ستورز •

(٤) محفوظات وزارة الخارجية FO 371/892 من جورست لى جراى ، القاهرة فى ٢٥ ابريل ١٩١٠ ، برقية رقم ٢٤ • «The Times», 17 June 1910

التأييد العثمانى السافر لحركة مصرية تخريبية ، وبصفة خاصة عن طريق المحافل الماسونية التى كانت تحتضن جمعيات ثورية أخرى •

وعادت الجامعة الاســـــلامية تهدد بالظهور • وعثرت المخابرات البريطانية فى تركيا على تقرير سرى موجه الى جمعية الاتحــاد والترقى ، يوصى بالتعاون مع الوطنيين فى مصر لتقوية مكانة الخلافة • (١) فى هذه الظروف قامت « الصراط المستقيم » احدى المجلات الأسبوعية باستانبول بتمجيد الوردانى ، وكذلك منعت مجلة « دار الخلافة » الناطقة بلســان جمعية الاتحاد والترقى من دخول مصر ، لنشرها مقالا معاديا للبريطانيين نسب الى على الغاياتى • (٢) ووصــــلت الى البريطانيين معلومات عن علاقات أخرى بين جمعية الاتحاد والترقى والوطنيين بواسطة الكثيرين، كبهاء الدين المناسترلى فى القاهرة ، وعدد من أقارب الخديو المغتربين فى استانبول ، (٣) بالاضــــافة الى بعض أتباع فريد نفسه : عزيزة دى روشبرون سكرتيرة المؤتمر الوطنى ، وقد أصبحت الآن مراســـلة لجريدتين فى باريس ، وكانت على صلة وثيقة ببعض زعمـــاء جمعيـــة الاتحاد والترقى ، وفؤاد سليم الحجازى الذى كان من قبل سكرتيرا للحزب ، ويعمل الآن فى الحكومة العثمانية التى مكنته من أن يعثر عـلى وظائف أو معاهد دراسية للوطنيين الآخرين الهاربين من مصر (٤) •

ويرجع هذا الاهتمـــــام الجديد من جانب جمعية الاتحاد والترقى بالوطنيين الى شكها المتزايد فى نوايا بريطانيا • فلم يكد ينجح انقلاب سنة ١٩٠٨ حتى تنكر زعماء تركيا الفتاة للجامعة الاسلامية ، وتبنوا فى الداخل المبادىء التحريرية ، وبدأوا يخطبون ود بريطانيا •

---

(١) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/893 من لوثر الى جراى ، ثيرابيا فى ٤ يوليو ١٩١٠ ، رقم ٤٤٣ ، سرى •

(٢) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/893 من تشيثام الى ماليه ، القاهرة فى ١٣ اغسطس ١٩١٠ ، خاص • والمجلتان تحملان اسمين يوحيان بسياسة مؤيدة للجامعة الاسلامية ، ف. « سيراطى ـ مستقيم » تحريف تركى للكلمتين العربيتين « الصراط المستقيم » اللتين وردتا فى سورة « الفاتحة » فى القرآن • و « دار الخلافة » معناها مقر الخلافة •

(٣) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/893 من تشيثهام الى جراى ، الرمل فى ٩ سبتمبر ١٩١٠ ، خاص •

(٤) France, Ministère des Affaires Etrangères : « Egypte : Politique Intérieure Dossier Général », IV, p. 154
من شارل رو الى بيشون . القاهرة فى ٩ أكتوبر ١٩١٠ ، رقم ٣٢٥ •

غير أن هذه السياسة المخالفة لسياسة الســـلطان عبد الحميد لم تستمر طويلا • اذ بدا أن تحالف بريطانيا مع روســـــيا ، العدو القديم لتركيا ، يتضمن تشجيعا للنزعة السلافية فى الاقاليم العثمانية الهادئة فى مقدونيا • وكانت مهمة احياء الامبراطورية العثمانية شديدة التعقيد فى السنتين الاوليين لتولى جمعية الاتحاد والترقى السلطة ، فقد ضمت النمسا اقليم البوسنة ، وأعلنت بلغاريا استقلالها رســــميا ، وقامت مظاهرات أرمنية فى أدنا ، وحاول عبد الحميد القيام بانقلاب مضاد ، ووقعت اضطرابات فى كريت ، وألبانيا ، واليمن • وفى الوقت نفسه عجزت الحكومة التركية عن الحصول على قرض أجنبى •

ومع تعرض الامبراطورية العثمانية للخطر ، اندفعت جمعية الاتحاد والترقى فى حركات مغامرة ، كالجامعة الطورانية والجامعة الاسلامية ، موجهة ضد روسيا وحلفائها • ولذلك فقد رحبت بتأكيد « فريد » لجريدة « تركيا الفتاة » «Le Jeune Turk» الفرنسية بأن الوطنيين سوف يتعاونون مع تركيا وألمانيا ضد بريطانيا •

الزعيم السجين والانقسام الطائفى

عندما عاد فريد الى مصر قرب نهاية ١٩١٠ كانت تنتظره المحاكمة والسجن شبه المؤكد • وكان الشيخ على الغاياتى قد هرب من البلاد عقب نشر أشعاره التى اعتبرتها الحكومة المصرية محرضة على الفتنة ، وكان « جاويش » و « فريد » قد عرضـــا نفسيهما للعقوبة بموجب قانون المطبوعات المعـــدل بكتابتهمـــا مقدمتين تقريظيتين للديوان • وواجـــه « جاويش » المحاكمة وحده وقضى فى السجن الأشهر الثلاثة التى حكم عليه بها • أما « فريد » فقد أجلت محاكمته الى حين عودته • وشك الكثيرون فى أن فريدا سيعود ويخاطر بالحكم عليه بالسجن ، ولكن ابنته وأصدقاءه أقنعوه بالعودة لأن الحزب بحاجة الى قيادته (١) •

ولاشك أن أحوال الحزب الوطنى الداخلية قد اضطربت خلال غيبة فريد • فبعد أن أصدرت الحـــكومة ثلاثة قوانين اســـتثنائية ، وأعدمت الوردانى ، بدأ بعض الأعضاء المعتدلين ينقدون زعامة فريد • وأعلن محمود أنيس ، العضو البارز باللجنة الادارية ، انســـحابه من الحزب بخطاب نشرته جريدة « الأهرام » فى يوليـــو ١٩١٠ • وحتى « وادى النيل » ، جريدة الحزب الوطنى بالاسكندرية ، تنبـــأت بفشل جهود فريد فى الحصول على تأييد خارجى ضد الاحتلال ، ودعت الى « التقارب مع الأحرار البريطانيين وانهاء المظاهرات والفتن » (٢) •

وظلت « العلم » لسان حال الحزب على ولائها ، وان كان ســـجن جاويش قد أضعف من جاذبيتها ، ولعله قلل توزيعها • وبانسحاب عدد

(١) France. Ministère des Affaires Etrangères : «Egypte : Politique Intérieure — Dossier General», IV p. 173 f.

من دفرانس الى بيشون القاهرة فى ١٩ ديسمبر ١٩١٠ ، رقم ٤٦٤ •

(٢) Alexander : pp. 361-364.

من أغنى أعضاء الحزب من زعامته الفعلية ، مما انعكس على التشكيل المتغير للجنة الادارية ، نقصت اشتراكات الحزب بصورة واضحة • ومن المعروف جيدا أن « فريد » كان يستنزف ثروته الضخمة فى سبيل حرية مصر ، ولكن كيف ومتى لا نعرف (١) • ولعل عودته للاشتغال بالمحاماة بعد ذلك ، سنة ١٩١١ ، كانت بسبب حاجته للمال (٢) •

ومن وجهة نظر المحللين الوطنيين تعتبر محاكمة محمد فريد وسجنه بداية استشهاده السياسى • فبموجب مواد قانون المطبوعات المعدل سنة ١٩١٠ حوكم فريد أمام محكمة الجنايات دون محلفين أو استئناف• ورفضت دعوى فريد بأنه كتب المقدمة دون أن يقرأ الديوان ، وأدين ، وحكم عليه بالسجن ستة أشهر (٣) •

وقد حققت هذه الادانة (حاول فريد استئنافها استنادا الى عدة نقاط قانونية ولكنه لم يوفق) الأثر المطلوب فى تنفير كثيرين من الوطنيين من الطبقتين العليا والوسطى ، ممن لم يكن حكم السجن قد أصبح فى نظرهم بعد وسام شرف ، وكذلك لم يكن قد تبين بعد ذلك الطريق الحديث للزعماء الوطنيين من السجن السياسى الى قصر الرئاسة على نسق نهرو ونكروما وكينياتا •

وأثناء محاكمة فريد زاره عدة رسل أوفدتهم السراى يعرضون عليه ايقاف المحاكمة بشرط أن يعتدل فى سياسته ، أو على الأقل فى تعبيره عن مبادئه • وخلال مدة سجنه رفض فريد أيضا عروضا مشابهة بواسطة بعض المعتدلين ، كعثمان غالب ، والمدير الانجليزى للسجن كولز باشا فى بعض الروايات (٤) ولعل معاصرى فريد لم يستطيعوا فهم تصرفه ، ولكن شباب المصريين وقتها وبعد ذلك استطاعوا فهمه •

---

(١) أخبرنى عبد الخالق فريد ان أباه وقع عددا من القروض للحصول على مال لنفقات الحزب ، بضمان أراضيه ، وان البريطانيين أوعزوا للبنوك بان تطالب بسداد كل هذه الديون فى وقت واحد ، فاضطر فريد الى بيع أملاكه بالخسارة للحصول على المال اللازم • انظر أيضا : عبد الرحمن الرافعى : ص ٤٥٤ وما بعدها ، وتتردد قصة أخرى مؤداها أنه خسر ثروته فى مضاربات فاشلة بالأرض •

(٢) عبد الرحمن الرافعى : ص ٣١ •

(٣) المصدر السابق : ص ٢٢٧ ـ ٢٣٢ ، ولترجمة فرنسية لمقدمة فريد انظر :
Oeuvers du Congrès National Egyptien : pp. 481-484.

(٤) فى مسودة مقال لم ينشر عثرت عليه بين أوراق محمد فريد زعم أن الخديو أرسل اسماعيل أباظة وحسن العقاد لزيارته أثناء المحاكمة • وعن زيارة د• غالب الذى انقلب =

كيف نستدل على التغير الذى طرأ على التكوين الاجتماعى للحزب الوطنى ؟

قبل محاكمة فريد بفترة وجيزة عقد الحزب مؤتمره السنوى وانتخب مجلس ادارة جديدا ، وأعيد انتخاب فريد رئيسا ، مدى الحياة هذه المرة (وكان قد أصر من قبل على ثلاث سنوات فقط) • وضمت اللجنة الادارية عشرة فقط من الاعضاء الذين سبق انتخابهم فى ديسمبر ١٩٠٧ • وكان ممن استقالوا أو لم يعد انتخابهم كثير من أغنى أعضاء الحزب وأقوى مؤيديه ، كأحمد فايق ، ومحمود أنيس ، وعمر سلطان ، ومحمد خلوصى • واستقال ويصا واصف ، وكان القبطى الوحيد فى لجنة ١٩٠٧ بالاضافة الى ثرائه • أما الأعضاء الجدد فكانوا جميعا مسلمين ، وكان كثير منهم شبانا من ذوى النشاط فى التنظيمات التابعة للحزب ، أو لجانه الفرعية ، أو صحفه • واذا كانت غالبيتهم تنتسب الى أسر محترمة ميسورة ، فان أحدا منهم لايملك ثروة يمكن مقارنتها بثروة عمر سلطان (١) • ورغم ان دور كبار الملاك فى الحزب الوطنى لم يكن فى مثل قوته فى الاحزاب المنافسة ، فان هذا الدور أخذ فى الضعف أكثر ، فى الوقت الذى قوى فيه دور المهنيين الشبان ممن درسوا على المناهج العلمانية فى مدارس الحكومة أو المدارس الأجنبية •

واذا كان سجن فريد قد جعله يبدو خطرا فى نظر الفئة الأولى ، فقد اعتبرته الأخيرة فدائيها الأول ، وشهيد القضية الوطنية • كان النمط الاجتماعى لزعامة مصر السياسية بعد سنة ١٩٢٣ قد بدأ يتشكل بالفعل •

ومن السوءات التى أسفر عنها اغتيال بطرس غالى تجدد المعارك الصحفية بين الأقباط والمسلمين ، ولما كان كلا الفريقين قد حاول فيما بعد الانحاء باللائمة على البريطانيين فيما نشب بينهما من تباغض ، فمن الصعب الآن أن نعيد تصور ما حدث فعلا ، أو تحديد ادانة الحزب الوطنى أو براءته •

= بعد ذلك على فريد ، انظر : عبد الرحمن الرافعى ، ص ٢٣٧ وما بعدها • ويصف كولز باشا فى كتابه ذكريات وانطباعات

Cales Basha : "Recollections and Reflections», St. catherine press, ca., 1918.

مقابلته لمحمد فريد فى السجن ، ولكنه لا يذكر أى عرض لترتيب الافراج عنه قبل موعد انتهاء الحكم •

(١) عن أسرة سلطان انظر :

Gabriel Baer : «A History of Landownership in Modern Egypt, 1800-1950», London, Oxford University press, 1962, pp. 24, 137 f.

ان تقدم الأقليات على حساب الغالبية المسلمة كان من النتائج غير المتوقعة بالمرة لاصلاحات محمد على ، وان كان فى الوقت نفسه نتيجة للتأثير الغربى العام على مصر ، كما أصاب البريطانيين بسبب ذلك قدر كبير من اللوم بلا مبرر • فاذا كان الأقباط قد تقدموا أثناء الحكم البريطانى فلم يكن ذلك الا لأنهم أقدر من المسلمين على التكيف مع التغيرات الاجتماعية والاقتصادية الجارية ، والتى كان من الممكن أن تحدث بسبب موقع مصر ومواردها ، حتى ولو لم يوجد البريطانيون •

لقد كانت أوربا الصناعية تحتاج الى كل القطن الذى تستطيع مصر انتاجه ، وكانت مستعدة للسخاء فى ثمنه • وزراعة القطن معناها تنمية اقتصاد سائل ، والأقباط هم المحاسبون التقليديون ، ومعناها أيضا اقامة حدود بين الملكيات الزراعية ، والأقباط هم المساحون التقليديون ، كما كانت تتطلب تنمية شبكة من التجار والعملاء وغيرهم من الوسطاء ، والأقباط كانوا أقدر على التفوق فى أساليب التجارة الأوربية لانفتاحهم على الغرب عن طريق مدارس الارساليات • وكانت سيطرة الأقباط على بعض المصالح الحكومية بالقاهرة تقابلها غلبة الموظفين المسلمين فى الأقاليم •

أما الخطأ الوحيد الذى يستحق عليه البريطانيون اللوم بحق فهو نشر جورست للأرقام النسبية بين المسلمين والأقباط العاملين فى مختلف المصالح الحكومية ، فحتى تعيين بطرس غالى رئيسا للوزراء ، وقد تم بمبادرة من الخديو لامن جورست ، كانت له سوابق ، اذ تولى نوبار الأرمنى المسيحى هذا المنصب عدة مرات قبل الاحتلال وبعده •

حقا كان بعض المسلمين ، وبصفة خاصة البورجوازيون من أبناء الطبقة المتوسطة الدنيا ، يخشون منافسة الأقباط التى يحرص عليها البريطانيون ، ولم يتصوروا أن قوة مسيحية يمكن أن تقصر فى تفضيل من يدينون بدينها • وزكى هذه المخاوف اللاذعون من المهيجين السياسيين والصحفيين المسلمين ، وكان بعضهم من الوطنيين • واستغل كثير من الأقباط ممن حيرتهم بنفس القدر حيدة السياسة البريطانية الرسمية هذه التصريحات والكتابات العنيفة فى اثارة المخاوف الأوربية من «التعصب الاسلامى » •

وبدا اغتيال بطرس غالى فى نظر كثيرين من الأقباط بمثابة نذير بفتنة اسلامية قد تنتهى بابادتهم ، فبدأوا على الفور يضغطون على البريطانيين

لاتخاذ اجراءات أعنف ضد الوطنيين (١) ، فرد عليهم المسلمون على الفور بحملات صحافية جديدة ٠

وازدادت الهوة بين الفريقين حينما نشرت « المرشد » ، وهى مجلة شهرية أمريكية تبشيرية ، مقالا تضمن اهانة للاسلام والنبى ، فاستثار هجمات مضادة فى « اللواء » و « مصر الفتاة » وغيرهما من الصحف التى يملكها مسلمون (٢) ٠ وازدادت حدة غضب الأقباط حين وجهت الحكومة انذارين « للوطن » لنشرها مقالات معادية للاسلام ، فى حين أن صحف المسلمين (فيما زعموا) مسموح لهـا بالطعن فى الأقباط ودينهم دون حساب (٣) ٠

وسرعان ما اتخذ الغضب القبطى شـكلا منظما شـبيها بحملات الصحافة الوطنية ٠ فأنشئت جمعية قبطية ، وأرسـل الصحفى المحنك قرياقوس ميخائيل الى لندن للحصول على تأييد بريطانى (٤) ٠ وأغرق أعضاء الجمعية القبطية وزارة الخارجية البريطانية ببرقيات احتجاج على رفض جورست المزعوم سـماع شكاواهم (٥) ٠ وانتهى بهم الأمر الى استعارة وسيلة أخرى من سجل الوطنيين ، فسعوا للحصول على العطف الخارجى باقامة مؤتمر فى أسـيوط فى مارس ١٩١١ ، بالرغم من عدم موافقة الحكومة المصرية والبطريركية القبطية ٠ واشترك فى المؤتمر أسقف

---

(١) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/891 من أمجد عبد الملك الى جراى ، أبو جرجس فى ٢٤ فبراير ١٩١٠ ، وهى البرقية الأولى من برقيات عديدة بعث بها الأقباط الى لندن خلال سنتى ١٩١٠ و ١٩١١ ٠

(٢) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 377/894 من تشيشهام الى جراى ، القاهرة فى ٢٥ اغسطس ١٩١٠ ، برقية رقم ٤٠ ٠ وقد أقنعت البعثة التبشيرية بالتخلى عن المجلة لتجنب المصادرة بموجب قانون المطبوعات على أن تمنح ترخيصا باصدار صحيفة أخرى ٠

(٣) A.T.U., « The Newspaper Fight in Egypt », « The Moslem World », I,2 (April 1911), p. 216 f.

(٤) Kyriakos Mikhail : «Copts Moslems under British Control», London, Elder, 1911, p. 16.

محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/894

، « تقرير عن جمعية الأقباط الكبرى بمصر » ، سلم فى ١١ اغسطس ١٩١٠ ، من تشيشهام الى ماليه ، الرمل فى ١٦ سبتمبر ١٩١٠ ، خاص ٠

(٥) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/1111 من ميخائيل فانوس الى أسكويث ، القاهرة فى ٢ فبراير ١٩١١ ، برقية ، والوثائق التالية لها ٠

أسيوط وكثير من الزعماء المدبرين ، وبعضهم من أنصار مصــــطفى كامل السابقين (١) .

واشتكى الأقباط المؤتمرون من اضطهاد الحكومة لهم فى المرتبات والترقيات ، وعدم تمثيلهم بالقدر الكافى فى مجالس المديريات والمناصب العليا بشكل عام ، وعجزهم عن اقناع الحكومة باعتبار يوم الأحـد يـوم راحة ، وعدم العناية بالتعليم المســـيحى فى مدارس الاقاليم المعانة من الدولة ، واضطهاد الحكومة لجمعياتهم الخيرية .

وأرسل المؤتمر مندوبا ليسلم هذه الشـــكاوى الى جراى ، ولكن الوكالة البريطانية نصحت وزارة الخارجية بعـدم استقباله (٢) . ونقـد جورست فى تقريره عن سنة ١٩١٠ المؤتمر القبطى وبرر رفض الحكومة المصرية الاستجابة لمطالب الأقباط (٣) .

وكما هو متوقع أثار المؤتمر القبطى معـــارك طائفيـــة جديدة فى « مصر الفتاة » و « اللواء » و « العلم » ، بل فى « المؤيد » أيضا (٤) . وكان من الطبيعى أن يطالب المســلمون بمؤتمر خاص بهـم ليردوا عـلى الأقباط . غير أنه على عكس المتوقع لم يقم بالمبادرة الوطنيون المتطرفون ، بل المعتدلون الذين دعوا « رياض باشا » الذى كانت السن قد تقدمت به وهادن البريطانيين منذ زمن بعيد ، ليرأس « مؤتمرا مصريا » . وتكونت غالبية مجلس الادارة من أنصـــار حزب الأمة الذين تعـاونوا مـع وزارة الداخلية فى تخطيط برنامج محكم . فلم يحدث خروج على النظام الا فى اليوم الأخير حينما فتح المجال لمناقشة توصيات سبق اقرارها والتصويت عليها ، فطرد أحد الحاضرين لهتافه ، « يحيا الدستور ! » (٥) .

---

(١) اختـوخ فانوس ومرقص حنـــا على ســـبيل المثال (Mikhail : p. 29 f.).

(٢) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/1111 L.A. من فانوس الى جراى ، لندن فى ٢٠ ابريل ١٩١١ ، من تشيتهام الى جراى ، القاهرة فى ٣ مايو ١٩١١ ، برقية رقم ١٣ .

(٣) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية

FO, «Egypt, no. 1» (1911), «Reports by his Majesty's Agent and Consul General on the Finances, Administration, and Cond tion of Egypt and Soudan in 1910» 5-10, included in Parliament, "Accounts and Papers» : pp. C III, 241.

(٤) Mikhail : pp. 92-97.

(٥) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/1113 من تشيتهام الى جراى . القاهرة فى ٦ مايو ١٩١١ ، رقم ٤٣ .

ورغم أن معظم الخطباء كانوا من الوطنيين (١) ، فان الحزب لم يؤيد المؤتمر رسميا ، بل حاول تعويق تكوين لجنة دائمة لتنظيم مؤتمر مماثل سنويا ، ولكنه لم يوفق فى محاولته . ولم يكن اعتراض الحزب منصبا على المؤتمرات الطائفية فى ذاتها بقدر ما كان رفضا لمجلس ادارة المؤتمر الذى تؤيده الحكومة بهدف تشتيت مطالب الوطنيين (٢) . ومنع السجن فريدا من معارضة المؤتمرين (٣) ، واعتقد أن جورست هو الذى شجع على عقد المؤتمر المصرى ليمزق الحركة الوطنية (٤) . وما أكثر ما زعم أعداء بريطانيا أنها تستغل الانقسامات الطائفية للسيطرة على أتباع هذه الطوائف . ومن المحتمل أن يكون هدف جورست فى تلك الحالة بالذات هو منع الوطنيين من استخدام مؤتمر المسلمين منبرا للدعوة لبرنامجهم .

فى تلك الأثناء كان الحزب الوطنى يتعثر فى غيبة زعيمه المختار . وبينما كان فريد يقضى مدة سجنه أصبح الشيخ جاويش المتحدث الرئيسى باسم الوطنيين ، يكتب افتتاحيات « العلم » كل يوم تقريبا ، ويخطب مهاجما الاحتلال فى المنصورة والقاهرة . وبايعاز من البريطانيين أنذر رئيس الوزراء محمد سعيد الشيخ جاويش ليحدد نشاطه المثير فى القاهرة ، ووضعه تحت رقابة الشرطة (٥) .

وواجه الوطنيون صعوبات أكبر فى نشر آرائهم خارج القاهرة والاسكندرية ، فنشروا تقارير عن نشاط لجانهم الفرعية بعد سنة ١٩١٠ . وقرر المستشار البريطانى لوزارة الداخلية أن اشتراكات القرى فى الحزب الوطنى آخذة فى التناقص . فقد خفف محصول القطن الوفير سنة ١٩١٠ من حدة السخط الاقتصادى ، ونجحت مجالس المديريات بعد تدعيمها فى نقل بؤرة الاهتمام من المطالب الوطنية الى المطالب المحلية . ولعل ضغط الحكومة على أعيان الريف ذوى الميول الوطنية قد ساعد على تقوية

---

(١) على سبيل المثال : الشيخ جاويش ، ومحمود أبو النصر ، وحافظ رمضان ، وابراهيم رمزى ، وعمر لطفى ، ومحمد على علوبة . ونشرت محاضر الجلسات فى : « مجموعة اعمال المؤتمر المصرى الأول المنعقد بهليوبوليس » ، القاهرة ، المطبعة المصرية ، ١٩١١

(٢) لرأى مضاد انظر : Adam : p. 213, Landau : p. 126.

(٣) يقول الرافعى (ص ٢٤٣) ان فريدا لو كان طليقا لمنع انعقاد المؤتمر المصرى .

(٤) مذكرات محمد فريد : ص ٨٢

(٥) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/1113 من تشيثهام الى جراى ، القاهرة فى ٢٩ ابريل ١٩١١ ، رقم ٣٩ .

هذا الاتجاه (١) . وكذلك فقد كان للقوانين الاستثنائيــة التى تأكدت بسجن فريد تأثير مثبط حتى على الوطنيين من سكان المدن .

وحينما أفرج عن فريد فى الساعة الخامسة من صباح ١٨ يوليو حياه عدد قليل من مؤيديه المتحمسين بعد أن ظلوا ينتظرونه خارج السجن طوال الليل (٢) . وفى اليوم التالى نشر مقالا بعنوان « من سجن الى سجن » ذهب فيه الى أن الحكم البريطانى قد حول المصريين جميعا الى سجناء (٣) . ولكن لم يكن هناك من يحطم السجن .

---

(١) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/1114 من تشيتهام الى جراى ، الرمل فى ٢٤ يونيو ١٩١١ ، رقم ٦٥ ، ويحوى تقريرا من رونالد جراهام .

(٢) عبد الرحمن الرافعى : ص ٢٤٠

(٣) « العلم » ، ١٩ يوليو ١٩١١ ، عبد الرحمن الرافعى : ص ص ٢٤٠ ـ ٢٤٣

نظام الحكم الجديد فى مصر

قبل الافراج عن فريد بقليل كانت مصر قد حصلت على مندوب بريطانى جديد • فقد أصيب الدون جورست بسرطان لاشفاء منه ، وظل فى منصبه حتى مايو ، ثم عاد الى بريطانيا ، حيث توفى بعد شهرين • وقبيل وفاته زاره الخديو تعبيرا عن تقديره له • وفى الوقت نفسه عينت حكومة الأحرار اللورد كتشنر فى مكانه ، فوضعت بذلك نهاية لسياستها المصرية المهدئة التى كانت قد أرسلت جورست لتنفيذها منذ أربع سنوات •

ومن وجهة نظر الرأى العام البريطانى كان كتشنر بطل السودان وحرب البوير ، ولكن كثيرا من السياسيين كانوا يكرهونه •فى تلك الفترة كان بلا عمل ، وأقرب للامتعاض لعدم تعيينه نائبا للملك فى الهند ، ولم يخف رغبته فى أن يصبح سفيرا فى استانبول أو قنصلا عاما فى مصر (١) • ويبدو أن الحكومة أسعدها ابعاده عن لندن ، فأرسلته الى مصر ، متجاهلة اعتراضات بلنت (التى تعكس آراء الوطنيين على الأرجح) على تعيين شخصية عسكرية فى هذا المنصب (٢) أما الغريب حقا فهو تجاهل بريطانيا للخديو أيضا ، وهو الذى سبق له أن رفض كتشنر منذ حادثة الحدود سنة ١٨٩٤ •

ما طبيعة الأوضاع التى ورثها كتشنر عن سلفه ؟

(١) Magnus « Kitchener » : pp. 252-255.

(٢) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/1114 من الآنسة هـ٠م٠ هوسين الى جراى ، لندن فى ١٤ يونيو ١٩١١ ، ويحوى قرار لجنة مصر ، وكانت هذه الجماعة تتكون من بلنت ، وبعض الأصدقاء الأيرلنديين ، وقليل من المصريين الذين يدرسون فى انجلترا •

لقد أدان النقاد المحافظون والاستعماريون جورست بعنف فى حياته وبعد مماته « لضعفه » فى معاملة المعارضة الوطنيـة (١) • غير أن هـذا النقد يجانب الحق لأن جورست كان مكلفا من حكومته باعداد مصر للحكم الذاتى فى وقت كان الحزب الوطنى يحظى فيه بالتأييد الشعبى • كانت سياسة حكومة الأحرار كفيلة بتشجيع المصريين على الانضمام الى صفوف الوطنيين ، ورغم ذلك فلم يكن أحد من المسئولين ، سواء فى وزارة الخارجية أم فى القاهرة يقبل التفاوض المباشر مع الوطنيين • وهذه السياسة لم يبتكرها جورست ، وانما اختارته حكومة الأحرار لينفذها •

أما المناسبة الوحيدة التى لايمكن فيها رد « ضعف » جورست الى رؤسائه فكانت موافقته على طلب الوزارة المصرية احالة اتفاقيـة قناة السويس الى الجمعية العمومية ، وهى وسيلة سهلة للتخلص من المسئولية • ورغم ذلك فينبغى الاشارة بكل نزاهة الى أن معظم المصريين المستنيرين عارضوا المشروع بصلابة ، وبصفة خاصة الميالون الى التكتيكات المتطرفة • ولو أن الحكومة وافقت ببساطة على مد امتياز قناة السويس لاستوجبت الاضطرابات التى كان من الممكن أن تترتب عليها سياسـة قمع أعنف ، وربما تسببت فى قيام ثورة •

وبين الحين والآخر كان الوطنيون يؤيدون جورست بتحفظ ضد نقاده ، خوفا بلاشك من استبدال مندوب آخر به ، لابد أن يكون أسوأ منه (٢) • وان كان من المألوف مع ذلك أن ينقدوه بدورهم لاجتذابه الخديو بعيدا عن حركتهم ، ولأنه منح الوزارة ظل السلطة دون حقيقتها ، ولاجراءات القمع التى اتخذها ضد الصحافة ، وتجاهله معارضة المجلس التشريعى للقوانين الاستثنائية ، ولابعاده الأقباط عن المسلمين لتمزيق الحزب الوطنى • أما نقدهم الأساسى فكان بالطبع لأنه لم يمهد لجلاء جيش الاحتلال البريطانى •

على أن السنوات الأربع التى قضاها جورست فى الوكالة البريطانية قد علمت المصريين أنه لايوجد مسئول بريطانى يرغب فى الجلاء عن مصر

---

(١) A. J. Butler : «The Misgovernment of Egypt», «The Nineteenth Century» LXVIII, 404 (October 1910) pp. 587-597, Pelham Edgar «Shall Egypt Have a constitution ?» Fortnigntly Review, CiV, (September 1910), p. 411, Lloyd : I, pp. 110-113, Ralph Neville : « The Muddle in Egypt and the Way Out », The Nineteenth Century, LXIX, 6 (June 1911), pp. 1022-1035.

(٢) Alexander : p. 339 f. نقلا عن « اللواء » •

مهما كان الأساس القانوني للاحتلال واهيا ، وأنه لايمكن الثقة بأى تأكيد بريطانى بأن الاحتلال مؤقت • ومن المحتمل أن يـكون ربع القرن الذى قضاه كرومر فى الوكالة قد خدع بعض المصريين فتصـــوروا أن الجلاء سيعقب اعتزاله ، ولكن مرور الوقت لم يزد البريطانيين الا اصرارا على البقاء • لقد استتب الأمن واستقر القانون ، ولم يعد الخديو مهددا ، ولكن مصر أصبحت فى الوقت نفسه حلقة استراتيجية فى مواصـلات بريطانيـا الاســـتعمارية ، وكان ٧٨٪ من رأس المال المستثمر فى مصر أجنبيا (١) • واستعيد السودان ، ولم يعد أحد يثق بالوطنيين • وكلما طال بقـاء البريطانيين ازداد نفاد صبر الوطنيين ، واتخذ كل من الفريقين وضع الاستعداد •

وعلى العكس من الفكرة القديمة لم تكن مصر بلدا يسهل حكمه فقـد اعتمد نفوذ المندوب البريطانى على وجود القوات البريطانية ، وليس على حماية شكلية ، أو حتى موافقة الدول الكبرى الأخرى • ولم يكن للحاكم الشرعى ، وهو السلطان العثمانى أى نفوذ غير محاولة التعويق • وكان تابعه الخديو غريبا بالنســـب ، وفى حالات كثيرة بالمشاعر ، عن الشعب الذى يحكمه ، وكثيرا ما كان ينفر من الخضوع « لمشورة » المندوب البريطانى • وكان الوزراء أنفسهم من ســـلالات غير مصرية ، يتجنبون المسئولية ، ويتملقون الشعبية ، ويجدون سلطتهم يستخدمها المستشارون باسمهم • وكانت البيروقراطية المتخمة بأعداد متزايدة من الكتبـــة حاملى شهادات اتمام الدراسة الابتدائية أو الثانوية عاجزين عن القيام بأى عمل نافع ، تستخدم أساليب التعويق العثمانية وطرق الأقبـــاط المبهمة فى الحسابات • وكان النظام القـــانونى مرتعا للمحامين ، فهو يقوم على تطبيق الشريعة الاسلامية الى جوار « قانون نابليون » ، وتنفذه أربعة أنواع من المحاكم على الأقل •

وقد استطاع كرومر ، بفضل الثقة غير المحدودة التى أسبغت عليه، والاستقلال النسبى الذى منحته له حكومة بلاده ، أن يتصرف أفضل من جورست الذى لم يكن أكثر من موظف مدنى • ولكن هل كان باستطاعة أى شخص آخر أن يتصرف أفضل ؟

---

(١) Great Britain. FO, Egypt, no. I (1907), «Reports by his Majesty's Agent and Consul — General on the Finances, Administration, and Condition of Egypt and the Sudan in 1906», included in Parliament, Accounts and Papers, C, p. 617.

وينبغى مع ذلك أن نلاحظ أن مجموع رأس المال الفرنسى المستثمر فى مصر كان يفوق البريطانى بكثير (Issawi : p. 39)

ان جورست جدير بأن ينسب اليه الفضل ـ أو اللوم ـ الذى يضفى عادة على خليفته لنجاحه فى شل الحركة الوطنية ، وان كان السبب الحقيقى لتردى الحزب هو المشاجرات على الزعامة التى نشبت بين خلفاء مصطفى كامل وعجزهم عن الاختيار بين النهج الشرعى والأسلوب الثورى للعمل ٠

أما مأساة سياسة جورست الحقيقية فقد تمثلت فى أن مهادنته للخديو أبعدت عنه حزب الأمة وغيره من العناصر المعتدلة التى كان من الممكن أن تعاون فى انتقال السلطة التدريجى من البريطانيين الى أيدى المصريين ٠

وفى نفس اليوم الذى وصل فيه كتشنر الى القاهرة ليتسلم مسئولياته الجديدة هاجمت ايطاليا ولاية طرابلس العثمانية ، فثارت ثائرة الوطنيين لهذا المظهر الجديد للعدوان الأوربى ، وطالب كثير من المصريين حكومتهم بالتدخل الى جانب تركيا ٠ ورغم أن الحكومه البريطانية لم تكن متعاطفة مع الحملة الايطالية ، فقد أدركت أن المعارضه السافرة قد تؤدى الى تقوية التحالف المتردد بين ايطاليا وألمانيا والنمسا، ولذلك أجبرت الحكومة المصرية على اعلان حيادها ٠ ووجد الوطنيون مجالا خصبا للهجوم على هذا الموقف الذى يتعارض مع وضع مصر الشرعى باعتبارها ولاية عثمانية ذات وضع خاص ، وبدأوا يدعون للاكتتاب لمساعدة القوات العثمانية المسلحة ٠ (١) وتطوعت مجموعة من الاطباء الوطنيين للخدمة فى الجيش العثمانى وسافروا الى طرابس وسط جلبة كبيرة ٠ (٢) وعالج اللورد كتشنر الموقف الداخلى الحرج بحنكة كبيرة ، فثبط همة الضباط المصريين ورجال قبائل البدو عن التطوع بخدماتهم للاتراك ، وفى الوقت نفسه تبرع شخصيا بمائة جنيه لجمعية الهلال الأحمر العثمانية (٣) ٠

وبعد وصول كتشنر شددت الحكومة حملتها ضد الوطنيين ، وبدأت مرحلة من الحكم الفردى الاستبدادى ٠ فقد كان الوطنيون حتى ذلك الحين يعملون علنا رغم تعويق قوانين جورست الاستثنائية ، ولكن فى أكتوبر ١٩١١ أوقفت الحكومة « مصر الفتاة » لهجومها على حيادها فى حرب طرابلس ٠ (٤) وبعد شهرين تلقت « العلم » أمرا بالمصادرة ثلاثة أشهر

---

(١) « العلم » ، ٩ أكتوبر ١٩١١ ، « اللواء » ، ٢٩ أكتوبر ١٩٠٨ ٠

(٢) عبد الرحمن الرافعى : ص ٢٥٦ ٠

(٣) Maguns : p. 361, Storrs . 127f.

(٤) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/1115 من كتشنر الى جراى ، القاهرة فى ٧ أكتوبر ١٩١١ ، رقم ١٠٠ ٠

للسبب نفسه ، وهو حكم اعتبره كتشنر مسرفا فى التساهل • (١)

وحينما استأنف الوطنيون ، كما فعلوا سنة ١٩١٠ ، اصدار « الشعب » أوقفتها الحكومة هى الأخرى ، تاركة الحزب بلا لسان يعبر عنه• وهكذا أجبر الشيخ جاويش على أن يبقى فترة طويلة فى فراغ لم يألفه فبدأ يهرب الأسلحة الى الأتراك فى طرابلس • (٢) وانتهى به الأمر الى الرحيل الى استانبول حيث استأنف عمله الصحافى كمدير لمجلتى « الهلال العثمانى » و « الحق يعلو » العربيتين اللتين تصدرهما جمعية الاتحاد والترقى • ولن يلبث فريد وكثير غيره من الوطنيين أن يجاروا الشيخ فى هجرته من النيل الى البوسفور •

وقد أبدى لى مؤرخ مصرى ثاقب النظرة ملاحظة عن كتشنر مؤداها أنه أكثر الأجانب الذين حكموا مصر الحديثة شبها بعبد الناصر • وهذه المقارنة لا تبدو غريبة اذا استبعدنا الاختلافات الواضحة بينهما ، كسياستهما الخارجية • فكلاهما كان يؤثر مصالح الفلاح على مصالح طبقة المهنيين فى المدن • وكلاهما كان يشك فى دوافع السياسيين من المحامين وأساليبهم ، وطوائفهم وأحزابهم • ويبقى ذلك التشابه بينهما فى سيطرة كل منهما على جهازه النيابى المنتخب بحرية • وقد كتب كتشنر فى أول تقاريره السنوية عن الشعوب الاسلامية : « ان الروح الحزبية عندهم أشبه بالخمر القوية عند شعوب أفريقيا البدائية • » (٣) وكان قد تلقى قبل وصوله الى مصر تقريرا مفصلا عن الأحزاب المصرية كتبه مستشار وزارة الداخلية ، وجاء فيه أن الوطنيين ، رغم أنهم لا يتمتعون بسمعة طيبة فى « الدوائر المحترمة » ، فما زالوا يسيطرون على أكبر تأييد شعبى ويمثلون

---

(١) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/1361 من كتشنر الى جراى ، القاهرة فى ٢٤ ديسمبر ١٩١١ ، رقم ١٣٨ •

(٢) مقدمة ناصر جاريش لطبعة دار الهلال لكتاب « الاسلام دين الفطرة » ، ص ٩

(٣) Lloyd : I, p. 130 نقلا عن تقرير سنة ١٩١١ • وفي حديث مع تليفزيون CBS فى ٧ ابريل ١٩٥٨ اجاب عبد الناصر على سؤال عن الموعد الذى سيعيد فيه الحكومة الديمقراطية والاحزاب السياسية بقوله : « ••• لو انى سمحت الآن بقيام الأحزاب فورا فماذا ستكون النتيجة ؟ سأجد فى الأغلب ثلاثة أحزاب ، أحدها سينادى بالتحالف مع الغرب وسيعتمد على بعض الرجعيين والاقطاعيين ، فى حين سيدعو الحزب الثانى للتحالف مع الاتحاد السوفييتى وسيعتمد على الشيوعيين • أما الحزب الثالث فسيدافع عن سياسة عدم الانحياز والحياد الايجابى • وسيقوم صراع عنيف بين الأحزاب الثلاثة مما سيمزق وحدة وطننا • فهل أرغب فى ذلك ؟ الاجابة بالنفى قطعا »
(President Gamal Abdel Nasser's Speeches and Press Interviews - 1958 Cairo, UAR Information Dept., 1959, p. 387).

أخطر تهديد للاحتلال البريطاني ، كما يشكلون خطرا اجتماعيا بسبب نشاطهم المثير بين عمال المدن • (١)

ترى ، هل ستسارع تصرفات فريد بتأكيد توقعات كتشنر ، ومن ثم تبرز اتخاذ اجراءات قمع جديدة ضد الوطنيين ؟

قبل وصول كتشنر مباشرة خطب فريد في جمهور يزيد على أربعة آلاف ، ودعاه الى مواصلة الكفاح الوطني أيا كان المندوب الذي يرسله البريطانيون الى مصر • (٢) وقضى الشهرين التاليين خارج مصر يواصل حملاته ، ومعظمها تأييد لدفاع العثمانيين عن طرابلس • (٣) وفي أوائل سنة ١٩١٢ تسبب في اثارة عامة حينما رفض الوقوف عند عزف النشيد الخديوى في دار الأوبرا بالقاهرة ، وهو تصرف اعتبرته السراى بمثابة اعلان الوطنيين الحرب ضد الخديو • (٤) غير أن خطبة فريد في الاجتماع السنوى للحزب الوطني هي التي أفسدت في النهاية علاقته بالحكومة •

وفي مارس ١٩١٢ كان على فهمي كامل قد استعاد سيطرته على « اللواء » ، وانتهى ايقاف « العلم » • وهكذا عقد الحزب الوطني اجتماعه السنوى في ٢٢ مارس وقد استرد أداتيه اللتين يعبر بهما عن نفسه • ولم يحضر الاجتماع سوى ثلثمائة عضو ، معظمهم من الطلاب • (٥) وكان ذلك نقيضا مفجعا للآلاف الذين حضروا المؤتمرات السابقة • وكانت خطبة فريد ، وهي التي شغلت الجانب الاكبر من البرنامج ذات أهمية خاصة . لانه وجه أكبر قدر من اهتمامه للمسائل الاقتصادية والاجتماعية ، فحدد نواقص الجامعة المصرية ، ومعوقات تطور الجمعيات التعاونية المتمثلة في القانون التجارى الحالي ومعارضة البريطانيين لها • واتهم الحكومة بتبديد أموال الشعب في بنوك توفير البريد ، ليستثمرها البنك الاهلى المصرى الذي يملكه البريطانيون ، وكبديل اقترح فريد تكوين جمعيات ائتمان تعاونية تخلص الفلاحين من براثن المرابين والرأسماليين الأجانب •

وأثنى فريد في خطبته على مدارس العمال وكبار السن التي بدأها الوطنيون ، وحث على استخدام كتاتيب القرى مدارس ليلية للفلاحين ،

---

(١) Kitchener papers, JJ/13, Ronald Graham; « Political Parties in Egypt », 10 August 1911.

(٢) عبد الرحمن الرافعي : ص ص ٢٤٦ ــ ٢٤٩

(٣) المصدر السابق : ص ص ٢٥٠ ــ ٢٥٦ •

(٤) أحمد شفيق ، جـ ٢ ، مجلد ٢ ، ص ٢٦٧ وما بعدها •

(٥) مخطوطات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/1362 من كتشنر الى جراى . القاهرة في ٢٥ مارس ١٩١٢ ، برقية رقم ١٢ •

كما دعا الى التوسع فى حركة النقابات العمالية التى رأى أنها ستعلم العمال قيمة الاتحاد ، وتساعدهم فى الدفاع عن حقوقهم ، وتمكنهم من تأمين أنفسهم ضد الشيخوخة والحوادث ، وقابل بين استبداد الشركات الأجنبية واخلاص العمال والفلاحين ، وأوضح كيف أن العمال الأوربيين يتمتعون بنفوذ كبير عن طريق تمثيلهم النيابى وحقهم فى الاضراب ، وكلاهما تحقق لهم عن طريق اتحادهم ٠

ونقد قلة الميزانيات المخصصة لمجالس التعليم بالمديريات ، وأوضح أن ضعف هذه المجالس سببه تدخل الحكومة وقوانين الانتخابات الحاليه التى رفض الانجليز تغييرها ، لان النظام الحالى يتيح لهم أن يثبتوا أن المصريين غير جديرين بحكم أنفسهم ٠ وقارن بين تخلف مصر وحرية البلاد الأخرى وتقدمها ، ثم نقد أسلوب كتشنر فى حكم البلاد ، وحظر بريطانيا معاونة المصريين للقوات العثمانية فى طرابلس ، ثم دعا الجمعية العمومية الى المطالبة بالدستور والغاء قانون المطبوعات ٠ (١)

ولم يحدث من قبل أن وصفت خطبة ألقاها زعيم وطنى الجانب المظلم من الحياة المصرية فى ظل السيطرة الاجنبية بمثل هذا التفصيل ٠ وأثارت الخطبة جدلا حول شركات الاحتكار ، وبصفة خاصة فى المرافق العامة ، وكان معظمها يملكه أجانب ، (٢) وجدلا آخر حول قسوة نظام الامتحانات فى المدارس العليا ٠ ولسوء أحوال الحزب المالية استبدلت حفلة شاى فى ناديه بالمأدبة المعتادة ٠ (٣)

وبعد يومين تلقى فريد استدعاء للمثول أمام المدعى العام لاستجوابه حول خطبته ، فدهش لانه كان يعتبرها أرق لهجة من خطبه السابقة ٠

---

(١) عبد الرحمن الرافعي : ص ص ٢٦٢ ـ ٢٦٩

(٢) على سبيل المثال كانت شركتا ترام الاسكندرية والقاهرة يملكهما بلجيكيون ، باستثناء ترام الرمل فكانت تملكه شركة بريطانية ٠ وكانت شركة بريطانية أخرى تمد الاسكندرية بالمياه ، فى حين كانت كهرباؤها من اختصاص الفرنسيين ٠ وكل شىء فى هليوبوليس ، احدى ضواحى القاهرة ، كان يملكه الوجيه البلجيكى البارون امبان وكانت معظم السكك الحديدية ملكا للحكومة المصرية ، ولكن بعض المؤسسات الأوربية كانت تدير عدة خطوط صغيرة ٠ وكانت خطوط «البوستة الخديوية» الملاحية ملكا للحكومة فى الأصل ثم بيعت لشركة انجليزية ٠ ومعظم هذه الحقائق مستمدة من تشارلز عيسوى ٠

(٣) عبد الرحمن الرافعى : ص ٢٦٩

وكنوع من الحيطة دعا لجنة الأصدقاء (١) التى كونها للتشـــاور فى الموضوعات الهامة قبل عرضها على اللجنة الادارية (لا شك أن ثقته بها كانت أقل) • وبعد انتهاء فريد من الاستجواب أدرك أن الحكومة تريد أن تحاكمه بتهمة التحريض على الشغب ، واتفق مع اللجنة على أنه من الأفضل له أن يواصـــــل الكفاح من المنفى على أن يبقى فى مصر ويتعرض لحكم بالسجن لفترة طويلة • (٢)

وفى ٢٦ مارس أبحر فريد من الاسكندرية على سفينة روسية ، بعد أن اتخذ احتياطات غير عادية خشية أن يكتشف أمره • وكالشيخ جاويش وجد فى استانبول الملجأ والحرية اللازمة لاستئناف حملته على بريطانيا• وبعد ستة أسابيع حكم عليه غيابيا بالأشغال الشاقة لمدة سنة • (٣) ولم ير مصر بعد ذلك قط •

---

(١) كان أعضاء هذه اللجنة هم : الدكتور صادق رمضان ، وفؤاد سليم الحجازى ، ومحمود فهمى حسين واسماعيل لبيب ، واسماعيل حافظ • وربما كان د• رمضان الطبيب الخاص للخديوى سابقا ، هو أقرب أولئك الرجال الى فريد رغم أنه لم يكن أحد المسئولين المنتخبين فى الحزب • لاحظ غياب وكيلى الحزب ، على فهمى كامل وأحمد لطفى • ومن المحتمل أن يكون فريد قد فقد ثقته فى بقية المسئولين فى الحزب ، أو فى قدرة اللجنة الادارية على مساعدته فى الوصول الى قرارات فى المسائل الدقيقة •

(٢) مذكرات محمد فريد : ١٤ص وما بعدها ، عبد الرحمن الرافعى : ص ٢٨٤ •

(٣) عبد الرحمن الرافعى : ص ٢٧٤ • كمـــا حـــكم على كل من على فهمى كامل واسماعيل حافظ بالسجن ثلاثة اشهر لكل منهما لنشرهما نص خطبة فريد فى « اللواء » و « العلم » على التوالى، ولعل محاكمة الوطنيين هى التى دفعت سعد زغلول الى تقديم استقالته من منصب وزير الحقانية على نحو ما أعلن فى حديث له مع أمين الرافعى نشر فى « العلم » فى ٥ ابريل سنة ١٩١٢ ، ويؤيد ذلك أحمد شفيق فى مذكراته (ج ٢ ، مجلد ٢ ، ص ٢٦٨ ، ٢٧١ وما بعدها) ولكن العقاد من ناحية أخرى يرجع استقالته فى كتابه « سعد زغلول » (ص ١٢٨ وما بعدها) الى مشـــاجرة مع كتشنر حول ميزانية الوزارة • وبالاضافة الى ذلك فقد كانت علاقة سعد بالخديو ورئيس الوزراء ليست ودية بحال • وكانت استقالته خطوة هامة فى تطوره من متعاون مع الانجليز الى تولى مسئولية قيادة الكفاح من أجل استقلال مصر •

الفصل السابع

إنتكاس الحزب الوطني في مصر

- الأزمة داخل الحزب
- الوطنية المصرية خارج مصر

الأزمة داخل الحزب

عجلت هجرة فريد من مصر بانهيار الحزب الوطني بين صدمات سوء الحظ الخارجية والانقسامات الداخلية ٠ فقد زادت الحكومة ـ بتوجيه كتشنر ـ اجراءاتها القمعية ٠ فأرهبت الجميع باستثناء معارضي الحزب الموالين للحكم البريطاني ٠ فالجمعية العمومية المصرية التي كانت قراراتها السابقة بمثابة مؤشرات لقوة الوطنيين، رفضت اقتراح العضو عبد اللطيف الصوفاني ، وهو من أكبر زعماء الوطنيين بالدعوة لانشاء نظام نيابي فورا ٠ (١) وأوقفت الحكومة « وادي النيل » ، جريدة الحزب الوطني اليومية بالاسكندرية ، (٢) ومنعت «Egypt» التي كانت تصدرها في لندن لجنة « بلنت » المصرية ، من دخول البلاد بسبب هجومها على سياسة كتشنر ، (٣) في حين كان علي فهمي كامل ينفذ حكم السجن لنشره خطبة فريد في « اللواء » ، فوقعت أكبر صحف الحزب الوطني في ضائقة مالية موئسة ٠ وحينما أفرج عن « علي » وجد شركة « اللواء » فيما يشبه الموت المفاجيء بعد أن عجزت عن نشر عنوانها أو اسم رئيس تحريرها المسئول (٤) ٠ ولم تستطع « العلم » أيضا أن تصمد أمام حنكة

(١) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/1362 من كتشنر الى جراي ، القاهرة في ١٤ ابريل ١٩١٢ ، رقم ٤١ ٠

(٢) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/1362 من كتشنر الى جراي ، القاهرة في ٧ ابريل ١٩١٢ ، برقية رقم ١٨ ٠ وسمح «لوادي النيل» بمعاودة الصدور سنة ١٩١٤ بنفس رئيس تحريرها محمد الكلزة ، وظلت تصدر حتى سنة ١٩٣٦ ٠

(٣) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/1363 من كتشنر الى جراي ، القاهرة في ٤ ابريل ١٩١٢ ، رقم ٣٨ ٠

(٤) من علي فهمي كامل الى فريد ، القاهرة في ١١ أغسطس ١٩١٢ ، محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/1364 من تشيثام الى جراي ، القاهرة في ٩ سبتمبر ١٩١٢ ، رقم ٩٦ ٠

كتشنر التخريبية ٠ (١) فلم يبق قرب نهاية سنة ١٩١٢ غير « الشـعب » ليتحدث باسم الحزب (٢) ٠

كانت سياسة الحزب نحو الخديو هى العامل الرئيسى فى انقسامه الداخلى ٠ فقد كان تعيين كتشنر مندوبا بريطانيا وقنصـلا عاما نذيرا بنهاية « الوفاق » بين السراى والوكالة البريطانية ٠ ولهذا أبدى الخديو قدرا من الاهتمام بمصالحة الحزب الوطنى ٠ غير أن الوطنيين بعد أن منوا بالفشل مرتين فى محاولاتهم العمل مع الخديو عباس أصبحوا بصفة عامة وفريد بصفة أخص ، ينظرون بشك كبير الى محاولاته للتقرب منهم ٠ ورفض فريد أول عرض تقدم به للصلح فى سبتمبر سنة ١٩١١ ، وكذب مرارا شائعة نسبها الى الخديو ومندوبيه ، بأن السراى أعطته ثلثمائة جنيه لنفقات رحلته ٠ (٣) وبعد هربه الى استانبول هاجم الخديو فى عدة مقالات نشرها فى صحيفتى « الهلال العثمانى » و «Le Jeune Turc» اللتين تصدرهما جماعة الاتحاد والترقى (٤) ٠ ثم كتب بعد ذلك مقالتين أعنف فى «Le Siecle» وهى جريدة يومية تصدر فى باريس ، كشف فيها دور الخديو ، ولم يكن معروفا حتى ذاك الحين ، فى تكوين الحزب الوطنى سنة ١٩٠٦ و ١٩٠٧ ، واتهمه بالتآمر على فصل الولايات العربية عن الحكم العثمانى ليصبح خليفة للعرب تحت الحماية البريطانية ٠ (٥)

---

(١) محفوظات وزارة الخارجية البريطانيه FO 371/1364 من كتشنر الى جراى ، القاهرة فى ٣٠ نوفمبر ١٩١٢ ، رقم ١٢٦ ٠

(٢) كتب وفيق الى فريد فى خطاب بتاريخ ٢١ ديسـمبر ١٩١٢ يقول ان صوت « الشعب » كان شـديد الضـعف رغم ادارته لها ، وادارة الشـقيقين الموهوبين أمين وعبد الرحمن الرافعى ٠ وبعد ذلك حينما خففت الحكومة قبضتها توسعت « الشعب » من اربع صفحات الى ثمان واستأنفت نشر مقالات بتوقيع أعضاء الحزب ٠

(٣) مذكرات محمد فريد : ص ص ٢٣ ـ ٢٥ ، عبد الرحمن الرافعى : «محمد فريد» ص ٤٤٤ ٠

(٤) مذكرات محمد فريد : ص ص ١٦ ـ ١٨ ٠

(٥) « Le Siècle » ١٠ يوليو و ١٤ اغسطس ٠ وسعى الخديو عباس للخلافة شائعة قديمة ، تحمل مسئولية كامل مسئولية تكذيبها فى مقال « Berliner Tgeblatt » فى ديسمبر سنة ١٨١٧ واعاد على فهمى كامل نشره فى كتابه : جـ٦ ، ص‌ص ١١٧ـ١٢٨ ويشير احمد شفيق فى مذكراته (جـ ٢ ، مجلد ١ ، ص ٣٥١ وما بعدها) الى نداء تعمد الخديو توقيعه يدعو مسلمى اليمن الى الثورة على الحكم العثمانى ٠ وقد حذر بلنت ، الذى كان ذات يوم من دعاة انفصال العرب عن الحكم العثمانى ، الوطنيين من أطماع الخديو فى خطبته التى القاها فى مؤتمر بروكسل ١٩١٠ ٠ انظر :
Oeuvres du Congrès National Egyptien», p. 82, Adam : «Angleterre en Egypté», p. 208.

وهدف هذان المقالان أيضا الى اثارة مخاوف فرنسا من تضاؤل نفوذها فى سوريا نتيجة تآمر البريطانيين مع الخديو تحت ستار القومية العربية ، فأغضب بذلك الخديو وأزعج كثيرا من الوطنيين الباقين فى مصر • وخشت اللجنة الادارية أن يتعرض الحزب للمزيد من عدوان الحكومة ، فأمرت على فهمى كامل بالكتابة الى فريد يطالبه بتفسير لهجماته ، (١) بل ذهب بعضهم الى المطالبة باستقالته من الحزب •

ولم تكن سياسة الحزب تجاه الخديو هى موضوع النزاع الوحيد ، فقد وقعت فى صيف ١٩١٢ حادثتان أثارتا الشكوك لدى المتنصلين من الأساليب والأهداف الثورية • كانت الأولى محاولة فاشلة لقتل كل من كتشنر والخديو ومحمد سعيد رئيس الوزراء • وقبضت الشرطة على خمسة شبان من الوطنيين ، قدم ثلاثة منهم للمحاكمة وأدينوا على أساس شهادة مزيفة فى الأغلب • (٢)

وزادت الحادثة من النفور العام من الوطنيين ، كما أثبتت أن قفاز جورست المخملى قد تحول فى يد كتشنر الى قبضـة من حديد • وبعد فترة وجيزة قبض على طالب مصرى بالكلية العسكرية باستنابول يدعى أحمد مختار ، وهو يحاول فى جمرك الاسكندرية تهريب منشورات ثورية فى شكل كتيب بعنوان « القصاص » • وكانت الكتيبات تدعو الى تكوين جمعيات ســـياسية سرية فى مصر ، وتمجد الوردانى (فى دعوة مقنعة لاغتيال كبار المسئولين) ، وتوجه لوما طويلا للخديو ، يدين وزارة سعيد

= وكذلك تلقى فريد رسالة من رئيس تحرير « البلاغ » البيروتية بتاريخ ٦ فبراير ١٩١٢ يحذره من مؤامرات ضد السلطان ينفذها فى سوريا عملاء البريطانيين والخديو • وعن آراء الوطنيين المصريين فى القومية العربية انظر أيضا : انيس صايغ « الفكرة العربية فى مصر » ، بيروت ، مطبعة هيكل الغريب ، ١٩٥٩ ، ص ص ٤٩ ـ ٥٥ ، ٧٢ وما بعدها •

(١) من على فهمى كامل الى محمد فريد القاهرة فى ١٣ سبتمبر ١٩١٢

(٢) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/1362 من تشيتهام الى جراى القاهرة فى ٢٢ يوليو ١٩١٢ ، رقم ٨١ ، من تشيتهام الى جراى ، الرمل فى ١٨ أغسطس ١٩١٢ رقم ٩١ • ويذهب عبد الرحمن الرافعى (ص ٢٨٦) الى أن الحكومة لم تقدم اى دليل يثبت وجود مؤامرة ، ولكنها اعتمدت على شهادة رئيس مباحث الشرطة • وقد اعترف هذا الضابط فيما بعد أن شهادته فى تلك القضية كانت كاذبة ، بعد ادانته فى تهم رشوة • واعتقد الوطنيون ان كتشنر اختلق هذه المؤامرة ليسىء الى سمعة الحزب ويبرر قمعه له • انظر مقال محمد فريد « Le Complot contre le Khédive; l'opinion des nationalistes égyptiens », « Le siecle » فى ٢٤ يوليو ١٩١٢

وإعتماده على البريطانيين ، واضطهاده للوطنيين ، وفساد المحيطين به (١)٠ وباستجواب مختار نسب تأليف هذا الكتيب الى الشيخ جاويش ٠

وخشيت الحكومة المصرية أن يستخدم الوطنيون استانبول قاعدة يوجهون منها نشاطهم الثورى الى مصر ، فطالبت بتسليم جاويش (٢) ٠ وكانت وزارة مناصرة للبريطانيين قد تولت الحكم منذ قليل وأقصت حزب الاتحاد والترقى ، فما كان منها الا أن قبضت على جاويش وسلمته للسلطات المصرية ٠ وكان فريد والدكتور منصور رفعت قد أقحما أيضا فى شهادة مختار ، ولكنهما نجيا من تسليمهما بالاسراع بالفرار الى فرنسا أولا ثم سويسرا (٣) ٠ وبدأ الخديو يهدد الحزب بمزيد من العدوان اذا لم يستنكر هجمات فريد عليه ٠ (٤) أما وقد أصبح فريد طريد العدالة فى ثلاثة دول ، فان قسما كبيرا من أعضاء اللجنة الادارية أبدى استعداده لنبذ زعامته المحرجة للحزب بصورة متصاعدة ٠ وحصلت هذه المجموعة بقيادة عبد الحميد عمار على تأييد غالبية اللجنة التى أصدرت بيانا بأنها « تتنصل من كل حركة تسىء الى سمعة البلاد ، وتعتبر كل تصرف خارجا عن نطاق العمل السلمى والعقل مضادا لمبادىء الحزب الوطنى » (٥) ٠ وأرسلت مجموعة عبد الحميد عمار ، ربما بتحريض من الخديو ، رسالة الى

---

(١) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/1363 من تشيثهام الى جراى ، الرمل فى أول سبتمبر ١٩١٢ ، رقم ٩٤ ويحوى ترجمة فرنسية لكتيب « القصاص » ومن اتباع الخديو الذين نسب اليهم الفساد عدد من الوطنيين السابقين كمحمد على دلاور ، واحمد شوقى ، وحامد العلايلى ٠

(٢) محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/1363 من تشيثهام الى جراى ، الرمل فى ٢٧ اغسطس ١٩١٢ برقية رقم ٤٩ ٠

(٣) مذكرات محمد فريد : ص ص ١٨ — ٢٠
France, Ministère des Affaires Etrangères : Egypte : Politique Intérieure — Dossier Général, V, p. 121, من فوشيه الى بوانكاريه ، القاهرة فى ٢ سبتمبر ١٩١٢ ، برقية رقم ٧٣ ، المصدر السابق : مذكرة عن محمد فريد فى ٥ سبتمبر ١٩١٢ ، رقم ١٥٤ محفوظات وزارة الخارجية البريطانية ، FO 371/1364 من كامبون الى جراى ، لندن فى ١٥ سبتمبر ١٩١٢ ٠

(٤) من على فهمى كامل الى فريد ، ٨ يناير ١٩١٢

(٥) France, Ministère des Affaires Etrangères : Egypte : Politique Intérieure — Dossier Général, V, p. 139 f.
من فوشيه الى بوانكاريه ، القاهرة فى ١٠ سبتمبر ١٩١٢ رقم ٣٩٠ ، محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/1363 من تشيثام الى ماليه ، القاهرة فى ١٦ سبتمبر ١٩١٢ ، خاص ٠

فريد تطالبه فيها بالاستقالة (١) • فاستجاب فريد قائلا ان غيبته الطويلة عن مصر جعلته عاجزا عن مباشرة واجبات منصبه (٢) ، ولكن الحزب لم يسارع الى البت فى استقالته •

ويبدو أن اللجنة الادارية انقسمت الى معســـكرين : « المعتدلين » الذين يريدون انقاذ الحزب بتخفيف التوتر مع السراى ولو ضحوا فى سبيل ذلك بزعيمهم ، و « المتطرفين » الذين رأوا خلاصهم فى التمسك الصارم بالمبادىء الوطنية والولاء لفريد وازدراء كل المتعاونين مع الانجليز•

كان المعتدلون هم أعضاء اللجنة الأكثر ثراء وتقدما فى الســن : عبد الحميد عمار ، وعبد اللطيف الصـــوفانى ، وحافظ رمضـــان ، وعلى علوبة ، ومحمد أحمد شريف ، وعلى المنزلاوى (٣) • وكان من أنصار فريد : اسماعيل حافظ (شقيق زوجته) ، وعبد الملك حمزة ، وعبد الله طلعت ، واسماعيل لبيب ، وأحمد وفيق ، واسماعيل كامل ، وعبد الرحمن الرافعى ومصطفى الشوربجى • أما على فهمى كامل أكبر مسئول فى الحزب فقد أدعى الحياد (٤) ، وان كان ميله المبدئى أقرب الى المعتدلين (٥) •

ووصل الصراع بين الفريقين حول السيطرة على الحزب الى قمته (*) فى يناير ١٩١٣ ، حينما عقدت سلسلة من الاجتماعات الجانبية ، حاولت خلالها كل طائفة فصل معارضيها من عضوية اللجنة الادارية (٦) • وفى النهاية انتصر « المتطرفون » واستطاعوا رفض اســـتقالة فريد وعزل

---

(١) احمد شفيق : جـ ٢ ،مجلد ٢ ص ٢٧٠

(٢) « الأهرام » : ٢٠ سبتمبر ١٩١٢ ، « Le Siècle » ٢٥ سبتمبر ١٩١٢

(٣) استقال المنزلاوى ـ من اللجنة بعد أن فشلت فى اتخاذ اجراء فورى بشـــأن استقالة فريد ، واتهمه بأنه حقق أرباحا طائله من عملية « العلم »

من فوشيه الى بوانكاريه ، القاهرة فى ١٠ أكتوبر ١٩١٢ •

France, Ministère des Affaires Etrangères : Egypte : Politique Intérieure — Dossier Général, VI, p. 19.

(٤) من على فهمى كامل الى فريد ، ٨ يناير ١٩١٣ •

(٥) من أحمد وفيق الى فريد ، القاهرة فى ٢١ ديسمبر ١٩١٢ • ومما كتبه وفيق أن فريقه يريد عزل « على » عن الوكالة لأنه يعارض جهودهم لطرد « عمر » من اللجنة الادارية •

(٦) من على فهمى كامل الى فريد ، ٨ يناير ١٩١٣ •

(*) المؤلف يخلط بين اختلاف فريقى الحزب حول سياسة الحزب تجاه الخديو ، وبين الصراع من أجل التسلط والسيطرة • الخلاف الأول موجود وله اسبابه أما الثانى فيتخيله المؤلف • والوقائع التى يوردها لا تؤيد فى قليل او كثير ان الفريق المناهض لفريد كان فيه من يطمع فى الرياسة دون فريد نفسه •

عبد الحميد عمار من عضوية اللجنة (١) • وترتب على ذلك استقالة كثير من المعتدلين أو توقفهم عن حضور الاجتماعات ، فانتخبت اللجنة الادارية ، بناء على اقتراح فريد ، أعضاء آخرين بدلا منهم ، كما صوتت على تأجيل المؤتمر السنوى للحزب حتى نهاية العام • (٢) وان كان هـذا الاجتماع للوطنيين لم ينعقد فى الحقيقة الا بعد عشر سنوات •

ان الحزب الوطنى لم يختف من الوجود ، وان كان الجانب الأكبر من جاذبيته قد تبدد • (*) فكثير من أعضائه البارزين تخلوا عن القضية ، بعضهم الى الأبد ، وبعضهم الآخر حتى قيام ثورة ١٩١٩ • وتحالفت عودة الرخاء التدريجى ، وانتهاء الأزمة الطويلة التى تلت سنة ١٩٠٧ مع خوف الوطنيين الباقين من المزيد من بطش الحكومة على جعـــل التربة غـير صالحة مؤقتا لانتشار المعارضة للبريطانيين •

وبالرغم من ذلك فقد ظلت عوامل فقدان التوازن تتزايد فى المجتمع المصرى ــ الانتقال الى الاقتصـــاد السائل المعتمد على محصـــول واحد ، وســيطرة النفوذ الأجنبى وظهــور طبقة بروليتاريا فى المدن بلا جــذور تقريبا ، وانهيار القيم والنظم المتوارثة ــ كل هذه العوامل لم تتوقف عن القيام بدورها • وبشىء من التأمل يمكن أن نلاحظ أن سنتى ١٩١٣ و ١٩١٤ الهادئتين ــ لا السنوات من ١٩٠٧ الى ١٩١٢ ــ هما اللتان تقدمان النموذج السائد لتاريخ مصر الحديث •

---

(١) من وفيق الى فريد فى ٢٠ ينـــاير ١٩١٣ ، من عبـد الملك حمزة الى فريد ، القاهرة فى ٢٠ يناير ١٩١٣

«٢» من على فهمى كامل الى فريد ، القاهرة فى ٦ فبراير ١٩١٣ •

(★★) ويخلط المؤلف هنـا بين فقدان لحزب جاذبيته او تاييد الشـــعب له ، وتضييق الحكومة عليه ، واضطهاد انصاره ، واغلاق صحفه • فالحزب الوطنى بقى قائد الشعب ، وبقى المصريون يذكرون مصطفى كامل ، والفلاحون يتغنون بالمواويل التى تمجد دوره فى حادثة دنشواى كما كانوا يذكرون « فريد » على البعد ، ولكن السلطة العسكرية لجأت الى أقصى العسف لتمنع كل نشاط للحزب الوطنى • فصمت الشـــعب كان صمتا مفروضا على الحزب الوطنى ولم يكن انفضاضا من الشعب عنه •

الوطنية المصرية خارج مصر

نجحت اجراءات القمع التى نفذها كتشنر وخصـــومته القاتلة فى اضعاف الحزب الوطنى (*) فى مصر وحرمته زعماءه ، فاضـــطر الى نقل بؤرة نشاطه الى خارج مصر • فاجتمعت أعداد قليلة من الوطنيين المبعدين فى استانبول ، حيث شغل الشيخ جاويش منصبا هاما حين رأس تحرير صحف جماعة الاتحاد والترقى ، وفى جنيف حيث لجأ فريد بعد ترحال استمر بضعة أشهر من بلد لآخر ليتجنب تسليمه للسلطات المصرية •

ولما لم يكن لأى من الجماعتين موارد تسمح لها بالتفرغ للهجوم على الاحتلال ، فقد تحولتا الى الدعوة للجامعة الاسلامية • وفى يناير ١٩١٣ التقت فى جنيف جماعة من المسلمين المبعدين وكونوا جمعية ترقى الاسلام • وتولى فريد رئاسة تحرير مجلتها الشهرية «Bulletin de la Société Endjouman Terekki-Islam» ، وكان المفروض أن تنشر أخبار العالم الاسلامى وتعرض المصاعب التى تواجه المسلمين الذين وقعت بلادهم تحت سيطرة حكم المسيحيين (١) • وعبر فريد فى افتتاحيـاته عن يأســه من

(١) مذكرات محمد فريد : ص ٢٢ • وكانت مجـــلة الى «Bulletin» التى ظلت تصدر بالنظام حتى سنة ١٩١٥ نوعا من الاستمرار لمجلة بلنت : «Egypt" التى توقفت عن الصدور بعد وفاة فريدريك ريان المبكرة فى أبريل ١٩١٣ •
(Blunt : «My Diaries», 825).

(*) مرة اخرى نختلف مع المؤلف فى استعمال تعبير « اضعاف الحزب الوطنى » ، فاستعمال القوة ضد حزب قد تمنعه من نشاطه وتردد اسمه وظهور تاييد الناس له ، ولكن ليس معنى هذا أضعاف الحزب ، فاستعمال القوة ضد حزب ما فى وقت ما قد يؤدى الى مضاعفة قوته •

مستقبل الاسلام ، وعدم ثقته فى أهداف ، لا بريطانيا وحدها ، بل أوربا المسيحية كلها (١) ٠

كان موقفه انعكاســا صادقا لليأس العام الذى خيم على المراقبين المسلمين : فقد كانت فرنسا قد أتمت لتوها تطويق امبراطوريتها بشمال افريقيا باعلان الحماية على مراكش ، وسقطت طرابلس فى أيدى الايطاليين، ونصب كتشنر نفسه حاكما فعليا لمصر ، فى حين كانت ايران شـبه مستعمرة روسية ، و « الحلف البلقانى » يقوم بطرد تركيـا من ولاياتها الأوربية وسط تهليل المسيحية فى كل أرجاء العالم تقريبا ٠

وكانت لفريد نظرة اسـلامية بالرغم من ثقافته الغربية ، فرأى أن دفاع أوربا عن حق دول البلقان فى تقرير مصيرها ، وما صحبه من موقف عدائى تجاه مطلب مصر المسلمة للاستقلال ، لا معنى له سوى أن الحروب الصليبية لم تنته ٠

ولم تنتعش آمال فريد الا فى يناير ١٩١٣ حينما أطاح ضباط جماعة الاتحاد والترقى بوزارة كامل باشا المناصرة للانجليز وشـحذوا المقاومة التركية لقوات البلقان ٠ فعاد الى استانبول فى فبراير حيث قام باحياء جمعية الطلبة المصريين الممزقة ، غير أنه تشاجر مع جاويش ، لأنه كان يعتقد أنه هادن الخديو سرا ليضمن تبرئته من حادثة أحمد مختار (٢) ، وحرص على ابعاده من قيادة الطلبة ٠ ومن سوء حظ المصريين أن«جاويش» هو الذى كان يحظى بثقة زعماء تركيا الفتاة ٠ وهكذا كادت الأشهر الثلاثة التى قضاها فريد باستانبول لاتحقق شيئا بالمرة (٣) ٠

---

(١) بالاضافة الى «Bulletin» اصدر فريد نشرة :
'Etude sur la crise Ottomane actuelle». Geneve, Societé «Le Progrès de l'Islam », 1913, 2nd ed., 1915.

عبر فيها عن آراء مشابهة ٠

(٢) مذكرات محمد فريد : ص ٤٦ وما بعدها ٠

(٣) جاء فى مجلة « The Near East » ١٣ اكتوبر ١٩١٣ ، أن فريدا منح ١٥٠٠ فرنك ليغادر استانبول ، لأنه كان يثير الفرقة بين الأتراك ٠ واثناء اقامته كتب مقالا اتهم فيه الشيخ على يوسف بالتعاون مع جمعيـة عربية انفصالية فى القاهرة ، وأوحى باصدار كتيب يوجه اللوم للخديو ويعتبره مسئولا عن الهزائم العثمانية فى حرب البلقان الأولى ٠ انظر :
Die Grosse Politik der Europaischen Kalinette, XXXVIII, p. 25,
من فاجنهايم الى بيثمان ـ هولفينج ، بيرا فى ١٢ ابريل ١٩١٣ ، رقم ٥٨
France, Ministère des Affaires Etrangères : Egypte : Politique Intérieure Relations du Khédive avec le Sultan, II, p. 119 f.
من ديفرانس الى بوانكاريه ، القاهرة فى ٢١ ابريل ١٩١٣ ٠
« The Moslem World », XI, 3 (July 1921), p. 320.

وعند عودة فريد الى جنيف فى مايو كرس معظم وقته وجهده خلال السنة التالية لتنظيم السبعمائة مصرى الذين يدرسون فى أوربا (١) فى جمعيات سياسية تختزن وقود الوطنية الى أن تسمح ظروف مصر باضرامها هناك . وفى أغسطس دعا فريد الى اجتماع طلابى بقرية فرنسية قريبة من جنيف تدعى « كولونى ـ سو ـ ساليف . Collonges-Sous-Saléve حيث طالب باتخاذ موقف نضالى مؤيد للوطنيين ، وتحقق له ما أراد .

وفى ديسمبر كونت الجاليـة المصرية الكبيرة بجنيف ناديـا وطنيا أسمته جمعية « أبو الهول » . وأصبح هذا النادى نموذجا لنوادٍ مماثلة فى مدن أوربية أخرى حيثما وجد عـدد كبير من الطلاب المصريين . ففى ربيع سنة ١٩١٤ رأس فريد بنفسه حفـلات افتتاح فروع « جمعية » « أبـو الهول » فى لنـدن ، وباريس ، وليون ، ولييج ، وأنتويرب ، وبروكسل (٢) .

لم تكن علاقة الخديو بكتشنر طيبة حين كان الأخير سردار الجيش المصرى فى تسعينيات القرن الماضى ، وازدادت سوءا حين أصبح المندوب البريطانى فى القاهرة ، وأصبح الصراع بينهما علنيـا فى مستهل سنة ١٩١٣ حينما حـاول عباس أن يبيع لشركة ايطاليـة سكة حديد مريوط

---

(١) فى تقرير اعدته وزارة المعـارف المصريـة وضمته محفوظات وزارة الخارجية البريطانية FO 371/1639 ، من تشيتهام الى جراى ، الرمل فى ٢١ سـبتمبر ١٩١٣ ، رقم ١٠٨ ، أن عدد المصريين الذين كانوا يدرسون فى المعاهد العليا بأوربا ٧٠٦ طلاب ، من بينهم ٤٤٠ بانجلترا ، ١٨٦ بفرنسا ، ٣٥ بسويسرا ، ٢٢ بالامبراطورية العثمانية ، ٢٠ بألمانيا ، ٩ ببلجيكا ، ٨ بايطاليا ، ٤ فى النمسا والمجر . ومعظمهم كانوا يدرسون على نفقة أهليهم ، ومن ثم لا يخضعون لأى توجيه رسمى ، فكانت لهم حرية الارتباط بالعمل الوطنى اذا شاءوا وكان تعيين وزارة المعارف لمشرفين على هؤلاء الطلاب فى لندن وباريس وجنيف سنة ١٩١٢ ، اجراء حثت عليه وزارة الخارجية البريطانية وكتشنر ، وهاجمه فريد ، والأرجح انه احدث أثرا مثبطا فى حماسة الطلبة للمشاركة فى النشاط السياسى . (★)

(٢) مذكرات محمد فريد : ص ص ٦٤ ، ٦٩ ـ ٧٣ ، ٧٨ وما بعدها ، عبد الرحمن الرافعى ، « محمد فريد » ، ص ص ٣٠٩ وما بعدها ، ٣٢٨ ـ ٣٣٤
Bulletin de la Societé Endjouman, Terkki-Islam II, 4-6 (April-June 1914) pp. 222-246, 306-308, 341-349, The African Times and Orient Review, London, N.S., I, 1 (March 1914), p. 5f.

(★) لا يوجد ادنى دليل يعتد به على حصول هذا التثبيط ، اذ أن الحرب لم تلبث أن قامت واصبحت هذه المكاتب عديمة التأثير على الطلاب ازاء احداث الحرب الضخمة التى شغلت الجميع وعطلت اكثر النشاط السياسى .

التى أنشأها على ساحل البحر الأبيض من الاسكندرية غربا حتى مرسى مطروح • وكان بند من عقد البيع يسمح للمشترى بمد الخط الى السلوم على الحدود الليبية • ولما كانت ليبيا قد أصبحت الآن مستعمرة ايطالية ، فان سكة حديد مريوط اكتسبت اهمية استراتيجية كبيرة بالنسبة لها ومن الممكن أن تسهم فى تقوية مركزها فى شمال شرقى افريقيا • لذلك فقد تدخل كتشنر لمنع البيع (١) •

ومنذ ذلك الحين بذل كتشنر كل ما فى وسعه للحد من سلطات الخديو ، وتحرك بجرأة حيثما لم يجرؤ حتى كرومر على مجرد الخطو • فاستطاع أن يستخلص ادارة أوقاف المسلمين من اشراف الديوان الخديوى ، وكانت تمد عباسا بجانب كبير من النفقات التى تتطلبها مؤامراته ضد البريطانيين والوطنيين ، وأنشأ وزارة خاصة لتدير هذه الثروات الدينية (٢) • وكذلك وضع حدا للعملية المربحة التى كان يمارسها الخديو فى بيع الرتب والأوسمة ، وكانت تمثل مصدرا آخر للدخل الخاص والفضائح العامة (٣) بل لقد فكر فى خلع عباس ، لولا أن صرفه كرومر عن ذلك لئلا يستثير الخديو العطف العام و « يتحول الى مركز يمكن أن تتجمع حوله النزعات الوطنية » (٤) •

لقد كان الجشع هو النقيصة المساوية فى الخديو ، وباستثنائه كان شخصية جذابة • ولعل حالته تؤكد حقيقة أن قليلا من السلطة يمكن أن يفسد تماما وبنفس القدر كالكثير منها • فلم يكن عباس مؤهلا ليكون حاكما صوريا ، وقد أثار حقده تباهى كتشنر بممارسة سلطاته فى حين أن تواضع جورست المنكر لذاته كان يهدئه • وهكذا استؤنفت فى سنة ١٩١٣ العلاقات المتوترة التى كانت سمة الفترة الأولى من حكم عباس •

فى مثل هذه الظروف لم يكن غريبا أن يبحث الخديو عن حلفاء جدد ضد كتشنر ، بدأ بمحاولات سرية للتقرب من الوطنيين ، على نفس النحو الذى فعله فى صراعه مع كرومر منذ عشرين عاما • ان عروضه السابقة

---

(١) Lloyd : I. p. 171. ومن ناحية اخرى قال بيمان فى كتابه «عزل الخديو» ان عباسا عرض قبل ذلك بيع خط سكة حديد مريوط للحكومة ، ولكن كتشنر رفض ، بهدف تخفيض الثمن •

Lloyed : I. pp. 169-171, Beaman : « The Dethronement of the Khediv » pp. 50-52.

(٢) Lloyd : I, p. 171

(٣) Magnus : p. 272.

(٤) من كرومر الى كتشنر ، لندن فى ٣٠ يوليو ١٩١٣ ، Magnus : p. 272 f.

على المعتدلين لم تحقق الا تمزيق الحزب ، فى حين ظلت غالبيـــة اللجنـة الادارية على اخلاصها لفريد . فما كان منه الآن الا أن بدأ يسعى لمصالحة فريد نفسه . فلم يكن مصادفة أن يكتب واحد من أعضاء اللجنة المخلصين ، وهو محمود الشيشينى ، الى فريد فى مايو ١٩١٣ يدعـوه الى محـــاولة للتقارب يتولاها شخص يتمتع بثقة الطرفين (١) .

وحاول الخديو نفسه الاتصـــال بفريد عن طريق بعض المغتربين المصريين ، كيوسف صديق ، ومحمد على دلاور ، ومحمود سالم ، وكلهم وطنيون سابقون على علاقة وثيقة بالسراى (٢) ، بل لقد فكر أيضا فى طريقة أفضل للاتصال بفريد ، فظـل فترة يدفع مرتبـا شـهريا لعزيزة دى روتشبرون ، وهى من أشد مؤيدى فريد حماسة (٣) ، ودعاها الى

---

(١) من محمود الشيشينى الى فريد ، القاهرة ، فى ١٩ مايو ١٩١٣ . وقد تزوج حيدر بن محمود كبرى بنات محمد فريد .

(٢) مذكرات محمد فريد : ص ٤٤ ــ ٤٦ ، أحمد شفيق : جـ ٢ ، مجلد ٢ ، من ٣٠٣ . وكان « صديق » وقتذاك رئيس الديوان الخديو ، « ودلاور » ناظر اقطاعيات الخديو ، «و.ـ لم» رئيس «جمعية الدعوة والارشاد» وهى معهد الشيخ رشيد رضا بالقاهرة لتدريب المبشرين المسلمين . وهناك شخص آخر أقل شهرة ، وان كان أقرب للوطنيين ، وهو توفيق زاهر ، قابل فريد عدة مرات سنة ١٩١٣ بشأن الصلح مع الخديو .

(٣) قصة مدام عزيزة دى روتشبرون ، واسمها الحقيقى رينيه روتشبرون ــ ريفارد ، تعقدت على أيدى المصريين المعجبين بها والكارهين لها حتى أصبحت تستعصى على الحل . لقد ولدت سنة ١٨٨٨ لأسرة فرنسية بورجوازية تعيش فى الأرجنتين ، ولكنها عادت الى باريس بعد وفاة والدتها ، وشغفت بالدراسات الاسلامية وهى طالبة بثانوية فيكتور هوجو فالتحقت بمدرسة اللغات الشرقية الحية حيث تعلمت اللغة التركية ، ثم بمدرسة العلوم السياسية . وكونت علاقات مع كثيرين من الطلاب المصريين ، والأتراك ، والهنـــود ، والايرانيين فى باريس سنة ١٩٠٩ ، وهى نفس السنة التى التقت فيها بفريد ، وانشأت ناديا ، ومركزا شرقيا ومجلة شهرية هى « La Revue Orientale »وفى سنة ١٩١٠ أصبحت احدى سكرتيرات المؤتمر الوطنى المصرى .

وفى مقابلة مع كاتب هذه السطور روت أن «فريد» حينما علم أنها حامل وعدها ، فى حضور عدد من الأصدقاء انه سيتخذها زوجة ثانية له . وقد تالم أبوها بعمق لحملها واضطرها الى مغادرة البيت ، فسافرت الى تركيا مراسلة لصحيفتين باريسيتين ، وفى ليتها مقابلة فريد هناك . وفى استانبول قضى معها فريد معظم شهر ديسمبر ١٩١٠ ، ثم عاد الى القاهرة ليواجه المحاكمة حول ديوان «وطنيتى» . وفى مارس ١٩١١ وضعت طفلا ، اسمته محمود وحيد (« وحيد » باللغة العربية تكاد تكون مرادفة لفريد) . فى تلك الأثناء كان فريد قد فقد ثروته ، واصبح غير قادر ، اوغير راغب ، على الوفاء بوعده بالزواج . وبعد مصاعب جمة احتملتها روتشبرون اتصلت فى النهاية بيوسف صديق ، الذى استطاع بدوره اقناع الخديو بأن يخصص لها مرتبا شهريا قدره عشرون جنيها تعول به ابنها ، على أساس ان ابوة فريد له تجعله مصريا . غير أن فريد لم يعترف قط =

قصره باستانبول وطلب منها أن ترتب له لقاء مع فريد • فذهبت الى جنيف حيث حصلت على موافقة فريد المبدئية على أن يقابل الخديو وجها لوجه • غير أن الخديو حينما زار جنيف في أكتوبر سـنة ١٩١٣ خشى متابعة الجواسيس البريطانيين ، ورحل قبل أن يتم ترتيب اللقاء (١) •

وهكـذا بدأ دور مدام دى روتشبرون الغريب فى الوسـاطة بين الوطنيين والخديو • وقد ظلت مسألة الصلح هذه تشغل « فريد » حتى نشوب الحرب العالمية الأولى ، فقد كان الجانبان مترددين ، فمع ضعف موقفيهما كان لابد من أن يكشف كل منهما ورقه بحذر شـديد • فقد ارسل الخديو فى أواخر نوفمبر يسـتدعى روتشبرون الى القاهـرة وأرفق برسالته تذكرة الباخرة • وعلى الفور كتب فريد الى شقيق زوجته بالقاهرة يحذر الوطنيين من معاونتها فى جهودها للوساطة (٢) • لعله خشى أن يستخدمها الخديو فى احداث المزيد من الفرقة فى صفوف الحزب• ولكن اللجنـة الادارية كانت قد قررت بالفعـل التقرب من الخديو ، عن طريق عبد الملك حمزة ومصطفى الشوربجى هذه المرة (٣) • وقد وعدهما الخديو بأنه سيقابل فريد حينما يسافر الى أوربا فى الصيف التـالى ، كما دفع ألف جنيه لانقاذ «الشعب» من ضائقتها المالية المستمرة ، فغضب لذلك فريد وكثير من مؤيديه فى القاهرة ، ممن كرهوا أن يصبح للخديو فضل جديد على أداة الحزب (٤) •

= بنسبة هذا الابن اليه علنا ، رغم أنه ظل على اتصال بروتشبرون حتى وفاته • وكتب فى مذكراته أن الخديو كان يدفع لها لتتجسس عليه ، لكنه استطاع اقناعها بأن تتجسس له على عباس وان كانت روتشبرون (مدام فييـار الآن) أخبرتنى أن ما قاله فريد فى مذكراته غير صحيح • هذه الفضيحة غير السارة فى حياة فريد الخاصة كان من الممكن الا تعنى بها هذه الدراسة ، لولا الدور الهام الذى قامت بها روتشبرون فى الوساطة بين فريد والخديو • ولم يصدق جميع الوطنيين قصتها ، فمازال الكثير منهم يعتبرونها متآمرة او عميلة للانجليز • وسنحصل على تفصيلات حياتها حين تنشر مذكراتها • وقد أشاد احمد شفيق (جـ ٢ • مجلد ٢ ، ص ٣٠٣) بكفاءتها فى الوساطة بين الخديو وفريد •

(١) المصدر السابق ، مذكرات محمد فريد : ص ٥٣ وما بعدها •

(٢) مذكرات محمد فريد : ص ٦٢

(٣) من على فهمى كامل الى فريد القاهرة فى ٨ نوفمبر ١٩١٣ •

(٤) من عبد الملك حمزة ، ومحمد على محمد ، وعبد الحميد سعيد ، واسـماعيل كامل ، وعوض البحراوى وأحمد طاهر الى فريد القاهرة فى أول مايـو ١٩١٤ ، من عبد الملك حمزة الى فريد فى ١٣ مايو ١٩١٤ ، من أحمد وفيق الى فريد ، فاقوس فى ١٧ يونيو ١٩١٤ • وكان فريد يعتقد أن عبد الله طلعت وشقيق اسماعيل لبيب وأحد مديرى الشعب يتقاضون مبالغ منتظمة من الخديو ، ومن ثم أصبح « الشعب » خديويا أكثر من « المؤيد » • (مذكرات محمد فريد : ص ٨٣)

ومن ناحية أخرى قضت روتشبرون الشتاء كله فى مصر دون أن تقابل الخديو ، ولكنها قابلت كتشنر الذى قال لها بفظاظته المعهودة انه يفضل أن يفتح بوابات السجون على اتساعها ويطلق سراح كل مجرمى مصر على أن يسمح لفريد بالعودة • وأخبرها حسين رشــدى ، الذى خلف محمد سعيد فى رئاســة الوزارة فى مارس ١٩١٤ ، ان الحكومة المصرية تريد محاكمة فريد غيابيا على مقالاته فى الصحافة الأوربية ، بهدف أن يصدر ضده حكم قاس يصرفه نهائيا عن التفكير فى العودة الى مصر ، ومعنى ذلك أن غيبة فريد عن مصر ســنتين لم تقلل ، فى نظر كتشنر ، من قدرته على اثارة المعارضة (١) •

ورغم أن كتشنر اســتخدم العنف فى مواجهــة اثارات الوطنيين المتطرفين ، فقد حاول الاستجابة لرغبة المصريين العامة فى الاصــلاح الدستورى • ففى يوليو ١٩١٣ أصدرت الحكومة المصرية قانونا نظاميا يحل محل قانون ١٨٨٣ ، وينشىء جهــازا نيابيــا جديدا هو الجمعية التشريعية التى تقوم بدور المجلس التشريعى والجمعية العمومية معا • وخولت هذه الجمعية التشريعية حق اقتراح التشريعات ، ورفض اقرار ضرائب جديدة ، ولكنهــا لاتستطيع منع الحــكومة من اقرار القوانين ، وليس من حقها مناقشــة التزامات مصر نحو الامبراطورية العثمانيــة أو الدول الأجنبية ، بما فيهــا بريطانيــا ، ولاتملك أن تعين الوزراء أو تقيلهم ، فقد ظلوا مسئولين دستوريا امام الخديو ، أو أمام البريطانيين فى حقيقة الأمر • وكانت الجمعية التشريعية تضم الوزراء ، بالاضافة الى ١٧ عضوا تعينهم الحكومة و ٦٦ عضوا يختارهم مندوبو الناخبين الذين انتخبوا شعبيا بدورهم (٢) •

واعتبر الوطنيون الجمعية التشريعية ــ بسلطاتها المقيدة وطبيعتها النيابية المحدودة ــ شركا وخديعة بريطانية لصرف الرأى العام المصرى عن دعوة الحزب الوطنى لنظام دســتورى حقيقى • (٣) ويبــدو أن تكوين

---

(١) مذكرات محمد فريد : ص ٧٩ وما بعدها •

(٢) Landau : « Parliaments and Parties », p. 55 f.

(٣) Muhammad Farid : « La Nouvelle loi organique », La Vie, Paris, II October 1913, pp. 48f.

عبد الرحمن الرافعى : ص ص ٣١٣ ــ ٣١٧

Ali Fahmi Muhammad : "The Egyptian Constitution", The African Times and Orient Review, 14 (August 1913), pp. 47-10.

الجمعية التشريعية وتوقيت اقامتها قد قضى بالفعل على نفوذ الوطنيين (*) ولم يسمح للأحزاب بالقيام بحملات انتخابية علنية للمرشحين فى المرحلة الأولى التى تمت فى أكتوبر ، وكان مجموع الناخبين ضئيلا بصـــورة مخيبة للآمال (١) • وأجريت المرحلة الثانية من الانتخابات فى ديسمبر ، ورغم أن معظم المنتخبين كانوا ـ كما هو متوقع ـ من ملاك الاراضى الميالين لتأييد حزب الأمة ، فقد كان معهم عدد قليل من الوطنيين (٢) ، وكان فوزهم فى الانتخابات ، رغم ارادة النظام الحاكم ، عاملا لتجديد حيـــاة الحزب فى مصر قبيل الحرب العالمية الأولى ، فأعيد افتتـــاح ناديه سنة ١٩١٤ ، وكان قد أغلق فى أوائـــل ســـــنة ١٩١٣ نتيجة للعجز المالى ، الحزب • ولو قدر للجمعية التشريعية أن تستمر ، لكان من المحتمل أن ووسعت جريدة « الشعب » نشاطها ، وبدأت تنشر مقالات بأقلام زعماء يتخذ الحزب الوطنى طريقا أكثر شرعية ، ويعمل على تحقيق أهدافه من خلال المؤسسات السياسية القائمة بدلا من طبيعته الثـورية التى تسعى لتدمير هذه المؤسسات •

وفى الدورة الاولى للجمعية التشريعية ، والوحيـــدة كما اتضح فيما بعد ، ثبت أن سعد زغلول كان الشخصية الرئيسية فى الجمعية • وقد انتخب فى القاهرة بتأييد الوطنيين ، وكان بعضهم يتمنى لو أنه انضـم الى الحزب الوطنى ، ويصبح وكيلا له بدلا من أحمد لطفى ، لكى يـكون فى النهاية جبهة معارضة فى الجمعية من أعضاء الحزب الوطنى وحزب الأمة • ورغم أن بعض ذوى النفوذ فى الحزب ، كعلى فهمى كامل وعبد الملك

---

(١) Basil Worsfold : « The Future of Egypt », London, Collins, co. 1914.

العقاد : « سـعد زغلول » ، ص ١٥٣ ، ويقول ان ٦٩ر٦٪ فقط من المســموح لهم بالتصويت فى القاهرة و ٤ر٩٨٪ فقط من المسموح لهم بالتصويت فى الاسكندرية هم الذين ذهبوا فعلا الى صناديق الانتخاب • وكان معنى ذلك ، من وجهة النظر البريطانية ، أن معظم المصريين لم يكونوا مؤهلين بعد للحكم النيابى ، أما الوطنيون فقد ذهبوا الى أن تجريد الجمعية التشريعية من كل ســلطة تقريبا ، والقيود التى فرضت على الدعايـة الحزبية العلنية فى الانتخابات هى التى نفرت غالبية الناخبين •

(٢) يقدم عبد الرحمن الرافعى (ص ٣١٨ وما بعدها) قوائم بجميع الأعضاء المعينين والمنتخبين • وكان الأعضـاء الوطنيون هم : عبد اللطيف الصـوفانى ، على الشـمسى على المنزلاوى ، حافظ المشناوى ، عبد اللطيف المكباتى ، محمد على علوبة •

(★) لا يدع المؤلف مرضعا الاقال ان نفوذ الحزب الوطنى قد انتهى ، فى حين ان الانجليز كانوا يشكون من ان الجمعية التشريعية كانت خاضعة لنفوذ الحزب ، ومسيرة بتوجيهاته •

حمزة ، كانوا متحمسين للاتفاق مع سعد ، فقد آثر فريد الحذر ، لئلا يستغل سعد تأييدهم في استعادة منصب وزارى ، كما فعل محمد سعيد منذ ست سنوات (١) ٠

وقد أثبت تطور الأحداث التالية خطأ فريد ٠ فحينما اصطدم محمد سعيد مع الخديو في النهاية واضطر الى الاستقالة في مارس ١٩١٤ ، تمنى سعد أن يدعى حموه مصطفى فهمى ، الذى تقدمت به السن ، الى تشكيل الوزارة الجديدة ٠ ولكن رئاسة الوزارة انتقلت الى حسين رشدى لا لشيء الا لأن سعدا كان قد أصبح أكبر ناقد للحكومة في الجمعية ، التى انتخب وكيلا لها (٢) ، وكان مصطفى فهمى واقعا تحت تأثيره بصورة واضحة ٠ وترتب على ذلك أن ازداد التصاق سعد بدوره الجديد زعيما للمعارضة ضد الحكومة ، وان لم ينضم رسميا الى الحزب الوطنى ٠ ويمثل هذا الدور مرحلة هامة في تطوره من وزير متعاون مع البريطانيين الى زعامة كفاح مصر في سبيل استقلالها ٠ ولعلنا لن نعرف أبدا مقدار دينه لتأييد الوطنيين خلال تلك المرحلة الانتقالية (٣) ٠

وكانت أعظم رغبات فريد في تقارب مع الخديو ــ لا مع سعد ــ تبدو عسيرة المنال مع مرور الوقت ٠ فقضى أوائل صيف سنة ١٩١٤ يعد لمؤتمر فروع « جمعية أبى الهول » وغيرها من تنظيمات الطلاب المصريين في أوربا ٠ وكانت جهود فريد في الاتصال بالخديو عن طريق روتشبرون ويوسف صديق قد إقنعته أخيرا بأن عباسا لم يكن مهتما حقا باتمام الصلح بينهما ، فشرع يضمن خطبته أمام مؤتمر الطلاب تحذيرا من التعاون مع الخديو (٤) ٠

---

(١) مذكرا تمحمد فريد : ص ٦٩ ٠

(٢) أو بدقة أكبر الوكيل الثانى للجمعية ، فقد عينت الحكومة احمد مظلوم رئيسا ، وعدلى يكن وكيلا أول ٠ ومن بين الخلافات الأولى التى نشبت في الجمعية خلاف حول أى الوكيلين يرأسها في حالة غياب الرئيس ٠ (العقاد : ص ص ١٦٠ ــ ١٦٣)

(٣) يمكن ان تلقى مذكرات سعد زغلول ، التى لم تنشر بعد بعض الضوء على هذه المسألة ٠ وأميل الى الشك في أن سعدا فكر في أى وقت في الانضمام للحزب الوطنى ، وبصفة خاصة في تلك المرحلة التى قبل فيها زعماء الحزب تمويل الخديو « للشعب » ، فقد كان سعد معارضا للخديو بشكل حاسم ٠ (★)

(٤) مذكرات محمد فريد : ص ٨٠ وما بعدها ٠

(★) اؤيد هذا الشك فسعد زغلول ــ كما يقول في مذكراته هو ــ كان في تلك الفترة حائرا لا يدرى اى سبيل يتجه وكان ينكر انه يفكر في زعامة المعارضة ٠

وفى الوقت الذى كان فريـد ماضـيا فى طريقـه فى جنيف أطلق طالب وطنى فى استانبول أربع رصاصات على الخديو وهو يغادر الباب العالى ، بتحريض الشيخ جاويش فيما يبدو ، أو ربمـا جمعية الاتحـاد والترقى نفسها (١) ٠ وأصيب عباس بجراح خطيرة ولكنها ليست قاتلة ٠ أما أحمد مظهر الذى حاول اغتياله فقد قتله الحراس الأتراك على الفور ٠ وأثارت الحادثة كميـة كبيرة من العطف على الخديو فى مصر ، حتى بين الوطنيين أنفسهم (٢) ، ومن المرجح انها كانت كفيلة بتعويق قيـام أى صلح بين الخديو وفريـد مالم تنشب الحرب العالميـة الأولى فى ذلك الوقت بالضبط ٠

وعلى الرغم من أن تركيا ومصر لم تشتركا رسميا فى المراحل الأولى من الصراع الأوربى ، فان التتابع السريع للأحداث فى الشرق الأوسط لم يلبث أن مكن فريد من تحويل اهتمامه بتنظيم الطلبة المصريين فى أوربا الى مجال سـياسى آخـر أكثر اثارة ٠ فقد وجد الوطنيون ، ككثير من الحركات الصغيرة السابقة واللاحقة ، أن الأزمة الدوليـة قد زادت من قيمتهم فى نظر القوى الدولية المعنية ، ومن ثم انتهت مرحلة انتكاسهم ٠

---

(١) Storrs : p. 144 f. Beaman : p. 62 f.

(٢) مذكرات محمد فريد : ص ٨٣ ٠ احمد شفيق : جـ ٢ مجلد ٢ ، ص ٣٣٠ ٠

الفصل الثامن

الوطنيون المصريون أثناء الحرب العالمية الأولى

- الأوضاع الدولية
- الوطنيون ، والاتراك ، والخديو
- فسخ التحالف بين الاتراك والخديو
- محمد فريد .. فريدا
- اعادة تكوين الحلف الوطني

الأوضاع الدولية

حرك اغتيال الأرشيدوق فرانز فرديناند ٠ ولى عهـد عرش أسرة هابسبورج فى سيراجييفو ، سلسلة من الأحداث ، بلغت قمتها بنشوب الحرب العالمية الأولى التى جلبت الخراب والمأساة على أمم وشعوب أوربا ٠ أما بالنســبة للوطنيين المصريين فقد أحيت الآمال فى بادىء الامر ، ثم أدت الى ما كان من تورطهم فى سياسة تركيا وحلفائها ، وأخيرا مع هزيمة دول المحور ، الى القضاء شبه التام على آمالهم ونفوذهم ٠

وفى نفس اليوم الذى اجتمع فيه الطلبـــة المصريون فى جنيف ، ونجا الخديو بصعوبة من محاولة اغتياله فى اســـتانبول فى ٢٥ يوليو ١٩١٤ ، ردت الصرب على انذار النمسا الذى قدمته فى استجابة متباطئة لمصرع الأرشيدوق بأيدى ارهابيين من البوسنة بتحريض صربى ٠ كانت مواد الانذار عنيفة ، فقد كانت النمسا محقة فى خوفها من تأثير انفصالى على قومية السلاف الجنوبيين فى امبراطورية آل هابسبورج ، ولذلك فقد أرادت أن تلقن الصربيين درسا لا ينسى ، ولكن ردهم جاء مهدئا ٠ ورغم ذلك فقد كانت النمسا مصرة على القضاء على أى محاولة للنيل من وحدتهـــا الاقليمية ، فأعلنت الحرب فى ٢٨ يوليو ٠ وفى اليـــوم التـــالى أعلنت روسيا التحرك الشامل لقواتها المسلحة ، وهى الملتزمة بمعاونة الصرب ٠ ولما كانت ألمانيا ملتزمة بنفس الطريقة نحو النمسا ، فقد أرسلت فى ٣١ يوليو انذارا لروسيا بضرورة وقف تحركات قواتهـــا المســلحة ، وحينما لم تتلق جوابا أعلنت عليها الحرب فى أول اغسطس ٠

وبعد يومين أعلنت ألمانيا الحرب على فرنسا حليفة روسيا ، وغزت بلجيكا ، فأعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا ٠ وخلال أقل من أسبوعين

كانت كل الدول المسيحية فى أوربا ـ باستثناء ايطاليا ـ قد اشتركت
ذلك الصراع الهائل الذى أصبح اسمه الحرب العالمية الأولى .

وعند نشوب الحرب كانت الامبراطورية العثمانية أقوى الدول
الملتزمة فى نطاق الدول الأوربية . ورغم ضعفها العسكرى نتيجة حم
التطهير بين ضباط قواتها المسلحة خلال سنوات الاضطراب التى أعا
ثورة ١٩٠٨ ، وكذلك نتيجة لخسائرها فى الأرواح والأراضى فى حر
طرابلس والبلقان ، فقد ظلت تركيا مع ذلك تمثل حليفا له وزنه ويرتـ
فموقعها الاستراتيجى عبر منفذ روسيا الى البحر الأبيض المتوسط
وطريق أوربا البرى الى الخليج الفارسى ، بالاضافه الى المكانه الـ
المبهمة للسلطان ـ الخليفة ، وان كانت تحظى بالاحترام على نطاق وا
كل ذلك جعل من تركيا عدوا غير مرغوب فيه على أقل تقدير .

ولما كانت روسيا ، العدو التاريخى لتركيا ، تقف دبلوماسيا
جانب بريطانيا وفرنسا ، الدولتين اللتين تشك تركيا فى تآمرهما
ولاياتها العربية ، فقد أصبح لألمانيا الأسبقية فى المنافسة على اك
تركيا . وضح ذلك فى أواخر سنة ١٩١٣ حينما دعت الحكومة العثم
بعثة عسكرية ألمانية برئاسة الجنرال ليمان فون ساندرز ، للمعاونة
تدريب جيشها واستعادة روحه المعنوية التى هزتها بعنف هزيمة البلقا
وكذلك كان للألمان صديق فى شخص أنوربك ، الذى اقترن صـ
الصاروخى بزواجه من أميرة عثمانية سنة ١٩١٤ . وكان انور أ
ضباط تركيا الفتاة اندفاعا ، وقد عمل ملحقا عسكريا عثمانيا ببر
قبل تعيينه فى منصبه الاستراتيجى وزيرا للحربية فى وزارة سـ
حليم . وهذا الأخير هو ابن حليم الذى تآمر ضد تربيه الخديو اسماعـ
ولذلك كان عدوا تقليديا لعباس . ولما كان سعيد حليم طامعا فى عر
مصر ، فقد كان صدر أعظم صورى فحسب ، أما السلطة الحقيقية فكا
مركزة فى أيدى مثلث جمعية الاتحاد والترقى : أنور ، وطلعت ، وجما
وكان أنور أكثرهم حماسة للألمان ، يليه طلعت ، فى حين كان جمال مو
للحلفاء حتى يوليو سنة ١٩١٤ حين أحس بفتور الحكومة الفرنسية
اقتراحه عقد تحالف فرنسى عثمانى (١) .

وفى اليوم التالى لاعلان ألمانيا الحرب على روسيا اقنع أنور مجا
الوزراء التركى بتوقيع اتفاقية سرية مع ألمانيا تلزم الامبراطورية العثما

(١) ...mal Pasha : « Memoires of a Turkish Statesman », London, Hutchinson and Co., Ca. 1921, pp. 104-107.

بالاشتراك فى العدوان على روسيا • غير أن حماسة تركيا لهذه الاتفاقية سرعان ما فترت بعد أن أعلنت فرنسا وبريطانيا الحرب على ألمانيـــا ، ووجد الالمان الموجودين فى استانبول أن تركيا ترفض تنفيذ اتفاقيتهما (١) •

ومن ناحية أخرى لم يكن لدى دول الحلفاء الكثير لتقدمه لتركيا فى مقابل بقائها على الحياد ، باستثناء وعد باحترام وحدة أراضيها طوال فترة الحرب • فلم تستطع الحكومة العثمانية أن تمنع نفسها من الشك فى أن دول الحلفـاء تنـوى ، اذا قدر لها النصر ، تقســـيم الامبراطـورية بعد انتهاء الحرب ، ولذلك فقد قررت استغلال هذا الموقف العسير بأقصى ما تستطيع ، فظلت محايدة وان حركت قواتها استعدادا لخوض الحرب • وفى أكتوبر سمح أنور ــ دون الرجوع الى زملائه ــ للبارجة الحربيـــة الألمانية « جوبان » التى لجأت الى المضايق فى أغسطس ، بدخول البحر الأسود ومهاجمة السفن الروسية • ولما كانت الحكومة العثمانية سبق أن بررت ايوائها للبارجة « جوبان » بأنها هدية من ألمانيا ، فقد اعتبرت روسيا هذا التصرف عملا حربيا عدوانيا من جانب تركيا وأعلنت الحرب عليها ، وسرعان ما حذت حذوها كل من فرنسا وبريطانيا (٢) •

ومنذ أصبحت بريطانيا وتركيا فى حـالة حرب لم تعد مصر ولاية عثمانية • وحتى خلال الشهور القلقة التى التزمت فيهـا تركيا بالحياد لم تتردد بريطانيا فى تأكيد سيطرتها على مصر ، فقد اضطرت الحكومة المصرية الى وقف كل التعاملات المالية والتجارية التى يمكن أن تفيد الدول المحاربة لبريطانيا ، ثم زادت على ذلك ابعاد قنصلى ألمانيا والنمسا (٣) ، وانتهت بالفعل سيادة تركيا على مصر •

---

(١) Ulrich Trumpener : « German Military Aid to Turkey, a Historical Re-evaluation », Journal of Modern History, XXXII, 2 (June 1960), pp. 145-149.

ويعتمد هذا المقال على وثائق وزارة الخارجية الالمانية التى استولى عليها الحلفاء •

(٢) لتفاصيل المفاوضات الدبلوماسية بين دول المحور وتركيا ، بهدف ضمان حياد الأخيرة انظر مجموعات الوثائق التالية :

Great Britain, FO, Miscellaneous, no. 13 (1914), « Correspondence Respecting Events Leading to the Rupture of Relations with Turkey », cd. 7268, bound in Parliament, Accounts and Papers LXXXV, pp. 179-271, Friedrich Stieve (ed.), Das russische Orangebuch uber den Kriegsaubruch mit der Turkei, Berlin, für Kulturpolitik, 1926.

(٣) « كان المصريون فى جنيف مهيئين لتوقع ما هو أسوأ ، فقد تلقفوا تقريرا خاطئا عن ذلك اليوم جاء فيه ان مصر « لما كانت جزءا من الامبراطورية البريطانية » فقد أعلنت الحرب على ألمانيا وحليفاتها • (مذكرات محمد فريد : ص ٣٨) •

فى ذلك الوقت كان الخديو لايزال يستشفى فى استانبول من آثار الرصاص ، والأرجح أنه لم يستشر فى قطع مصر لعلاقاتها بدول المحور . وكان البريطانيون لايريدون عودته الى مصر ، فحاول لويس ماليه سفيرهم باستانبول اقناع عباس بتمضية فترة الحرب فى ايطاليا ، ولكنه لم يوفق (١)

وكان رئيس الوزراء حسين رشدى يقوم بدور نائب الملك أثناء غياب الخديو ، وقد هوجم فيما بعد لموافقته على تثبيت سيطرة بريطانيا على مصر دون أن يتفق على تعويض مناسب ، كوعد بالاستقلال بعد انتهاء الحرب (٢) . ولكن الواقع ان بريطانيا كانت تملك وحدها القوة لفرض شروطها ، وكان عليها أن تحمى طريقها عبر مصر لنقل القوات من الهند واستراليا الى الجبهة الغربية ، ولم يكن باستطاعتها أن تمنح أعداء بريطانيا حرية اثارة المعارضة الوطنية داخل مصر . غير أن وضع البلاد ظل موضع شك ما يقرب من ستة أسابيع بعد اعلان بريطانيا الحرب على تركيا الى ان أعلنت بريطانيا قطع علاقات مصر بالامبراطورية العثمانية ، وأعلنت الحماية على البلاد ، وعزلت « عباس » . وقد طال تدبر كل هذه الاجراءات التى اعتبرها الكثيرون لامفر منها . وهكذا نرى أن الحرب هى التى مزقت غلالة الخيال عن واقع الحكم البريطانى لمصر .

---

(١) أحمد شفيق : جـ ٢ ، مجلد ٢ ، ص ص ٣٥١ ـ ٣٥٥ ، مذكرات محمد فريد ، ص ٩٠ وما بعدها ، Beaman : p. 64 f.

(٢) انظر على سبيل المثال Beaman : p. 63 n. وقد ثارت مناقشة طويلة حول هذه المسألة على صفحات « الأهرام » على اثر وفاة رشدى سنة ١٩٢٧ ، انظر أيضا : Marshall : pp. 97-99.

الوطنيون ، والأتراك ، والخديو

مع بداية الأعمال العدوانية بين بريطانيا وتركيا وما ترتب عليها من تغير في وضع مصر أصبحت المسألة المصرية ذات طبيعة دولية مرة أخرى ، كما كانت قبل أن ينقل « الاتفاق الودى » بين بريطانيـــا وفرنسا عبء معارضة الحكم البريطانى الى المصريين وحدهم . وكان أهم تغير طرأ عليها أن ألمانيا ، وقد اتخذت الدور الذى كانت تقوم به فرنسا من قبل ، أصبح عليها أن تعمل بالتنسيق مع حليفتها العثمانية . وفضلا عن ذلك فلم تكن ألمانيا وتركيا تتوقعان عونا كبيرا من الوطنيين فى مصر الذين عوقتهـــم رقابة الحكومة ومراقبتها واعتقالاتها .

ومن ناحية أخرى فالوطنيون خارج مصر الذين لم يخضعوا لمثـــل تلك القيود وجدوا أنفسهم يتحولون فجأة من حركة نشاط طلابى لا أهمية لها الى ملحق هام بجهاز الحرب التركى ــ الألمانى وحاشية الخديو المنفى . فانتقل اهتمامهم نتيجة لذلك من مجرد الابقـــاء على حياتهم الى محاولة شق طريق بين أطماع مناصريهم . فلقد كره فريد دائمـــا أن يــكون اداة لتحقيق مصالح آخرين ، المفروض أنهم أقل اهتماما بقضية حرية مصر . فلم يحدث من قبل أن وجه اهتماما كبيرا لألمانيا والنمسا (١) ، وتشاجر مع جماعة الاتحاد والترقى (٢) ، وفشل في التوصل الى صلح مع الخديو

---

(١) قام مصطفى كامل خلال كفاحه بما لا يقل عن ثمانى رحلات الى ألمانيا والنمسا ، وأدلى بالعديد من الأحاديث لصحف برلين وفيينا ، فلما خلفه فريد فى زعامة الوطنيين ، وكان يكره الالمان ، لم يزر ألمانيا سوى مرتين (★)

(٢) من فريد الى روتشبرون ، جنيف فى ٣١ يناير ١٩١٤ .

(★) الحق أننى لم أقع على شيء فيما قاله أو كتبه فريد يؤيد القول بأنه كان يكره الألمان وتصرفاته بعد اعلان الحرب كانت تدل على أنه تعامل مع ساستهم دون أى توجس من نواياهم .

رغم كراهيتهما المشتركة لكتشنر . ان طبيعة الوطنى تفرض عليه مقاومة كل الجهود الخارجية للسيطرة على بلاده ، ولكن حينما تضطره الظروف الى الاعتماد الكلى على مؤيدين خارجيين ، يصبح من الصعب أن يتجنب استخدامه لتحقيق مصـــالحهم ، وهو ما تعلمه جيدا خلفـــاء فريد ، وعبد الناصر بصفة خاصة ، من خلال التجربة المريرة .

فى أواخر ســـنة ١٩١٤ كتب فريد الى الخديو يحثه على ان ينتهز فرصة الحرب ليطلب استقلال مصر ، أو على الأقل يضغط للحصول على الحكم الذاتى الداخلى والاصلاح الدستورى (١) ، ثم ســافر الى استانبول لاتمام الصلح مع كل من عباس والأتراك . غير أن البريطانيين أحبطوا تدبيرات فريد بمنع الخديو من العودة الى مصر لئلا يثير المعارضة فيها ، ومن ثم وجد فريد عند وصوله الخديو راغبــا فى توحيـــد أهداف الأتراك والوطنيين لطرد البريطانيين من مصر (٢) . ورحب الخديو بفريد واستخدمه فى تقوية علاقاته بزعماء جماعة الاتحـاد والترقى . وبحنكة فطرية أيد أنور الخديو بكل حماسة ، فى حين تحفظ طلعت ، واتخذ جمال موقفا شبه عدائى . فقد كانت علاقة الخديو بهم سيئة منذ زمن بعيد ، ووضح فيما بعد ، بالنسبة لطلعت على الأقل ، استحالة التعاون بينهما .

وبدأت تركيا ، خلال سبتمبر وأكتوبر ، وهى لاتزال فى حالة سلم من الوجهة الرسمية ، تستعد باشراف الألمان لغزو مصر . فحشدت القوات التركية فى فلسطين ، وانشأت خط سكة حديد من معان الى العقبة لنقل الامدادات ، واكتشف البريطانيون عملاء للالمان يثيرون المعارضـــة فى مصر (٣) . وفى استانبول شارك السفير الالمانى البـــارون فون فانجهايم فى الجهود المبذولة لتحسين العلاقات بين الخديـو وجمــاعة الاتحــاد والترقى (٤) . وكذلك اتصل فريد بالسفارة الالمانية ، وان ظل على شكه

---

(١) من فريد الى الخديو ، جنيف فى ٢٢ أغسطس ١٩١٤ . مذكرات محمد فريد : ص ص ٨٣ ــ ٨٥ ، أحمد شفيق جـ ٢ ، مجلد ٢ ، ص ٣٦٢

(٢) مذكرات فريد : ص ٨٥ وما بعدها . وكتب أحمد شفيق (جـ ٢ ، مجلد ٢ ، ص ٣٤٤) أنه حينما قدم من القاهرة فى أواخر أغسطس حذر الخديو من أن البريطانيين يريدون خلعه .

(٣) Parliament, Accounts and Papers, ed. 7268, doc. no. 125.

(٤) Germany, Auswärtiges Amt, Egyptische Frage, Wagenheim to Bethmann — Hollweg, Fherapia, 25 August 1914, 25 August 1914, telegram no. 576. ganz geheim, microfilm reel UM 136.

فى اخلاص المانيا للوطنية المصرية (١) ، كما سوى خلافاته مع جاويش ومؤيديه من المصريين الذين عينتهم الحكومة العثمانية ، واتحدت جماعة مؤتمر جنيف بزعامة محمد فهمى وعلى الشمسى مع جماعتى فريد وجاويش على تأييد الخديو ·

وفى اجتماع عقد فى ١٢ أكتوبر اتفقوا على « اقالة » وزارة رشدى ، و « تعيين » مصطفى ماهر (٢) (*) رئيسا للوزارة الجديدة ، و « انشاء » لجنة عسكرية فى القاهرة لتنظيم التمرد الشعبى المتوقع عندما يدخل الجيش العثمانى مصر ، وارسال مندوبين مصريين الى القاهرة لابلاغ التعليمات اللازمة · واتفقت الجماعة كذلك على اصدار منشور باسم الخديو يمنح الشعب المصرى دستورا ويدعوه الى الثورة على البريطانيين (٣) · وكتب جاويش مسودة المنشور ، فى الوقت الذى أعلنت فيه دول الحلفاء الحرب على تركيا ، فدعا فيه المصريين الى تأييد حملة السلطان ــ الخليفة لتحرير بلادهم من الاحتلال العسكرى ، ووعدهم باقامة نظام برلمانى والغاء القوانين الاستثنائية لسنة ١٩١٠ ، واصدار عفو عام عن كل من حكم عليهم بموجبها · ولكن هذا المنشور لم يقدر له أن يوزع نتيجة للمسار الذى اتخذته الأحداث التالية (٤) ·

فالصداقة بين الخديو وجماعة الاتحاد والترقى ، وقد قامت على توازن غير مستقر للمصالح ، لم تلبث أن اهتزت بفضل الصدر الأعظم

---

(١) أغفل فريد فى مذكراته (ص ٨٨) برقية تأييد نشر عنها الكثير ، وكان القيصر غليوم أرسلها الى الخديو يذكره فيها أن بول كروجر رئيس جمهورية الترانسفال الذى سبق له أن تلقى تحيات القيصر الألمانى بالبرق قد منع بعد ذلك من دخول برلين ·

(٢) مصطفى ماهر هو شقيق السياسيين المشهورين على وأحمد ماهر ، وهو ابن محمد ماهر الذى كان وكيلا لوزارة الحربية سنة ١٨٩٤ (★) (انظر « حادثة الحدود » التى وصفت فى الفصل الثانى)

(٣) مذكرات محمد فريد : ص ٩١ ، أحمد شفيق : جـ ٢ ، مجلد ٢ ، ص ٣٦٤ ·

(٤) لم تقر الحكومة العثمانية هذا المنشور ، والمفروض أن كل نسخة أعدمت · والنص المأخوذ عن مذكرات فريد نشره عبد الرحمن الرافعى : ص ٣٤٥ ، وانظر أيضا : أحمد شفيق ، جـ ٢ ، مجلد ٢ ، ص ص ٣٨٠ ــ ٣٨٣ ·

(★) مصطفى ماهر هذا كان وزيرا من وزراء ما بعد ثورة ١٩١٩ تولى وزارة المعارف سنة ١٩٢٢ والمالية سنة ١٩٢٩ ، ولا صلة له مطلقا بعلى ماهر باشا واحمد ماهر باشا اللذين كان لهما أخ اسمه مصطفى ماهر ولكنه لم يشتغل بالسياسة ولم يعين وزيرا قط ·

الذى ظل يعتبر نفسه صاحب الحق فى العرش الخديوى (١) . فنقد عباسا لاتفاقه مع الوطنيين ، واقترح علنا تكوين جماعة وطنية جديدة تسمى « حزب مصر العثمانية » برئاسة الشيخ جاويش ، يكون من أهدافها عزل عباس ليحل هو محله ، وتخفيض وضع مصر الى ولاية عثمانية عادية . واستغل شكوك كثير من الأتراك فى الوطنيين بالشكوى من أن أنصار فريد يرتدون دبابيس ذات ثنيات عليها شعار « مصر للمصريين » (بدلا من « مصر للمسلمين » بما فيهم الأتراك) ، وزعم انهم سيطالبون بجلاء القوات العثمانية بعد ٢٤ ساعة من تحرير مصر من البريطانيين (٢) .

وبعد أن دخلت تركيا الحرب ، أخذت حاشية الخديو ، وقد خشيت تأثير تصريحات الصدر الأعظم ، تدعو الحكومة الى وضع الخديو على رأس الحملة العسكرية المزمع تسييرها الى مصر ، أو على الاقل تسمح له بمصاحبتها . ولم يرحب أى من قادة الاتحاد والترقى الثلاثة بهذه الفكرة. وحتى أنور ، وهو أكثرهم تعاطفا مع عباس اقترح أن ينتظر فريد والخديو حتى يعبر الجيش العثمانى قناة السويس . (٣) ثم جاء تعيين جمال ، أكثر زعماء الاتحاد والترقى عداء للخديو ، قائدا عاما للحملة المصرية ، بمثابة نذير اكبر لحاشية عباس ، خاصة حينما لم يدع أحدا لمصاحبة جيشه الا « جاويش » واثنين من أتباعه . (٤) وكذلك انزعج فريد ، ولكن «جمال» أكد له أنه على استعداد ليصحب أى مصريين مدنيين بشرط أن يخضعوا للأوامر العسكرية (٥) . وتحرك جمال الى الجبهة فى ٢٢ نوفمبر يصحبه عدد قليل من أفراد حاشية الخديو الثانويين .

---

(١) اعتمدت مطالبة سعيد حليم بعرش مصر على قانون الوراثة التركى الذى ظل مطبقا فى مصر حتى عصر اسماعيل ، وكان ينص على أن يخلف الحاكم اكبر أعضاء الأسرة سنا من الذكور والحقيقة أنه كان بمصر عدة أفراد من الأسرة الخديوية يكبرون سعيد حليم . من بينهم السلطان حسين كامل الذى فرضه البريطانيون ليشغل مكان عباس .

(٢) مذكرات فريد ، ص ٩٢ وما بعدها ، عبد الرحمن الرافعى : ص ٣٥٢ وما بعدها ، أحمد شفيق : جـ ٢ ، مجلد ٢ ، ص ٣٦٤ وما بعدها .

(٣) مذكرات فريد : ص ٩٩ ، احمد شفيق : جـ ٢ ، مجلد ٢ ، ص ص ٣٨٣ ـ ٣٨٩

(٤) هما الدكتور أحمد فؤاد من وزارة الداخلية ، وفؤاد سليم القنصل العثمانى بسالونيك ، ولم يكن الاثنان على علاقة طيبة بفريد ولا بالخديو .

(٥) مذكرات محمد فريد : ص ١٠١ .

ولما عجز الخديو عن الحصول على الاذن بمصاحبة الجيش العثمانى الى مصر بشخصه ، حاول اقناع الحكومة بالموافقة على ارسال عمه ابراهيم حلمى ممثلا له ، ففشلت هذه المحاولة أيضا ٠

وحين بلغ « عباس » أن « جمال » أمر جميع اعضاء الحاشية الخديوية المرافقين له بالعودة الى استانبول رحل فجأة الى فيينا ٠ وسرعان ما لحق به فريد فى محاولة لمنع وقوع قطيعة تامة بين الخديو والاتراك (١) ٠ ولكن كان الوقت قد فات ٠

---

(١) مذكرات محمد فريد : ص ص ١٠٥ ـ ١٠٧

فسخ التحالف بين الأتراك والخديو

أعلن البريطانيون حمايتهم على مصر فى ١٨ ديسمبر ١٩١٤ وقطعوا علاقتها الرسمية بالامبراطورية العثمانية ، واعتبروا الخديو متحدا مع الأعداء فى أهدافهم ، فأعلنوا خلعه فى اليوم التالى وعينوا عمه حسين كامل سلطانا على مصر • وكان قانون الأحكام العرفية قد أعلن وفرضت رقابة صارمة على المطبوعات •

فى تلك الأثناء كانت قوات الحملة التركية ، وعددها حوالى ٢٠٫٠٠٠ جندى ، تتقدم عبر سـيناء على أمل أن تقطع شريان حياة الامبراطورية البريطانية وتحرر مصر التى تحتلها قوات بريطانية قوامها نحو ٧٠٫٠٠٠ جندى (١) ولو قدر لجيش جمال أن ينجح فى تحقيق مهمته لكان بحاجة ملحة الى تأييد تمرد شعبى يقـوم به المصريون الساخطون • والواقع أن « فريد » أكد للأتراك أن جيوشهم ما ان تدخل مصر حتى يهب مسلمو مصر ثائرين (٢) •

ولكن الواقع أن مثل هذه الثورة لم تحدث ، فلم يكذب ذلك نبوءة فريد(*) فحسب ، بل قلل أيضا من قيمته فى نظر الحكومة العثمانية •

---

(١) فرقة بريطانية محلية وفرقتان هنديتان بالاضافة الى قوة المستعمرات الاسترالية وبلغ مجموعها الكلى ١٥٠٫٠٠٠

P. G. Elgood : Egypt and the Army», London, Oxford University Press, 1924, p. 117 f. Haskins : « British Routes to India », p. 479.

(٢) فؤاد ميدانى (مترجم) : « سوريا ولبنان فى الحرب العالمية » ، « الأحرار » (بيروت حوالى سنة ١٩٣٣) وكاتب المذكرات الأصلية هو عزيز بك مدير الأمن العام العثمانى أثناء الحرب العالمية الأولى • وأنا مدين لتوماس ناف وفيليب ستودارد بلفتى الى هذا المصدر • انظر أيضا : Elgood : p. 140

(*) فريد لم يكذب ، فجيوش الأتراك لم تخط بأقدامها أرض مصر الى أن انتهت الحرب العالمية الأولى •

وتوقف الجيش العثمانى عند القناة . وكان الوطنيون الموجودون فى القاهرة قليلين وخائفين من القمع (١) ، كما كانوا معارضين للثورة من حيث المبدأ ولا يعرفون كيف ينظمونها (٢) . لاشك أن مصريين كثيرين قد رفضوا إعلان بريطانيا للحماية ، ونقضها السريع لوعدها المتعجل بأنها لن تستخدمها الا فى اجراءات الحرب (٣) . غير أن المصريين من أهل المدن الذين توقعوا انتصار الأتراك والألمان ، وان لم يظهروا الا قدرا ضئيلا من الحماسة « لسلطانهم » الجديد (٤) ، فانهم فى الوقت نفسه لم يحزنوا لعزل الخديو (٥) . وقد عبر قول شعبى عن موقف مصر من الجيش العثمانى الزاحف : «نتمنى للاتراك كل نجاح.. ولكن من بعيد» (٦) ؛ (*) ولم تكن هناك أن رغبة فى استبدال احتلال آخر ألمانى بالاحتلال البريطانى . (٧)

وقامت السلطات بنفى معظم المعارضين المعروفين للحكم البريطانى ، سواء أكانوا وطنيين ام خديويين ، أو سجنهم ، أو وضعهم تحت المراقبة

---

(١) صدر قانون استثنائى جديد فى أكتوبر يمنع أى اجتماع يضم أكثر من اربعة اشخاص

(٢) كتبت مدام دى روتشبرون فى مذكراتها بعد أن زارت القاهرة فى مهمة كلفها بها فريد فى مارس ١٩١٥ : « يمثل الوطنيون فى اللجنة الادارية هنا أعجب من عرفت من المحللين المتعلقين بنظريات السلام . فهم يسمحون بكل ما يساعد على استتباب النظام فى مصر . وكان على فهمى كامل هو الذى أكد لى بنفسه انه على استعداد أن يصبح عميلا لأجهزة الأمن العام لو اقتضى الأمر ذلك ، كما صارحنى آخر من مشاهيرهم ، وهو المحامى محمود فهمى سكرتير عام الحزب ، بانه لو أتيح له أن يعيد اصدار جريدة الحزب (وهى « الشعب » التى فضلوا ايقافها باختيارهم عن اخضاعها للرقابة) فسيستخدمها لتهدئة الشعب . كانوا جميعا صادقى النية نحو واجبهم الاول ، وهو التأكيد أنهم وطنيون مخلصون ، وليسوا مثيرى قلاقل خطرين ، أو معادين للأجانب أو متعصبين . » (★★)

هذه الفقرة مأخوذة بتصريح من المؤلفة من مذكرات روتشبرون غير المنشورة : ص ٢٧٢ وما بعدها .

(٣) Elgood : pp. 85-87.

(٤) Storrs : p. 163.

(٥) Lloyd : I, p. 202 وقد اختلف معه فى ذلك Beaman : p. 69 f.

(٦) Storrs : p. 154.

(٧) العقاد : « سعد زغلول .. » ، ص ص ١٨٣ – ١٨٥ .

(★) هذا كلام جدير بأن يصدر عن المجموعة القليلة الباقية من حزب الأمة التى كانت تكره الأتراك ، وتؤثر عليهم الانجليز وحكم الانجليز .

(★★) هذا كلام يجب الأخذ به فى حذر شديد .

طول فترة الحرب أو بعضها (١) ، كما عطلت الجمعية التشريعية المشاغبة الى أجل غير مسمى • وسعد زغلول ، الذى بشرت زعامتـه داخل هذه المؤسسه ببروزه لحمل لواء الثورة الوطنية سنة ١٩١٩ ، ظل لايمارس أى نشاط سياسى طالما بقيت نتيجة الحرب موضع شك (٢) •

أما المعارضـة العلنية ، فقد صدر الجانب الأكبر منهـا عن قلب الوطنية المصرية المتجدد أبدا ، المتمثل فى طلبة المدارس العليا والثانوية • فهجر معظم طلبة الحقوق فصولهم يوم قام السلطان حسين كامل بزيارته الأولى لمدرستهم (٣) • وبذلت محاولتان لاغتيـاله سنة ١٩١٥ ، ثبت فيما بعد أنهما حادثتان منعزلتان • (*)

وقد لاحظ المؤرخون الحربيون البريطانيون اهمال أعدائهم الغريب لفرص الدعاية ضدهـم فى مصر (٤) • والحقيقـة أن الأتراك ، والألمـان ، والخديو ، والوطنيين ارادوا جميعا اثارة المعارضـة الكامنة ضد الحماية البريطانية • ووضع كل منهم خططا لتحقيق هذه الغاية ، أما ما فشلوا فيه فهو التنسيق بين أهدافهم •

فقد أراد فريد ارســال عملاء ودعاية الى مصر لاثارة فتنـة معادية للبريطانيين ، ففى بداية سنة ١٩١٥ أرسل عبد العزيز عمران طالب الطب بجنيف لتنظيم الاتصال بالوطنيين فى مصر ، ولكن اقامتـه حددت فى بيته ، ثم نفى بعد ذلك ، فقدم عند عودته تقريرا ذكر فيـه أن الوطنيين مستعدون لتنظيم حركة مقاومة اذا أرسلت اليهم الأسلحة والامدادات (٥) • وفى مارس أرسل رفيقته الفرنسـية عزيزة دى روتشبرون الى القاهرة لنفس الغرض ، ولكن ضغط بريطانيا على قنصل فرنسا العـام عجـل

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : « ثورة سنة ١٩١٩ » ، ط ٢ ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٥ ، ج ١ ص ٣٠ وما بعدها ، «محمد فريد •• » ص ٣٥١ وما بعدها •

(٢) المفاد ص ١٩٠ • وربما احتاجت هذه العبارة الى تعديل بعد أن تنشر مذكرات «سعد» كاملة • وقد ظهرت أجزاء منها فى جريدة «الأخبار» خلال سنتى ١٩٦٣ و ١٩٦٤

(٣) عبد الرحمن الرافعى : « ثورة ١٩١٩ » ، ج ١ ، ص ص ٣١ ــ ٣٣

(٤) C. R. M. F. Cruttwell : A History of the Great War, 1914-1918, Oxford, the Charendon Press, 1936, p. 351m., Elgood : pp. 139-142.

(٥) مذكرات محمد فريد ، ص ١٢٦ وما بعدها •

(*) وهذه الحوادث كلها أثر من آثار روح الحزب الوطـنى ومقاومته للانجليز ، فلم يكن هناك حزب سياسى فى مصر فى تلك الأيام الا الحزب الوطنى ، ولم تكن هناك معارضة للانجليز تهمهم الا معارضة الحزب الوطنى •

برحيلها (١) • وفى مايو حث فريد الخديويين على تنظيم عملهم الثورى ، واقترح عليهم تهريب أمين الرافعى من مصر ليستأنف اصدار «الشعب» فى دمشق أو استانبول (٢) •

ولم يكن فريد هو وحده الذى حث على بذل جهـــد أعظم شجاعة وأكثر تنظيما لاضرام نار الفتنة فى مصر ، بل شاركه فى ذلك عدد من الألمان كان أبرزهم صديقه القديم البارون أوبنهايم الذى عرفه الانجليز فى القاهرة باسم « جاسوس القيصر » ، واسماعيل لبيب « ملازم » محمد فريد الذى قضى ربيع سنة ١٩١٥ فى سوريا وعاد بخطة محكمة لتوصيل الرسائل الى الجمعيات الثورية السرية فى مصر باســـتخدام الشفرة والأحبار الكيميائية وعملاء فى نابولى أو أثينـــا ، على أن يقوم أنوربك بالعمليات العسكرية الضرورية ، كتهريب الرجال والذخائر ، ويصـــدر الشيخ جاويش جريدة تدعو الى الجامعة الاســلامية (٣) • واقترح لبيب أيضا ، وكان لايثق بالشيخ جاويش ، ارسال ستة شـــبان مصريين الى الكليات العسكرية أو الفنية باستانبول لتثقيفهم سياسيا ، على ان يتعلم أربعة منهم بعد ذلك صـــنع المتفجرات ، ويذهب الخامس الى سويسرا أو ألمانيا ، ليرسل التعليمات الى السادس الذى سيذهب الى مصر ليمهد الطريق أمام الأربعـــة الأولين الذين سيتم تهريبهم ليقوموا بنشــــاط ارهابى (٤) •

غير أن أيا من هذه الخطط لم يوضع موضع التنفيذ بسبب انقسام معارضى الحماية البريطانية فى أوائل الحرب حول سياستهم فى مصر ، فلما تم التوحيد بينهم كان وقت العمل قد فات •

فقد خشى الخديو المخلوع وحاشيته عدوان سعيد حليم الصـــدر الأعظم وأعوانه ، ففروا الى فيينـــا ، وحذا كثير من الوطنيين حذوهم •

---

(١) مذكرات محمد فريد : ص ١٣١ ، مذكرات روتشبرون : ص ص ٢٨٠ ــ ٢٨٢ •

(٢) مذكرات محمد فريد : ص ١٣٦ وما بعدها •

(٣) أحمد شفيق ، جـ ٣ ص ص ٥٢ ــ ٥٨ • وكان الشخصان المقترحان لتلقى هذه الرسائل السرية هما : أحمد حلمى رئيس تحرير « القطر المصرى » السابق ، وعبد اللطيف المكباتى الذى أصبح فيما بعد واحدا من زعماء ثورة ١٩١٩ • ومن المستبعد وجود جمعيات سياسية سرية نشطة فى مصر سنة ١٩١٥ •

(٤) أحمد شفيق : جـ ٣ ، ص ٥٨ • كان لبيب ، كمعظم معاصريه ، لا يعرف شيئا عن حرب العصابات ، أو حتى تكتيكات الفتنة الوطنية ، غير أن اقتراحه يمثل خطط الوطنيين خارج مصر

ورغم ذلك فقد كان ثمت خلاف اساسى بين موقف كل من الخديويين وأنصار فريد ٠

واستطاع الخديو السابق القيام بلعبة مزدوجة ، فيطلب تأييد الألمان والاتراك لاستعادة عرشه ، ويتفاوض فى الوقت نفسه مع بريطانيا سرا لضمان دخل أملاكه المصرية المصادرة واعلان ابنه عبد المنعم وليا للعهد (١) ٠

ومن ناحية أخرى كان على الوطنيين أن يؤيدوا أعداء بريطانيا اذا أرادوا مواصلة معارضتهم العنيدة للحكم البريطانى لمصر ٠ وطالما كان فريد يعمل مع الخديو ، ويتقاضى منه مالا فى الاغلب ، فقد كان عليه أن يحثه على التعاون مع تركيا ، وان شاركه شكوكه فى سعيد حليم وجمال ٠

وفى يناير ١٩١٥ ذهب فريد الى برلين بهدف اقناع الحكومة الألمانية بالضغط على الأتراك ليتخلوا عن عزمهم تخفيض مصر الى ولاية عثمانية عادية بعد تحريرها من البريطانيين ٠ وما كاد فريد يتحدث الى آرثر زيمرمان وكيل الخارجية الألمانية ، حتى أصدر السلطان العثمانى « ارادة » نشرت قبيل وصول جيشه الى قناة السويس ، بأن هدف الحملة هو اعادة مصر الى استقلالها الذاتى المتميز داخل الامبراطورية (٢) ٠ ورغم ذلك فقد رفض عباس العودة الى تركيا ، خوفا من تعرض حياته للخطر على أيدى عملاء الصدر الأعظم ، ولا يلقى طلبه استعادة العرش ما هو جدير به من احترام ٠ واذا بهزيمة جيش جمال تجعل هذا المطلب نوعا من العبث (٣) ٠

ولما كان سعيد حليم مجرد حاكم صورى ، فقد رجا الوطنيون ان تحل مشكلتهم اذا تخلص منه حكام تركيا الفعليين : أنور وطلعت وجمال، غير أن نجاح الدفاع العثمانى فى غاليبولى فى افساد محاولة الانجليز والفرنسيين اقتحام الدردنيل واجبار تركيا على الخروج من الحرب ،

---

(١) مذكرات محمد فريد : صص ١١٠ ، ١١٦ ومابعدها ، ١٢٠ ٠ ويعتقد فريد أن البريطانين ارسلوا محب باشا ، وزير الزراعة السابق ، لمقابلة الخديو ، وانه اتصل سرا بالسير رينيل رود السفير البريطانى بروما ، وكان قبل ذلك سكرتيرا للمفوضية بالوكالة البريطانية بالقاهرة ٠

(٢) نص « الارادة » لم يرد فى مذكرات فريد ولا شفيق ، ولكن يمكن العثور عليه فى كتاب محمود أبو الفتح « مع الوفد المصرى » ، ص ٩٩ ٠ وكتب مدام فيبارد (روتشبرون) فى رسالة الى الباحث فى فبراير ١٩٦٥ أن فريدا كتب بنفسه معظم منشور السلطان ، ولكنه حرص على ألا يعرف ذلك ٠

(٣) مذكرات فريد : ص ١١٧ ، ١٢٠ ٠

عزز موقف حليم فى مجلس الوزراء ، وزاد من اصرار ألمانيا على فرض حليفها بعد أن زادت قيمته • أضف الى ذلك أن سعيد حليم بدأ يدفع مرتبات لحاشية الخديو ، ويقدم قروضا للوطنيين بكرم زاد من افضاله المالية على المصريين (١) • وانضم جاويد ، وزير المالية العثمانية السابق ، الى فريد فى محاولة اقناع الخديو بالصلح مع الاتراك ، ولكن بلا جدوى (٢) •

وفى صيف ١٩١٥ كان قد وضح أن الخديو يرغب فى الدخول فى مفاوضات سرية مع البريطانيين احتياطا لهزيمة ألمانيا المتوقعة • وبينما أكد لفريد أنه عائد أخيرا الى استانبول أسر لعزيزة روتشبرون أنه لن يذهب الا اذا تأكد من انتصار ألمانيا ، وأرسلها الى باريس للاتصال بالحكومة الفرنسية • ورغم أن روتشبرون كتبت الى فريد أنها علمت أن بريطانيا ليست لديها أى نية للاتفاق مع الخديو (٣) ، فانه قطع علاقته بالاتراك بانتقاله سرا الى لوسرن ، وقرر أن يقضى فترة الحرب فى سويسرا ، بعيدا عن نفوذ دول المحور ، وأرسل خطابا الى السلطان يشكو فيه سوء معاملتها له ، ويعلن تأجيل عودته الى استانبول « حتى ينتهى الموقف الراهن » (٤) • ذلك أن دخول ايطاليا الحرب والانتصارات المؤقتة التى حققها الحلفاء فى البلقان قد خدعت الكثيرين فتوقعوا هزيمة سريعة لألمانيا ، ومن ثم حرص الخديو على ألا يربط مصيره بسفينة غارقة •

فى ذلك الوقت ازداد تلوث سمعة الخديو وأتباعه بفضيحة مالية • فقد اختلف يوسف صديق مع الخديو وكشف أن عباسا اختلس أربعة ملايين مارك دفعتها له ألمانيا ، وكان هذا المبلغ مخصصا لوكيله المالى ذائع الصيت المرحوم بولو باشا لكى يدفعه لعدة صحف باريسية كبرى فى محاولة للسيطرة عليها وتوجيه سياستها ضد الحرب (٥) • ورفض

---

(١) مذكرات فريد : ص ١٣٦ وما بعدها ، احمد شفيق : ج ٣ ، ص ٥٩

(٢) مذكرات فريد : ص ١٤٣

(٣) المصدر السابق : ص ص ١٤٧ ــ ١٤٩

(٤) المصدر السابق : ١٥٥ ــ ١٥٧ • وغموض عبارة الخديو مقصود •

(٥) تلقى هذه القصة بعض الضوء الهام على « قضية بولو » المشهورة • فقد اصبح بول بولو (١٨٦٧ ــ ١٩١٨) ، الذى يسمى عادة « بولو باشا » ، وكيلا ماليا للخديو فى فرنسا ، ووكيلا سياسيا أيضا وفقا لما جاء فى مذكرات فريد (ص ١٥٥) • وكان بولو وفيليبو كافالينى فى باريس ، ومحمد يكن فى سويسرا أهم وكلاء الخديو فى تلك الخطة التى اثبت فشلها • لهذا ولأعمال أخرى قام بها بولو أثناء الحرب حاكمه الفرنسيون عسكريا ونفذوا فيه حكم الاعدام سنة ١٩١٨ • وأثناء المحاكمة تردد كثيرا ذكر الخديو ومحمد يكن ويوسف صديق وقد نشر فى باريس نص غير رسمى للمحاكمة بعنوان « قضية =

الخديو رد المبلغ الى الحكومة الألمانيـة ، وأشفق الوطنيون على سمعتهم فكتبوا مذكرة يهددون فيها بالانفصال عن عباس مالم يعـد الى استانبول ويرد المال الالمانى ، وكونوا لجنة مشتركة من الوطنيين والخديويين لمعاونة عباس في ادارة شئونه السـياسية (١) • غير أن السفير العثمانى فى برلين أخطر « فريد » أن حكومته لاترغب فى تسوية مشكلة الخديو قبل أن تستعد لارسال حملة جديدة الى مصر (٢) • فى ذلك الوقت بالضبط وصل الى برلين الزعيم الوطنى الشاب عبد الملك حمزة ، وأقنع الشيخ جاويش بالانفصال عن فريد لتأييده المستمر للخديو • وخشى فريد أن يدبر سعيد حليم مؤامرة اخرى للتفرقة بين الوطنيين فقرر ألا يقطع علاقاته بالخديو (٣) فكان قراره ذاك بمثابة الخطوة الأولى نحو انفصـاله عن الحكومة العثمانية (٤) رغـم أنه لم يكف عن الضغط على الخديو لمغادرة سويسرا وسداد ديونه •

وفى نوفمبر أخبره الخديو أنه وافق على السداد لألمانيا ، وأنه يجرى اتصالات مباشرة مع أنور للتفاوض حول ما يعوق الصلح مع الحكومة العثمانية • غير أن أمل فريد فى اتمام التصالح بين تركيا والخديو مالبث أن تحطم حينما قطع عباس المباحثات فجأة ورحل الى لوزان (٥) ، وما كان

= بولو أمام مجلس الحزب الثالث » ضمن سلسلة « محاكمات الخيانة » ج ١ ، ١ ــ ٤ (٢ مارس ــ ١١ ابريل ١٩١٨) وعن حياة بولو باشا انظر :

M. Prévost : Bolo (Paul-Marie), Dictionnaire de biographie française, Libairie netouzey et amé. n.d., VI, p. 884 f.

وليست هناك ــ فيما اعلم ــ دراسة خاصة عن قضية بولو • وروايات المعاصرين تشمل • شفيق : ج ٣ ص ص ٢١٣ ــ ٢١٦ ،

Severance Johnson : «The Enemy Within», New York, Mc Cann, 1919, pp. 95-124, 221-230, de Roux : Le defaitisme et les manoeuvres pro-allemends, Paris Nouvelle Librairio National, 1918 pp 53-73 «Le proches de Bolo Pacha et le droit international», Revue du droit international privé et du droit pénal international, XIV (1918), pp 62-66.

(١) مذكرات فريد : ص ١٥٩ • وللنص الكامل انظر : شفيق : ج ٣ ، ص ٧٥ وما بعدها •

(٢) مذكرات فريد ص ١٦١

(٣) مذكرات فريد : ص ١٦٢ • وحينما قابلت عبد الملك حمزة ابدى اسفه لأنه عارض فريدا فى تلك المسألة ، ولكنه قال ان ثقته بالخديو ظلت مفقودة بعد خلعه أكثر من ذى قبل • وقد رفض حمزة سنة ١٩١٤ قبول لقب « بك » من الخديو •

(٤) مذكرات فريد ص ١٦٣ •

(٥) مذكرات فريد : ص ص ١٧١ ــ ١٧٥

له أن يدهش ، لأن علاقته كانت سيئة بزعماء تركيا الفتاة منذ وصلوا الى السلطة رغم معاونته لهم فى صراعهم ضد عبد الحميد ، وايدوا الوطنيين ضده خلال مرحلة سياسة جورست الوفاقية ، وشكوا فى أنه هو الذى أوحى اليه بأن يصبح خليفة العرب ، فى حين شك عباس فى أنهم حاولوا تدبير اغتياله سنة ١٩١٤ وسمحوا لرئيس وزرائهم الدمية بالتآمر ضده من أجل العرش الخديوى • ولم يعد الخديو الى استنابول سنة ١٩١٥ ، ولا سنة ١٩١٦ ، ومع ذلك فقد فشل أيضا فى الوصول الى اتفاق مع البريطانيين • وحينما أبرم عباس الصلح مع الحكومة العثمانيـــة فى أواخر سنة ١٩١٧ كانت أشياء كثيرة قد تغيرت ، ولم يعد فريد فى موقف يسمح له بالافادة من تلك المصالحة •

فقرب نهاية سنة ١٩١٥ كان قد نما انقسام بين صفوف الوطنيين مواز للهوة الآخذة فى الاتساع بين عباس والأتراك • ووجد فريد نفسه ، بسبب اصراره على عدم هجر الخديو ، موضـــع شك متزايد من جانب المسئولين الألمان والأتراك ، ومعرضا لنقد سافر من أعضاء حزبه ، بتحريض من الشيخ جاويش وعبد الملك حمزة (١) • ولاشك ان فريدا سكب وقودا زاد النار اشتعالا حينما صرح لبعض التونسيين المقتربين انه يسره أن يقبل لمصر نظاما دستوريا فى ظل الحمـــاية البريطانية (٢) ، وهو نفس الموقف المعتدل الذى طالما هاجمه باعتباره انحرافا عن مبادىء مصطفى كامل التى لاتقبل المساومة • (*)

وبأمل اسكات ناقديه قرر فريد أن يذهب الى استانبول ، أو اذا أمكن الى سوريا ليلتحق بالحملة المصرية الجديدة الجارى اعدادها وقتذاك •

---

(١) مذكرات فريد : ص ١٨٠

(٢) مذكرات فريد : ص ١٧٩

(*) لا شك فى ان محمد فريد قد سجل فى مذكراته أثناء المنفى ، وفى ظل ظروفه العصيبة وكثرة الدسائس من حوله وفى لحظة يأس عابرة انه تقبل هذه الفكرة ، كحل أخير اذا فشلت جميع المساعى ، وخابت جميع الآمال ، ولكنه قرن كلامه باستعداده لتدبير ثورة ضد الانجليز ولكنك لا تجد أثرا لهذه الفكرة بعد ذلك فى مذكرات فريد ، ولا فى مسلكه العام ، ولا فى تصرفاته السياسية مع جميع الأطراف ، فهى من قبيل ماذكره الله تعالى فى كتابه الحكيم : « وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبى ، الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم • (« الحج » ، آية ٥٢) •

فلا يجوز لاحد ان يقيم وزنا لهذا الخاطر العابر ، ولا يصح ان يقال ان هذا الخاطر زاد من موقف فريد حرجا فان فريدا لم يصارح بهذا الخاطر احدا ، ولم يبن عليه عملا •

وأخبر زيمرمان انه يرغب فى أن يصحب جيش جمـال عدد من المصريين المدنيين خوفا من استيلائه على ادارة مصر (١) • وأيا كان الأمر فقد كان الموقف العام لمجموعة فريد آخذا فى السوء • ففى يناير سنة ١٩١٦ أصبح فؤاد سليم سفيرا عثمانيا فى برن ، وهو مصرى وطنى ارتقى بسرعة كبيرة فى خدمة جمعية الاتحاد والترقى • وبسبب علاقة فؤاد سـليم الوثيقـة بسعيد حليـم أيقن فريـد أنه عين فى منصـبه ليتجسس على الخـديو والوطنيين (٢) وكذلك أوقف الصـدر الأعظم اعـانة الحكومة العثمـانية الشهرية لكل من اسماعيل لبيب ومنصـــور رفعت مؤيدى فريد ، فلم يستطع هذا الأخير أن يمنع نفسه من القلق خشية أن يأتى الدور على مرتبه هو (٣) •

وذهب فريد الى استانبول فى أواخـــر يناير حيث أمضى شهرين مرهقين الى أبعد حد فى محاولة تصحيح الاساءات التى لحقت بشخصه ، بنسبتها الى شائعات أطلقها أعداؤه • ومن بين ثلاثى الاتحـــاد والترقى لم يبق متعاطفا معه سوى أنور الذى وعده بأن وزارة الحربية ستدفع اعانات الوطنيين التى اوقف الصدر الأعظم صرفهـــا من ميزانية وزارة الخارجية العثمانية (٤) • وفشل فريد فى التفاهم مع طلعت الذى لم يكن يثق به لعلاقته بعباس ، وقد أجرى معه استجوابا طويلا (٥) • أما جمال فقد كان مشهورا بعدوانيته ، فسرعان ما أدرك فريد قلة جدوى الانضمام الى جيشه بسوريا •

وأصبحت الحملة المصرية نفسها قضية خاسرة بسبب اضطرار أعداد متزايدة من القوات العثمانية لقتال البريطانيين فى العراق ، والروس فى القوقاز • وبدأ فريد يفطن الى أن الأتراك قد تخلوا ، فى سبيل الجامعة الطورانية ، عن سياستهم القديمة فى التعاون مع القوميات الاسـلامية

(١) مذكرات فريد : ص ١٨٠ وما بعدها

(٢) مذكرات فريد : ص ١٨٢ • ولسيرة موجزة لفؤاد سليم (المولود سنة ١٨٤٧) وصديق مصطفى كامل لفترة طويلة انظر :
Die Islamische Welt, I, 6 (May 1917) p. 321

(٣) مذكرات فريد ص ١٨١

(٤) مذكرات فريد : ص ١٨٤ • وربما كان باعث أنور لذلك عداوه لسعيد حليم •

(٥) مذكرات فريد : ص ١٨٩ ـ ١٩١ ، عبد الرحمن الرافعى : « محمد فريد •• » ص ٣٥٤ وما بعدها

الأخرى (١) • وهو تحول سياسى كفيل بأن يصرفهم عن تحرير مصر • وهكذا أصبحت اقامة فريد فى استانبول عديمة النفع ، بل قد تكون خطرا عليه ، اذ من الممكن أن يقبض عليه وتلفق له تهمة بالخيانة •

اما وقد خاب أمله فى الأتراك فقد عاد الى جنيف فى ابريل ، وكاد يتباهى بأخبار الثورة العربيـة بالحجاز ، وقابـل عامدا بين سماحة أمير الحجاز حسين نحو المحاولتين المدانتين لاغتياله وأحكام الاعدام المشهورة التى نفذها جمال علنا فى اثنين وعشرين زعيما عربيـا فى سـوريا فى مايو ١٩١٦ (٢) •

وعلم فريد بعد عودته بقليل أن الخديو مازال يفاوض البريطانيين ، فلم يجزع كما حدث سنة ١٩١٥ ، بل أيد عباسا رغم اشفاقه من احتمال أن يغضب الأتراك دون أن يوفق فى ارضاء البريطانيين (٣) • يبدو أن فريدا ، الذى عانى جسديا ومعنويا من مواقف الفشل والمؤامرات خلال سنوات الحرب ، قد أصبح مستعدا لهجر السياسة ، بل التوصل الى اتفاق خاص مع البريطانيين • فبمعاونة روتشبرون التى عادت الى فرنسا ، قابل فريد النائب الفرنسى جورج بوسـنو ، ربمـا سـعيا للصـلح مع الحلفاء (٤) • وقد شبطت أجزاء كثيرة من مذكراته الخاصة بهذه الفترة ، ولكن بقيت هذه الفقرة الهامة :

---

(١) يمكن تعريف الجامعة الطورانية بانها تمجيد للتاريخ التركى والنظم والثقافة التركية (فى مقابل الاسلامية) والاعتقاد بان الشعوب التى تنتمى الى الجنس التركى يجب أن تتوحد فى دولة واحدة •• وشعوب الجنس التركى تشمل بالاضافة الى سكان الأناضول : الترافيين . والقوقاز ، والقرغيز ، والأذربيجانيين ، والتركمان والاوغيرين ، والأوزبكيين • وكان معظمهم ـ كحالهم الآن ، خاضعين للحكم الروسى • وتبنى هـذه السياسة أدى بالضرورة الى تقوية حرب تركيا مع روسيا على حساب الهدف العثمانى (أو الجامعة الاسلاميه ، الرامى الى طرد البريطانيين من مصر • ولقد كانت الجامعة = = الطورانية سببا ونتيجة فى الوقت نفسه ليقظة القومية العربية فى أوائل القرن العشرين ولعل مما له دلالة أن من بين الكلمات التى استخدمها فريد فى وصفها كلمة « تتريك » •

(٢) مذكرات فريد ص ٢٠٦

(٣) مذكرات فريد ص ١٩٩

(٤) أكدت لى مدام فيبار ذلك فى خطابين كتبتهما فى ٨ يوليو و ٥ نوفمبر سنة ١٩٦٤ ، واستشهدت فيهما بخطاب تلقته من فريد بتاريخ ٣١ مايو ١٩١٦

« ·· لقد تخلى الترك عن الجامعة الاسلامية ·· ماعدا أنور باشا ·· ومن جهة أخرى فلا أمل فى أن ألمانيا تساعدنا ضد الترك ، لأنهم محتاجون اليهم ولايريدون أن يغضبوهم ·· لا أمل فى خلاص مصر على يد الترك والألمان ، بل لو دخلاها لجعلتها تركيا ولاية عثمانية بسيطة ، أو لبقى فيها الألمان ، ولبقينا فى نفس الحالة التى نحن عليها الآن · ونحن فى مثل هذه الظروف نفضل بقاء انجلترا والاتفاق معها على أخذ الدستور ولو تدريجيا من أن يحل محلهم الترك أو الألمان ·· » (١) · (*)

وخلال شهر يونيو اجتمع الوطنيون بالخديو وحاشيته عدة مرات · فى البداية أيدوا سياسته فى اجراء مباحثات سرية مع البريطانيين ، ولو أدى ذلك الى قطع علاقاتهم بالعثمانيين ، غير أن فريدا مالبث ان اختلف مع الخديو حول معاشه الشهرى ، وكان على عباس ان يدفعه بعد أن انقطعت الاعانة المالية التى كان يدفعها له أنور (٢) وترتب على ذلك أن قطع فريد كل علاقة له بالخديو ، ولكنه لم يسارع بمصالحة الاتراك الذين كان قنصلهم العام بجنيف يلقبه « بالخائن » علنا (٣)

كتب فريد الى روتشبرون و « بوسنو » حول رغبته فى الاستشفاء بفيشى ، ولكن هذا كان معناه التخلى ، ربما للشيخ جاويش ، عن زعامة الحركة الوطنية ، وأخيرا « بعد تدبر حصيف » تخلى عن الفكرة (٤)

---

(١) مذكرات فريد : ص ٢٠٢ ، والفواصل تشير الى فقرات آثرت حذفها ، وليس الى كلمات مشطوبة فى المخطوطة ·

(٢) كان فريد يتلقى ٣٠ جنيها تركيا كل شهر كدين يسدده بعد انتهاء الحرب · والخلاف مشروح فى مذكرات فريد ص ٢٠٧ وما بعدها ، أحمد شفيق : ج ٣ ص ١١٤

(٣) مذكرات فريد : ص ٢٠٩ ·

(٤) من فريد الى روتشبرون ، رينفيلدن (سويسرا) فى ٢٥ سبتمبر ١٩١٦ ، وهو مسجل فى مذكرات فريد ، ص ٢١٣ ، وأكدته مدام فيبار فى رسالتها من باريس فى ٨ يوليو ١٩٦٤ ·

(★) يعود المؤلف الى ابراز هذه الفقرة بخبث وسوء نية ، وقد علقنا عليها فيما سبق ، فنرجو القارىء الرجوع الى تعليقنا ·ونؤكد هنا كما اكدنا فى الموضع السابق ان هذه الخاطرة ، التى كانت من وساوس الشيطان ، لم ترد ثانية على خاطر فريد ·

محمد فريد ... فريداً

خلال الشهور الاولى من الحرب عاون فريد على توحيد قوى الوطنيين والخديو والأتراك ومصائرهم فى ظل حماية الألمان . وخـــلال السنتين التاليتين تضافرت عوامل عديدة فى القضاء على هذا التحالف ، أهمها : التباين بين أهداف أطرافه ، وضعف الحركة الوطنية داخل مصر ، وفشل حملة تركيا المصرية . ورغم أن فريد كان لا يزال يتلقى معاشه الشهرى من أنور باشا ، فقد ترك ليكافح وحده . ولما كان قد قطع فى النهاية علاقته بفرنسا فقد تركز أمله الوحيد فى تأييد ألمانيا ، على أمل أن تنتصر فى الحرب ثم تفرض على البريطانيين الانسحاب من مصر . وكان هذا هو خط العمل الأساسى الذى اتبعه فريد وحده فى معظم الاحوال ، حتى تمت هزيمة ألمانيا بعد سنتين .

فى تلك الأثناء كان على الوطنيين أن يجعلوا صوتهم مسموعا ، على الأقل فى البلاد المحايدة والمؤيدة لألمانيا ، ومن سوء الحظ أن فريدا كان قد تشاجر مع غالبية الناطقين باسمهم غيره . وحضر الى جنيف عوض البحراوى ، وهو من أنصار جاويش فى اللجنة الادارية للحـــزب ، وبدأ يصدر «L'Egypte» مجلة وطنية نصف شهرية . وحاول فريد عن طريق أنور أن يضع البحراوى تحت اشرافه التحريرى ، ولكنه فشــــل ، فانتهى به الامر الى القول بأن هذه المجلة دسيسة أخرى من دسائس سعيد حليم لبث الفرقة بين صفوف الوطنيين وأيا كان الأمر فقد توقفت «L'Egypte» بعد أربعة أعداد لا أكثر . (١)

وهناك مغامرة مصرية أخرى أكثر نجـــاحا اعتمدت على تمويل العثمانيين هى الأخرى ، وهى مجلة «Die Islamisch Welt»

---

(١) مذكرات فريد : ص ٢٠٩ ، ٢٢٠

التى بدأ صدورها فى برلين فى نوفمبر ١٩١٦ ، وكان يشرف على تحريرها الشيخ جاويش وعبد الملك حمزة ، وعاشت عامين ، نشرت خلالهما مقالات لكثيرين من مشاهير الكتاب والسياسيين الألمان والأتراك • وانزعج فريد الى أبعد حد لبداية صدور تلك المجلة ، اذ كانت بمثابة الدليل الناصع على أن « جاويش » قد ارتفع بتشجيع جماعة الاتحاد والترقى الى مكانة زعيم المتحدثين باسم مصرفى ألمانيا • ووجه فريد نقدا متعنتا للمجلة ، بدافع الغيرة على الأرجح ، للنقص الحقيقى ، أو المزعوم في اخلاصـــها للقضية الوطنية (١) • (*)

وفى أوائل ســـنة ١٩١٧ غادر فريد سويسرا الى ألمانيا ، وكانت السلطات السويسرية قد علمت بمسألة بولو ، وبدأت التحقيق فى نشاط حاشية الخديو ، وقبضت على أحد أعضائها واستولت على أوراقه • (٢) ولم يستجوب فريد ، ولكن يوسف صديق سئل عما اذا كان الوطنيون يتلقون أموالا من الخديو • (٣) فقرر فريد فى شهر نوفمبر السفر الى برلين خشية أن يورط فى المسألة ، ولكنه لم يمنح تأشيرة دخول لألمانيا الا بعد شهرين (٤) •

---

(١) على سبيل المثال حرف مقالا كتبه أحد الألمان في العدد الأول باعتباره تهوينا من قدرة مصر على الحكم الذاتي • مذكرات فريد : ص ٢٢٠ وما بعدها •
Graf E. von Reventlov. « Egypten im Weltkrieg », Die Islamische Welt, I, 1, (November 1916) pp. 8-11.

(٢) أحمد شفيق جـ ٣ ، ص ص ١٢٣ ـ ١٣٢

(٣) مذكرات فريد : ص ٢١٦

(٤) مذكرات فريد : ص ٢٢٥ • وكان فريد موضع شـــك الأتراك ، وربما الألمان أيضا ، بسبب علاقته بالخديو ومن هنا كان التاخير فى منحة تاشيرة الدخول • ولعل ترقية زيمرمان وكان على صلة بفريد ، الى منصب وزير الخارجية ، هى التى عجلت بمنحه التاشيرة فى يناير ١٩١٧ •

(*) كان خلاف فريد مع جاويش اساسه أن جاويش كان يؤمن بأنه لا شعوبية فى الاسلام ، وبما ان تركيا هى دولة الخلافة فلا معنى لاثارة النعرة المصرية ورفع شعار « مصر للمصريين » الذى يغضب الأتراك ، وكان فريد يرى ان الأتراك لا يؤمنون بالمثل الاسلامية التى يؤمن بها الشيخ جاويش ويدعو اليها ، ناسيا اعتبارات الحرب والسياسة الوطنية والدولية وان السكوت على اطماع الأتراك فى مصر ، وهى اطماع معلنة ، على اعتبار انه لا فرق بين الأتراك والمصريين فى ظل الخلافة لأن « المسلمين اخوة » هو سذاجة سياسية تهدد مصالح مصر ومستقبلها السياسى • ونحن ـ مع اعتقادنا فى اخلاص الشيخ جاويش ـ نؤيد موقف فريد ونراه أدعى للاعتبار والتقدير •

وعند وصول فريد الى باريس ، اختار الطريق الوحيد الممكن للعمل وهو تحسين علاقاته بوزارة الخارجية الالمانية • فبحث مع كل من البارون أوبنهايم ، وزيمرمان وزير الخارجية الجديد ، وكان قد تعرف به منـذ عامين ، الثورة العربية وما صحبها من يقظة الجامعة الطورانية • ومع كل منهما أصر فريد على أن الامبراطورية لا يمكن أن تواصل حياتها الا كاتحاد يسمح بالاستقلال الوطنى لكل رعاياها الناطقين باللغة العربية ، فقد كان يرجو أن يكون لالمانيا تأثير ملطف على سياسة تركيا العربية ، وربما ليطعن فى سياسة جمال حاكم سوريا (١) •

ولم يكن معنى ذلك أن فريدا أصبح قوميا عربيا ، فقد كتب فى الوقت نفسه لمجلة «V.O.» التى تصدرها وزارة الخارجية الالمانية مقـــالات رد فيها أصول الحركة العربية الى مؤامرات بريطانيا مع الخديو قبـــل الحـــرب (*)• وبروح مشـــابهة ألف كتيبـــة « المؤامـــرات الانجليزية ضد الاسلام «Les intrigues anglaises contre L'Islam»(٢) ، ودعا فيه كل المسلمين الى الاتحاد ضد التهديد البريطانى المتمثل فى خطة الانجليز مع الشريف حسين لانشاء خلافة عربية •

ومما له دلالة خاصة أن فريدا لم يبذل خلال تلك الفترة أى جهـــد لتحسين علاقاته بالحكومة العثمانية أو مع أنصار جاويش من المصريين ، بالرغم من أن طلعت كان قد أصبح صدرا أعظم مكان سعيد حليم فى فبراير سنة ١٩١٧ • ولم تحركه نغمة المصالحة فى مقال لعبد الملك حمزة فى مجلة «Die Islamische Welt» (٣) ، وكذلك لم يقترب من طلعت

---

(١) مذكرات فريد : ص ٢٢٩ ، ٢٣٢ وما بعدها •

(٢) نشر فى لوزان فى مارس ١٩١٧ •

(٣) نشر بتوقيع مستعار هو « ابن مروان »

Ibn Marwan (pseud.), « Die agyptishe Nationalbewegug », Die Islamische I, 4 (March 1917), pp. 196-199,

مذكرات فريد : ص ٢٣٧ • وأوضح لى حمزه أنه أخذ اسمه المستعار من اسم الخليفة الأموى الخامس عبد الملك بن مروان •

(*) لقد ادرك فريد فى هذا الوقت المبكر كيف اتخذت بريطانيا من الجامعة العربية وسيلة لتثبيت سيطرتها على العرب ، فقد بدات برعاية الفكرة العربية ونشرها ، لتمزيق دولة الخلافة • فلما انتهت الحرب العالمية ، بقيت تتبنى الفكرة العربية بصورة واخرى مستغلة ميل العرب الطبيعى الى الوحدة ، فلما كانت الحرب العالمية الثانية أعلن مستر ايدن وزير خارجية بريطانيا انها تنظر الى تطلع العرب الى الوحدة العربية بعطف ، واطلقت فرسانها امثال نورى السعيد ، والملك حسين بن على ، وساسة آخرين من جميع البلاد العربية ليحققوا أغراضها •

حينما زار الأخير برلين فى ابريل ليصلح ما فسد من علاقات بلاده بألمانيا·
وبدلا من ذلك صدق فريد ما أكده له زيمرمان من أن مستقبل مصر
لا يتوقف على نتيجة الحرب فى الشرق الاوسط ، بل على نجاح حصار
غواصات ألمانيا القوى لبريطانيا وهزيمة الحلفاء فى الجبهة الغربية · (١)

ولم تكن تصرفات فريد تعنى أنه أصبح مستقلا ماليا عن تركيا ·
ففى نهاية مايو سافر وحيدا الى استوكهولم ليمثل مصر فى المؤتمر
الاشتراكى الذى سينعقد هناك · وعقب وصوله زار السفير العثمانى ،
وهو صديق قديم له ، ليطلب اعتمادات مالية للصرف على وفد أكبر
يشترك فى المؤتمر الاشتراكى ، وزيادة المعاشات التى تدفع لكل الوطنيين
وانشاء مجلة للحزب · وفى أوائل يوليو أخطر مكتب أنور باشا فريدا
أن الحكومة العثمانية وافقت على اقتراحه ، فكتب الى اسماعيل لبيب
وأحمد فريد (ابن شقيقه) فى جنيف ، والى منصور رفعت فى برلين
يدعوهم لحضور مؤتمر استوكهولم ، فرفضوا جميعا (٢) ·

ولم يكن لهذا الرفض أى أهمية كما اتضح فيما بعد ، اذ أن اللجنة
التحضيرية للمؤتمر رفضت عضوية وفد فريد لأن الوطنيين ليسوا حزبا
اشتراكيا ، وان كانت قد دعته الى تقديم مذكرة عن المسألة
المصرية (٣) ·

وحين عاد فريد الى ألمانيا نظم اجتماعا عاما فى برلين بمناسبة مرور
٣٥ سنة على الاحتلال الانجليزى لمصر ، ورغم شهرة بعض المتحدثين ،
فلم يلق الاجتماع سوى اهتمام ضئيل مخيب للآمال · (٤) وبعد ذلك عاد
فريد الى استوكهولم ليشرع فى اصدار مجلة الحزب الوطنى الشهرية ،

---

(١) مذكرات فريد ، ص ٢٤٥ ·

(٢) المصدر السابق : ص ص ٢٤٦ ـ ٢٤٩ ، من لبيب الى فريد ، جنيف فى ١٥ يوليو ١٩١٧ ، من منصور رفعت الى فريد ، برلين فى ١٧ يوليو ١٩١٧ ، من احمد فريد الى محمد فريد ، انجادين ، سويسرا) فى ٢٣ يوليو ١٩١٧ ·

(٣) نشر المذكرة بعد ذلك فى مجلتى V. O. Stockholms Dagebled مذكرات فريد : ص ٢٥٠ · ونشر أحمد وفيق الترجمة العربية فى « الأفكار » (٢٤ أكتوبر ١٩١٩) ·

(٤) مذكرات فريد ، ص ٢٥٤ ، من فريد الى لبيب ، برلين فى ١٥ سبتمبر ١٩١٧ ، عبد الرحمن الرافعى : ص ٣٥٦

وكتيب حول المسألة المصرية باعانة مالية من العثمانيين قدرها ثلاثمائة جنيه تركى (١) ٠

وعند نهاية ذلك الصيف قرر الخديو عباس أن يعود الى استانبول ويستأنف التعاون مع الحكومة العثمانية ٠ ترى لماذا قرر الآن أن يدير ظهره لسياسة ثبت عليها ما يقرب من ثلاث سنوات ، وكان لها دور كبير فى تعويق حملة الوطنيين ؟ هل اضطر – كما ذهب فريد – الى ابتلاع كراهيته للاتراك عامة ، وطلعت باشا بصفة خاصة نتيجة لاشتداد حاجته وكانت الحكومة العثمانية مستعدة لاشباعها بمعاش قدره ألف جنيه تركى فى الشهر ؟ (٢) ٠

لقد ظل موقفه مترددا بعض الوقت يعكس انقسام حاشيته الى طائفة تناصر البريطانيين وأخرى تناصر الأتراك ٠ وخلال سنة ١٩١٦ وأوائل ١٩١٧ كانت اليد العليا للطائفة الاولى الحريصة على أملاكها فى مصر ، بل لعلها حظيت أيضا بمعاونة فريد وزملائه بعض الوقت ٠ وحينما بلغ عبد المنعم أكبر أبناء الخديو سن الرشد فى فبراير ١٩١٧ ، كتب عباس الى ملك انجلترا يلتمس من حكومة جلالته أن تعترف به وريثا لعرش مصر ولكن بريطانيا تراخت فى اتخاذ أى اجراء وقتذاك ٠ (٣) وبين الحين والآخر كان عملاء بريطانيا فى سويسرا يتصلون بعباس يعرضون عليه معاشا سنويا اذا تنازل عن مطالبته بالعرش وعن أملاكه فى مصر ٠ وفى يوليو سنة ١٩١٧ قدم له اللورد أكتون ممثل المفوضية البريطانية فى برن عرضا أكثر اغراء ، يضمن له دخل أراضيه فى مصر والأناضول (اذا خسرت تركيا الحرب) بشرط أن يعترف بحسين كامل سلطانا على مصر ٠ (٤)

وفى تلك الأثناء كان أحمد شفيق يسعى لتحسين العلاقات مع تركيا ٠ فانتهز فرصة ابتعاد سعيد حليم عن السلطة ، وذهب الى

---

(١) مذكرات فريد : ص ٢٥٥ وما بعدها ، ص ٢٦١ ، «Landav: P, 131» ، ونشر الكتب فى « الأفكار » (٢٧ أكتوبر ١٩١٩) وعبد الرحمن الرافعى : ص ص ٣٥٧ – ٣٦٠ ٠

(٢) مذكرات فريد : ص ٢٥٢ وما بعدها ٠

(٣) أحمد شفيق ، ج ٣ ، ص ١٥٢ وما بعدها ٠ حينما عزل عباس فى ديسمبر ١٩١٤ وعين حسين كامل مكانه لم تحدد الحكومة المصرية وريثا للعرش ٠ وحينما مرض حسين كامل بعد ذلك مرضه الخطير سنة ١٩١٧ حصل البريطانيون على تنازل عن العرش من ابنه كمال الدين . وأعلنوا أحمد فؤاد ، شقيق حسين كامل غير المحبوب خلفا له ٠

(٤) Beaman : pp. 70-80.

استانبول حيث عقد اتفاقا مع أنور وطلعت . وظل الخديو يتأرجح بين الجانبين ، ثم ما لبث أن قرر أن يجازف بمصيره الى جانب تركيا رغم عدم ثقته فى نتيجة الحرب ، على أساس أن هذا الاختيار يتيح له على الأقل قدرا من الامل فى استعادة عرشه ذات يوم . (١)

ورغم أن فريدا أمضى معظم سنة ١٩١٥ يحاول رأب الصدع بين الخديو والحكومة العثمانية فقد أصبح الآن يعارض الصلح .ومما زاد من حزنه أن أحمد فريد ، ابن شقيقه، صاحب الخديو الى استانبول عضوا فى حاشيته ، وكان الوطنى الوحيد الذى فعل ذلك . ولم يتردد فريد فى اعلان معارضته للخديو ، فصرح لاحدى الصحف فى استوكهولم بأنه لا توجد أى علاقة بين عباس والحزب الوطنى . (٢)

---

(١) شفيق : جـ ٣ ، ص ص ١٥٤ ـ ١٧٥

(٢) مذكرات فريد : ص ٢٦٣ . وكان أحمد فريد يتقاضى ٦٥ جنيها تركيا باعتباره رئيس تشريفاتية عباس . (شفيق : جـ ٣ ، ص ١٧٧)

اعادة تكوين الحلف الوطنى

أزالت استقالة سعيد حليم من منصب الصدر الأعظم أهم عقبة فى سبيل التعاون بين الأتراك والخديو ، فأصبح من السهل مصالحة طائفتى الوطنيين التى كانت كل منهما تناصر حتى ذلك الحين أحد الجانبين • وحينما حضر الشيخ جاويش وعبد الملك حمزة الى استوكهولم للاشتراك فى مؤتمر المسلمين المغتربين الذى يؤيده العثمانيون قبلا رئاسة فريد لهما، واعتذرا له عن سوء سلوكهما السابق (١) •

وفى ديسمبر عاد فريد الى برلين ، وعقد بالاشتراك مع جاويش وحمزة مظاهرة احتجاج فى مناسبة ذكرى اعلان الحماية البريطانية • ورأس فريد الاجتماع ، وألقى خطبتى الافتتاح والختام • وفى هذه المرة نشر عن الاجتماع بصورة معقولة (٢) •

بعد ذلك بقليل اجتمع المصريون المقيمون فى برلين بمقر مجلة «D'etslamische welt» واتفقوا على تنظيم نشاط الوطنيين تحت اشراف أعضاء اللجنة الادارية الموجودين خارج مصر • ولما كان عدد هؤلاء لايزيد على ستة (٣) ، فقد قرر المجتمعون تعيين مصريين آخرين فى الأماكن الشاغرة • ووافق جميع الوطنيين الحاضرين على تأبيد هذه اللجنة بعد اعادة تشكيلها • ولكن بعض كارهى جاويش قاطعوا الاجتماع وما تلا ذلك من نشاط للحزب فى برلين •

---

(١) مذكرات فريد : ص ٢٦٢ وما بعدها

(٢)مذكرات فريد : ص ٢٦٥ وما بعدها •

(٣) وهم محمد على ، :عبد الملك حمزة فى برلين ، واسماعيل لبيب وعوض البحراوى واسماعيل كامل وأحمد طاهر فى جنيف ، وكان عليهم أن يحضروا الى برلين ، فرفض اسماعيل لبيب الحضور ، وكان معروفا بكراهيته لجاويش •

وانتخب الشيخ جاويش عضـوا فى اللجنة الادارية لأول مرة ، فمن الطريف أن الرجل الذى اعتبره البريطانيون أقوى الوطنيين نفوذا (١) لم يكن حتى تلك اللحظة قد انضم الى الحزب (٢) ·

ويبدو أن الوطنيين لم يسـاورهم الشك فى أنهم اختاروا الجانب الصحيح حين جعلوا برلين مركزا لعملياتهم ولاصدار مجلة الحزب ايضا ، كان استيلاء البولشفيك على السلطة فى روسيا قد أنهى حرب المانيا فى الشرق ، واصبح لينين أول زعيـم وطنى يطالب علنـا باستقلال مصر ، فابرق له فريد يشكره (٣) ، لما دعا المجتمعين فى محادثات السـلام فى برست ــ ليتوفسك الى استنكار الحماية البريطانية لمصر ، ولكن خاب أمله حينما فشلت تركيا فى اثارة القضية أثناء المؤتمر · ويبدو أن اهتمام تركيا قد أخذ يزداد بالتوسع فى القرم والقوقاز ، وغيرهما من المناطق التى تسكن بعض أجزائها شعوب تركمانية ، وبدأ فريد يشـك فى أن تركيا لم تعد تهتم بتحرير مصر ، خشية أن يغتصب المصريون ، وهم أذكى منهم ، زعامة المسلمين (٤) وعلق الوطنيون آمالهم على انتصار ألمانى ساحق فى الجبهة الغربية يجبر الحلفـاء على قبول سـلام مشروط كالروسيين فى برست ــ ليتوفسك · وكان عليهـم أن يذكروا الالمان بصفة مستمرة بضرورة الاصرار على استقلال مصر ، عن طريق توثيق علاقاتهـم بكبـار السياسيين والصحفيين والمسئولين · وفى ابريل نجحوا فى تقوية هذه العلاقات بتكوين جمعية أصدقاء مصر ، وكان هدفها زيادة اهتمام زعماء ألمانيا بمطلب استقلال مصر ·

وكذلك حاول الحزب الوطنى استئناف التعاون مع الخديو عباس، وتقوية تنظيمه الداخلى ، ولكن المنافسات الشخصية عوقته · ففى يناير ذهب الشيخ جاويش الى استانبول ووفق الى الاتفـاق مع الخديو ، ولكن الوطنيين فى برلين ، لشكهم فى عباس أبرقوا الى جاويش بالا يوقع اى اتفاقية دون موافقتهم المسبقة · والحقيقة أن فريدا خشى ان يتآمر جاويش، ربما بالاشتراك مع عباس ، لكى يحل محله فى زعامة الحزب باعتباره أكبر

---

(١) على سبيل المثال :
Alexander : pp. 141 f. and 107 f., Lloyd : I, p. 88 f.

(٢) مذكرات فريد : ص ١٩١ · وقد أكد ذلك الدكتور الفولى شقيق زوجة جاويش

(٣) مذكرات فريد : ص ٢٦٧

(٤) المصدر السابق : ص ٢٧٢ ·

مدافع عن القضية الوطنية (١) • ورفض الوطنيون أيضا اقتراح جاويش انشاء مراكز للدعاية لمصر فى فيينا وبودابست على أساس أنه يحـاول اغتصاب سلطات اللجنة الادارية فى رسم السياسة ، وقرروا كذلك أنهم فى حالة الصـلح مع عباس سـيحاولون تـكوين حـكومة بالمنفى ــ وسيستبعدون منها كل المصريين الذين تورطوا فى مسألة بولو ، وسيكون فريد نفسه رئيسا للوزراء (٢) •

وفى مايو أعيـد تسمية جمعيـة أصـدقاء مصر ، فأصبحت جمعيـة تحرير مصر ، وبدأ الوطنيون يغدقون عضويتها الشرفية على ذوى النفوذ من الالمان والأتراك ، وقبل الخديو عباس رئاستها الفخرية ، وتبرع لها بخمسمائة جنيه تركى ، واختير أنور (بترشيح من فريد) وسعيد حليم (بترشيح جناح جاويش) للعضوية الشرفية ، بالاضافة الى زعماء حزبى المحافظين والأحرار الألمانيين • وعرضت الرئاسـة الفعليـة على زوج شقيقة القيصر (٣) •

وقد ساعدت الجمعية على التمهيد لصلح رسمى بين فريد والخديو حين زار الخير برلين فى أواخر يوليو (٤) • وكذلك سوى فريد خلافاته القديمة مع فؤاد سليم سكرتير الحزب الوطنى السابق الذى أصبح الآن السفير العثمانى ببرن بفضل علاقاته بجماعة الاتحاد والترقى (٥) •

ماذا تفعل وزارة الخارجية الألمانيـة مع كل هذه الطوائف المتقاتلة من المصريين بعد أن عادت الى الاتحاد أخيرا ؟

يبدو ان عمـلاء ألمـانيا تقدموا لاسـماعيل لبيب وعبد الملك حمزة ، بل ومحمد فهمى أيضـا ، بـاقتراح انشاء «مكتب مصرى »فى سويسرا ، غير أن غالبية الوطنيين فى برلين لم يرحبوا بوضع هذا المشروع تحت سيطرة الألمان ، واتفقوا على أن يتخذ المكتب شكل لجنة فرعية ينفق عليها من أموال الحزب ، ولكن الوطنيين فى سويسرا ظلوا يعترضون مع ذلك على الفكرة ، فرفضها الحزب • وقد عادت الادارة الشرقية بالمخابرات الألمانية

---

(١) مذكرات فريد : ص ٢٧١ ، شفيق : جـ٣ ، ص ص ٢٠٨ ـ ٢١٣ ، وهو يصف بالتفصيل مقابلات الشيخ مع الخديو فى استانبول ويؤكد أنهما تشـاجرا فى ابريل سنة ١٩١٨ •

(٢) مذكرات فريد ، ص ٢٧٥

(٣) مذكرات فريد : ص ٢٧١

(٤) مذكرات فريد ص ٢٨٣

(٥) مذكرات فريد : ص ص ٢٨٥ وما بعدها ، ٢٨٧ ـ ٢٩٠

الى مناقشة الفكرة بعد ذلك مع شاب وطنى يدعى باهر صدقى ، ولكن فريدا وأنصاره قرروا البعد عن كل مشروع من شأنه أن يجعلهم أدوات فى أيدى الألمان • (١)

وجاءت أحداث صيف ١٩١٨ لتحول كل هذه الخطط الى تدريبات مدرسية لا أكثر • فقد جثت بلغاريا أولا مستسلمة للحلفاء وتلتها تركيا ، وبدأ الجيش الألمانى ينسحب من الجبهة الغربية • واجتمع الوطنيون فى جنيف واستأنفوا مشاجراتهم الشخصية • وعاد فريد الى برلين ليسترد أوراقه وبقية حاجياته • وبينما كان لايزال فى برلين يتأهب للسفر الى سويسرا وقع الألمان الهدنة • فانتهت بذلك ، لا الحرب وحدها ، بل كذلك العلاقات التى ربطت الوطنية المصرية بمصـير الامبراطورية العثمانيـة وحلفائها •

هل كان الوطنيون حكماء حين قامروا بكل رصـيدهم على انتصار ألمانيـا ؟

الواقع أن هناك طريقتين لالقاء هذا السؤال وهما : هل كان من الممكن أن يخرج الحزب الوطنى من الحرب العالمية الأولى وهو فى موقف أقوى لو أنه ظل محايدا أو أيد بريطانيا ، كما فعل معظم المصريين وكثير من العرب ؟ وهل كان سيحقق أهدافه لو انتصرت ألمانيا ؟

ان مجـرى الأحداث التى تلت الحرب يوحى بأن أى زعيم وطنى لم يكن باستطاعته أن يفوز باستقلال مصر التام لتعارض ذلك مع مصالح بريطانيا الاستعمارية • وقد سئل محمد فريد فى مستهل الحرب : ماذا يفعل الحزب لو انتصرت بريطانيـا ؟ فأجـاب انه سيشعل ثورة فى مصر • وهذا ما حـدث فعلا ، وان لم يكن الوطنيون هم الذين سيطروا عليها • (*) فطالما كانت كل من بريطانيا والوطنيين يرفضون دائما التفاوض فيما بينهما فقد بدا بعيـدا عن كل احتمـال أن يستطيع الحزب تحقيق أهدافه سلميا •

ولو أن ألمانيا انتصرت فى الحرب لما كان من المؤكد بأية حال أن مصر ستتحرر من السيطرة الأجنبية ، أو يعـاد الخديو الى عرشها ،

---

(١) مذكرات فريد . ص ١٤٥

(*) لا يهم أن يسيطر الوطنيون على الثورة التى اشتعلت فى مصر ضد الانجليز بعد ان وضعت الحرب أوزارها ، ولكن المهم انهم حضروا لهذه الثـورة وبذروا بذورها ودعوا اليها •

أو تمنح نظاما دستوريا يسيطر فيه الوطنيون • فقد كان اسهام الوطنيين في هذا النصر المفترض من الضآلة بحيث لا يكاد يسمح لهم بحق المطالبة بالسيطرة على مصر •

فلم يسهم فى الحملات التركيـة العسـكرية الا عدد ضـئيل من المصريين • ولم تحدث اضطرابات داخـل مصر ، وان كان من المحتمـل أن نصرا تركيا ألمانيا مؤزرا كان كفيلا باثارة بعضـــها • وكتب المهاجرون الوطنيون بعض الدعايات النافعة ، ولكنهم بددوا معظم وقتهم وطاقتهم فى منازعات داخلية ، حتى وضح أن ألمانيا غير قادرة على كسب الحرب ، وحتى الحكومة العثمانية التى تورطت فى صرف أموال على تأييد الوطنيين أكبر بكثير من قيمة خدماتهم لمجهودها الحربى ، كانت ستحاول تقوية سيادتها على مصر على الأرجح فى حالة انسحاب بريطانيا ، ولكنها لم تكن لتنجح فى ذلك دون موافقة ألمانيا • وفى تلك الحالة كان من الممكن ان يصـــبح الوطنيون أكبر حزب سـياسى فى مصر ، ولكنه لن يزيد فى الواقع عن أن يكون دمى فى أيدى الأتراك والألمان • (*)

والحقيقة أن الحزب الوطنى كان قد انقسم منذ زمن بعيد الى عدة اجنحة ، كل منها يشك فى الآخر ، وترأست كل جناح شخصية تنافس بقية الشخصيات • وقد أضفت الحرب على هذه الحركة المنقسمة بصورة سيئة قيمة محتملة فى نظر أعداء بريطانيا تفوق قوتها الحقيقية بكثير • وقد ظل الوطنيون يفيدون من علاقاتهم بتركيا وألمانيا طالما ظلت نتيجة الحرب مجهولة • ولم يتضـــح الا فيما بعد أنهم قد أبحـروا على ظهر سفينة غارقة •

(*) لا نستطيع ان نتصور ان محمد فريد واخوانه كانوا سيقبلون ـ اذا انتصرت المانيا وتركيا ـ ان يكونوا دمى فى ايدى المنتصرين ، وماضى زعمـاء الحزب الوطنى ، لا سيما فى الفترة التى كانوا خلالها خارج مصر ، تنفى امكان حصول هذا التصور •

الفصل التاسع

الحزب الوطني بعد الحرب العالمية الأولى

- الوطنيون فى أوربا
- الثورة فى مصر
- الوطنيون المغتربون ووفاة فريد
- خاتمة

الوطنيون فى أوربا

لقد ربط الوطنيون مصيرهم السياسى بمصير دول المحور ، فلما هزمت تركيا وحلفاؤها أصبحوا فى حالة شلل تام ، وقليل منهم من استطاعوا استعادة أى نفوذ فى حياة مصر السياسية ۰ فقد مات بعضهم فى المنفى ، وعاد بعضهم الآخر الى مصر ليجدوا معارضيهم السابقين قد استولوا على زعامة الكفاح من أجل الاستقلال ۰ ولاشك أن نتيجة الحرب العالمية الأولى كانت السبب الرئيسى فى فقد الوطنيين لموقعهم القيادى ، ولكن الانقسامات الداخلية ، ونقص الأموال ، ثم وفاة فريد المفاجئة هى التى عجلت بانهيار الحزب ۰ (*)

فقبل أن يدخل الحلفاء المنتصرون استانبول بقليل حصل الشيخ جاويش على كمية من الذهب ليوزعها على زملائه الوطنيين فى أوربا ۰ وبعد رحلة شاقة استمرت عشرة ايام عبر الاتحاد السوفييتى الذى خربته

(*) ان تعبير « انهيار الحزب » هو تعبير خاطىء من الناحية السياسية ، فكل حزب معرض لفقدان الأغلبية التى كان يتمتع بها فى وقت من الأوقات ولا يعتبر هذا التحول انهيارا ۰ اما اذا تحلل الحزب ذاته واختفت الدعوة لمبادئه وتحول زعماؤه عن عقيدته فهذا هو الانهيار . وقد بقى الحزب الوطنى متمسكا بالأفكار التى بشر بها مصطفى كامل ومحمد فريد ، وكان له فى مجلس النواب الذى انتخب فى سنة ١٩٢٣ ، والذى سادت فيه اغلبية منتمية لحزب سعد زغلول ، عدد من نواب الحزب الوطنى ، قادوا المعارضة بكفاءة ولفتوا الانظار وضاقت بهم الأغلبية ۰ واستمر نشاط الحزب الوطنى رغم فقدانه الأغلبية ، وطوال الفترة التالية لثورة ١٩١٩ والسابقة على ثورة سنة ١٩٥٢ ، وبعد ثورة ١٩١٩ محسوسا به ، وكانت الأمة تتحول الى مبادئه بين الحين والحين ، وانتهى الأمر بالأحزاب التى كانت اقل من الحزب الوطنى تطرفا ، واكثر ميلا للتعاون مع الاحتلال البريطانى ، باعتناق مبادىء الحزب الوطنى ، فنادت بالغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ ، وبوحدة وادى النيل وبالجلاء الكامل عن مصر والسودان ، وبالكفاح المسلح اذا اقتضى الحال ۰

الحرب ، وصل جاويش الى برلين قبيل توقيع الهدنة ، فى الوقت المناسب بالضبط لتوزيع الذهب على المصريين ، مع الحرص على أن يكون بينهم زوج شقيقته ، واستبعاد أعدائه من الفوز بجزء من هبة أنور الأخيرة (١) ٠

وحينما نشبت الثورات فى أكبر المدن الألمانية قرر الوطنيون الفرار الى سويسرا خوفا من أن تؤدى تلك الاضطرابات الى احتلال الحلفاء لألمانيا وتسليمهم لمصر لتحاكمهم ٠ وكانت صحة فريد محطمة فدخل مصحة ، وذهب الباقون الى جنيف ليعيدوا تنظيم دعايتهم للمطالبة بحرية مصر ، ويرسلوا البرقيات والمذكرات الى الرئيس ويلسون فى باريس والمؤتمر الاشتراكى فى برن ٠

ووجد فريد سببا جديدا للوم جاويش حينما التقى بالوطنيين فى يناير ١٩١٩ وعلم أن الشيخ انتحل لنفسه لقب وكيل الحزب ودعم مركزه بتكوين علاقات مع القنصل الأمريكي ببرن وزعيم حزب العمال البريطانى، كل ذلك دون معرفة فريد أو موافقته ٠ ويكتب فريد فى مذكراته بأسلوبه المتميز انه لام الشيخ وزمرته وقرعهم واضطرهم الى الاقرار بأنه مازال الرئيس الحقيقى (٢) ٠ وقد يكون هذا صحيحا ظاهريا ، لكن الواقع أن المبادرة كانت قد أفلتت من بين يديه ، وكان من الممكن ان تتحسن أوضاع الحزب فى أحرج لحظاته لو أن فريدا أسلم الزمام لزعيم أكثر حيوية ، حتى ولو كان الشيخ جاويش ٠

وجاء تحد آخر لزعامة فريد من جانب على الشمسى الذى كون « اللجنة المصرية » فى جنيف سنة ١٩١٨ ٠ وكان الشمسى قد انفصل عن فريد لأنه ربط الحزب بالجانب الألمانى فيما زعم ، ولكن الحقيقة أن الشمسى الذى بدأ نشاطا سياسيا واعدا فى الجمعية التشريعية سنة ١٩١٤ لم يكن يريد الخضوع لفريد داخل الحركة الوطنية ، وكان فى أوائل الحرب قد اشتغل عميلا مأجورا للمخابرات الألمانية ، لكنه ما لبث أن قام بردة شاملة خشية ان يقضى انتصار الحلفاء على مكانته فى مصر ٠ وقد أمضى فترة الحرب فى جنيف حيث أصدر سنة ١٩١٨ نشرة ألمح فيها

---

(١) مذكرات فريد : ص ١٩٦ ٠ وأخبرنى زوج شقيقة جاويش ان كلا منهم تسلم ٣٠٠٠ مارك (٧٥٠ دولار) ٠ وكان هذا المبلغ يمثل بالنسبة لغالبيتهم ، الدخل الوحيد الذى تلقوه خلال السنة التالية للحرب ٠

(٢) مذكرات فريد : ص ٢٩٧ وما بعدها ٠

الى الرغبة فى عقد اتفاق تبادل مصالح بين الوطنيين والبريطانيين (١) ٠

وما ان أصبح انتصار بريطانيا مؤكدا حتى أقنع الشمسى مواطنيه فى جنيف بتكوين اللجنة المصرية ، وكانت تؤيد الوطنيين ، ولكنها مستقلة عن فريد ، وتضم يحيى الدرديرى ، واســـماعيل لبيب ، ومحمد فهمى الذى حلت اللجنة محل تنظيمه المحتضر « اللجنة الدائمة لمؤتمر الشباب المصرى » ٠ والتمست اللجنة ، كالحزب الوطنى ، من ويلسون تطبيق مبدئه فى حق تقرير المصير على مصر ، ولكن الشمسى منع كل المصريين الذين قضوا سنوات الحرب فى ألمانيا من المشاركة العلنيــة فى نشــاط اللجنة (٢) ٠

غير أن فريدا لم يعتمد الاعتماد كله على تأييــد اللجنــة المتخاذل ، اذ منحته وزارة الخارجية الألمانية اعانة مالية لاعادة اصدار مجلة الحزب ، ولكنها توقفت مرة أخرى بعد صدور عددين (٣) ٠

---

(١) Ali al-Shamsi : « Egypt and the Right of Nations : An Egyptian Opinion» Geneva, Imprimerie Nationale, 1918.

(٢) مذكرات فريد : ص ٣٠٠ وما بعدها ٠

(٣) مذكرات فريد : ص ٣٠١

الثورة فى مصر

بينما كان المصريون فى الخارج يبددون قواهم فى مشاجرات مضنية كان مواطنوهم فى مصر يفتتحون فصلا هاما فى تاريخ الكفاح من أجل استقلال بلادهم . ولم يكن زعيمهم عضوا فى الحزب الوطنى ، بل كان ممن تعاونوا من قبل مع الاحتلال ، ووزيرا سابقا خصه كرومر بالثناء فى خطبة وداعه ، ومعارض لكل من مصطفى كامل والخديو ، وهو سعد زغلول الذى برز سنة ١٩١٩ زعيما لثورة ضد الحكم الأجنبى عمت الأمة كلها ، وهى أول ثورة مصرية منذ سنة ١٨٨٢ .

ومن مفارقات التاريخ المصرى الحديث أن زعماء الحركة الوطنية الجديدة لم يكن بينهم من ينتمى الى الحزب الوطنى الا قلة ضئيلة . فمنذ النفى الذى فرضه فريد على نفسه سنة ١٩١٢ ، انتقلت مراكز نشاط الحزب الرئيسية الى أوربا وتركيا . وفى مصر ضعفت قيادة الحزب نتيجة لانقسامها حول استقالة فريد من رئاسة الحزب . (*)

لقد فقد الحزب الاتجاه الفعال ، ومن ثم لم يفد الا قليلا من بعث الاهتمام السياسى أثناء انتخابات الجمعية التشريعية الجديدة سنة ١٩١٣ . واذا كان بعض أعضائه قد انتخبوا (١) ، فلم يكن بينهم أى من المسئولين عن ادارته أو المتحدثين البارزين باسمه ، بل كانوا جميعا من ملاك الأراضى بالاقاليم وليسوا من طبقة المهنيين الصاعدة . ولم ينتخب بقية أعضاء المجلس أيا منهم وكيلا للمجلس ، بل انتخبوا سعد زغلول

---

(١) انظر أسماءهم فى الفصل السابع ، ص ٢٥٤ ، هامش رقم (٢) .

(*) لقد نفيت بشدة فى موضع سابق أنه كانت هناك أزمة بسبب استقالة محمد فريد والخلاف حول قبولها أو رفضها ، والواقع ان « فريد » لم يستقل ، لكنه ابدى استعداده للاستقالة اذا اقتضى الحال .

الذى برز كزعيم للمعارضة ضد الحكومة بعد أن أتاحت له الجمعية منبرا يستخدم من خلاله مهارته الخطابية وخبرته الطويلة فى نقد الوزراء ، وبأسلوب غير مباشر الخديو وكتشنر • وهكذا أصبح سعد زغلول ، منذ سنة ١٩١٤ ، الحامل الجديد للواء الكفاح من أجل استقلال مصر •

ومما يثير الدهشة أن مصر لم تشهد أثناء الحرب العالمية الاولى الا قليلا من أعمال العدوان العلنى ضد البريطانيين بالرغم من اعلان الحماية وعزل الخديو عباس وفرض الاحكام العسكرية والرقابة الصارمة وفض الجمعية التشريعية • فقد كان الوطنيون مشلولين ومنقسمين • وأولئك الذين كانوا يستطيعون القيام بنشاط تخريبى حوصروا ولم يتح لهم تلقى أى عون أو قيادة فعالة من الوطنيين وأنصارهم فى الخارج (١) •

واعتزل سعد زغلول الحياة العامة ليتجنب ربط مستقبله السياسى بمصير أى من الجانبين المتحاربين • وكانت المحاولة الوحيدة لكسبه الى صفوف الحلفاء هى اقتراح السلطان فؤاد بعد توليه العرش سنة ١٩١٧ ادخال سعد وعبد العزيز فهمى الوزارة • ولكن وزارة الخارجية البريطانية اعترضت عليه رغم تزكية المندوب الســـامى البريطانى سير ريجنالد وينجت له • (٢) وطالما ظلت نتيجة الحرب موضع شك ، فقد احتمل معظم المصريين ذوى العقليات السياسية الحماية البريطانية وان اتخذوا وضع الاستعداد والتأهب • واعتقد كثيرون أن البريطانيين حصلوا على موافقة حسين رشدى رئيس الوزراء والسلطان المعين حسين كامل على الحماية مقابل وعد بمنح مصر الحكم الذاتى بعد انتهاء الحرب •

وقويت آمال المصريين حينما قبل الحلفاء مبادىء ويلسون الأربعة عشر أساسا لأهداف حربهم • وما ان بدا أن انتصار الحلفاء قد بات

---

(١) من أهم المحاولات التى بذلت لايجاد اتصال بين الوطنيين فى أوربا ومن بقى منهم فى مصر تلك المحاولة التى قام بها عبد الرحمن عزام ، وهو مصرى عمل ضابطا عثمانيا فى المعارك الليبية ، والبلقانية ، والأوربية ، وفى أبريل ١٩١٨ عبر البحر الأبيض المتوسط فى غواصة ألمانية وارسل خطابا الى فريد (عن طريق الأسطول الألمانى) يعـــلن فيـه وصوله بسلام الى طرابلس ويطلب آلة طباعة « رونيو » صغيرة لطبع منشورات ثورية تهرب الى مصر • وافاد عزام كذلك أنه قابل ضابطا مصريا آخر بالجيش العثمانى ، كان البريطانيون قد أسروه ثم فر من السجن ، واستطاع أن يصل الى طرابلس حاملا معـه شفرة من الوطنيين فى مصر لاستخدامها في الاتصالات السرية • ولكن كان الوقت متأخرا جدا لتنفيذ خطط عزام الذى أصبح فيما بعد نائبا ، وعضو مجلس شيوخ ، ووزيرا ، ثم أخيرا أول أمين للجامعة العربية (١٩٤٥ ـ ١٩٥٣) •

Ronald Wingate : " Wingate of the Sudan », London, John Murray, 1955.

وفيه يصحح ما جاء فى : Lloyd : I, p. 273

أكيدا حتى بدأ كثير من المصريين يفكرون فى ارســـال وفد الى مؤتمر السلام الذى سيعقب الحرب للدفاع عن قضية استقلال بلادهم • كانوا ـ كالوطنيين قبل الحرب ـ يعتبرون المســـألة المصرية حالة قانونية ، وليست سببا لثورة عنيفة • والحق أن أحدا لم يتوقع قيام ثورة فى مصر فى أعقاب الحرب •

وبعد اعلان الهـــدنة بيومين ذهب سعد زغلول مع اثنين من زملائه الســـابقين بالجمعيةالتشريعية لمقابلة وينجت بمقر المعتمد البريطانى ، وأعلنوا خلال محادثة مهذبة وودية رغبتهم فى مصاحبة وفد رسمى الى لندن لمناقشة مستقبل مصر مع الحكومة البريطانية ، بهدف الحصـــول على استقلال مصر التام ، فنصحهم وينجت بالتريث ، ولكنه وافق على الكتابة الى حكومته طالبا تعليماتها •

وكانت وزارة الخارجية البريطانية مشغولة فى الاســـتعداد لمؤتمر السلام ، فرفضت استقبال وفد سعد • وكان من الواضح أن الحكومة البريطانية قاطعته باعتباره مجرد مثير آخر للشغب ، تماما كما سبق أن رفض السير ادوارد جراى مقابلة مصطفى كامل أو محمد فريد ، ولم تفطن الى أن سعدا وزملاءه كانوا يعملون بالاتفاق مع السلطان فؤاد ووزرائه (١) ووضحت هذه الحقيقة حينما اقترح رئيس الوزراء حسين رشدى أن يسمح له بالذهاب الى لندن مع عدلى يكن وزير المعارف فى وزارته فى وفد رسمى للتفاوض مع وزارة الخارجية • ورفض هذا الاقتراح أيضا • وعلى الرغم من بلبلة وينجت بسياسة حكومته فقد استطاع اقناع وزارة رشدى بعدم الاستقالة •

فى تلك الاثناء أعلن سعد بتحريض رشدى فى الأغلب ، أنه سيرأس وفدا لعرض قضية استقلال مصر أمام مؤتمر السلام بباريس ، وبدأ حملة شملت الأمة كلها للفوز بتأييد شعبى لوفده باعتباره ممثلا لمصر • وكان الوفد مكونا من ستة من أعيان ملاك الأراضى : سعد ، وعبد العزيز فهمى ، وعلى الشريعى ، ومحمد علوبة ، ومحمد محمود ، وأحمد لطفى السيد • ومعظمهم ينتمون الى أصول مصرية لا تركية ، وكانوا مرتبطين قبل الحرب بحزب الأمة ، لا الوطنيين • وقد وزعوا نسخا من التماس يفوض موقعوه بموجبه الوفد بتمثيلهم فى السعى للحصول على استقلال مصر التام • وقد أصبحت الجملة الاخيرة التى فسرت بمعنى جلاء جميع القوات الأجنبية

---

(٤) Wingate : p. 229, Elie Kedourie : «Saad Zaglul and the British», Middle Eastern Affairs, no. 2 (London : Chatto and Windus, 1961), p. 142.

عن مصر والسودان ، شعار الحركة الوفدية التالية (١) • ونجحت حملة جمع التوقيعات على الالتماس خلال شتاء ١٩١٨/١٩١٩ فى اثارة الآمال فى أرجاء البلاد كلها فى أن الحرية الوطنية أصبحت قريبة المنال •

كان هدوء مصر فوق السطح يخفى بداخله آلاما عميقة • واذا كان من الممكن تجاوز سخط الطبقة المتوسطة فى المدينة الذى طال أمده ، وهو ما حدث فعلا ، فان هذا السخط قد بدأ يمتد الآن الى جموع الفلاحين الذين كانت بريطانيا تدعى دائما حرصها على مصالحهم • لقد زعمت بريطانيا سنة ١٩١٤ أنها لن تطلب مساعدة مصر فى العمليات الحربية • ولكن حينما احتدمت المعارك وبهظت نفقاتها وطال زمنها أكثر مما قدر الجميع لم يجد البريطانيون مفرا من اخلاف وعدهم • فبناء على أوامرهم كلفت الحكومة المصرية عمد القرى بجمع الفلاحين لكتائب الأعمال المعاونة ، ثم لكتائب النقل بالجمال • وهكذا قام أكثر من مائة ألف فلاح ، سجل الكثيرين منهم لسد نسبة الحكومة من « المتطوعين » ، بمساعدة بريطانيا فى الدفاع عن مصر ، ثم بعد ذلك فى الاستيلاء على فلسطين من أيدى الأتراك ، وطولب بعضهم بتقديم حميرهم وجمالهم • أما طلب التبرعات الاختيارية من القاهرة للصليب الاحمر (وهى جمعية كان من العسير على المسلمين استساغة اسمها) فقد ترجم الى جباية المال بالقوة ابتداء من مستوى القرية • وانتهز عمد القرى فرصة تكليفهم بتنفيذ هذه المهام البغيضة لتصفية أحقادهم القديمة مع القاء اللوم على البريطانيين • وقام بحمل كل هذه الأثقال الفقير والجاهل ، وكل من ليس لهم علاقة بالسلطة والعاجزون عن حماية أنفسهم من الظلم •

ولحماية مصر من نقص المواد الغذائية حاولت الحكومة الحد من زراعة القطن ، فأغضبت بذلك ملاك الأراضى ، الكبار والصغار على السواء ، الذين وجدوا زراعة القطن أعظم ربحا من انتاج الاغذية • وثبت عدم جدوى هذا الاجراء ، اذ ارتفعت أسعار الطعام رغم ذلك فأرهقت مرتبات الموظفين المدنيين وعمال المدن • وصدر قرار يحرم على أفراد الشعب حمل الأسلحة النارية لأسباب عسكرية فقوبل بسخط شعبى كبير • وكان آلاف الجنود البريطانيين والاستراليين والهنود المعسكرين فى مصر سببا فى احتكاكات

---

(١) يذهب المؤرخ عبد الرحمن الرافعى الى أن هذا التعبير أقحم على الالتماس بناء على طلب اربعة من أعضاء الحزب الوطنى • (« ثورة ١٩١٩ » ، جـ ١ ، ص ٧٧) ومن المحتمل أن الوطنيين قاموا بدور رئيسى فى المراحل الأولى من ثورة ١٩١٩ ، وان كان هذا غير ثابت •

لا مفر منها • وعلى هذا النحو حينما اقتربت الحرب من نهايتها كان كثير من المصريين ، حتى غير المهتمين بالسياسة من قبل ، يتمنون رؤيه البريطانيين يرحلون عن بلادهم •

وفي شتاء ١٩١٨/١٩١٩ أخذت درجة الاثارة تتصاعد باستمرار خلال طواف توكيلات الوفد • وأخيرا وافقت الحكومة البريطانية على السماح لرشدى وعدلى ـ وليس سعدا ـ بالذهاب الى لندن • وكانت وزارة رشدى تدرك بوضوح تام أن أى اتفاق لا يمكن أن يتم الآن دون سعد ، فاستقالت فى فبراير ، واستدعى وينجت للتشاور • وقتئذاك أرسل سعد خطابا الى السلطان يحذره فيه من عدم تشكيل وزارة جديدة ، وفى الوقت نفسه أرسل قائد القوات البريطانية انذارا الى الوفد يطلب فيه وقف نشاطه السياسى • فلما تجاهلوا الانذار قبض على سعد وثلاثة من زملائه ورحلهم الى جزيرة مالطة • فكانت تلك هى الشرارة التى اشعلت ثورة ١٩١٩ • بدأت باضراب الطلبة والموظفين فى القاهرة ، ثم امتدت بسرعة الى كل بقعة فى مصر • ولم تسفر جهود قوات الاحتلال لقمع الاضرابات والمظاهرات الا عن مزيد من العنف وسفك الدماء وخسائر كبيرة فى الأرواح فى كلا الجانبين •

وعلى أمل سحق الفتنة عين جورج لويد رئيس الوزراء الجنرال اللنبى مكان وينجت • ووصل المندوب السامى الجديد الى مصر فى ٢٥ مارس ، وسرعان ما أدرك أن على البريطانيين أن يقدموا بعض التنازلات لزعماء الثورة • فاصدر فى أوائل ابريل نداءين ، الاول يدعو « المصريين المسئولين الذين يحملون مصالح بلادهم فى قلوبهم » أن يقدموا اقتراحات بالخطوات الكفيلة باستتباب الأمن ، والآخر اعلان الافراج عن سعد ورفاقه فى المنفى • وابتهج المصريون ، وتوقفت أعمال العنف تدريجيا ، فى حين سافر أعضاء الوفد الى باريس على أمل عرض قضيتهم امام مؤتمر السلام •

وحين لخص فريد هذه الأحداث فى مذكراته علق عليها بقوله انه من المؤكد ان هذه الحركة الثورية كانت غير متوقعة ، وان ما أظهره المصريون من التضامن والاتفاق ما كان أحد ليحلم به ، كما سجل اشتراك النساء فى المظاهرات ومظاهر اتحاد الاقباط والمسلمين وكل طبقات الأمة وكتب فريد عن رواية طالب مصرى عائد الى جنيف بعد أن شهد احداث الثورة بنفسه انها « أحيت الأمل فى قلوبنا ، وأوجدت عندنا الاعتقاد

اليقين بأن هذه الأمة العريقة فى القدم لن تموت أبدا ، وأنها لا بد حاصلة على استقلالها يوما ما • » (١)

ومن ناحية أخرى فقد كان من الطبيعي ، من الناحية الانسانيه فحسب ، أن يرفض فريد حركة يقوم فيها زعماء آخرون بحصد ثمار البذور التى زرعها هو ومصطفى كامل ، فهاجم تصريحات الوفديين بأن الشعب المصرى عاون الحلفاء على هزيمة تركيا بمحض ارادته • ولاحظ أن معظم زعماء الحركة جاءوا من حزب الأمة (*) وخشى أن يساوموا البريطانيين اذا ما مال الأخيرون للمصالحة • فالحزب الوطنى الذى التزم من زمن طويل بالكفاح من أجل استقلال مصر التام ، هو وحده الذى لا يمكن أن يتزحزح ولكنه رأى مع ذلك أن أعضاءه يجب أن يؤيدوا الوفد والثورة ويتجنبوا أى مظهر للانقسام • (٢)

ان دور الحزب الوطنى فى مصر مازال غامضا • فقد رحب كثير من أعضائه بالثورة ، ولكنهم لم يثقوا بزعماء الوفد الذين لم يكن من بينهم من انتمى من قبل الى الحزب الوطنى سوى محمد على علوبة وعبد اللطيف المكباتى ، ولم يكن أى منهما من قياداته العليا • ومن بين الوطنيين الذين أيدوا الوفد أمين وعبد الرحمن الرافعي ، وقد سجل الأخير نشاطهما خلال تلك الفترة بالتفصيل فى مؤلفاته التاريخية ومذكراته ، وأسهم أمين بمذكرة ضافية عن تاريخ المسألة المصرية (٣) ، ثم أصبح سكرتيرا مساعدا للجنة الوفد المركزية عند تكوينها فى ابريل ١٩١٩ ، بدعوى جمع تبرعات لتمويل نشاط الوفد فى باريس (٤) • وعين وطنيون آخرون فى اللجنة من بينهم : مرقص حنا ، ومحجوب ثابت ، وعلى المنزلاوى ، ولم يكن لأى منهم نشاط ملحوظ فى الحزب منذ مدة طويلة •

وقد رفض وطنيون آخرون تأييد الوفد ، وكونوا بتحريض الأمير عمر طوسون ، وفدا منافسا هو « الوفد الوطنى » برئاسة رئيس الوزراء

---

(١) مذكرات فريد : ص ٣٠٣ وما بعدها وقد استشهد بها عبد الرحمن الرافعى : « محمد فريد •• » ، ص ص ٣٦٣ ـ ٣٦٥

(٢) مذكرات فريد ص ٣٠٤

(٣) الرافعى : « ثورة ١٩١٩ » ، ج ١ ، ص ص ٨٠ ـ ٩٤ ، حيث نشر النص الكامل للمذكرة • وقد نشرت المذكرة فى ٢٠ نوفمبر ١٩١٨ مما يوحى بأن « أمين » اشتغل باعدادها أثناء الحرب •

(٤) « The Egyptian Gazette »; 17 April 1919

(*) هذا ما لاحظه سعد زغلول نفسه ، حينما اختلف مع زملائه فى الوفد ابان وجودهم فى باريس وقد عبر عن رأيه هذا لسكرتيره الخاص محمد كامل سليم الذى سجل هذا الرأى فى كتابه الذى نشرته دار « الأخبار » مؤخرا •

السابق محمد سعيد (١) • وكان معظم أعضاء « الوفد الوطني » من أعضاء اللجنة الادارية للحزب بالقاهرة : أحمد لطفي ، و د • اسماعيل صدقي ، وحافظ رمضان ، وعبد اللطيف الصوفاني ، وأحمد وجدي ، ومصطفى الشوربجي ، وأحمد وفيق (٢) •

ويبدو أن البريطانيين قد رحبوا بانقسام معارضيهم ، فقد سمحوا « للوفد الوطني » بمغادرة مصر ، غير أن الوطنيين قبيل الموعد المحدد لرحيل وفدهم استشعروا المتاعب التي يمكن أن يسببها ، فحلوه ، وسعوا الى التفاهم مع الوفد • ووافق سعد على ضم بعض ممثلي الوطنيين الى وفده• فاختارت اللجنة الادارية للحزب أحمد لطفي ومصطفى الشوربجي • ولما كان الشوربجي مشهورا بعدائه للوفد ، فقد رفض سعد هذين العضوين المختارين ، واختار بدلا منهما مصطفى النحاس ، وهو قاض لم يكن له نشاط ملحوظ بالحزب (رغم أنه سيخلف سعدا فيما بعد في زعامة الوفد) و د • حافظ عفيفي الذي كان عضوا بالحزب قبل الحرب • (٣) وانضم أيضا الى الوفد وقتذاك وطنيان قديمان هما محمود أبو النصر وويصا واصف •

هذه الاضافات الى الوفد قوت مظهر الوحدة الوطنية ، غير أن جميع هؤلاء الرجال لم يكونوا من الوطنيين البارزين ، ولذلك مضى الحزب يتصرف ككيان متميز عن الوفد ، لدرجة أنه قدم مذكرة منفصلة الى مؤتمر السلام بباريس • (٤) وحتى حينما لم تكن هناك خلافات جوهرية بين الفريقين ، فقد فرضت العوامل الشخصية طريقين مختلفين للوفد والحزب الوطني• فكان ذلك الانقسام المسئول عنه كلا الجانبين نذير شؤم على مستقبل الوطنية المصرية ومحاولة البلاد التالية في مجال الديمقراطية البرلمانية •

---

(١) Landau, p. 152. • وكان محمد سعيد وسعد زغلول على علاقة سيئة منذ كانا وزيرين معا •

(٢) مذكرات فريد : ص ٣٠٥ وما بعدها • ويذكر فريد عضوين آخرين ليسا من زعماء الحزب •

(٣) محمود أبو الفتح : « المسألة المصرية والوفد » ، القاهرة ، د•ت• ، ص ٤٨
Amin Youssef : «Independent Egypt», London, John Murray, 1940.
عبد الرحمن الرافعي : ثورة ١٩١٩ » ، ج ١ ، ص ٢٣٥ ، وقد أكد الشوربجي معارضته للوفد في لقاء معي بحضور لويس كالنتوري بالقاهرة سنة ١٩٦٤ • ومن الصعب ادراك كيف توقع الوطنيون رأب الصدع بينهم وبين الوفد باختيار الشوربجي ممثلا لهم •

(٤) للمذكرة ترجمة عربية في «ثورة ١٩١٩» ، ج١ ، صص ١٢٦ - ١٢٨ ولم يذكر الرافعي من الذي كتب المذكرة : الوطنيون في مصر أم الوطنيون في سويسرا •

حاول فريد وأنصـــاره فى أوربا تقديم معـــاونتهم ، أو على الأقل تشجيعهم للوفد فى باريس ، ولكن برقياتهم ورسائلهم ذهبت بلا رد . وأكثر من ذلك رفض سعد اقراض المصريين فى أوربا الذين منعت عائلاتهم من امدادهم بالمال . فقد اعتبر زعماء الوفد الحزب الوطنى عامل انقسام يمكن لاعداء البلاد استغلاله . وحينما دعا عبد الرحمن فهمى السكرتير العام للجنة المركزية فى القاهرة الى ضم فريد الى الوفد (لأسباب تكتيكيه بلا ريب) رفض سعد على هذا الأساس :

« .. فأما ضم حضرة محمد بك فريد الى الوفد فقد رأى الوفد عدم التعرض له لما فيه من الخطر الكبير على القضية المصرية التى تحتاج على الدوام لعطف الذين اشتهر فريد لديهم عموما ـ ولدى الفرنســيين منهم خصوصا ـ بممالأة أعدائهم والتداخل مع الخديو وبولو ممن ساءت سمعتهم كثيرا فى أوربا . ولا يخفاكم أن الانكليز كانوا يتهمون المصريين بأن حركتهم غير ذاتية وأنها حاصلة بدسائس من الترك والألمان . فضم مثل محمد فريد الى الوفد من شأنه أن يؤيد مطاعن الخصوم ويشوه جمال قضيتنا .. » (١)

وهكذا كانت مواقف زعماء الوطنيين أثناء الحرب العـــالمية الاولى سببا فى حرمانهم من المشاركة العامة فى الكفاح من أجـــل الاستقلال بعدها .

ولم يسمح فى النهاية بادراج المسألة المصرية فى مؤتمر الســـلام بباريس ، ففى يوم وصول الوفد الى باريس أعلن الرئيس ويلسون ، الذى علق عليه المصريون آمالهم ، اعتراف الولايات المتحـــدة بالحماية البريطانية فكانت اساءة ما زالت مصر تذكرها الى اليوم (٢) .

---

(١) من سعد زغلول الى عبد الرحمن فهمى : باريس فى ٧ نوفمبر ١٩١٧ ، أوردها محمد أنيس : « دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ » ، جـ ١ القـــاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٣ ، ص ٢٣٨ .

(٢) أنظر على سبيل المثال رسالة عبد الناصر الى الرئيس كنيدى ، القاهرة حوالى ١٩٦١ ، وقد نشرت فى « الأهرام » فى ٢١ سبتمبر ١٩٦٢ ، وترجمت فى
"Middle Eastern Affairs », XIII (1962), p, 273 f.

وعن تصرف ويلسون انظر : الرافعى : « ثورة ١٩١٩ » جـ ١ ، ص ص ٢٣ ـ ٢٥
United States, Department of State : « Papers Relating — to the Foreign Relations of the United States, 1919 », Washington, Government Office, 1934, pp. 202-204.

وفى أوائل مايو صوت المؤتمر على تضمين اتفاقية السلام النهائية اعترافا عاما بالحماية • وبتوقيع ألمانيا على معاهدة فرساى فى ٢٨ يونيو سنة ١٩١٩ فقد المصريون كل أمل فى أن ينال استقلالهم أى تأييد أوربى رسمى •

ومع تراخى الرقابة على البريد والمطبوعات فى يوليو برز الوطنيون فى مصر الى العلن • فبدأت اللجنة الادارية تجتمع بصفة دورية ، ودعت الى مؤتمر عام لأعضاء الحزب فى مناسـبة مرور ٣٧ سنة على الاحتلال البريطانى • (١) وللاعلام عن نشاط الحزب استولى الوطنيون على جريدة « الافكار » ، وقاموا باعانة جريدة الاسكندرية اليومية « وادى النيل » التى أرسـلت محمود أبو الفتح (سيحقق فيمـا بعد شـهرة كبيرة حين يؤسس « المصرى » أكثر صحف مصر شعبية قبل ثورة ١٩٥٢) لتغطية أخبار الوفد فى باريس ، فاتصل بفريد وأرسل مقالا ، أعاد نشره فيما بعد فى كتابه عن الوفد ، يصف فيه نشاط الوطنيين أثنـاء الحرب ، وكان مجهولا فى مصر حتى ذلك الحين بسبب الرقابة البريطانية (٢) •

وحاول الوطنيون كذلك الوصول الى الرأى العام عن طريق حركة العمال الوليدة ، فساعد أحمد لطفى ، أحـد وكيلى الحزب على تنظيم نقابات العمال لتوجيههم الى القيام باضرابات ومظاهرات معادية لبريطانيا • ومن أولى ثمرات عمله اضراب عمال شركة ترام القاهرة والمطرية البلجيكية فى أغسطس ١٩١٩ • (٣) ومن الخطأ نسبة كل الاضطرابات التى تلت الحرب فى مصر الى الوفد فى الوقت الذى كان الحزب الوطنى لا يزال قوة ثورية لها كيانها •

---

(١) الرافعى : « ثورة ١٩١٩ » ، جـ ٢ ص ٥١ وما بعدها •

(٢) مذكرات فريد ص ٣٠٩ ، « مع الوفد المصرى » ، ص ص ٩٧ ـ ١١٧

(٣) مذكرات فريد : ص ٣١٦ ، وكان أحمد لطفى أيضا أحد المحامين الذين ترافعوا عن المضربين من عمال شركة الترام سـنة ١٩١١ • والمؤرخون الغربيون قلما التفتوا الى العلاقة الهامة بين البورجوازية الوطنية والحركة العمالية فى مصر • ورغم ذلك فسأجازف بافتراض أن المحرك الرئيسى لأول تنظيم عمالى فى السكة الحديد والترام لم يجىء من الوطنيين ، بل من العمال الايطاليين واليونانيين المتقدمين سياسيا •

الوطنيون المغتربون ووفاة فريد

استمر الوطنيون فى سويسرا يبددون معظم وقتهم وطاقتهم فى منازعات داخلية ، فاستقرت مجموعة جاويش فى برن لتكون قريبة من فؤاد سليم السفير العثمانى ٠ وغضب فريد لعدم اهتمامهم بتدهور صحته ووبخ الشيخ جاويش لعدم كتابته اليه ، وأخذ يضخم فكرة عدم ولاء الشيخ للقضية الوطنية ٠ وقرر عبد الحميد سعيد ، أحد أعضاء لجنة الحزب الادارية أن « جاويش » حاول اخطار الوفد أن الوطنيين مستعدون لقبول وضع الدومنيون (أو الحكم الذاتى) لمصر داخل الامبراطورية البريطانية ٠ (١) ولكن سعيدا وحمزة أثارا أيضا غضب فريد بتكوين علاقة مع ضابط بريطانى حاول اقناعهما (ولم ينجح) بابلاغ الوفد عن استعداد الوطنيين للتعهد بالمحافظة على مصالح بريطانيا فى مصر مقابل استقلال بلادهم ٠ (٢) فقد كان فريد لا يقبل المساومة فى المبدأ ، حتى وهو مهزوم ٠

كان زعيم الحزب الوطنى يقترب من الاحتضار ٠ فخلال السنه التالية للهدنة استنفد كل مدخراته ، ورهن أوراقه المالية ، واستدان كثيرا من أسرته وأصدقائه (٣) بحثا عن الشفاء من مرض الاستسقاء ٠ ونصحه طبيبه بالاتفاق مع بريطانيا ليعود الى مصر ، لان صحته قد لا تحتمل

---

(١) مذكرات فريد : ص ٣١٣ وما بعدها ٠

(٢) مذكرات فريد : ص ٣١٤ وما بعدها ٠ وكان هذا بالضبط ما منح للمصريين سنة ١٩٢٢ ٠

(٣) من محمد فريد الى اسماعيل لبيب ، باسوج فى ١٨ يونيو ١٩١٩ ، وتريتت فى ١٤ سبتمبر ١٩١٩ من محمد فريد الى أحمد فريد ، سامادن فى ٢٥ يونيو ١٩١٩ ، وتريتت فى ٢١ سبتمبر ١٩١٩ ٠

وفضلا عن ذلك فقد كان فريد خطيبا رديئا ، وهو نقص خطير بالنسبة لزعيم وطني مصري ، كما أنه لم يكن كاتبا بارعا للنثر العربي · وكان كلا من مصطفى كامل والشيخ جاويش أقدر منه في الخطابة والكتابة ، والمصريون ـ كغالبية · شعوب البحر الأبيض ـ يسرفون في تقدير المواهب البلاغية · الا أن أكثر سمات شخصيته ازعاجا كان توهمه الواضح والمستمر في مذكراته أن جميع الزعماء الوطنيين الآخرين يتآمرون ضده ، وهو وهم قريب من جنون العظمة ، مما كان له تأثير قوي على الكثير من أحكامه ، وشتت طاقاته في تدبير الدسائس المضادة والاتهامات القاسية بدلا من توجيهها للعمل على تماسك الحزب ·

أما من الناحية الايجابية ، فقد حمل فريد مسئولية بالغة المشقة حينما تولى زعامة الحزب الوطني بعد وفاة مؤسسه المحبوب بصورة مفاجئة ، فكان عليه أن يحول مشاعر أمة من التعلق بشخص الى الولاء لحزبه وما يناضل من أجله · وكما فعل أبو بكر ، أول الخلفاء ، نهض فريد بمسئوليته بتفان تام لمبادىء سلفه ، ولذلك فالشعب المصري محق في تمجيد ذكراه · فقد فاز رجال كثيرون في بلدان عديدة بالثروة والجاه عن طريق استغلالهم لوطنية أبنـاء شعبهم ، ولكن فريدا ضحى بثروته ومكانته وصحته ، وأخيرا حياته في سبيل مثله · ولعل من حسن حظ مصر في مرحلة نمو احساسها بكيانها أن قدم أحد أبنائها هذا المثل الرائع للتضحية الوطنية لتهذيب الأجيال التالية التي ستحتاجه بشدة ، فأكبر مشكلات الشرق الأوسط ليست زيادة الاحساس بالوطنية ، بل قلة المثل العليا الوطنية ·

خاتمة

استمر تدهور الحزب الوطنى بعد ثورة ١٩١٩ ، فالوفد وهو أفضل تنظيما على المستويين القومى والداخلى ، وأغنى تمويلا بكثير ، وعلى رأسه زعيم محبوب شغل مكانة الحزب الاقدم باعتباره الحامل الرئيسى للواء الكفاح القومى ، واجتذب جمهوره السابق ، وقاد شباب الطبقة المتوسطة فى القاهرة والاسكندرية ٠

وظل زعماء الحزب الوطنى رغم تضاؤل مؤيديهم ، مخلصين لتنظيمهم الضامر الذى سرعان ما تحول الى حزب المتقدمين فى السن ٠ ولم يكتف الوفد باغتصاب مكانة الحزب الوطنى فى قلوب أبناء الطبقة الوسطى بالمدينة ، بل عمل بنجاح ملحوظ فى اكتساب تأييد الفلاحين الذين شاركوا فى اضطرابات سنة ١٩١٩ ، وفى الانتخابات النيابية سنة ١٩٢٤ وما تلاها ٠ فكما ظل الحزب الوطنى يوسع قاعدته من التأييد الشعبى حتى فاق فى قمة نجاحه ما سبق أن حققه العرابيون ، كذلك مثل الوفد خطوة أخرى نحو مزيد من مشاركة الجماهير فى سياسة مصر ٠ ويرجو الاتحاد الاشتراكى العربى أن يمضى خطوات أبعد فى نفس الاتجاه ٠

لقد حول الوفد حركة ثورية الى حزب شبه ديمقراطى برلمانى ٠ وباستطاعته أن يشير الى نجاحه كحركة قومية فى دفع بريطانيا الى الاعتراف باستقلال مصر (ولو جزئيا) سنة ١٩٢٢ ، ثم توقيع معاهدة التحالف الانجليزية المصرية سنة ١٩٣٦ ٠ غير أن الاستقلال التام عن بريطانيا لم يتحقق الا سنة ١٩٥٦ مع الجلاء عن منطقة قناة السويس ٠

ومن ناحية أخرى فقد حافظ الحزب الوطنى على شخصيته باتخاده موقف العداء المتطرف لبريطانيا فى سلم السياسة المصرية ، فعارض كل مفاوضة مع بريطانيا قبل الانسحاب التام لقواتها من مصر والسودان ، وبذلك أصبح الحزب الوحيد الذى رفض معاهدة ١٩٣٦ ، واقترح اجبار

بريطانيا على الجلاء بمظاهرات الشوارع والاثارة بالخطب والصحافة ، وتكنيك المقاطعة الذى طوره مصطفى كامل ثم أتقنه الوفد ٠

واذا بدا أن مثل هذا العناد لا ينجح فى التغلب على التفوق الهائل لقوة بريطانيا وبصفة خاصة فى مثل موقع مصر الاستراتيجى ، فقد كان فى موقف الحزب الوطنى مع ذلك قوة منطقية ما زالت تستهوى بعض الشباب المصرى ، كما أثبتت تجـــربة مصر خـــلال الحرب العـــالمية الثـــانية ٠

وقد ظل المندوب السامى طالما ظلت قوات بلاده المسلحة فى مصر قادرا على فرض ارادته على سياسة الحكومة المصرية ٠ وأفضل مثـــل على ذلك الانذار الذى وجهه السير مايلز لامبسون الى السراى سنة ١٩٤٢ فاضطر الملك «فاروق» الى تعيين وزارة مســتعدة لتنفيذ شروط معاهدة سنة ١٩٣٦ ٠ وذهب الوطنيون الى أن بريطانيا لن تمنح مصر تنـــازلات ذات قيمة طالما ظلت قواتها العسكرية تحتل مصر مما يجعل لها دائما اليد العليا فى كل مفاوضة ٠ وباعتبارهم حزبا من المحامين أســاسا فلم يتخلوا أبدا عن منطقهم القديم فى المحاجة بأن الاحتلال البريطانى يتعارض مع القانون الدولى ، وأخذوا يحثون بريطانيا على تنفيذ وعودها العديدة بالجلاء ٠

وظل الوطنيون عدة سنوات دون رئيس، ثم عقدوا سنة ١٩٢٣ جمعية عمومية انتخبت حافظ رمضان المعتدل خلفا لفريد ٠ ورمضان ينتمى لأسرة قاهرية ثرية ذات نفوذ ، درس القانون بفرنسا ٠ وهو خطيب مفوه ، ولكنه كان أكثر دماثة وطموحا من أن يصلح لزعامة حزب معـــارض ، فاكتفى بالجلوس فى مجلس النواب ثم فى مجلس الشيوخ ، وصدم أنصاره عدة مرات بالاشتراك فى وزارات معادية للوفد ٠

وأدى قبوله لمنصب وزارى سنة ١٩٤٠ رغم معارضة اللجنة الادارية للحزب الى انقسامها الى فريقين ، ظل كل منهما يجتمع على حدة طوال سنوات الحرب والتأم الصدع سنة ١٩٤٦ بالاتفاق على أنه لا يجوز لأى وطنى الاشـــتراك فى أى وزارة ما لم تقر اللجنـــة الادارية أن مبادئهـــا تتفق مع مبادىء الحزب ٠ (١)

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : « فى أعقاب الثورة المصرية » ، الطبعة الأولى القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥١ ، جـ ٣ ، ص ص ٨٧ وما بعدها ، ٢١٤ وما بعدها ٠

ولتفسير آخر لما حدث انظر :

Moshe Zetzer : « Aspects of Near East Society », New York, Bookman Associates, 1962, p. 94 f.

=

وهكذا رممت واجهة وحدة الحزب بضم كل الأعضاء الذين أضافهم
كل من الفريقين المنشقين خلال ست سنوات من الوجود المنفصل الى
للجنة الادارية بعد توحيدها • ولا ندهش بعد ذلك حينما لا يقوم اجماع
اضح بين أعضاء اللجنة حول دورهم فى السـياسة البرلمانية فيحدث
نقسام جديد سنة ١٩٥٠ • (١)

وبعد الحرب العالمية الثانية ازدادت مشاركة الوطنيين فى أعمال
لاثارة والعنف ضد البريطانيين بهدف الغاء معاهدة ١٩٣٦ • وفى سنه
١٩٤١ اشترك الحزب مع الاخوان المسلمين و ١٣ جماعة متطرفة أخرى
ى جبهة لتنظيم المقاومة الوطنية للبريطانيين ومقاطعتهم ومنع أى مصرى
ن التفاوض معهم (٢) • وخلال تلك السنوات كان للشاب القدير فتحى
ضوان المحامى الكاتب تأثير فتى هام على الحزب ، فقد جذب اليه عددا من
لبة الجامعة المصرية الذين لم يستطيعوا قبول انتهازية الوفد الهابطه
لا التعصب الدينى (أو بمعنى أدق تملق الطبقة الدنيا) الذى عرف به
لاخوان المسلمون • وهذه الفصائل بعد أن تشـبعت بالمثل التاريخية
مصطفى كامل ومحمد فريد ، خيب آمالها استعداد أعضاء الحزب القدامى
للاشتراك فى الوزارات أيا كانت مبادئها المزعومة طالما ظلت فوق أرض
صر قوات بريطانية ، وأحسوا بالعار حينما اشترك اثنان من تلاميذ فريد
هما محمد زكى على وعبد الرحمن الرافعى فى وزارة ائتلافية سنة ١٩٤٩
لعل فتحى رضوان كان رأس الحربة فى انقسام سنة ١٩٥٠ ، ولكن الذى
لا شك فيه أن مجموعته قد احتشدت لتأييد الضباط الأحرار بعد ثورة
١٩٥٢ ، وأصبح رضوان بعد ذلك أول وزير للارشاد القومى فى مصر (٣)
ضمت الوزارات التالية وطنيا واحدا على الأقل بين أعضائها المدنيين •

ومما يسـتلفت النظر قلة عدد تلاميذ مصطفى كامل وفريد الذين
سهموا بأى دور هام فى سياسة مصر بعد سنة ١٩١٩ • فعند وفاة فريد

= وعن حافظ رمضان (١٨٧٩ ـ ١٩٥٥) انظر كتابه :
Choix de discours et d'entretiens politiques sur la question egyptienne », Cairo, Imprimerie Parladi. ca. 1923, pp. 3-9,
الزركلى : « الاعلام » ، جـ ٦ ص ٣٠٥ وما بعدها •

(١) الرافعى : « فى أعقاب الثورة المصرية » : جـ ٣ ، ص ٢١٥ •
J. Heyworth-Dunne : «Religious and Political Trends in Modern Egypt» Washington, D.C., privately printed, 1950, p. 46.

(٣) « الارشاد القومى » هو الاصطلاح المصرى « للاعلام » • ومن الوطنيين الآخرين الذين عينوا وزراء عدة مرات بعد سنة ١٩٥٢ الدكتور نور الدين طراف •

كان الوطنيون منقسمين فى أوربا بين فريق جاويش فى برن المحيط أساسا بالسفير العثمانى فؤاد سليم وبين اللجنة المصرية فى جنيف • وسرعان ما بدد الشيخ جاويش مدخراته واضطر الى الاشتغال فى عمليات الاستيراد وان حرص فى الوقت نفسه على اكتساب الولاء السياسى لفريق الطلاب المشتق فى ألمانيا ، وكان عددهم آخذا فى التزايد • وفى سنة ١٩٢٢ دعاه مصطفى كمال أتاتورك الى أنقرة ليرأس لجنته الثقافية ، ولكنهما سرعان ما اختلفا حول انهاء الخلافة وهو ما عارضه جاويش • فأعاده بعض أقربائه وأصدقائه سرا الى القاهرة فى ديسمبر ١٩٢٢ حيث أعلن عودته بأسلوب درامى فى المقال الاول من سلسلة نشرتها له جريدة « الأفكار » •

وبعد أن رشح نفسه لانتخابات سنة ١٩٢٤ على مبادىء الحزب الوطنى وســقط ، قبل وظيفة بادارة التعليم ، وظل بها حتى وفاته سنة ١٩٢٩ • وقد كرم فى سنيه الأخيرة باختياره وكيلا لجمعية الشــبان المسلمين ، وكانت بمثابة التمهيد للاخوان المسلمين (١) •

وأعيد ثلاثة من أتباع جاويش الى مصر سنة ١٩٢٠ على نفقة الحزب الوطنى ، وهم عبد الملك حمزة ، واسماعيل كامل ، وعوض البحراوى ، وقد هجر ثلاثتهم الحزب بعـد ذلك حين فشلوا فى اقناعه بالتعــاون مع الوفد • وقد انتخب حمزة عضوا فى مجلس النواب عن بورسعيد فى فترات متقطعة باعتباره مستقلا ، وأصبح اسماعيل كامل موظفا بوزارة الخارجية ، وأصبح أخيرا أول سفير لمصر بالهند • (٢) وانتخب الدكتور عبد الحميد سعيد وهو الآخر من أنصار جاويش عضوا بمجلس النواب عدة مرات ، كما أصبح أول رئيس لجمعية الشبان المسلمين (٣) •

أما بقية أعضاء اللجنة المصرية ، فقد ظل محمد فهمى بجنيف حتى قبيل وفاته سنة ١٩٦٣ ، وانضم على الشمسى الى الوفد فى باريس ، واستأنف فيما بعد نشاطه السياسى فى مصر عضوا بمجلس النواب ، ثم وزيرا للمعارف ، ثم رئيســا لمجلس ادارة البنك الاهلى المصرى • ورأس يحيى الدرديرى مؤتمرا للطلبة المصريين فى برلين سنة ١٩٢٣ ، وعند عودته الى القاهرة تولى رئاســة تحرير مجلة الشبان المسلمين • (٤)

---

(١) أنور الجندى : « عبد العزيز جاويش » ، ص ص ١٣٠ ــ ١٥٣ •

(٢) حصلت على المعلومات الخاصة بعبد الملك حمزة خلال لقاءاتى الشخصية معه سنة ١٩٦٤ •

(٣) Hayworth-Dunne : p, 11 f.

(٤) Ibid : p. 12. ، الزركلى : جـ ٩ ، ص ١٦٤ •

ورأس اسماعيل لبيب جمعية لم تعمر طويلا اسمها « اتحاد النيل المصرى الحر » • ثم عاد الى القاهرة حيث نشر عددا من المقالات الهجومية على جاويش ، ثم اعتزل السياسة • وبقى شقيقه د • منصور رفعت عدة سنوات فى برلين حيث كون فريقا بمفرده بعد اختلافه مع فريد سنة ١٩١٧ بسبب صلحه مع جاويش • وبدأ توازن رفعت العقلى يختل ، ونشر مقالات عديدة هجوما على سعد زغلول وأنصـــاره • وتوفى ســنة ١٩٢٥ والمرجح أنه انتحر (١) •

ومن بين الوطنيين الذين قضوا سنوات الحرب فى مصر اثنان كان لهما أبرز دور فى سياسة الحزب بعد الحرب ، وهما حافظ رمضان ومحمد زكى على اللذان سبقت الاشارة اليهما • وحقق الشقيقان الرافعى شهرة جديدة بانشائهما جريدة « الأخبار » التى قدمت للوفد تأييدا كبيرا سنة ١٩٢٠ • (٢) وتوفى أمين الرافعى سنة ١٩٢٧ ، فى حين واصل شقيقه الاصغر عمله الناجح محاميا ، ونائبا وطنيـا ، وعضوا بمجلس الشيوخ ، ووزيرا وكاتبا ومؤرخا ، وأصبحت كتبه المفصلة مصادر أساسية لكل الدراسات التى تلته • أما على فهمى كامل ، الوكيل الاول للحزب ، فقد رشح نفسه أمام سعد زغلول فى انتخابات سنة ١٩٢٤ ولم ينجح ، وأصدر عدة صحف ، ثم توفى فجأة بعد أن ألقى خطبة فى ذكرى فريد ســـنة ١٩٢٦ • (٣) أما الوكيل الثانى أحمد لطفى فقد أصبح نقيبا للمحامين المصريين ، وتوفى بعد قليل من هزيمته فى انتخابات سنة ١٩٢٦ •

وانتخب عبد اللطيف الصـــوفانى باعتباره وطنيا فى برلمان سنة ١٩٢٤ ، ولكنه فشل فى اعادة الانتخابات سنة ١٩٢٥ ، وتوفى فى السنة

---

(١) انظر :

Dr. M.M. Rifat : « Die Patriotismus bei dem agyptern », Berlin, Oriental Club, 1923.

وهو حافل بالمعلومات عن الوطنيين فى أوربا ، وكذلك كتابه :

Enthullungen uber die inneren verhaltirisse Agyptiens», Berlin, 1923. Landau : p. 152

ويحوى مراسلات متبادلة بينه وبين الأمير عزيز حسن الذى كان يؤيد الوفد • ومن بين الوطنيين الذين هاجمهم رفعت لأنهم أصبحوا وفديين : محمد فهمى ، وأمين الرافعى ، وعلى الشمسى ، فى حين وجه لومه الى فهمى كامل والشيخ جاويش لأنهما رشحا نفسيهما فى الانتخابات فى ظل دستور سعد زغلول « الزائف » •

(٢) لمزيد من التفصيلات انظر : عبد اللطيف حمزة « أدب المقالة الصحفية فى مصر » ، جـ ٧ : أمين الرافعى (القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٥٩) •

(٣) الرافعى : « فى أعقاب ... » ، جـ ١ ، ص ٢٦٨ وما بعدها •

نفسها . (١) ودخل مصطفى الشوربجى عدة برلمانات ، وأصبح سنة ١٩٣٩ وزيرا للعدل مستقلا .

ومن الصعب أن نعتبر هذا تاريخا مشرفا للحزب الوطنى الذى التف حوله قبل سنة ١٩١٤ عدد من الشباب المصرى المثقف أكبر بكثير ممن التفوا حول حزب الأمة . ومع ذلك فقائمة مشاهير مؤيدى حزب الأمة فيما بين ١٩٠٧ و ١٩١٤ تكاد تكون دليلا للسياسة المصرية عقب سنه ١٩١٩ : سعد زغلول ، عبد العزيز فهمى ، عبد الخالق ثروت ، أحمد لطفى السيد ، محمد محمود ، محمد حسين هيكل ، وطلعت حرب ، وكثيرين غيرهم . وربما كان أعضاء حزب الأمة يكونون نخبة فكرية كما ذهب بعض كتاب الغرب (٢) ، ولكن من الحق أيضا أنهم كانوا أقدر من الوطنيين على التأقلم ، ولم يحرجوا أنفسهم بالارتباط بالجانب الخاسر فى الحرب .

أما أولئك الذين كانوا تلاميذ مصطفى كامل ومحمد فريد ، وبصفة خاصة من قضوا تتلمذهم مهيجين سياسيين تحت اشرافهما فلم يستطيعوا أن ينسوا روابطهم الشخصية بهذين البطلين الراحلين ، وظلوا متعلقين بذكريات ماضى الحزب وما كان يبشر به ، مصرين على سياسته فى معارضة البريطانيين دون مساومة . ولا يستطيعون أن يقفزوا من عربة الحزب الوطنى . واذا كان جمودهم قد عوقهم بالقياس الى انتهازية الوفد فان اعتبارهم السياسى كان يرد بين الحين والآخر بعد ثورة ١٩٥٢ (بعد وفاتهم فى معظم الأحوال) وما تلاها من جلاء القوات البريطانية عن أرض مصر .

---

(١) الرافعى : « مذكراتى » ، ص ٦٠ . يرد وفاتهما الى الفشل فى الانتخابات وقد تدخلت السراى فى انتخابات سنة ١٩٢٥ و ١٩٢٦ لدعم مؤيديها .

(٢) وبصفة خاصة جمال م. أحمد ، وألبرت حورانى ، وناداف صفران .

الفصل العاشر
نتائج الدراسة

كان الحزب الوطني المصرى بقيادة مصطفى كامل ومحمد فريد أكبر جماعة قاومت الاحتلال البريطاني لمصر من سـنة ١٨٩٥ الى ١٩١٩ · وكانت حركته مطابقة تماما للحركة الوطنية المصرية التى شملت فى بعض الفترات على الأقل ، السراى وأحزابا وطوائف أخرى ليست تابعة بالدرجة الأولى لمصطفى كامل أو فريد · ومع ذلك فقد كان الحزب الوطنى أقرب تجسيد تنظيمى للحركة منذ بدايته حتى قيام الوفد ·

وسمح الحزب الوطنى باجراء بعض التغييرات فى برنامجه والمنتسبين اليه ، فقام كبعث للحزب الوطنى السابق المكون من ضباط الجيش المصرى والدستوريين المدنيين والمصلحين الاسلاميين · ورغم قلة تنوعه بالقياس الى سابقه فقد بدأ هو الآخر تأكيدا لوعى المصريين بانفصالهم عن حكامهم، ورد فعل لاختـلال التوازن الاجتماعى بسـبب التغيرات السياسـية والاقتصادية فى القرن التاسع عشر ونتيجة لنقـل الأفـكار السياسية الأوربية الى بيئة اسلامية · ولا ينبغى أن ننسى أن تسعة أعشار المصريين فى القرن التاسع عشر كانوا مسلمين وأن الاسلام قصـد به أن يكون أسلوبا يشمل كل نواحى الحياة · فعن طريق الأنبياء ، والقرآن بصفة خاصة ، كشف الله للانسان لا عن وجوده فحسب ، بل كذلك عن تعاليمه عن المجتمع المثالى على الأرض ، والمسلمون باعتبارهم بشرا قد يقصرون عن الكمال ، ولكن الدولة الاسلامية ينبغى أن توفر للمسلمين بيئة يستطيعون أن يجاهدوا فيها لاتباع خطة الله · وهذا ما لم تحققه مصر القرن التاسع عشر ، فالتاثير الاوربى الذى بدأ عسكريا ما لبث أن أصـبح اقتصاديا وسياسيا وأيديولوجيا · وغيرت الثورة الصناعية الاوربية جوهر اقتصاد مصر ، فتطور الرى النيلى الدائم ، وظهر انتاج المحصول الزراعى لكى يباع فى السوق العالمى ، وحفرت قناة السويس · وبسبب موقعها الاستراتيجى

وجاذبيتها للمستثمرين الاجانب أصبحت البلاد مطمعا سياسيا للقــوى الأوربية المتنافسة ، حتى فازت بها بريطانيا سنة ١٨٨٢ ٠

وحينما سيطر على البلاد أجانب مسيحيون كان من الطبيعي أن يعمل كثير من المصريين المسلمين لاحياء الأفكار والنظم الاسلامية ٠ وقد أيد كثير من الوطنيين هذه النظرة دون وعى أحيانا ، فقد كان هدفهم الرئيسى منازلة حكام مصر الأجانب بنفس أســلحتهم الايديولوجية ، وهى ليبرالية القرن التاسع عشر ٠

وليس مما يثير الدهشة أن الحزب الوطنى يدين بجانب كبير من قوته المبكرة الى عوامل خارجة عنه ، وصادرة عن سراى عابدين ووزارة الخارجية الفرنسية وقصر يلدز ٠ ونتيجة للمادة الأصلية التى اكتشفت حديثا عن علاقة مصطفى كامل بدسائس الخديو عباس ضد كرومر مال كثيرون الى تصوير الحزب الوطنى باعتباره مؤامرة من تدبير السراى ، فاذا أضفنا الى ذلك التــأييد المادى المعروف الذى تلقــاه مصطفى من الفرنسيين والاتراك ، كاد يصبح باستطاعتنا وصف الحزب الوليد بانه نتاج هذه القوى الخارجية الثلاث ٠ فهل معنى ذلك أن ننتهى الى القول بأن الوطنية المصرية من صنع الخديو والقوى الأجنبية الحريصة على طرد البريطانيين من مصر لا أكثر ؟ من الممكن التسليم بأن وصول مصطفى السريع الى الشهرة تحقق باعتماده على تأييد جهات أجنبية ، ولكن الحزب الوطنى نفسه دعم وجوده ، وبصفة خاصة بعد سنة ١٩٠٦ معتمدا على سخط أعداد متزايدة من المصريين على الحكم الأجنبى ؛

وبالطبع لم يكن كل المصريين ساخطين ، ولا كان كل الســاخطين يحملون بطاقات عضوية فى الحزب الوطنى ويسددون اشتراكاته ٠ فأقصى عدد بلغته العضوية العاملة فى الحزب لم يتجاوز العشرة آلاف ، وهو رقم ضئيل اذا قيس بتعداد مصر كلها ، وكان قد تجاوز العشرة ملايين بالفعل ٠ ولكن مثل هذه الأرقام تصبح بلا معنى اذا فصلت عن سياقها التاريخى ٠ فالمصريون بطبيعتهم خاملون ، سـلبيون (*) لا يثورون الا فى فترات

(*) ليس هذا كلاما مقبولا من عالم حصل على اجازة الدكتوراه من كلية هارفارد الشهيرة فى الولايات المتحدة ، فوصف شعب باسره بانه شعب من الخاملين السلبيين ، فى حين أن هذا الشعب هو اقدم شعوب الأرض حضارة واسبقها الى تاسيس دولة قومية ، هى اسبق الدول القومية الى الوجود ، وهذان انجازان عظيمان خالدان لا يصدران عن شعب خامل ولا عن أمة تتهم بالسلبية ٠ اما التاريخ الحديث فشاهد على نقيض هذه الصفات ، فقد حارب المصريون نابليون وثاروا ضده مرات ، واصلوا جيشــه فى الصعيد نارا =

الأزمات الاقتصادية العصيبة أو الانقلابات السياسية مثلما حـــدث عام ١٨٨١/١٨٨٢ · والحزب الوطنى ظهر وازدهر خلال فترة امتازت بالرخاء المتزايد والاستقرار السياسى ، وكان كثير من مؤيديه أفقر وأجهل من أن يصبحوا أعضاء عاملين ، وحتى بعض معارضيه لم يكونوا يقلون عنهم رغبة فى رؤية البريطانيين يرحلون · باختصار الوطنيين ليسوا أعضاء فى الحرب الوطنى ·

من هم الوطنيون اذن ؟

أولا كانوا جميعا مسلمين تقريبا ، على الرغم من أن الحزب لم يفرض أى شروط على العضوية · وحاول مصطفى كامل فى سنيه الأخيرة أن يوحد الأقباط والمسلمين تحت لواء الحزب الوطنى ، ولكن المسيحيين الذين انضموا للحزب فعلا كانوا قليلين ، وخرجت غالبيتهم بعد وفاته حينما نشر الشيخ جاويش مقاله المقذع فى « اللواء » · كانت الرابطة التقليدية بين الدين والسياســة مازالت أقوى من أن تســمح بتحويل الوطنية المصرية الى حركة علمانية ·

= حامية ، ثم ما لبثوا ان كونوا ـ بقيادة محمد على ـ دولة ضخمة فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، بسطت نفوذها على مصر والسودان وكل البلاد العربية فى شرق قناة السويس ، وكادت جيوشها تصل الأستانة عاصمة الدولة التركية ، وبلغ اسطولها من القوة بحيث اضطرت انجلترا وفرنسا وروســيا ان تتآمر عليه لتغرقه بغــدر وخسة فى موقعــة « نفارين » · ولم تكن قوة دولة محمد على عسكرية بحتة ،فقد انشئت فيها معاهد الطب والهندسة المدنية والعسكرية ، والمساحة والترجمة ومصانع البحرية والعسكرية وسبقت بذلك نهضة اليابان بسنوات ، تكاد تبلغ نصف قرن وخرج من صفوف ابناء الفلاحين الأطباء والمهندسون والمترجمون والمشرعون ، ولو لم يجزع استعمار الغرب الذى لم تهـدأ اطماعه فى هذه المنطقة الثمينة منذ الحرب الصليبية فى القرن الحادى عشر ، ولم يبذل اقصى ما يملك من جهد وحيلة ليقتل هذه الدولة الناشئة وهى بعد غضة لقادت مصر حركة تنوير وتعمير وحضارة ، لا على شواطىء النيل فى مصر والسودان وحدهما ولا فى ربوع البلاد العربية فقط ، بل فى مجاهل افريقيا التى اضاءت ظلماتها عن طريق السودان والصومال واريتريا وموانى البحر الأحمر مثل مصــوع وزيلع وبربرة ، التى لا تزال تشهد آثار الحضارة والعمران فيها بما فى مصر من حيوية واستعداد نادر للتقدم والريادة ، وبما فى ابنائها من قدرة على الكشف والابتكار والقفز فى مجالات العلم والفن ، بما لا تحققه دول كثيرة فى الشرق والغرب · ان اتهام مصر وأبناءها بالخمول والسلبية ، شىء اقرب الى التجديف فى حق الله ، والكفر بآياته البينات ودلائل اعجازه الناطقات ، انه ثمرة حقد الغرب على المصريين والعرب والشرقيين · انها العصبية الجهول ، وضيق الأفق الذى جعل حياة الغرب ازمات لا تنقضى ، وحروبا لا تنتهى ، ومآسى خلقية ونفسية ، لا علاج لهـــا ولا طب ·

ورغم أن ضعف التنظيمات الطائفية بدأ فى حكم محمد على واستمر فى عهد خلفائه فان أنماط التفكير والسلوك التى بذرتها لم تختف بسرعة ٠ وحتى بعد اختفاء الأحياء المنفصلة المسورة استمرت أنماط السكنى والجوار فى القاهرة والاسكندرية تعتمد على التجانس الدينى والعرقى ، كما ظلت العلاقات الشخصية بنفس الطريقة تكاد تكون محصـــورة داخل المجتمع الطائفى حتى بين أكثر المصريين تأثرا بأوربا (*) ٠

ورغم جهـــود الحزب الوطنى لتـكوين شخصية متعددة الطوائف ورعايتها ، فقد عادى معظم الأقباط بتحالفه التكتيكى مع الجامعة الاسلامية التى روج لها العثمانيون ، وبالتعصب الدينى الذى عبر عنه بعض أنصاره فى مظاهرات الشوارع ومخاطباته الخاصة للعاطفة الاسلامية ٠ولكن السبب الرئيسى فى رجحان كفة المسلمين أنهم كانوا منبوذين أكثر من سواهم نتيجة للنفوذ الغربى ٠ وحتى اليوم وقد أصبحت الدولة والمجتمع أكثر علمانية لا تخطىء العين سيطرة المسلمين على الأجهزة السياسية ٠

(*) هذا كلام آخر يلقى على عواهنه مخالفا للواقع وللحقائق الثابتة فى كتب أهل الغرب مثل كتاب «وصف مصر» لعلماء الحملة الفرنسية وكتاب ادوارد لين ، ولست أدرى من اين جاء مؤلف الكتاب بما يذكره عن الأحياء المسورة المنفصلة ، وانماط السكنى القائمة على التجانس « العرقى والجنسى » والعلاقات الشخصية التى « ظلت محصورة داخل المجتمع الطائفى » ٠ ليست هذه الأقوال كذبا فحسب ، بل انها اقرب ما تكون الى الهذيان ٠ فاهل القرية الواحدة فى اقصى الصـــعيد ، واقل المناطق حظا من التعليم يعيشون القبطى والمسلم متجاورين بل متلاصقين ، يرتدون نفس الزى ، ويتكلمون نفس اللغة ويمارسون نفس العادات ، وتحمل وجوههم نفس القسمات والتقاطيع ولايستطيع اى اجنبى أن يميز الواحد منهم عن الآخر فى شىء مطلقا ٠ وفى القاهرة فى الأحياء التى يكثر فيها المسيحيون نجد الأسرة القبطية مع العائلات الاســـلامية فى المبنى الواحد ، يلعب اطفال الجميع بلا توجس ولا تحفظ ولا احتياط كما تعيش العائلات الاسلامية فى الأحياء التى تغلب عليها الأكثرية القبطية يختلطون ويتزاورون ويتعـــاملون ، وكانهم ينتمون جميعا الى دين واحد ٠ ويعيش الأزهرى فى شقة تلاصق شقة القسيس ، فلا يجد الاثنان فى ذلك حرجا ولا ضيقا ٠

واذا كان عدد الأقباط فى الحزب الوطنى فى عهد مصطفى كامل ومحمد فريد قليلا فليس مرد ذلك الى شىء فى مبادىء الحزب ولا تقاليده ولا قراراته ولا تصرفاته ، انما كان مرد ذلك الى أن الأقباط كانوا اقل ميلا فى تلك الفترة للاشتغال بالسياسة ولكن الحزب الوطنى كسر حاجز التحفظ عند الأقباط فاشتغلوا بالسياسة والشئون العامة واسهموا فى تكوين حياة بلادهم بالقدر الذى يتناسب مع كفايتهم ومزاياهم ٠

وكانت الغالبية العظمى من زعماء الحزب الوطنى تنتمى الى طبقتى ملاك الأراضى والمهنيين مع غلبة المحامين ، وكان الشباب أهم سماتهم ، فلم يزد عمر أى مسئول فى الحزب فى أزهى فتراته عن خمسين عاما ، كما كانوا على قدر كبير من التعليم نسبيا ، معظمهم من خريجى مدرسة الحقوق الخديوية ، اذ أصبحت تعتبر بمثابة الخطوة الاولى نحو مناصب الحكومه الكبرى . وكان الطلبة عنصرا أساسيا فى صـــفوف الحزب وتنظيماته والأجهزة التابعة له ، ومن باب أولى فى جمعياته السرية . كانوا أول من قفز الى عربة القافلة الوطنية وبين آخر من تخلوا عنها .

وكما سبق أن لاحظنا لم يكن فى الحزب الوطنى عسكريون . وكل الوطنيين كانوا مطربشين (أى من لابسى الطربوش الذى ظل يدل حتى عهد قريب على الانتماء الى الطبقة العليـــا أو المتوسطة .) فى مقابل المعممين (أى لابسى العمامة التى ترمز الى ٩٥٪ من الأمة وهم الفلاحون والعمال ورجال الدين)، . ومع ذلك فقد حاول الحزب الوصول برسالته الى تلك الفئات التى تغلب عليها المحافظة ، ولذلك أدخل على أيديولوجيته برنامجا اجتماعيا أصيلا ، تمثل خطبة فريد سنة ١٩١٢ أوضح بيان له . وقد مضت التنظيمات السياسية التالية خطوات أبعد فى محاولة كسب تأييد الجماهير الشعبية وتطوير ما أصبح يعرف الآن باسم « الاشتراكية العربية » .

وأعظم منجزات الحزب الوطنى ، بالاضافة الى مثل الوطنية التى قدمتها حياة زعمائه ، تتمثل فى مجالات التنظيم والتكتيك ، فهو الذى طور الحزب السياسى غير البرلمانى ليصبح الاداة الرئيسة للحركة الوطنية وحتى اليوم بعــد أن تحقق الاســـتقلال ، ورفض النظام الحــاضر قيام الأحزاب ، مازلنا نلمح بعض آثار ابتكارات الحزب الوطنى ، كاللجنة الفرعية المحلية واستخدام اتحادات الطلبة ونقابات العمـــال كتنظيمات معاونة مندمجة فى الاتحاد الاشتراكى العربى .

وكان الحزب الوطنى هو أول تنظيم سياسى مصرى له لائحة رسمية ومسئولون منتخبون ، ولجان ذات وظـائف محددة ، ومؤتمرات ســنوية ونظام للعضوية وحقوق وواجبات محددة للأعضاء ، وحرص على اصدار جريدة يومية كوسيلة للتعبير عن آرائه ، كما أنفق على دعايات أخرى باللغة العربية واللغات الأجنبية .

ولا شك أن تنظيم الحزب مال الى الانحراف عن بنائه الرسمى نحو السرية والاستبداد . ولكنه ازاء تهديد المنافسة بين الأنصار والانقسامات

الداخلية وقمع الحكومة كاد يعود الى شكل التنظيم السياسى التقليدى ، أى ذلك الشكل الذى يقوم على ارتباط مجموعة من الشباب بشخصية قائدة أو زعيم ، يجيد التعبير عن آرائهم • وقد ظل هذا النمط هو السائد فى مصر طوال فترة الأحزاب السياسنية البرلمانية • وحتى اليوم مازال تجسيد السياسة فى شخص أحد الملامح البارزة فى نظام عبد الناصر •

وقد تركز جانب كبير من حياة الحزب الوطنى حول صحفه ، حتى لقد وصف المؤرخ البريطانى جورج يونج الفترة من سنة ١٨٩٢ الى ١٩١٩ بأنها المرحلة الصحفية من تاريخ الوطنية المصرية • فقد كان عدد الصحف يتزايد بسرعة مذهلة ، حتى أصبح لكل طائفة جريدتها ، ولكل جريدة جمهورها • فمعظم الصحف المصرية قبل سنة ١٩٥٢ لم تكن تعتمد على اشتراكات القراء وأكشـــاك البيع وايرادات الاعلانات ، بل كان النمط الشائع للجريدة أن تكون وسيلة للتعبير عن آراء مديرها أو ناشرها أو مموليها • وكانت أنجح الصحف هى التى عبرت عن آراء يرضى عنهـــا جمهور قراء الصحف ، واستطاعت صحف أخرى أن تواصل حياتها ببراعة معتمدة على اعانات السراى ، أو القنصـــليات الأجنبية ، أو الأحزاب السياسية ، أو بعض الأثرياء •

وتمثلت مشكلة الحزب الوطنى فى المحافظة على جريدة تعبر باخلاص عن خط الحزب، ولا تغضب المسهمين الرئيسيين فيها، وتجتذب فى الوقت نفسه عددا كبيرا من القراء • واتخذ حلهم لهذه المشكلة ، وبخاصة بعد وفاة مصطفى كامل وظهور صحف منافسة أسـلوب الهجوم اللاذع على الأفراد والأحزاب السياسية الاخرى والاحتلال البريطانى • وهو أسلوب يناسب ثقافة تعلى من شأن التعبير الشفاهى ، واللغة العربية غزيرة فى المجاملات واللعنات على السواء ، وكل من يظهر براعة ـ خطابية أو كتابية ـ فى مدح أصدقائه وهجاء أعدائه يضفى عليه الجميع مكانة عظيمة • وبالنسبة لشعب يدرك ضعفه بالقياس الى الأجانب لا شك أن الاهانات حسنة الصياغة يمكن أن تكون تعويضا عن أعمال العدوان • ولذلك فقد كان لأسلوب الصحافة الوطنية اللاذع جاذبية شعبية كبيرة ، ومن ثم قلد على نطاق واسع ، وخلف آثارا باقية فى أساليب الصحافة العربية •

وشملت مبتكرات الوطنيين التكتيكية تنظيم اجتماعات ومؤتمرات عامة بهدف الدعاية الداخلية والخارجية ، وتطوير المسيرات ومظاهرات الشوارع لاثارة المعارضة الشعبية وتوجيهها ضد الحكم الأجنبى والتأثير على الأصدقاء والاعداء معا ، كما شملت أول محاولات لمقاطعة منتجات دول أجنبية معينة • ومعظم هذه الاضافات لقائمة تقنية العمل السياسى

فى مصر مقتبسة من الحركات الثورية الأوربية ، وقد تفوق فيها الوفد أكثر بعد الحرب العالمية الأولى ، ولكن الوطنيين هم الذين عرفوا مصر بها ٠

ومن الصعب تعريف الموقف الايديولوجى للحزب الوطنى لانه عبر عن آراء مختلفة لجماعات متباينة ٠ فقد قدم الوطنيون أنفسهم للأوربيين باعتبارهم مواطنين مصريين يطلبون الحكم الذاتى ويتوقون الى تطبيق ـ الافكار والنظم الاوربية لحل مشكلات مصر وأنكروا مزاعم بريطانيا بأنهم متعصبون دينيا أو معادون للأجانب ، مرددين شعارا لهم كلمة مصطفى كامل : « أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا » ٠

غير أنهم حينما يخاطبون المصريين أو المسلمين خارج مصر كانوا يؤكدون ولاءهم للامبراطورية العثمانية والعقيدة الاسلامية ، وكثيرا ما عبروا عن الخوف الشائع من آن الاوربيين يريدون اضعاف العالم الاسلامى وهزيمته ، ورددوا أصداء نداءات جمال الدين الأفغانى بالوحدة الاسلامية والمقاومة والاصلاح ، بل لقد مضى بعض الوطنيين فى دفاعهم عن الاسلام الى حد مهاجمة المصريين المسيحيين ، متجاهلين جهود مصطفى كامل المبكرة لخلق حركة وطنية متكاملة ، ومشيعين بين غير المتعلمين الاعتقاد بأن الحزب الوطنى جماعة من المجاهدين فى سبيل الاسلام ٠

هذا الازدواج الايديولوجى أضفى على الوطنيين مظهر الانتهازية ، وان كان الاختيار بين الموقفين ليس بالأمر السهل ٠ فالاسلام التقليدى يناقض القومية الاقليمية ، والتحرر السياسى يحل صوت الشعب محل صوت الله ويقصى الدين الى منطقة مهجورة لا صلة لها بالسياسة ، حتى يستطيع الأقباط والمسلمون أن يجدوا صفتهم المشتركة كمصريين٠ وبالرغم من ذلك فقد كان الاسلام فى الوقت نفسه عامل التماسك الرئيسى فى مجتمع آخذ فى التغير السريع وصمام الأمان ضد ضراوة انتهازية الطبقات الحاكمة ثم خط الدفاع الأخير ضد مد الثقافة الغربية ٠

كان من المستحيل تماما فصل الدين عن السياسة فما زالت القيم الاسلامية تؤثر فى المواقف السياسية وتوجهها ٠ ولن نكون واقعيين اذا أدنا الوطنيين لانهم تصرفوا كمسلمين ٠ واذا كان خلفاؤهم الوفديون قد وفقوا أكثر منهم فى التوحيد بين الأقباط والمسلمين بتمسكهم بالقومية العلمانية بحزم أشد ، فينبغى الا ننسى أن ظهور الاخوان المسلمين كان فى جانب منه رد فعل لسياسة الوفد ٠ والواقع أن التهديد المستمر الذى يمثله الاخوان لنظام عبد الناصر يوحى بأن جميع المصريين لم يتقبلوا محاولته فصل القومية العلمانية عن الدين ٠

وزاد تردد الوطنيين بالنسبة لاستراتيجيتهم من سوء حظهم بالقياس الى أمثالهم من أصحاب الايديولوجيات • فقد بدأ الحزب جمعية سرية ، وبالتدريج تحول الى حركة شعبية واسعة النطاق لا تكف عن السعى لاجلاء القوات العسكرية البريطانية عن مصر ، وهو هدف ثورى حاولوا تحقيقه بوسائل غير ثورية • لذلك لا ندهش حين نرى مؤيدى الحزب من الشباب يسارعون لتحقيق هذه الغاية بتكوين جمعيات سرية ذات خطط محكمة للتوعية الشعبية والارهاب السياسى • واذا كانت قلة عددهم وتشتت تنظيماتهم قد جعل تنفيذ خططهم يبدو بعيد الاحتمال ، فقد كان اغتيال بطرس غالى سنة ١٩١٠ مؤشرا على قدرتهم الكامنة على التخريب .

كانت كل الاحزاب وغالبية المصريين المستنيرين يريدون الاستقلال وشكلا من أشكال الحكومة البرلمانية ، ولكن المحامين الذين يديرون الحزب الوطنى لم يكونوا مستعدين للتحول الى ثوريين • وبدلا من ذلك تنكروا للجمعيات السرية ، وحاولوا اقناع الأوربيين أنهم يعملون من أجل حرية مصر بالوسائل المشروعة ، فلم يلقوا آذانا صاغية •

فى تلك الأثناء كانت الحكومة المصرية تستجيب للضغط البريطانى وتفرض قوانين من شأنها تعويق قدرة الحزب على القيام بدوره فى مصر كحركة علنية • ترى لو كان مصطفى كامل على قيد الحياة أ كان باستطاعته أن يحرك ويدير تمردا شعبيا على مستوى ثورة ١٩١٩ ؟ أم ترى أن قيادة الحزب الوطنى لكونها واقعية كانت سترى ضآلة الفرص المتاحة لنجاح ثورة ضد الاحتلال ؟

ويتردد أحيانا بأن فشل الحزب الوطنى فى الفوز باستقلال مصر لا يرجع الى وفاة مصطفى كامل ، بل الى سياسة الدون جورست الأريبة التى نجحت فى عزل الخديو وأنصاره عن الحزب الوطنى ، كما فرقت بين الأقباط والمسلمين (*) • والواقع أن جورست قلما ينسب اليه الفضل الذى يستحقه لتقليم أظفار حركة كان من الممكن أن تقوض الحكم البريطانى لمصر • اذ حينما انقطعت علاقة الوطنيين بالسراى فقدوا مصدرا هاما للدعم المالى والمعنوى • وان اكتسبوا مزيدا من الحرية فى اختيار استراتيجيتهم وتكتيكهم • وكان مصطفى كامل زعيما محبوبا يسهل عليه اقناع معاونيه بسياساته ، غير أن حرصه على نفوذه جعله يحيط نفسه بأتباع مخلصين

(*) نقول للمرة المائة ان التفريق بين الأقباط والمسلمين لم يحدث قط ، وان كان من امانى الاحتلال البريطانى ومن يسانده من القوى ، فكلام المؤلف عن هذا التفريق من قبيل التمنى •

لم يكن بينهم واحد على درجة من القوة تكفى ليواصل زعامته بعد وفاته ٠ لا شك أن فريدا كان شريفا ووطنيا ، ولكنه لم يستطع أن يفرض نفس القدر من الولاء أو ينال نفس الاجماع من الأعضاء على سياسته فى الحزب وحينما استبدل جورست بكتشنر الأكثر استبدادا كان الوطنيون فى حالة انقسام شديد وعجز عن اثارة السراى أو التأييد الشعبى ضد الحـــكم البريطانى ٠ لذلك فالتصور الذى يطرحه هذا البحث أن أهم تفسير لفشل الحزب الوطنى فى الفوز باستقلال مصر لا يمكن العثور عليه الا فى قيادة الحزب نفسه ٠

من الممكن القول بأن الحرب العالمية الاولى أتاحت للوطنيين فرصة جديدة لنيل استقلال مصر من بريطانيا ، وكان هذا يصح لو أنهم نجحوا فى تنظيم تمرد وطنى لتأييد الحملة العثمانية لتحرير مصر ٠ أما فى الواقع فقد كان الوطنيون فى مصر بلا قيادة تقريبا ، وفى الخارج منقسمين ، ومن ثم لم يستطيعوا بدء ثورة ٠ وفرقهم المختلفة فى الخارج علقت آمالها فى النهاية على هزيمة دول المحور لبريطانيا ، ولم تكن تلك مقامرة خاسرة تماما ، فقد أتاحت لهم الدعم المالى والسياسى طوال فترة الحرب ، وان كانت قد أساءت الى سمعة زعماء الحزب حينما هزم الجانب الذى راهنوا عليه ٠ وحتى لو انتصر الألمان والأتراك لكان من المستبعد أن يفوز الوطنيون بحرية كاملة من الاحتلال العسكرى والاشراف السياسى الأجنبى ، بل فى احسن الأحوال كان سيسمح لهم بقيادة نظام من الدمى تحت وصاية الألمان والأغلب أن وضع مصر كان سيخفض الى ولاية عثمانية عادية ٠ ويبدو أن فريدا قد تنبه الى ذلك وتردد بعض الوقت سنة ١٩١٦ فى معارضته للبريطانيين ، ولكنه لم يكن أمامه وقتها بديل آخر ٠ فأى حركة من أجل استقلال مصر لم يكن ليقدر لها النجاح اذا لم تبتعد عن الخضوع لأى قوة أجنبية مهما كان كرم ادعاءاتها ، فقد كانت مصر تمثل مطمعا عظيما فى نظر أى دولة أجنبية بحيث يستحيل أن تحررها لمصلحة أهلها وحدهم ٠

وحينما هبت مصر كلها تقريبا سنة ١٩١٩ فى ثورة ضد البريطانيين بعد أن أدركت أن الحماية لم تكن اجراء مؤقتا لفترة الحرب وحدها ، ألم يكن باستطاعة الوطنيين تولى قيادة هذه المرحلة الجديدة من الكفاح من أجل الاستقلال ؟

لقد قام الوطنيون بالدور الرئيسى فى التمهيد لهذه المرحلة فى الأغلب ولكن زعماء الحركة الجديدة كانوا جميعا تقريبا من المصريين الذين لم يسبق لهم تأييد الحزب الوطنى ٠ والواقع أن أشهر الوطنيين كانوا خارج مصر حين شكل الوفد وقامت الثورة ، وقد حاولت زعامة الحركة الجديدة

عزل نفسها عنهم ، كما رفض الحزب الوطني التضحية بكيانه داخل الحركة الجديدة مفضلا أن يعيش حياة طويلة باهتة على أطراف هامش السياسة المصرية ٠

اذن ما الدلالة التاريخية للحـــزب الوطنى ، حزب مصـطفى كامل ومحمد فريد ؟

من الواضح أنه يمثل مرحلة فاشلة(*) فى كفاح مصر من أجل حريتها غير انه لم يكن مجرد فشل يمكن تسجيله على هامش تاريخ مصر الحديث فلقد ساعد على جذب أعداد متزايدة من المصريين للاهتمام بالســياســة بصفة عامة ، والكفاح من أجل الاستقلال بصفة خاصة ٠ وكما يفرز الكيان الحى أجساما مضادة لمقاومة التلوث الذى تسببه الجروح أو البكتريا ، فقد كانت الحركة الوطنية هى افراز مصر لحماية نفسها من أخطار التفكك الاجتماعى فى مواجهة تفشى الأفكار والنظم الأجنبية ٠

ولم يكن الحزب الوطنى مجرد حركة محافظة ، فقد تبنى تصـــورات سياسية أوربية استخدمها فى غرس الولاء الايجابى لمصر باعتبارها أمة ودعا المصريين الى اعتبار أنفسهم مواطنين لا رعايا ، كما أسهم فى نشر – لا فكرة القومية وحدها – بل كذلك التحررية والديمقراطية ، فضلا عن الاهتمام الأصيل بالعدالة الاجتماعية ، بين المصريين الذين لم يكونوا يتدخلون فى السياسة من قبل ٠

ومنذ عهد فريد ظللت معانى هذه الكلمات أيديولوجيات جديدة ، والحكومة المصرية الحالية المعرضة لأخطار من الداخل والخارج تتصور « القومية » و « الحرية » « الديمقراطية » بطريقة مختلفة تماما عن تلك

(*) كيف يكون الحزب الوطنى « مرحلة فاشلة » وقد قاد حركة رفض الاحتلال ، ونقل اكثر المصريين من الولاء له والاطمئنان اليه الى مقاومته الصريحة ٠ وقد ادى هذا التغيير الروحى الى قيام حركات مستمرة لمقاومة اجراءات الاحتلال والتخلص من قيوده ، ظهرت فى صورة اغتيال او شروع فيه ضد أعوان الاحتلال وفى مقدمتهم السلطان حسين ، ثم انتهى ذلك الى ثورة شاملة فى سنة ١٩١٩ اضطرت معها بريطانيا الى شيئين : اولهما استعمال اقصى العنف من اطلاق الرصاص فى الشـــوارع واقتحام بيوت الفلاحين ، والتورط فى هتك اعراض النساء ، مما لوث سمعة الحكم البريطانى واحرجه فى المحافل الدولية احراجا شديدا ، ثم نفى الوطنيين فى مالطة وغيرها وزج بهم فى معتقـــلات بالداخل ٠ والأمر الثانى هو محاولة ترضى الشعب باسقاط الحماية واعلان اســتقلال مصر ، وتغيير اسم حاكمها من سلطان الى ملك ، وانشـاء وزارة الخارجية ، واعـــلان الدستور ، وهى تغييرات شكلية ولكنها كانت نواة لتغيير حقيقى فى وضع مصر السياسى فيما بعد ٠

التى فهمها مصطفى كامل وأنصاره الذين نهلوا من منابع الليبرالية الغربية فى عصر أقل اضطرابا ، وايمانهم بحقوق الفــرد وحرياته التى يضمنها دستور مكتوب يحد من سلطات الدولة لم يتحقق فى نظام عبد الناصر مهما كانت ادعاءاته • ولكن يحدث أحيانا أن تصبح التصريحات بالنوايا الطيبة ، مهما كان بعدها عن الحقيقة وسيلة لتحقيق الذات •

وخلف أحابيل الدكتاتورية العسكرية توجد أصول النظرة الوطنية : نشر التعليم العام على كافة المستويات ، المنافسات الانتخابية للمجالس القومية والمحلية للاتحاد الاشتراكى العربى ، وأيضا نشر المناقشــــات الموجهة فى وسائل الاعلام الجماهيرية بالقاهرة •

غير أن الأحداث الأخيرة أثارت الشك فى وجود الوطنية بين المصريين• فليس من السهل أن تنمو الوطنية والقومية (بمعناها الايجابى خاصة) بين شعب طالت معاناته من الفقر والجهل والخوف من الأجانب ، فهــذه الصفات كثيرا ما تنحدر ، كما حــدث أيام الحزب الوطنى ، الى معاداة للأجانب (*) • ومشكلات مصر الراهنة تتحدى زعماءها ومواطنيها ومدى استعدادهم للتضحية بمصالحهم فى سبيل المصلحة القومية • ان تراث الحزب الوطنى يمر الآن باختبار جديد •

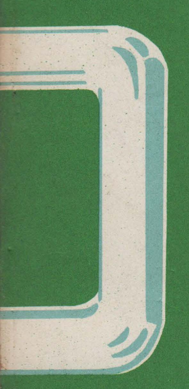
(*) لم تعان مصر قط من (فوبيا) الأجانب ، أى مرض عداوة الأجنبى لمجرد انه اجنبى ، ففى جميع اطوار الحركة السياسية من عهد مصطفى كامل الى اليوم كانت مظاهر النشاط الأجنبى الاقتصادى والسياسى مزدهرة واصحاب المتاجر بانواعها آمنون ومطمئنون وحتى فى حالات التاميم والحراسة والمصــادرة كانت هــذه الاجراءات تشــمل المصرى والأجنبى ، بقصد تحقيق اغراض وطنية بحتة ، وليســت اغراضا انتقامية من الأجانب كطائفة •

الفهـــرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢٠٦٦/١٩٨٣

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ١٦٠ ـ ٥



الكتاب الذى اقدمه لقراء العربية وامعنون الحزب الوطنى المصرى هو كتاب فريد ووصفه بالفريد ليس من قبيل الثناء عليه او الأشادة به . بل من باب تقرير الحقيقة . لأنه لا يوجد فى المكتبة التارخية الحديثة ولا فى المكتبة الأمريكية المعاصرة كتاب يشبه فهو كتاب علمى . قائم على جميع الحقائق من مصادرها ومراجعها مع ذكر هذه المصادر والمراجع . اولا باول فى الموضع المناسب . وهو فى الوقت نفسه كتاب سياسى لا يروى الوقائع رواية المؤرخ العالم . حسبه ان يذكرها . او حسبه ان يذكرها مصحوبة بالتعليق الذى يقوى دلالتها ـ من وجهة نظر المؤلف ـ وضوحا . بل ان المنهج الذى يتبعه فى جمع هذه الحقائق ثم فى تبويبها وتصنيفها . ثم الأسلوب الذى يلتزمه فى التعليق والشرح . كلاهما تخدمان اغراض المؤلف وغاياته . التى لا تقتصر على اهداف العالم المؤرخ . بل تتجاوزها الى تحقيق معتقداته . ووجه تفرد هذا الكتاب بين امثاله واشباهه ان مؤلفه الأستاذ آرثر جولد شميت (الابن) هو من ابناء الولايات المتحدة وهو قد تخرج من جامعة هارفارد التى تعتبر بحق معملا لتخريج اساتذة السياسة النظرية . وكبار رجال السياسة العملية

فتحى رضوان

٢٢٥ قرشـا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب